عصر الحروب الصليبية

فـــى الشـــرق

دكتور

محمد محمد مرسى الشيخ

استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الاداب

بجامعة الإسكندرية ـ ورئيس قسم التاريخ سابقاً

٢٠٠٤



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يمثل عصر الحروب الصليبية حلقة هامة في تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ومرحلة خطيرة في تاريخ المسلمين في هذه المنطقة، إذ كان الغزو الصليبي لهذه المنطقة في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي تجربة قاسية في حياة المسلمين في هذه البلاد، ومحنة كبيرة هزت كيانهم، وتركت آثاراً غائرة في هذا الكيان. فلما أسفر الغزو عن مولد الإمارات اللاتينية في الشرق، وإقامة مملكة بيت المقدس الصليبية، وربط الأراضي المقدسة المسيحية بالغرب الأوربي، وإخضاعها للسيطرة الصليبية، جاء ذلك صدمة كبيرة للقوى الاسلامية بالمنطقة وتحد لمشاعر المسلمين في مختلف بقاع العالم الإسلامي.

ومهما يقال في ملائمة الظروف وسنوح الفرصة للصليبيين لإنجاز هذا المشروع الكبير على حساب القوى الإسلامية المفككة المتنازعة حينئذ، وزرع هذا الكيان بين ظهراني المسلمين لمدة تقترب من قرنين من الزمان. فالذي لاشك فيه أن المسلمين حينئذ لم يكونوا في وضع يسمح لهم بفهم هذا الحدث أو هضمه أو حتى وضعه في درجته من الأهمية، ولم يتنبهوا إلى ما يكفل لهم السلامة مع عدو وضح منذ البداية أنه إنما ينفذ مخططاً للاستقرار الدائم في الشرق ملتمساً أسباب البقاء في هذا الوطن الجديد وتلك الظروف المواتية، مصراً على هيمنته على الأراضي المقدسة المسيحية وإخضاعها للغرب الأوربي.

والواقع أن الصليبيين أفادوا كثيراً من الحالة المزرية التي تردت فيها القوى الإسلامية في المنطقة إذ ذاك وما استتبع الزحف الصليبي من الهلع والذهول لدي كثير من تلك القوى فقاموا بإرساء قواعد الإمارات اللاتينية في بلاد الشام وأطراف العراق بشئ كبير من الجسارة والعناد تضاءلت أمامه جهود بعض الوحدات الإسلامية في المقاومة

والتصدي لهذه الحركة مبكراً، فجاءت مقاومتها قليلة الأثر باهتة المفعول لم تحل دون وصول الصليبيين إلى غايتهم .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى أفاق المسلمون من هول الصدمة الأولى والإغفاءة التي أدت إلى فقد أجزاء من أراضيهم وإقامة بقع صليبية بين ظهرانيهم، فكان رد الفعل عندهم مقاومة عاتية لهذا الاستقرار وجهاداً ضد هذا العدو المغتصب تفاوتت قوتها ومداها من آن لآن ،ولكنها مع ذلك ظلت حاضرة لم تخمد نهائياً حتى آتت أكلها في النهاية بطرد الصليبيين وتطهير الأراضي الإسلامية منهم نهائياً بعد مرور نحو قرنين من الزمان على بدء هذا الغزو والاستقرار، وإن استمرت ذيول هذه المحنة بعد ذلك قرنين آخرين تقريباً لتؤكد ما ترتب على هذه التجربة من نتائج هامة وخطيرة بالنسبة للشرق والغرب على حد سواء .

ولم يكن التحدي الذي وجه للمسلمين في عقر دارهم، أو مغالاة الصليبيين في التنكيل بالمسلمين في مذابح بشرية رهيبة، وإبادة شبه جماعية في الجهات التي نزلوا بها هي الأسباب الوحيدة التي تكمن وراء صحوة المسلمين وتعبئة القوى الإسلامية للحرب وإعلانها الجهاد ضد هذا العدو، وإنما جاء ذلك في أغلبه استجابة للإفاقة وحالة التنبه التي عاشها المسلمون، وهذه الإفاقة الإسلامية كلفت الصليبيين في النهاية وجودهم واستقرارهم في الشرق، وأجبرتهم على دفع ثمن ما ارتكبوه من جرائم في حق المسلمين وثمن ما أحدثوه من آثار غائرة في كرامة وهيبة هذه الأمة .

وعصر الحروب الصليبية يتناول هذه التجربة المثيرة في تاريخ المسلمين في منطقة الشرق الأدنى وتاريخ القوى الإسلامية في الشرق، ويعالج هذه الحلقة من حلقات العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ضم الجانب السياسي والعسكري فيه الحملات الصليبية على هذه المنطقة من الحملة الأولى وحتى الحملة السابعة ، تخللها

الحديث عن مملكة بيت المقدس الصليبيــة وظهـور الجبهـة الإسـلامية المتحـدة وازديـاد قوتهـا والنتـائج الـتي ترتبـت علـى قيامهـا وسـبقها الحديث عن أسباب وماهية الحروب الصليبيــة، وتطـور الصـراع بـين الإسلام والمسيحية قبل عصر الحروب الصليبية والأوضاع في الغرب وفي الشرق قبيل قيام الحملة الصليبيــة الأولى، وجـاء في نهايتهـا الحديـث عن بعض مظاهر العلاقات السـلمية بـين الصليبيـين والمسـلمين خـلال عصر الحروب الصليبية .

وعلى الرغم من كل هذه الأحداث الـتي شـهدها عصـر الحـروب الصليبية، وما جرى من حروب وصدام وجهاد مـن المسـلمين ومحاولـة التصدي من جانب الصليبيين حفاظاً على البقاء، وعلى الرغم أيضاً مما حدث من محن وقتل وسفك دماء وغدر أحياناً وإهدار لكل القيم أحياناً أخري، إلا انه من الخطأ أن نعتقد أن عصـر الحـروب الصليبيـة كـان كله حرباً ونزالاً وسفك دمـاء، لأن هـذا العصر غـص أيضـاً بتجـارب أخري مغايرة ، وجـرت خلالـه مظـاهر تلاقـي وفـترات سـلام كـانت نتائجها ربحاً للغـزاة وكسباً للمحتلـين أتـاحت لهـم فرصـة للاتصـال بالحضارة العربية الإسلامية التي كانت باعـتراف المنصفين في الشـرق وفي الغرب أعظم حضارة عرفتها الدنيا في العصور الوسطى، فنهلوا مـن معينها واغترفوا من منابعها، ونقلوا عناصرهـا إلى أوربـا ليشـيدوا علـى أسس هذه الحضارة نهضتهم الحديثة، ويقيموا على أسس مـا اغـترفوه منها بنيانهم العظيم بداية بالفترة الأخيرة من العصور الوسـطى ومـروراً بمطلع العصر الحديث في الوقـت الـذي كلفـت هـذه المحنـة المسـلمين جانباً من نشاطهم واستنفدت جانبـاً آخـر مـن طاقـاتهم، فتوقفـوا عـن تطوير حضارتهم أو التقدم بها خطوات، ولعـل في هـذا يكمـن السـر في تفوق الحضارة الأوربية الآن بالنسبة لحضارة المسلمين.

والواقع أن دراسة مثل هذا الموضوع، وتناول هذه الحقبـة بالذات كان يحتاج إلى شئ من الإقدام وعدم التهيـب، لمـا يتوقعـه المـؤرخ مـن

صعوبات وما تحتاجه مثل هذه الدراسة من صبر وجهد والتزام بمراعاة وجهة النظر المعارضة وحساب أهميتها في مثل هذه الدراسة التي تتناول جانباً إسلامياً وجانباً صليبياً، لا معني فيه للتفرس في ملامح جانب دون الآخر أو النظر فيما كتبه مؤرخو هؤلاء وغض الطرف عما كتبه مؤرخو أولئك، وذلك لاشك يضع المؤرخ أمام مهمة عسيرة وشاقة، هذا فضلاً عن تداخل الأحداث في هذه الحقبة وتلاحقها وتشابكها في شئ من التعقيد لا ييسره سوى وفرة المثابرة وكثرة في التأني ودقة في المتابعة والتنظيم .

وعلى الرغم من إيماني بذلك كله فقد أقدمت على دراسة هذه الحقبة، آملا أن أوفق في إظهار جوانب هذه التجربة الحافلة والمرحلة المثيرة من تاريخ المسلمين وكفاحهم في العصور الوسطى، وابرز معالم هذه الحقبة وخفايا ذلك العصر، وأجلي ما غمض منه بما يدفع عن المسلمين شيئاً من تهمة الإهمال الخطير تجاه الغزو والاستقرار الصليبي في ذلك الوقت آخذاً بأطراف الروايات الأصلية العربية واللاتينية دون تغليب العاطفة الدينية، أو التردي في هاوية الميل أو الهوى، أو التماس وسيلة – في مثل هذه الحقبة – لابراز نزعة ترمي إلى تجميد أعمال المسلمين دون وجه حق أو تناولها بشكل يضفي عليها شيئاً من المبالغة أو التهويل، يخرج بها عن حقيقتها أو واقعها .

لهذا حاولت جاهداً الالتزام بالحيدة والأمانة وعدم التركيز على جبهة دون الأخرى، أو عرض الموضوع من وجهة نظر فريق دون آخر، ولا أدري هل وفقت في ذلك أم فاتني شئ منه، ولكني على كل حال عملت جاهداً على أن تخرج هذه الدراسة في إطار العلاقة بين الجانبين الإسلامي والصليبي، بكل ما فيها من تحفز وترقب وقوة وضعف فإذا تناولت الجبهة الصليبية يكون ذلك خدمة للهدف من تناول الجبهة الإسلامية وإذا عالجت الجبهة الإسلامية فإنما بقدر ما استجابت لما كان يحدث في الجبهة الصليبية .

إذن هي محاولة أمينة لعرض تجربة من أهم التجارب التي مرت بالمسلمين على مدى تاريخهم الطويل بورك فيها ما خلص لوجه الله وما صفت فيه النيات وابتغي به الصالح الإسلامي العام، ونوه فيها أيضاً بما لم يخلص لوجه الله ،وما لم يبتغ به الصالح الإسلامي العام، إذن هي دراسة واعية وأمينة لتجربة مثيرة ،ارتقت في بعض أدوارها وسمت إلى مراتب عالية في وسيلتها وأهدافها وهبطت في أدوار أخري إلى رتب أقل مما يتوقع لها ويرجى منها .

كما أرجو ألا أكون قد أهملت في هذا الموضوع – عن قصد – شيئاً كان بسعي تناوله أو أن يكون هذا المؤلف قد افتقد ما حاولت أن أبرزه من الاجتهاد والقياس والتحليل والاستنتاج، وحسبي أنني لم أدخر وسعاً في ذلك، مع محاولة الالتزام بالدقة والأمانة ما وسعني الجهد والحكم بقدرات المؤرخ المحايد بقدر ما استنفدت من المصادر الأصلية العربية واللاتينية وغيرها من المصادر البيزنطية والأرمينية والتركية وما امكنني الإطلاع عليه من المخطوطات مع الاسترشاد بما كتبه المؤرخون المحدثون بالعربية والاجنبية .

وآمل أن يكون هذا الكتاب إسهاماً متواضعاً في إجلاء التجربة الحافلة والمثيرة في تاريخ المسلمين في العصور الوسطى، وعملاً يبتغي به وجه الله ووجه الحقيقة كما أرجو أن يجد فيه القارئ ما يصبوا إليه ويجد فيه طلاب التاريخ وطلاب الدراسات العليا بعض ما يؤملونه وأن يأخذ هذا الكتاب مكانه في المكتبة العربية كمرجع من مراجع تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ العصور الوسطي بصفة عامة .

والله ولي التوفيق .

محمد محمد مرسي الشيخ

الإسكندرية في ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٤١٧ هـ

الموافق ١٢ من أغسطس سنة ١٩٩٦ م



الفصل الأول

أسباب الحروب الصليبية في الشرق



الفصل الأول
أسباب الحروب الصليبية في الشرق

المعروف أن الغربيين مارسوا عملية الحج وزيارة الأراضي المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس الميلاديين، ولم يتوقف الحج إلى بيت المقدس طوال العصور المختلفة، سواء أكان ذلك قبل ظهور المسلمين كقوة فعّالة على مسرح السياسة العالمية، أو بعد استيلائهم على فلسطين. واشتدت حركة " الحج " بصفة خاصة عقب تشييد قنسطنطين كنيسة القيامة في القرن الرابع وهى التي ظلت تطالع زوارها بعبير قرون كثيرة وتشعرهم بالرهبة وتسحر أفئدتهم بما حوته من أيقونات وما ازدانت به من تمثال العذراء بكل ما حمله هذا التمثال من ذهب وجواهر وأحجار كريمة[1]. وعلى الرغم من ذلك ظلت مشاريع الحج حينذاك حتى القرن العاشر مشاريع فردية، قوامها أفراد قلائل ربما لا تزيد عن خمسة أشخاص[2].

وفي القرن العاشر الميلادي تغيرت الأمور إذ يشير المؤرخون إلى أنه القرن الذي اشتد فيه الإقبال على الحج والأسباب كثيرة منها: تقلص النفوذ الإسلامي إلى حد ما في كثير من نواحي البحر المتوسط، وفقد فيه المسلمون السيطرة على بعض مواني جنوب إيطاليا وجنوب فرنسا وخرجت فيه كريت من أيديهم ، فضلاً عن ازدهار الحركة التجارية البحرية بين إيطاليا وبيزنطة بالإضافة إلى تأسيس دير كلوني وظهور الحركة الكلونية التي اعتبر أتباعها الحج إلى الأماكن المقدسة في الشرق وفي الغرب من الفرائض التي ينبغي أداؤها[3] .

---

(١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ١٦ (ط٢ نوفمبر ١٩٥٨)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٣ (ط ١ ١٩٦٣)

(٣) حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠

ومنذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي بدأ الحج يتخذ الصفة الجماعية، فيخرج للحج بضعة مئات من الناس تحت زعامة نبيل أو أسقف فيتجهون معاً إلى الأراضي المقدسة بالشام في شبه مظاهرة دينية سلمية[٤]، ولعل ذلك ما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن الحروب الصليبية لم تكن سوى استمراراً لحركة الحج الجماعي إلى بيت المقدس، مع حدوث تطور في الأسلوب وهو أن الحج الجماعي صار حربياً، بعد أن كان سلمياً قبل ذلك، وبعد أن استجدت أحداث أوجبت هذا التطور[٥].

فالحروب الصليبية في رأى هذا الفريق من المؤرخين، لم تكن سوى حجاً مسلحاً، استهدف بها الأوربيون فتح الطريق إلى بلاد الشام وفلسطين بالقوة المسلحة، ومحاولة إخضاع الأراضي المقدسة المسيحية للغرب الأوربي، وربط بيت المقدس بالبابوية والغرب الأوربي[٦]. بعد أن راج كثير من القصص المزعومة عن صعوبة وصول الحجاج الغربيين إلى فلسطين لممارسة الحج من ناحية وسوء معاملتهم على أيدي السلطات الإسلامية من ناحية أخرى، فضلاً عما ذاع في الغرب الأوربي كذباً من أن المسلمين يسيئون معاملة المسيحيين في الشرق ويسومونهم ألوان العذاب، بل على حد قول البابا أوربان الثاني نفسه " يذبحونهم ذبح الشياة "[٧] حتى قال في خطبته: " عليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم القاطنين في الشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم وطالما التمسوها، لأن الأتراك قد هاجموهم ... وقتلوا وأسروا

---

(4) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 269

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٢٣ – ٢٤ .

Setton : A Hist. of the Crusades , Vol. I , p. 76

(6) Michaud : Histoire des Croisades , I , pp. 92 - 4

(7) Chalandon : Histoire de la premiere C roisade, pp. 37- 41

الكثيرين وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله."[٨] .

على أن فريقاً آخر من المؤرخين ذهب إلى القول بأن الحروب الصليبية لم تكن إلا أحد أدوار الصراع بين الشرق والغرب، وهو صراع تقليدي وقديم ومتصل الحلقات، كان النزاع بين الفرس والإغريق أحد أدواره ، ثم بين الفرس والروم دور آخر في بداية العصور الوسطى[٩] ، ونظراً لأن هذا الصراع كان صداماً بين حضارتين مختلفتين وأسلوبين في الحياة متباعدين فقد زادت حدته واشتد غليانه على الرغم من أنه كان يثور أحياناً ويهدأ أحياناً أخرى، وحدث أن ثار هذا الصراع في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي فبرزت الحروب الصليبية التي أعطت هذا النزاع مبرراً جديداً للاستمرار تمثل في الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحية في وقت كانت المسيحية الكاثوليكية لها شأن كبير في الغرب الأوربي بكل ما كان لها من حقد وكراهية ورغبة في التوسع على حساب المسلمين في الشرق[١٠] .

غير أن فريقاً ثالثاً من المؤرخين حاول أن يفلسف الحروب الصليبية على أنها الأداة التي استعملها الغرب الأوربي للانطلاق إلى حياة أوسع وأرجاء أرحب، والخروج من أوضاع العصور الوسطى وكسر الطوق الذي ضربته الكنيسة حول الحياة الأوربية[١١] ، بعد أن سئم الناس تدخل المكتيسة ورجالها في كل أمور الحياة واستعمالهم سلاح الطرد من رحمة الكنيسة والقطع إلى غير ذلك من العقوبات، فضلاً عن

---

(٨) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس ص٣٦(ترجمة د. زياد العسلى)

(٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢١

(١٠) جوزيف نسيم يوسف: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ٣٨ - ٣٩ .

(١١) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٢٤

كبتهم كل حركة علمية أو فكر حر أو اتجاه جديد في الحياة[١٢].
فالحروب الصليبية في رأي هذا الفريق كانت تعبيراً عن رغبة في الانطلاق والتحرر من قيود فرضتها الكنيسة حول الناس تسببت في ضيقهم وملتهم أكثر تطلعاً إلى كسر هذه القيود والانطلاق إلى عالم أرحب وظروف أفضل حيث التحرر من هذه القيود .

ونظر الفريق الرابع من المؤرخين إلى الحروب الصليبية باعتبارها هجرة من الهجرات الكبرى التي صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بل اعتبروها الهجرة الأخيرة من هذه الهجرات أو الحلقة الأخيرة في سلسلة هذه الهجرات ، لاسيما بعد استقرار الجرمان في رحاب العالم الروماني، واختلطوا بسكانه وأخذوا في مد العالم الروماني بدماء جديدة[١٣] ، وظلوا يحملون معهم آمالهم في مواصلة الغزو، ويحافظون على كثير من مقوماتهم لاسيما مقوماتهم الحربية، خاصة وأن هذه العناصر هي في الأصل عناصر محاربة، وجدت في الحروب الصليبية متنفساً لها لإشباع رغبتها في الحرب، ولإظهار مقدرتها في فنون القتال في وقت أصبحت فيه الحرب هي شغل الفارس الأول وصناعته الأولى[١٤]، وكانت هذه الجموع وتلك الهجرات قد اتجهت إلى كثير من الأقطار في أوربا وملحقاتها في حوض البحر المتوسط إلى : شمال إفريقيا وإلى صقلية وجنوب

---

(12) Coulton : Life in the Middle Ages , Vol. I , pp. 41 - 44
Huizinga : The waning of the Middle Ages , p. 255
سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج٢ ص ٤١٠ ،

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٢

(١٤) جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى ص١٨٨

الجزيرة البريطانية وغيرها، فلم تكن الحروب الصليبية في رأى هذا الفريق إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات المتعاظمة التي صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية(١٥).

أما الفريق الخامس من المؤرخين فقد نظر للحروب الصليبية على أنها ثمرة من ثمار حركة الإصلاح الديني في جوف الديرية والكنيسة، فقد أسفرت حركة الإصلاح الكلونية التي بدأت في الغرب الأوربي في القرن العاشر، والتي بلغت ذروتها في القرن الحادي عشر عن إنعاش للحياة الديرية وإصلاحها، وإعادة الديرية إلى جادة الصواب بعد تدهور الديرية البندكتية في الفترة السابقة وانحراف الرهبان ومقدمي الأديرة البندكتية وفساد هذه الحركة برمتها(١٦) وكذلك إعادة البابوية إلى سطوتها القديمة وتقوية الجهاز الكنسي وتدعيمه، ووضع الإشراف الديني في العالم المسيحي كله في يد بابا روما، على إثر جهود البابا جريجوري السابع (هلدبراند) الذائع الصيت (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) وما أحدثه برنامجه الإصلاحي من نتائج في صالح الكنيسة، فقد نجح في وضع البابوية في مكانة كان يتطلع إليها ويرنو إليها كثير من رجال الدين في كل أنحاء الغرب الأوربي(١٧) ، فضلاً عما أثارته هذه الحركة من حماسة دينية، ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية خاصة في الصراع مع المسلمين في الشرق. وينادي أصحاب هذا الرأي بأن حركة الإصلاح الديني هذه أثمرت طاقة هائلة في الغرب الأوربي في القرنين العاشر والحادي عشر ، كان لابد لها من متنفس تستهلك

---

(15) King :The Knights Hospitallers in the Holy Land , p. 15

(16) Eyre : European civilization vol. 3, p. 231

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج٢ ص ٢٤٢

(17) Camb. Med. Hist. vol. 6 , pp. 650 - 1

Painter : A Hist. of the Middle Ages , p. 161

فيه هذه الطاقة الهائلة الناتجة عن هذه الحركة، فكانت الحروب الصليبية[١٨] .

الأسباب الدينية للحروب الصليبية :

على الرغم مما ظهر في طريقة الدعوة للحروب الصليبية من روح التعصب الديني، وما ميّز تلك الحروب من أحداث تتعلق بالدين، إلا أن التيار الديني ليس هو المسئول الوحيد عن قيام تلك الحركة، بل إن السبب الديني كثيراً ما اختفى وسط الأسباب الأخرى، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي أدت إلى اندلاع الحروب الصليبية، فلم يكن العامل الديني يكفي وحده لقيام حركة خطيرة كالحركة الصليبية[١٩] . والواقع إن بعض المؤرخين درجوا على ربط الحركة الصليبية بالعامل الديني مثل الكونت بول رايان الذي ذكر " أنها حروب دينية خالصة وأن دوافعها وأهدافها دينية بحته وأن مقصدها الأول والأخير هو استرداد قبر المسيح واستخلاص بيت المقدس من قبضة المسلمين " [٢٠] وذلك مجاراة لبعض المؤرخين المعاصرين الذين جعلوا السبب الديني هو الذي أسهم في قيام الحروب الصليبية خاصة قول روبرت الراهب وهو مؤرخ عاصر بداية الحروب الصليبية من أنها " من عمل الله وليس من عمل الإنسان " [٢١] .

---

(١٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٣

(١٩) جوزيف نسيم : الاسلام والمسيحية ص ١٨٩

(20) Riant : Inventaire des Lettres Historiques des croisades Archires de L'Orint Latin ,I ,2, 22 (Paris, 1881)

(٢١) جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٨٨ .

Guibert of Nogent : Historia , pp. 123 - 5

Arnold : The Crusades , p. 54

وانساق هذا الفريق من المؤرخين وراء مبالغات وأقوال عن سوء أحوال المسيحيين في البلاد الإسلامية في العصور الوسطى، وما قيل من تعرضهم للاضطهادات، ومن تخريب كنائسهم وأديرتهم، وعما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات ومن معاملة سيئة(٢٢). وربما لهذا تضمنت خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت سنة ١٠٩٥م هذه المزاعم وما أبداه من تركيز على اخوة المسيحيين في الشرق وفي الغرب، وحث الفرسان والنبلاء في غرب أوربا على نبذ الحروب الإقطاعية والتوجه إلى الشرق للانتقام لإخوانهم هناك ومن بين ما قال: " ... إذا كنتم تنشدون خلاص أرواحكم فلتطرحوا جانباً هذه الفروسية ولتتقدموا في جسارة كفرسان للمسيح وتندفعوا بأقصى ما يمكنكم من سرعة للدفاع عن الكنيسة الشرقية " (٢٣).

غير أنه يمكن القول أن هذه الأقوال بعيدة عن الحقيقة تماماً وليست سوى مزاعم وافتراءات لا أساس لها من الصحة. فالمعروف أن المسلمين اتصفوا – طوال تاريخهم – بالتسامح الجم في تعاملهم مع الأقليات وتجاه أهل الذمة، وعاملوا هؤلاء معاملة كريمة وشملوهم بالرعاية ولم يحدث قط أن تعرض المسيحيون للاضطهاد بل عاشوا في كنف الإسلام والمسلمين عيشة هادئة وتمتعوا في ظل الإسلام بالحرية الدينية ومارسوا شعائرهم وحياتهم في حرية تامة، بل وصل الأمر أحياناً ببعض الخلفاء أن تكفلوا بنفقات ترميم وتعمير كنائس المسيحيين وبيعهم من أموالهم الخاصة(٢٤).

---

(٢٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٨

(23) Riley - Smith (ed.) : The Crussdes , pp. 49 - 53

قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية للحورب الصليبية ص ١١٠

(٢٤) أبو صالح الأرمني : تاريخه ص ٣٥ – ٣٦ وانظر أيضاً :

ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص٥٦(ترجمة وتعليق د.حسن حبشي١٩٦٧)

حقيقة حدثت بعض الاضطهادات الفردية للمسيحيين في القـرن العاشر الميلادي في البـلاد الإسلاميـة على عهـد الخليفـة الفـاطمي الحاكـم بأمـر الله ، وإن انصبـت الاضطهـادات على هـدم بعـض الكنائس والاستيلاء على محتوياتها ، ومن بينها كنيسة القيامة ببيـت المقـدس ولكـن الخليفة الحاكم رجـع عـن ذلـك وأجـاز للنصارى مـن جديـد إعـادة بنـاء أمـاكن عبـادتهم وذلـك قبـل وفاتـه سـنة ١٠٢١م/ ٤١٢هـ[٢٥] ، إلا أن هذه الأحداث برغم ذلك لا تمثل سياسة الإسلام في تعامله مع المسيحيين فضلاً عن أن هذا الخليفة كان معروفـاً باضطرابـه وشاب أعماله كثير من التضارب ولا يصـح اتخـاذ سياسـته في سـنوات قليلة دليلاً على تعرض المسيحيين للاضطهاد في البلاد الإسلامية ، كمـا لا يصـح مطلقـاً اتخـاذ هـذه النمـاذج سـبباً حقيقيـاً لقيـام الحـروب الصليبية[٢٦] .

كما لا يحق القـول بـأن أحـوال المسـيحيين قـد سـاءت في آسـيا الصغرى والشام تحت حكم السلاجقة ، لأنه من الثـابت أن السـلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في تلك البلاد[٢٧] . فعلى حد قـول أحد الباحثين المحدثين ، لا توجد وثيقة واحـدة تسـجل أن مسـيحيي الشرق قد استعانوا بالبابويـة أو بـالغرب الأوربـي ، كمـا أنـه لا تتوافـر أيـة معلومـات عن حـادثة واحدة ارتكبهـا الأتـراك في حق المسيحيـين

---

(٢٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ – أحداث سنة ٣٩٨ هـ

أبو صالح الأرمني: تاريخه ص ١٤٢ ، ١٤٧

المقريزي ، خطط ج٢ ص ٤٨٧ ، ٤٩٤

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ٣١٣ (ط بيروت)

(٢٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٠

(27) Thompson : Economic and Social Hist. of the Middle Ages , Vol. I , p. 391

الشرقيين[٢٨] . بل انصرف الأتراك إلى محاولة تصفية النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى وبلاد الشام، وربما استتبع ذلك تعرض بعض سكان هذه البلاد لشيء من المتاعب، مسيحيين وغير مسيحيين إذ لم يكن المسيحيون هم المقصودين بهذه المتاعب بأي حال من الأحوال[٢٩] ، إذ يمكن النظر إلى ما حدث من متاعب باعتباره النتيجة الحتمية للحرب التي شعر بوطأتها كل السكان بطبيعة الحال، هذا بالإضافة إلى أن المسيحيين في هذه المناطق كانوا من أتباع الكنائس الشرقية مثل النساطرة واليعاقبة، أى أنهم كانوا يخالفون الكنيسة البيزنطية في عقيدتها[٣٠] ، بل ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى القول بأن أوضاع المسيحيين الشرقيين في تلك البلاد غدت بعد غزو السلاجقة أسعد حالاً من المسيحيين الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وفي كنف السلطات البيزنطية[٣١] .

وعلى الرغم من ذلك فقد نجح دعاة الحروب الصليبية في استثارة الحماسة الدينية متخذين من تلك المتاعب الفردية التي حدثت للمسيحيين في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين (الرابع والخامس الهجريين) ذريعة للدعوة للحركة الصليبية، مع أن هذه الاضطهادات لم تكن فريدة في نوعها أو من الأهمية بمكان حتى يمكن القول أنها السبب الرئيسي الذي أثار الغيرة الدينية للغرب الأوربي[٣٢] ، خاصة وقد بدت هذه الاضطهادات الفردية ردود أفعال

---

(٢٨) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ١١٢

(٢٩) سعيد عاشور : نفسه ج١ ص ٣١

(٣٠) قاسم عبده قاسم : نفسه ص ١١٢

(٣١) عاشور : نفسة ص ٣١

(32) Edward Arnold : The Crusades , Idea and Reality , 1095-1274 p. 8, 11 , 45

وقتية تبعها مباشرة تسامح ومحبة بل وتهافت على تقديم امتيازات للمسيحيين، وإعادة بناء كنائسهم وأديرتهم والسماح لهم ببناء دور عبادة جديدة وتزويدها بكل ما يؤكد تمتع هذه الأقليات بالتسامح الجم والحرية الدينية الكاملة[٣٣].

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يكن عامة الناس في بلدان الغرب الأوربي يهمهم كثيراً أمر المسيحيين في البلدان الإسلامية، ولم يكونوا في نفس الوقت على استعداد للتضحية بأنفسهم من أجل أولئك المسيحيين الذين خضعوا طويلاً للمسلمين، ومثلوا قطاعاً من الرعايا الشرقيين في العالم الإسلامي[٣٤]، ومما يؤكد هذا القول، المعاملة التي عامل بها الصليبيون إخوانهم المسيحيين الشرقيين في المملكة الصليبية وبقية الإمارات اللاتينية التي أقاموها في بلاد الشام وأطراف العراق، من كبت وتضييق، وعدم إقامة وزن كبير لمذاهبهم الشرقية التي تختلف عن مذهبهم الغربي، وما ترتب على ذلك من وضعهم في مكان لا يزيد كثيراً عن مكان الخاضعين لهم من المسلمين والطوائف الأخرى في تلك الكيانات الصليبية[٣٥]، في الوقت الذي تمتع فيه هؤلاء المسيحيون الشرقيون بتسامح الإسلام في كل العصور باستثناء فترة قصيرة قرب نهاية القرن العاشر الميلادي ومطلع القرن الحادي عشر على يد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ولأسباب خاصة أفاضت فيها الكتب والمراجع المعاصرة في ذلك الوقت[٣٦].

---

(33) Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire , II, p. 393 (W. P. 1973)

(٣٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣١

(35) Runciman :A Hist. of the Crusades , I, p. 294

(٣٦) ابو صالح الأرمني : تاريخه ص ٣٥-٣٦ : ترتون : المرجع السابق ص٥٦ (ترجمة حبشي)

ومن ناحية ثالثة لم توقف السيادة الإسلامية على فلسطين تيار الحج المسيحي إلى الأماكن المقدسة، لأن الحج كان من مصادر الدخل الهامة لحكام هذه المناطق من المسلمين لاسيما بعد ازدياد رحلات الحج وزيادة أعداد الحجاج، إذ كان الحجاج يدفعون رسوماً وينفقون أموالاً على الإقامة والغذاء وغير ذلك، ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو لوقف رحلات الحج(٣٧) ، بل إن المسيحيين في الشرق الإسلامى لم يكونوا راغبين في تدخل الغرب الأوربي في العلاقة بينهم وبين المسلمين، وكانوا دائماً آمنين على وضعهم وعلى أملاكهم وأرواحهم(٣٨) كما أنه من المبالغة وسوء التقدير أن نتصور أن مسيحيي الغرب الأوربي الذين حملوا لواء الصليب وأنخرطوا في الجيش الذاهب إلى الشرق لمحاربة المسلمين، مجرد شعوب غلب عليها شعور الاخوة وطغي عليها الورع والتقوى لدرجة جعلها تتجشم المتاعب وتترك الوطن والأهل لخدمة الدين وتحقيق سيادة الصليب عازفة عن الدنيا ومتع الحياة لإعلاء شأن الدين وللاستشهاد في سبيله دون أسباب أخرى ودوافع أقوى من ذلك بكثير(٣٩) .

ولكن ليس معنى أن نجرد الحروب الصليبية من أهم أسبابها ودوافعها وهو السبب الديني، وإنما ينبغي أن تضع في اعتبارها أن هذا السبب كان من بين الأسباب والبواعث وليس هو كل الأسباب لأنه وحده – كما أسلفنا – لايكفي لتفجير حركة في مثل خطورة هذه الحركة التي تركت آثارها في الأحداث ولقرون عديدة تالية(٤٠) . حقيقة

---

(٣٧) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ١١٣

(38) Michaud : Histoire des Croisades, Tom. I, p. 6 , p. 27

وانظر : قاسم عبده قاسم : نفسه ص ١١٢

(٣٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٢

(٤٠) جوزيف نسيم : الإسلام والمسيحية ص ١٨٩

كانت العصور الوسطى فى الغرب الأوربى عصور التعصب الدينى مثلما كانت عصور الايمان، وهو انعكاس للفكر المسيحى الغربى بما فيه من عناصر لاهوتيهة وأخرى غيبيبة وأخروية[٤١] ، كما كانت الحروب الصليبية امتدادا للحروب التى شنها المسيحيون على المسلمين في الأندلس والتى صبغوها بصبغة دينية، وأضفوا عليها صفة الحروب المقدسة[٤٢] ، فضلاً عن أن الكنيسة ورجالها تسلطوا على اقدار المجتمع الأوربى وهيمنوا على مصائر الناس والحياة في غرب أوربا، إلا أن ذلك كله لا يكفى ليكون دافعا للحروب الصليبية وسببا لها أو أن يكون ذلك هو المحرك الرئيسى للحركة الصليبية، التى جرت أحداثها منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

وأقرب إلى الحقيقة القول بأن الجهاز الكنسى البابوى استغل هذا العامل بهدف إثارة الحماسة الدينية لدى أهل الغرب تحقيقا لاغراضه العديده[٤٣] ، منها : تطلع البابوية إلى مد سلطانها إلى كافة الأنحاء ليصبح البابا الزعيم الروحى الكبير لجميع المسيحيين فى الغرب وفى الشرق على حد سواء، بل تطلعت البابوية إلى إخضاع الكنيسة الشرقية لسلطانها بعد أن تسببت القطيعة الدينية بين الكنيستين الغربية والشرقية سنة ١٠٥٤م فى حرمان البابوية من الهيمنة على الشئون الدينية للشرق وتوحيد الكنيستين تحت زعامتها[٤٤] . ومنها أيضا القضاء على النفوذ الاسلامى في الأراضي

---

(41) Block : Feudal Society , p. 80 ,

قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية ص ٩٨

(42) Grousset : L'Epopée de croisades (Paris 1939)

(٤٣) جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٨٩

(44) Holt : The Age of the Crusades , p. 17 ,

إرنست باركر : الحروب الصليبية ص١٦ (ترجمة د. السيد الباز العريني)

المقدسة وكذلك التخلص من كبار رجال الاقطاع في الغرب الذين ضايقوا البابوية وزاحموها فى فرض سلطانها على الغرب الاوربى كله(٤٥)..

فلما جاء استنجاد بيزنطة بالغرب الأوربى والبابوية ضد السلاجقة في القرن الحادى عشر اعتبرته البابوية فرصتها لتحقيق زعامتها على العالم المسيحي وإدماج الكنيستين فى كنيسة واحدة يرأسها بابا روما من ناحية(٤٦) وكذلك تحقيق أهدافها الأخرى خاصة التخلص من كبار رجال الإقطاع ، واسترداد الأراضى المقدسة من المسلمين من ناحية أخرى، فتذرعت بالرغبة في حماية البيزنطيين والمسيحيين الشرقيين وتحرير قبر المسيح واسترداد الاراضى المقدسة لتحقيق أهدافها تحت ستار محاربة المسلمين في الشرق(٤٧) .

والدليل على ذلك - كما يذهب بعض المؤرخين المحدثين - أن حماسة البابوية للحروب الصليبية ضد المسلمين قد قلت و فترت كثيرا حينما انغمست البابوية في صراعها مع الامبراطورية ونضالها العلمانى ضد الأباطرة وملوك الغرب الأوربى، فاتجهت بقضها وقضيضها لمحاولة استئصال شأفة آل هونشتاوفن الألمان الذين سعوا إلى الانتقاص من سموها، وعملوا على سلبها نفوذها وسلطانها في الغرب، فدعت البابوية إلى حملات صليبية ضد الامبراطور فردريك الثانى وابنه كونراد الرابع(٤٨) .

وهكذا استغلت البابوية العامل الدينى لإثارة الحماسة لدى أهل

---

(٤٥) جوزيف نسيم : نفسه ص ١٨٩ - ١٩٠

(46) Ostrogorsky : A Hist. of the Byzantine State, p. 320

(٤٧) محمد المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ٣٤

(٤٨) جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ ،

La Monte : The world of the Middle Ages , pp. 256 - 60 (N.Y. 1949)

الغرب تحقيقا لأغراضها، ولهـذا فقد كـانت الكنيسـة الغربيـة وعلـى رأسها البابا هى الداعية للحروب الصليبية سنة ١٠٩٥م، وهى المتابعة لجهود الصليبين والمهتمة بأحقيتها فى كـل إنجـاز يحققه الصليبيـون فى الشرق، ولم يجد الناس أمامهم إلا تحقيـق رغبـة الكنيسـة ورجـال الدين فخرجوا أفواجا فى حملات صليبية ضخمة لمحاربـة المسلميـن في الشـرق الأدنى على مـدى نحـو قـرنيـن من الزمان أو نحو ذلك[٤٩].

لم تجـرد الكنيسـة نفسـها إذن مـن الأغـراض الأخـرى مثلمـا لم يجرد الصليبيون أنفسهم من دوافع وأهداف أخرى غـير الديـن ونصـرة الدين، فلم يكن الدين هو الدافع الرئيسي الـذي أخـرج الصليبيـين إلى الشرق لمحاربة المسلميين[٥٠]، لأنه ليس بخاف علـى دارس الحـروب الصليبيـة أن السـبب الديـني لم يكـن إلا سـتاراً اختفـت وراءه أطمـاع الصليبيين، فقد ارتكب الصليبيـون كثـيراً مـن الجرائـم ضـد إخوانهـم المسـيحيين أنفسـهم سـواء في طريقهـم إلى القسـطنطينية[٥١] أو في القسطنطينية ذاتها[٥٢]، بل إن احدى الحملات الصليبية وهى الحملة الرابعـة تحولـت لغـزو القسـطنطينية سـنة ١٢٠٤م، فـأذاقت أهلهـا المسيحيين ألوان العذاب ونهبت كنائسها وأديرتها، وأحرقت وأتلفـت وخربـت كثيراً من معالمـها[٥٣]، حتى اقتنع معظم مؤرخى الحـروب

---

(49) Sterenson : The Crusaders in the East , pp. 13 - 14

(50) Thompson : op. cit. I, p. 302

(٥١) وليم الصوري: الحروب الصليبية ج١ ص١١٣-١١٤، ص١١٨ (ترجمة د. حسن حبشي)
Guibert , in permoud , The Crusades , pp. 31-34

(52) Runciman : op. cit. I, p. 127

(53) Villehardouin : La Conqueste de Constantinpole par les Baron Francais (trans. by Murzials) p. 64
روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ص١٢-١٢٢ (ترجمة د. حسن حبشي)
أسمت محمود غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ص ٩٧-٩٩

الصليبية والدارسين لها ، بأن ثمة أسباب أخرى غير السبب الديني هى التي حركت الغالبية العظمى من الصليبيين الذاهبين إلى الشرق منها : الأطماع السياسية التي حركت فريقاً من قادة الصليبيين الذين أملوا في مشروعات التوسع وإقامة الإمارات وحيازة الاقطاعات في الشرق والفوز بمكاسب سياسية كبيرة [٥٤]، إذ يشير روبرت الراهب الذي كتب في الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي والذي يحتمل أنه كان من شهود كليرمونت إلى أن البابا قال لسامعيه في خطبته "...سيروا على طريق الضريح المقدس وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير وكونوا أنتم سادتها" [٥٥] . ومنها الأسباب الإقتصادية التي دفعت الكثير من الصليبيين للذهاب إلى الشرق للخلاص من حياة الفقر والحرمان التي كان يعيش فيها عدد كبير من قطاعات المجتمع الأوربي في ذلك الوقت في ظل النظم الإقطاعية البغيضة وتحكم رجال الإقطاع وشيوع الفقر[٥٦] ، وفي خطبة أوربان الثاني في كليرمونت كما رواها روبرت الراهب قال البابا " .. حرروا هذه الأرض التي يقول الكتاب المقدس أنها تفيض لبناً وعسلاً فقد منحها الرب ملكاً للمؤمنين"[٥٧] ، فضلاً عن الأسباب الاجتماعية التي دفعت فريقاً آخر من الصليبيين إلى اعتبار الحروب الصليبية فرصة للهروب من ظروف اجتماعية سيئة بالنسبة لهم للهروب من ديون ثقيلة أوفي محاولة لتأجيلها أو الفرار من عقوبات مفروضة عليهم أو خلاصاً من

(٥٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٣٦

(٥٥) انظر الترجمة الإنجليزية لخطبة أوربان في رواية روبرت الراهب .

Peters (ed.) : The Frist Crusade , pp. 2 - 5

وانظر أيضاً قاسم عبده قاسم:الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية ص١٢٠

(٥٦) باركر : الحروب الصليبية ص ٢٢

(57) Riley - Smith (ed.) : op. cit. pp. 42-45

نظم اجتماعية بغيضة لديهم[٥٨] ، فقد تدفق نحو الشرق – على حد قول بعض المؤرخين – سيل من البشر حمل معه الأفاقين والمفلسين والهاربين من الأرقاء، وتعددت فيه الجماعات واختلفت عناصرها من شدة الرغبة في البقاء وتناوب الجاه والشحاذة[٥٩] . وطغت الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية على السبب الديني الذي تعلل به فريق من المؤرخين القدامى والمحدثين .

وهكذا اذا كان للحروب الصليبية ثمة أسباب، فإن السبب الديني لم يكن إلا واحداً من تلك الأسباب ، على الرغم مما ذاع من أنه السبب الرئيسي ومن أن تلك الحروب لم تكن إلا حروباً دينية سيطر الدين على مجرياتها ولعب الدور الأول فيها[٦٠] ، على الرغم من أن الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت أهم بكثير من السبب الديني، الذي سرعان ما تلاشى وسط الأسباب الأخرى وتعرى الصليبيون سريعاً عن هذا الرداء الزائف وظهرت وجوههم الحقيقية منذ البداية في الحرب الصليبية الأولى ذاتها[٦١] .

الأسباب الاقتصادية :

يمكن فهم حقيقة الأوضاع الاقتصادية في الغرب الأوربي من خلال دراسة الإقطاع والنظم الإقطاعية التي عاشتها البلدان هناك في الغرب، فقد اندلعت الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين، وأدى ذلك إلى تأثر التجارة وطرقها والزراعة وحقولها تأثراً شديداً، ولم تنجح الكنيسة في وقف تيار هذه الحروب ، الأمر الذي ترتب عليه حدوث أضرار بالغة للاقتصاد الأوربي على الرغم من محاولات الكنيسة

---

(٥٨) أنتوني بردج:تاريخ الحروب الصليبية ص٤٠(ترجمة احمد غسان ونبيل الجيرودي)

(٥٩) باركر : المرجع السابق ص ٢٢

(٦٠) جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٨٨ – ١٨٩

(٦١) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٣٣

الدائبة وعقدها المجامع الدينية لهذا الغرض[٦٢].

فإذا أخذنا في الاعتبار طبيعة تنشئة الفرسان من جهة، وحقيقة تدينهم القاصر من جهة أخرى، لأنهم - على حد تعبير باحث محدث - لم يكونوا يفهمون المسيحية فهماً جيداً بل فهموا الدين على أنه حيازة الذخائر أو الهبات التي كانوا يغدقونها بسخاء على الأديرة والكنائس تكفيراً عن ذنوبهم، إذ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم من الالتزام بالفضيلة[٦٣] ، فإذا كان بذل الهبات للأديرة وانشاء الأديرة الجديدة والإغداق على الكنيسة وسيلة لتكفير الذنوب والآثام فإن الحروب الصليبية كانت فرصة أخرى ووسيلة صالحة لتحقيق هذه الأغراض[٦٤] . وإذا أخذنا في اعتبارنا ذلك كله أدركنا أن أولئك النبلاء قد وجدوا أنفسهم في وضع غير مريح بسبب الضغوط التي كانت تمارسها الكنيسة لفرض حركة السلام بحيث جاءت الدعوة الصليبية فرصة ذهبية لأبناء الأسر الإقطاعية لتغيير أوضاعهم، ذلك أن ظروف الحياة الشاقة في كثير من أنحاء الغرب الأوربي جعلت المغامرة في الشرق أمراً جذاباً لهم، وكانت الزيادة السكانية التي شهدتها أوربا إبان القرن الحادي عشر من أهم الأسباب التي حفزت أبناء الطبقة الإقطاعية إلى البحث عن أرض جديدة في الخارج[٦٥] . فضلاً عن ازدياد قوة هؤلاء النبلاء خاصة في فرنسا التي ضعف ملوكها في القرن

---

(62) Runciman : op. cit. Vol. I, pp. 84-5

(63) Painter : A Hist. of the Middle Ages , pp. 19 - 20

Wood : The Age of Chivalry , p. 100

قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ١٠٢

(64) Painter: Western Europe on the Eve of the Crusades,p.16

وانظر أيضاً العريني : الشرق الأوسط ص ١٢٢

(٦٥) قاسم عبده قاسم : نفسه ص ١٠٠ - ١٠٢

الحادي عشر كثيراً فلم يحفل كثير من النبلاء بأداء الخدمة العسكرية لهم، بل زادت مطامع هؤلاء السادة وتطلعاتهم لامتلاك مزيد من الاقطاعات في الوقت الذي عانت فيه فرنسا من سوء الأحوال الاقتصادية[٦٦].

وتشير الدلائل إلى أن فرنسا بالذات قد تعرضت لكارثة اقتصادية شديدة بل إلى مجاعة قرب أواخر القرن الحادي عشر، فقلت الغلال وارتفعت أثمانها، وعانى الناس ضائقة مالية شديدة، بعد أن ابتليت هذه البلاد بالحروب الإقطاعية أحياناً وبالمجاعات والأوبئة أحياناً أخرى وفي فرنسا بالذات[٦٧]، وربما يفسر ذلك اشتراك عدد كبير من الفرنسيين في الحملة الصليبية الأولى بنسبة تفوق نسبة أى بلد آخر شارك في تلك الحملة[٦٨]. فضلاً عن أنها ضمت كثيراً من المعدمين والخارجين على القانون، أتوا في طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال السلب والنهب والحرق ضد الشعوب المسيحية مايتنافى وكونهم مسيحيين خرجوا لنصرة الدين والزود عن العقيدة[٦٩]، لأن أحلام المقهورين في المجتمع الأوربي آنذاك لم تتحقق سوى في القليل النادر، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم لن يخسروا شيئاً بذهابهم إلى الشرق، إذ لم يكن ينتظرهم في الوطن سوى الموت جوعاً أو قهراً تحت سيطرة سادتهم الاقطاعيين وكانوا يؤملون في أن تتحسن ظروفهم المعيشية في الشرق، فضلاً عما بذله لهم البابا من وعود بالخلاص في

---

(66) Painter : op. cit. p. 17

(67) Cowdrey : The Genesis of the Crusades , p. 13,

قاسم عبده قاسم : نفسه ص ١٠٠-١٠١،

انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠

(٦٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٤

(69) Runciman : op. cit. Vol. I, p. 141

الحياة الآخرة[٧٠] .

وفي ضوء ذلك يمكن فهم الدور الذي لعبته المدن الإيطالية الكبيرة – البندقية وجنوا وبيزا وأمالفي – بمساهمتها في تلك الحركة سواء بنقل الجيوش الصليبية إلى الشام أو نقل المؤن والعتاد إليها أو مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على الموانى البحرية ببلاد الشام أو تقديم العون للدفاع عما استولى عليه الصليبيون فعلاً أمام هجمات المسلمين فلم تكن المساهمة لوجه الدين ونصرة للعقيدة ، وإنما جرياً وراء المصالح الاقتصادية الخالصة[٧١] ، للفوز بأحياء تجارية في بعض المدن واحتكار التجارة في أسواقها والإعفاء من الضرائب والمكوس في أسواق أخرى وإحراز أكبر قدر من المكاسب الذاتية والتمتع بالاعفاءات الخاصة في مواني بعينها وتحقيق مصالح اقتصادية وتجارية حتى لو تضاربت مع مصالح الكنيسة والصليبيين والبابوية[٧٢] .

نخلص من ذلك كله بأن كثيراً من أهالى المدن والجماعات والأفراد الذين شاركوا في هذه الحرب وانخرطوا في الجيش الزاحف إلى بلاد الشام، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب واستجابة لوازع ديني، وإنما جرياً وراء المال وحباً في الثروة والجاه وتطلعاً لتحقيق آمال عريضة بإقامة المستعمرات والضياع في الأراضي الإسلامية[٧٣] فقد كشفت كل طبقة عن أهدافها الخاصة التي تختلف بالضرورة عن أهداف الطبقات الأخرى وربما تتناقض معها ، فبينما سعت الطبقة

---

(70) Cantor : Medieral Hist. p. 322

Boase : Kingdoms and Strongholds , pp. 16-17

وانظر أيضاً : قاسم عبده : المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٣

(٧١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٥

(72) Heyd :Histoire de Commerce , p. 131-3

(٧٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٣٦

العليا في المجتمع الإقطاعي الأوربي إلى تحقيق مزيد من السلطة والسيطرة والقوة، وداعبت خيال من يملكون ضياعاً صورة ما يمكن إضافته من ضياع جديدة لتزيد ثراء عائلاتهم وترتقي بهم هذه الضياع الجديدة درجات في السلم الإقطاعي، أليست صورة الضياع التي يمكن امتلاكها في الشرق مشاعر من لايملكون ضياعاً في بلادهم[٧٤] في الوقت الذي كان فيه هدف العامة من المزارعين والأقنان وسكان المدن الفقراء هو التحرر من السيطرة الإقطاعية والكنسية، وتحسين ظروف معيشتهم في الشرق، وكذلك خلاص أرواحهم في الحياة الآخرة كما وعدوا[٧٥] .

غير أن الأهداف الدنيوية طغت كثيراً على غيرها من الأهداف وتحكمت المصالح الإقتصادية وتحقيق المكاسب على تفكير الصليبيين، ولعل أكبر دليل على ذلك ما حدث من قيام المنازعات بينهم ببلاد الشام والتنافس على التملك والاستحواذ وبروز العداء بين قادة الصليبيين بسبب الرغبة في الفوز بالمكاسب السياسية والاقتصادية بداية من الاستيلاء على أنطاكية إلى قيام الملكية في بيت المقدس[٧٦] ، وما حدث أيضاً من تحول إحدى الحملات الصليبية من الاستيلاء على أرض تابعة للمسلمين إلى الاستيلاء على مدينة القسطنطينية ذاتها وأهلها من المسيحيين ، وهى الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، وذلك عندما تأكد الصليبيون أن مصالحهم الإقتصادية تتطلب ذلك[٧٧] . فليس الدين إذاً هو السبب الوحيد لقيام الحروب الصليبية وانما يضاف إلى ذلك أيضاً السبب الاقتصادي والتفكير التوسعي والرغبة في الاستفادة المادية .

---

(٧٤) قاسم عبده قاسم : نفسه ص ١٢١

(75) Bradford : The Sword , p. 15

(76) Chalandon : Hist. de la premiere Croisade , p. 227

(77) Runciman : op. cit. Vol. 3, p. 115

الأسباب الاجتماعية :

من دراسة النظم الاقطاعية في غرب أوربا يمكن فهم الظروف الاجتماعية التي عاشتها بلدان الغرب الأوربي ، وكيف كان لذلك علاقة وثيقة بالحروب الصليبية ، فقد عاش العبيد والأقنان عيشة قاسية في ظل نظم الضيعة ، وحرموا من أبسط حقوقهم الإنسانية ، ولم تكن لهم ملكية خاصة لأن كل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً للسيد الاقطاعي فالاقنان لايملكون شيئا أو يستطيعون التصرف في شيء لأن القن لم يكن له من ريع سوى ما يلتقطه من الأرض بكده وعرق جبينه[٧٨] . فقد كان للسيد في النظام الإقطاعي الولاية على القرى التابعة له ، بلغت أحياناً الحكم بالحياة أوالموت على سكانها والسيطرة عليهم وله مطلق الحرية في تهذيبهم وتنظيمهم[٧٩] ، وعاش هؤلاء الأقنان في أكواخ قذرة شيدوها من فروع الأشجار وغطوها بطبقة من الطين ، ولم يكن لها نوافذ بل كان لها فتحات في السقف يخرج منها الدخان المنبعث من مواقدهم وتدخل منها مياه الأمطار أحياناً ، وكانت أكواخاً حقيرة ليس بها أى أثاث ، وأحياناً كان يتجمع في هذه البيوت الخشبية عدد من أولئك المزارعين يعيشون معاً ويشتركون معاً في خدمة السيد الإقطاعي[٨٠] . أما ملابسهم فكانت من جلود الحيوانات أو من صوف الأغنام ومصنوعة بطريقة بدائية رثة[٨١] .

وحيث أن طبقة العبيد والأقنان كانت تمثل الغالبية العظمى من السكان ، لأن طبقتي رجال الدين والمحاربين - من النبلاء

---

(٧٨) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٧٨ (ترجمة د. جوزيف نسيم)

(79) Painter : Western Europe on the Eve of the Crusades, p.8

وانظر العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ١١٨

(80) Rowling :Everyday life in Medieval times , pp. 23

(٨١) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ٩٥

والفرسان - كانتا تمثلان أقلية ضئيلة في ذلك المجتمع في ذلك الوقت، فيمكن القول بأن الأوضاع الاجتماعية في بلدان الغرب الأوربي كانت قلقة مضطربة، حيث عاش غالبية السكان في ظل ظروف إقطاعية جائرة(٨٢)، إذ قنع القن بالحد الأدنى في كل شيء، ولم يكن باستطاعته الشكوى(٨٣)، وبغض النظر عن أخطار الحروب الإقطاعية، كانت الحياة في أوربا آنذاك قصيرة وكئيبة، ومن بين الكثيرين ممن حصدهم الموت في سن مبكرة كان عدد كبير يموت بسبب الأوبئة، كذلك كانت المجاعة وحشاً فتاكاً آخر يعصف بالفقراء من أبناء هذا المجتمع، وفي رأى بعض المؤرخين كان المستوى الصحي المتدني وافتقار المجتمع إلى الأمن من أهم أسباب القلق الذى تميزت به المجتمعات الإقطاعية في أوربا عشية الحروب الصليبية(٨٤).

فضلاً عن أن الأقنان والعبيد كانوا مثقلين بمجموعة كبيرة من الإلتزامات والخدمات وأعمال السخرة ودفع مجموعة ضخمة من الضرائب والمقررات والخضوع لأنواع من الاحتكارات(٨٥) كل ذلك أسهم في زيادة المهانة والذل والفقر الذي عاشته تلك الطبقة المغلوبة على أمرها والتي تمثل الغالبية من السكان(٨٦)، ولهذا حين بدأت

---

(82) Camb. Med. Hist. Vol. 2, p. 722 ,

انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ص٤٠ (ترجمة أحمد غسان ونبيل الجيررودي)

(83) Rowling : op. cit. pp. 21-7

(٨٤) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ٩١-٩٢،

Mayer : The Crusades, p. 22

(85) Painter : Western Europe on the Eve of the Crusades, p.8

(٨٦) هلستر: أوربا في العصور الوسطى ص ١٤٧ (ترجمة د.محمد فتحي الشاعر)

كولتون: عالم العصور الوسطى ص٨١. Camb. Med. Hist. Vol.2, p.722

الحروب الصليبية وجد البؤساء والفقراء في غرب أوربا في هذه الدعوة فرصة طيبة للخلاص من الهوان الذي عاشوه في ظل الإقطاع والذل الذي رسفوا فيه كثيراً من ناحية والاستجابة لدعوة الكنيسة من ناحية أخرى، خاصة وقد اشتهر أهل القرى بالتقوى والورع والانقياد إلى رجال الدين، كما كان الريف موطن الترامات والمعجزات واتصف أهله دائماً بالبساطة والسذاجة والميل إلى الخرافات والاساطير(٨٧) . وهذا يفسر لنا الاستجابة الشعبية الهائلة للدعوة التي أطلقها البابا أوربان الثاني في كليرمونت سنة ١٠٩٥م في ضوء الظروف الإجتماعية والفكرية التي كانت سائدة في الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر(٨٨) ، فهما انطوت تلك الدعوة على أخطار بلنسبة لجموع السكان، فإن أخطارها تهون أمام ما عاشوه من فاقة ومذلة وهوان دون أمل في الخلاص، وإذا وصلوا إلى الأرض المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأى حال أسوأ من حياتم التي يحيونها فعلاً في بلادهم الأصلية، أما إذا ماتوا في تلك الحرب فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والعبودية(٨٩) ، فضلاً عن أنه موت في سبيل هدف بدا براقاً ومؤثراً في ذلك الوقت .

ويؤكد كثير من المؤرخين القدامى منهم والمحدثين أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في بلدان الغرب الأوربي كان لها الأثر الأكبر في تحريك جموع الصليبيين إلى بلاد الشام، فضلاً عن الجهل الذي كان لايزال يبسط رداءه على المجتمع الريفي

---

(87) Painter : Western Europe on the Eve of the Crusades, p.5

وانظر أيضاً العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ١١٧

(٨٨) قاسم عبده : المرجع السابق ص ٩٩

(٨٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٩

الطابع في غرب أوربا في ذلك الوقت[٩٠] . فلو أتيح لجموع العامة من الفلاحين والأقنان حياة كريمة وقدراً من الأمان لما إندفعت تلك الجموع نحو الشرق تاركة أوطانها استجابة لرغبة الكنيسة ولمحاولة الفوز بحياة أفضل وظروف اجتماعية وانسانية أكرم مما كانت تحياه في الغرب الأوربي . ولم يكن ذلك وقفاً على الفلاحين والعامة، وإنما كان هو القاسم المشترك بين الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة في الغرب الأوربي عشية الحروب الصليبية، بيد أن تأثيره على البسطاء والعامة كان أبعد أثراً وأخطر وقعاً بطبيعة الحال[٩١] .

وهكذا جاز لنا القول بأن جموع الصليبيين الذين زحفوا إلى الشرق حركت فريقاً منهم آمال عريضة وأطماع واسعة في الثراء والجاه، بينما حركت الفريق الأعظم منهم الرغبة في حياة أفضل وظروف اجتماعية أكرم أو الهرب من ظروف اجتماعية سيئة لهم سواء كانت ديوناً ثقيلة طولبوا بأدائها وحاولوا التنصل منها أو تأجيلها أو فراراً من عقوبات مفروضة عليهم أو خلاصاً من نظم اجتماعية بغيضة لديهم، فانضوى إلى الجيش الصليبي جموع من الأفاقين والمفلسين والهاربين من الأرقاء[٩٢] . ولهذا سعى فريق من الصليبيين لتحقيق آماله في الثراء والجاه ، بينما سعى الفريق الآخر للخلاص من أوضاعه الاجتماعية السيئة، وتباعد الفريقان كثيراً عن الفكرة الدينية الخالصة والحماسة الروحية التي درجت الكنيسة على جعلها المبرر الوحيد للخروج إلى الشرق.

الأسباب السياسية :

كان النزاع قد نشب بين البابوية حول فكرة السمو والتفوق،

---

(٩٠) باركر : الحروب الصليبية ص ٢٢

(٩١) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ٩٩-١٠٠

(٩٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٢٢

وجدت البابوية في إثبات سموها وعلو مكانتها على كل الحكام العلمانيين، وأن البابا هو رأس العالم المسيحي، يدين له كل الأمراء والحكام بالطاعة، وسعت البابوية للخروج منتصرة في هذا الصراع مع الإمبراطورية ونضالها العلماني ضد الأباطرة وملوك الغرب الأوربي[٩٣]، فشهدت الفترة الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي حلقة من حلقات هذا النزاع الذي امتد بعد ذلك لمدة طويلة، وبدأ كثير من حكام وملوك غرب أوربا يعملون ألف حساب للبابوية وأسلحتها التي شهدتها في وجه كل من يحاول الوقوف في وجهتها[٩٤] .

ولقد أثبت التاريخ أن معظم الحكام والملوك الذين شاركوا في الحروب الصليبية ماخرجوا إلا لترضية البابوية وتجنباً للصدام معها، وخوفاً على عروشهم وأملاكهم في الغرب الأوربي من أن تزلزل تحت أقدامهم بفعل البابوية وأسلحتها لاسيما القطع الفردي من رحمة الكنيسة والقطع الجماعي لشعوب بأسرها[٩٥] . فقد درجت البابوية على ارسال السفارات بين الحين والآخر إلى ملوك أوربا تلح عليهم في الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربه المسلمين، ولم يكن لملك من الملوك حينذاك أن يعصي أمر البابوية[٩٦] ، ولعل أبلغ دليل على ذلك ما حدث من قيام فردريك الثاني تحت إلحاح البابوية بحملة، لم يكن راغباً في القيام بها، انتهت بمفاوضات مع الملك الكامل الأيوبي وعقد معاهدة سياسية[٩٧] ، سبق بها كل من فردريك والملك الكامل عصريهما لما انطوت عليه من رغبة في التفاهم ونبذ الحرب، واللجوء إلى المفاوضة والسياسة وما يعنينا من ذلك كله هى الرغبة الكامنة لدى

---

(93) LaMonte : The world of the Middel Ages , pp. 258 - 60

(94) Brooke : A Hist. of Europe 911 - 1198 , p. 185

(95) Camb. Med. Hist. vol. 6, p. 146

(٩٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٠

(97) King : The Knights Hospitallers , p. 208

فردريك لإتمام هذا العمل بأى وسيلة ما دام قد خرج إلى الشرق تحت ضغط البابوية وتلبية لطلبها وخوفاً من أسلحتها التي شهرتها في وجهه[٩٨] .

أما بالنسبة للأمراء فقد حركتهم الأطماع والمكاسب السياسية، التي لم تحققها الظروف السياسية في الغرب الأوربي، لهذا خرجوا لتحقيقها في الشرق، وكانت الزيادة السكانية التي شهدتها أوربا إبان القرن الحادي عشر من أهم الأسباب التي حفزت أبناء الطبقة الإقطاعية على البحث عن أراضي جديدة في الخارج، لأن الأرض كانت مصدر الثروة والسلطة[٩٩] فالمعروف أن الأمير الإقطاعي استمد دائماً مكانته مما له من الأرض وعدد الضياع وكثرة الأتباع، فبقدر ماتكون له أرض واسعة وأتباع كثيرون بقد ما تعلو منزلته وتسمو، لأن الاقطاع دائما ارتبط بالأرض[١٠٠] ، ونظراً لأن فرصة الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن من أجل الحصول على مزيد من الأرض أو السلطة قد باتت ضئيلة بالفعل، فقد نشأت فكرة بذل الولاء لأكثر من سيد للحصول على إقطاعات جديدة، أى يدخل الفرسان الذين دفعهم الجوع إلى الأرض في علاقة تبعية مع سيد أو سيدين من الإقطاعيين حتى يحصلوا على مزيد من الاقطاعات[١٠١] .

وهكذا نجح كثير من الأمراء في الاستحواذ على أراضي جديدة ومتعاظمة على حين وقف الكثيرون عاجزين عن تحقيق أحلامهم

---

(98) Holt : The Age of the Crusades , p. 64

(٩٩) قاسم عبده قاسم : المرجع اسابق ص ١٠٠

(100) Rowling : op. cit. pp. 41 - 42

(١٠١) كانتور: التاريخ الوسيط ص ٣٤١ - ٣٤٣ ،

Mayer : The Crusades , p. 22

وزيادة رقعة أراضيهم[١٠٢] ، كما أن نظام الارث الاقطاعي كان يقضي بأن تؤول الأرض إلى أكبر الأبناء، أى كان حق وراثة الاقطاع قاصراً على الابن الأكبر فقط لضمان عدم تفتيت الملكية الزراعية في الأسرة بالقدر الذي يضعف قوتها وسلطانها، فيتعرض الإخوة الأصغر للضغوط الاجتماعية في الوقت الذي انحصرت فيه فرصة أولئك الفرسان في الزواج من إحدى الوارثات وهى فرصة ضئيلة بطبيعة الحال[١٠٣] ، كل هذا لم يدع الفرصة أمام الأبناء الآخرين في الاستحواذ على أرض يمكن أن تسد حاجتهم وتشبع نهمهم وأطماعهم، فلا بأس من محاولة الخروج إلى الشرق حيث الأراضي الكثيرة والضياع والواسعة التي يمكن أن تحقق تلك الأطماع السياسية لإقامة إمارات بل ممالك ثابتة بين ظهراني المسلمين حيث الأراضي الصالحة التي تفيض – على حد قول البابا نفسه ومن واقع الكتاب المقدس– لبناً وعسلاً وذلك ضمن خطبة البابا أوربان الثاني المشار إليها آنفاً في كليرمونت[١٠٤] .

وما دانت الأطماع السياسية والرغبة في تأسيس الإمارات والفوز بإقطاعات كبيرة هي المبرر الأساسي للفريق الأعظم من الأمراء، فلا نتوقع أن تسود المحبة بينهم أو يسود السلام، فقد حدثت خلافات عظيمة بينهم كادت في كثير من الأحيان تعرض الكيان الصليبي ذاته للخطر . فالمسألة ليست أكثر من تقسيم الغنائم والمنافسة في التملك والاستحواذ ، كل ذلك يؤدي إلى التصادم والشجار[١٠٥] . وحدث

(١٠٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٢

(103) Cowdrey : op. cit. p. 13 ,

قاسم عبده قاسم :نفسه ص ١٠٠ – ١٠١

(104) Reley - Smith (ed.) : The Crusades , pp. 42 - 5 ,

قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ١١٠

(١٠٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٤٢

أن نجح بعض أمراء الحركة الصليبية الأولى في إقامة إمارات لهم قبل الوصول إلى بيت المقدس . فتقاعس هذا الفريق عن نصرة إخوانه الصليبيين والسير معهم لتحقيق الغرض الذي خرجت الجيوش الصليبية من أجله وهو الإستيلاء على الأراضي المقدسة في فلسطين وربطها بالغرب الأوربي[١٠٦] ، وهذا دليل واضح على أن الأطماع السياسية كانت هي المحرك الأساسي لدى فريق كبير من أمراء الحملة الأولى وفرسانها ، وكثيراً ما ربط التحالف بين أمراء الصليبيين وبين القوى الإسلامية في الشرق لمحاربة الفريق الآخر من الصليبيين وسوف يتكرر ذلك كثيراً في عصر الحروب الصليبية لأن الأمراء حرصوا على مصالحهم الذاتية ، ولم يعد يهمهم ثمة خطة أو هدف أسمى[١٠٧] .

بقيت نقطة أخيرة قبل أن نطوى الحديث عن أسباب ودوافع الحركة الصليبية وهى تتعلق بالمدى الزمني للحركة الصليبية والمرحلة التي استغرقتها الحروب الصليبية زمناً ، ونبادر فنقول أنه على الرغم مما درج عليه بعض المؤرخين من تحديد المدي الزمني لتلك الحركة بين سنة ١٠٩٥م التي حدثت فيها الدعوة للحملة الصليبية الأولى وسنة ١٢٩١م السنة التي تم فيها طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام[١٠٨] ، فإن الواقع يؤكد أن لتلك الحركة جذوراً سبقت سنة ١٠٩٥م زمنياً وأن ثمة تيار صليبي استمر بعد سنة ١٢٩١م أى طوال القرن الرابع عشر وشطر كبير من القرن الخامس عشر، إذ لم تحدث الحروب الصليبية بطريقة فجائية ، وإنما سبقتها إرهاصات ومقدمات ،

---

(106) Riley - Smith (ed.) : op. cit. p. 12

(107) Grousset : Histoire des Croisades , III , P. 415
Stevenson : op. cit. p. 323

(108) Holt : The Age of the Crusades , p. ix, p. 104

ولـم تنتـه أيضاً في أواخـر القرن الثالث عشر فجـأة وانما لحقتها توابع وملحقات استمرت ربما إلى جزء من القرن الخامس عشر الميلادي[١٠٩] .

كما أنه لاصحة لـما جـرى عليـه العـرف مـن تحديـد الحمـلات الصليبية الـتي خرجـت مـن الغـرب إلى الشـرق في تلـك الفـترة بثمـان حملات ، إذ لم يمر عام واحد بعـد وصـول الحملـة الصليبيـة الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٨م دون مجـيء جمـوع صليبيـة جديـدة، وبعـض هـذه الجمـوع فـاقت في كثرتهـا أحيانـاً وفي أهميـة مـا حققتـه مـن نجـاح الحمـلات الصليبية التي فازت بأرقام في التاريخ. أمـا تلـك الحمـلات التي فازت بأرقام في التاريخ فقد اتجهت أربع منها نحـو بـلاد الشـام وهي : الأولى والثانية والثالثـة والسادسـة ، وإثنتـان ضـد مصـر همـا : الخامسو والسـابعة وواحـدة ضـد القسـطنطينية هـى الرابعـة ، وأخـرى نزلت بشمال إفريقيا هى الثامنة[١١٠] .

وعلى كل حال مثلت هذه الحمـلات كمـا مثـل عصـر الحـروب الصليبية كله حلقة ناشطة في العلاقات بين الشـرق والغـرب وكـان لـه دور عظيم فيما حدث من مؤثرات هنا وهناك ، فقـد أسـفر هـذا العصـر عن امتزاج واتصال بين حضـارة الشـرق وتـراث الغـرب وكـان الفضـل

---

(١٠٩) يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن ارهاصات الحروب الصليبية ربمـا حدثـت منـذ الأشتباكات بين المسلمين وجيوش الإمبراطورية البيزنطيـة خاصـة في النصـف الثـاني من القرن العاشر الميلادي(الرابع الهجري) أى ابان حروب كل مـن نقفـور فوقـاس وحنا زمسكيس في الشرق ضد المسلمين ويطلقـون علـى هـذه الحـروب اسـم مقدمـات العدوان الصليبى على الشرق وانظر عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبى ص٢ وانظر أيضاً :

Jorga : Breve Histoire des croisades, pp. 1 -3 (paris1924)

(١١٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٦

الأعظم للحضارة العربية الإسلامية في التأثير في الغرب الأوربي حضارياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً إذ أن الحروب الصليبية قد أسهمت في نقل كثير مـن المؤثـرات العربيـة الإسـلامية إلى الغـرب الأوربـي في العصـور الوسطى[١١١] .

---

(111) Longnon : Les Francais d'Outremer au Moyen Ages, p. 103 (Paris 1929)

وانظر أيضاً عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب ص ٢١٩

الفصل الثاني

تطور الصراع بين أتباع الاسلام وأتباع المسيحية
حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي

الفصل الثانى

تطور الصراع بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى

أثر الفتوحات الإسلامية فى إذكاء روح الحقد والكراهية فى نفوس الأوربين:

إن قصة الصراع بين أتباع المسيحية واتباع الإسلام قصة قديمة، ربما أقدم بكثير من العصر الذى بدأت فيه الحروب الصليبيه فى الغرب وفى الشرق على حد سواء، وربما يمكن إرجاعها إلى أوائل القرن السابع الميلادى، أى منذ ظهور الإسلام وبسط سيطرة المسلمين السياسية والدينية على كثير من الأقطار والأقاليم التى كانت تدين للإمبراطورية البيزنطية من جهة أو التى دارت فى فلك البابوية فى الغرب من جهة أخرى[1] . وعلى الرغم من أن البابوية قد حرضت أتباعها على محاربة المسلمين فى أسبانيا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر فى محاولة لاستئصال شأفتهم فى حرب انتقامية ميزتها حماسة دينية شديدة، إلا أنه لم يجر تسمية تلك الحروب بالحروب الصليبية، لأنها لم تتجه إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين من ناحية، ولأن رجالها لم يحملوا الصليب إبان تلك الحرب من ناحية أخرى، مع أن البابوية هى التى دعت إليها وحرضت على قيامها [2] .

---

(1) Jorga : Breve Histoire des Croisades , pp. 1 - 3 (Paris 1994)

(٢) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٧ وانظر أيضاً :

Fliche : L'Europe Occidentale de 888 a 1125 , pp. 550 - 5

Rousset: Les origines et les Caracteres de la premiere Croisade, pp. 49-51 (Neuchatel 1945)

ولقد كان الصدام عنيفا وجادا بين أهل الديانتين منذ القرن السابع الميلادى حين أظهر المسلمون حماسة كبيرة للجهاد فى سبيل الله منذ البداية واسترخصوا فى سبيله الأنفس والمال، فلم يكد يمضى أكثر من أثنتى عشرة سنة على وفاة الرسول الكريم، حتى استولى خلفاؤه على كل الإمبراطورية الفارسية، وانتزعوا بلاد الشام وفلسطين ومصر من بيزنطة [٣]، وامتدت دولتهم من أصفهان شرقا إلى طرابلس وبرقة غربا، وفى غضون قرن واحد من الزمان احتوت دولتهم أجزاء واسعة من آسيا حتى نهر السند شرقا، كما ضمت شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسى غربا [٤]، ثم عبر المسلمون البحر إلى أسبانيا فاستولوا عليها من القوط الغربيين فيما بين سنتى ٧١١-٧١٣م، ثم عبروا جبال البرانس فاستولوا على جنوب فرنسا وأضحت لهم مراكز فى تلك البقاع وعلى طول الساحل بين فرنسا وإيطاليا [٥]، ومخرت سفنهم عباب البحر المتوسط وارتادت أساطيلهم الحربية شواطئه شرقا وغربا، ثم ما لبثت أن دانت لهم الجزر المنبثة فى البحر المتوسط فخضعت قبرص وكريت وصقلية وسردينا وكورسيكا وجزر البليار للمسلمين فترات متفاوتة [٦].

فقد أحرز المسلمون منذ بدء حركة الفتوحات الإسلامية الأولى انتصارات باهرة على القوى المسيحية فى الشرق وفى الغرب على حد سواء، وأعادوا تخطيط الحدود السياسية لأوربا من جديد واستولوا على

---

(3) Rice : Byzantium, pp. 75 - 6

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 103 , p. 124

(٥) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٢٥٦ ،
Pirenne : Mohammed and Charlemagne , pp. 166 - 7

(٦) موس : المرجع السابق ص ٢٥٧، Lewis : The Arabs in History, p. 66،
Bury : Eastern Roman Empire , p. 88

ملحقات أوربا فى قارتى آسيا وافريقيا [٧] ، بل حطموا -على حد قول المؤرخين الغربيين-الوحدة الحضارية لحوض البحر المتوسط، ونفذوا إلى أوربا ذاتها بعد أن طوقوها بجناحين طويلين، انساب الجناح الأيسر للجيش الإسلامى ليطوق أوربا من جهة الغرب، حتى وصل هذا الجناح إلى جنوب فرنسا وتوقف فى تور-بواتيه سنة ٧٣٢م [٨] ، بينما انساب الجناح الأيمن للجيش الإسلامى ليطوق أوربا من جهة الشرق فى حركة التفاف حول القسطنطينية، محاولا النفاذ منها إلى شرق أوربا لولا أن توقف هذا الجناح أيضا بانسحاب المسلمين من أمام القسطنطينية سنة ٧١٨م [٩] ، وخلال ذلك منى العالم المسيحى بكوارث متتالية فقد على أثرها أقاليم وبلاد ارتبط بها تاريخ المسيحية ومثلت أهمية كبيرة للكنيسة الغربية وكذلك الكنيسة الشرقية فى بيزنطة، وانتشر الإسلام فيها انتشارا واسعا، فزاد ذلك فى حنق العالم المسيحى على الاسلام والمسلمين، وأذكيت خلال ذلك كله روح الحقد والكراهية فى نفوس الأوربيين شرقا وغربا [١٠] ،خاصة بعد أن دانت الأراضى المقدسة المسيحية فى فلسطين لسيطرة المسلمين منذ بداية حركة الفتوحات الاسلامية فى بلاد الشام وفلسطين أى فى أوائل الثلث الثانى من القرن السابع الميلادى [١١] .

وإذا كانت الكنيسة المسيحية قد منيت إثر الفتوحات الإسلامية والتوسع الإسلامى ضد بيزنطة بخسارة فادحة بفقد بلاد الشام ومصر

(7) Vasiliev : op. cit. I, pp. 208 -9

(8) Pirenne : op. cit. pp. 160 -7

(9) Lewis : op. cit. p. 76

Maclagan : op. cit. p. 81

(١٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٥٠

(١١) محمد الشيخ : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٨٥

والأراضي المقدسة المسيحية التى ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى[١٢]، فإن خسارتها فى شمال إفريقيا وأسبانيا كانت لا تقل جسامة عن ذلك، لأنهما كانتا من الأقطار الأساسية فى العالم المسيحى، ولهما أهمية خاصة بالنسبة للكنيسة المسيحية، ويعتبر تحول الغالبية العظمى من السكان فى تلك البلاد إلى الإسلام كارثة كبيرة للعالم المسيحى[١٣].

وبعد استقرار المسلمين فى مصر، وانتهاء الفتنة الكبرى وثبات الأمور لمعاوية بن أبى سفيان اندفع المسلمون فى فتوحاتهم في شمال إفريقيا ثم واصلوا طريقهم إلى أسبانيا[١٤]، ونهضت بهذا العبء الخلافة الأموية العربية في الوقت الذى واصلت فيه جهادها ضد البيزنطيين في الشرق لاتخاذها دمشق عاصمة لها وقربها النسبى من مراكز الامبراطورية البيزنطية فغدت وطأة الأمويين شديدة على بيزنطة ومنيت هذه بخسائر فادحة في أقاليمها وجزرها وشواطئها[١٥]. وإذا كانت الخلافة العباسية قد نقلت مركز الثقل إلى بغداد والعراق وابتعد محور الارتكاز قليلا عن بيزنطة ليخف ضغط المسلمين شيئا ما عن حدود الدولة البزنطية، إلا أنه لم ينته تماما بدليل توغل الجيوش الإسلامية في أسيا الصغرى أكثر من مرة، خاصة على عهد هارون الرشيد، حتي اضطرت الامبراطورة أيرين إلى دفع الجزية للمسلمين[١٦]،

---

(١٢) اليعقوبي : تاريخه ص ١٦٧ – ١٦٨ (تحقيق هوتسما ١٨٩٣)

(١٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٤٩

(14) Riley - Smith (ed.) : The Crusades, p. 108

(١٥) الطبري :تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٦ ،البلاذري:فتوح البلدان ص١٧١–١٧٢
العريني : الدولة البيزنطية ص ١٤٢ ،العدوي : الأمويون والبزنطيون ص ١٠٦
Camb. Med. Hist. vol. 4, pp. 22-4

(١٦) الطبري نفسه : ج١٠ ص ٩٩ ، Bury : The Later Roman Empire, II , pp. 488 - 90

ولما تململ الامبراطور التالى لها– نقفور الأول – ورفـض دفـع الجزيـة ، اجتاحت جيوش الرشيد آسيا الصغرى ، واضطر نقفور إلى الإذعـان[١٧] ، ثم قاد المعتصم جيوشه ليلقن الامبراطور ثيوفيلوس درسـا لتجـرأه علـى الحدود الاسلامية فى منطقة الثغـور ، فـاقتحم المعتصـم عموريـة مسـقط رأس الامبراطور وأذله فيها وشفى غلة انتقامه ، وأذكى فى نفس الوقت روح الكراهية فى نفوس البيزنطيين بحملته الشهيرة على عموريـة[١٨] ، ثم واصلت جيوش الخلافة العباسية هجماتها حتـى شـواطىء البسـفور فى أواخر القرن الثامن الميلادى وفى النصف الأول مـن القـرن التاسـع الميلادى .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم تكد فتوحات المسلمين تبـدأ حتى كان العرب قد اتجهوا إلى إقامة قوة بحرية كبيرة لحمايـة البـلاد التى فتحوها فى الشام ومصر من جهـة وللوقـوف فـى وجـه الأسـطول البيزنطى من جهة أخرى ، سيما وأن هذا الأسطول أخـذ يهـاجم تلـك السواحل وحـاول اسـترداد الإسـكندرية سـنة ٦٤٥م/٢٥هـ[١٩] . إذ لم يلبث العرب أن أصبحوا قوة بحرية رهيبة فى غضون سـنوات قليلـة ، مستفيدين من خبرة المصريين والشـاميين فـى البحـر ليصبـح الأسـطول الإسلامى سيد شرق البحر المتوسط ، ويصبح معاوية بن أبـى سـفيان – وهو لا يزال واليا على الشام– أمير البحر الأول وعبد الله بن سعد بـن أبى سرح والى مصر ، أميـر البحـر الثانى وينجح الأسطول الإسلامى فى

(١٧) محمد الشيخ : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٥١

Bury : Eastern Roman Empire , p. 250

(١٨) الطبري : نفسه ج١ ص ٣٤٣، Camb. Med. Hist. vol. 4 , pp. 130-131

(١٩) محمد الشيخ : تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى نهاية عهد الدولة الفاطمية ص ١٦ ،

Butler : The Arab Conquest of Egypt , p. 471

Diehl : L'Egypte Byzantin , p. 555

إلحاق هزيمة ساحقة بالبحرية البيزنطية فى الموقعة التى سماها مؤرخو العرب بذات الصوارى سنة ٦٥٥م/٣٥هـ [٢٠] ، وتصبح جزر البحر المتوسط تحت رحمة أساطيل المسلمين ، فتساقطت واحدة تلو الأخرى ، إذ استولى المسلمون على قبرص وجزر بحر إيجه ورودس وكريت وجزر أرخبيل اليونان [٢١] ، وواصل الأسطول الإسلامى سيادته فى البحر المتوسط ليهاجم القسطنطينية ذاتها على عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان ، ثم على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك الذى أنفذ حملة بقيادة أخيه مسلمة سنة ٧١٧م جرت الإشارة إليها من قبل ، لولا أن نجح الامبراطور ليو الثالث الأيسورى فى دفع المسلمين عن عاصمته لتغير الوضع السياسى فى شرق القارة الأوربية ومضى المسلمون فى اندفاعهم إلى قلب العالم المسيحى فى غرب أوربا [٢٢] .

وبعد أن حازت الأساطيل الاسلامية السيادة على الجزء الشرقى من البحر المتوسط واصلت نشاطها فى الجزء الأوسط والجزء الغربى من البحر المتوسط لتكتمل سيادة المسلمين البحرية فى البحر المتوسط كله ، خاصة بعد أن أسس إبراهيم بن الأغلب حكم الأغالبة بالمغرب الأوسط حوالى سنة ٨٠٠م ، وهى الأسرة التى سيطرت أساطيلها على الجزء الأوسط من البحر المتوسط طوال القرن التاسع الميلادى [٢٣] ، فمرحت الأساطيل الإسلامية فى هذا الجزء من البحر المتوسط ثم سقطت كريت وصقلية فى أيدى المسلمين سنة ٨٢٧م ، واستولى المسلمون على جزيرة مالطة سنة ٨٧٠م ، فدانت لهم مفاتيح التجارة الغربية [٢٤] ، ومن

---

(٢٠) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٢٥٧ ، Pirenne : op. cit. p. 153
Ostrogorsky : op. cit. p. 104

(21) Lewis : op. cit. p. 66 , pirenne : op. cit. p. 153

(22) Hussey : The byzantine world , p. 28

(23) Julien : Histoire de L'Afrique du Nord, p. 45 (Paris 1952)

(24) Ostrogorsky : op. cit. p. 210, Vasiliev : op. cit. I., p. 304

هذه الجزيرة هاجم المسلمون سواحل أوربا الجنوبية، فنزلوا في جنوب إيطاليا، وتوغلوا حتى روما ذاتها سنة ٨٤٦م، وأتموا فتح جزيرة صقليه، وأصبحت مراكزهم في جنوب إيطاليا تؤرق البابوية والدولة البيزنطية [٢٥]، وتذكى روح الحقد والكراهية في نفوس سكان العالم المسيحى كله .

وترتب على النشاط الإسلامى فى هذا الجانب من البحر المتوسط، أن أضحى للمسلمين قواعد بجنوب إيطاليا وغدا لهم قرب منتصف القرن التاسع الميلادى مراكز ثابتة لاسيما في بارى التى ظلت بأيديهم أكثر من ثلاثين عاما، ثم تحولوا إلى اتخاذ قواعد لهم على طول الساحل بين نابلى وجنوة ومراكز على ساحل البحر الأدرياتى[٢٦]، ثم اجتازوا ممرات جبال الألب إلى المناطق المجاورة، واستمرت غاراتهم أكثر من مائة عام في تلك الجهات حتى أسفرت عن قطع الصلة تقريبا بين إيطاليا قلب العالم المسيحى وغالة في العصور الوسطى [٢٧] .

وجدير بالذكر أن الهجمات التى منيت بها أوربا الغربية لاسيما في جنوب فرنسا وجنوب غالة وعلى طول الساحل بين غالة وإيطاليا، نهضت بها مجموعات من البحارة المسلمين من شمال إفريقيا ومن أسبانيا الإسلامية، وهى جماعات مستقلة أطلقت على نفسها إسم الجماعات المجاهدة في سبيل الله، وسماها مؤرخو الغرب بالقراصنة

---

(25) Lewis : Naval Power and Trade , p. 139
Camb. Med. Hist. Vol. 4, p. 141

(26) Ostrogorsky : op. cit. pp. 227 - 8 ,
ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٥٠

(٢٧) العريني : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ص ٢١٦ (بيروت ١٩٦٨) .
Keen : A Hist. of Medieval Europe , p. 23

المسلمين، لأنهم كونوا أساطيل بحرية مستقلة من الدول والقوى الإسلامية في المغرب والأندلس ونهضوا بعبء الجهاد ضد العالم المسيحى في الغرب [٢٨] ، وراحوا يجوبون غرب البحر المتوسط في حرية لم تتوافر للأساطيل الرسمية، فأسهموا فى تحقيق انتصارات على القوى المسيحية فى الغرب فى شطر كبير من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلاديين، كما أسهموا فى الهجمات الإسلامية على صقلية لإخضاع ما بقى منها بأيدى البيزنطيين [٢٩] ، وهاجموا جزر البليار وخضعت للمسلمين جزيرتا كورسيكا وسردينيا واضطر سكانهما إلى اللجوء إلى الجبال لممارسة الرعى والانزواء [٣٠] ، كما وثبت هذه الجماعات على شواطىء إيطاليا فى أوائل القرن التاسع حتى بلغوا نابلى ثم روما، وهاجموا أيضاً مراكز البحر الأدرياتي ووصلوا إلى نيس، وحازوا غنائم وفيرة من هذه الهجمات، وأضحت البحرية الاسلامية تسيطر على غرب البحر المتوسط، فاكتملت للمسلمين السيادة البحرية في هذا البحر [٣١] .

غير أن الخلافة العباسية بدأت تضعف منذ أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ومطلع القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، وتنقسم إلى دويلات وأقاليم مستقلة وتنسلخ عن حكمها الأسرات في المشرق والمغرب على حد سواء، وحتى في منطقة الشرق الأدنى في بلاد الشام وأطراف العراق، بعد أن عصفت بها الثورات والفتن الداخلية [٣٢] ، وتحكم البويهيون والأتراك في مصائرها،

---

(28) Oman : The Dark Ages 476 - 918, pp. 448 - 9
(29) Ibid. p. 449

(٣٠) العريني : المرجع السابق ص ٢١٤
(31) Cantor : Medieval History , p. 171
(32) Camb. Med. Hist. Vol. 4 , p. 276

فشهدت ثورة بابك الخرمى الشعوبية والفتنة حول خلق القرآن وقدمه خاصة حين اندلعت هذه الفتنة في مصر، فضلاً عن نشاط الشيعة وثورات الزنج في جنوب العراق وثورة القرامطة واضطراب أحوال الخلافة خاصة خلال ثورة الخزمية[٣٣] ، ثم استقلال السامانيين والصفاريين والغزنويين في المشرق وظهور الإمارات المستقلة كالطولونيين والاخشيديين في مصر والحمدانيين في بلاد الشام وأطراف العراق، فضلاً عن نشاط القبائل العربية في تلك المناطق في بلاد الشام وشمال العراق وفلسطين[٣٤] ، وكذلك ظهور دويلات المغرب المستقلة كالأدارسة والرستميين وبنى مدرار والأغالبة ثم قيام الدولة الفاطمية الشيعية في شمال أفريقيا، وانتقالها إلى مصر ووثوبها على بلاد الشام لتنازع الخلافة العباسية السنية في السلطان، وتحاول تقويض سلطانها فيما بقى لها من أملاك[٣٥] ، وترتب على ضعف المسلمين في تلك الفترة نتائج بالغة الخطورة في الصراع الإسلامي المسيحي في العالم في ذلك الوقت، في وقت تطلعت فيه بيزنطة إلى رد اعتبارها والانتقام من المسلمين لما نزل بالبيزنطيين منذ بدء حركة الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي، فضلاً عن تحفز البابوية والعالم المسيحي الغربي لنفس الغرض .

---

(٣٣) اليعقوبي : تاريخه ج٢ ص ٤٧٤ – ٤٧٥

الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج١ ص ٢٧٠

المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٤٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٥ ص ٢٣٤

ابن خلدون: العبر ج٤ ص ٣٥٥

(34) Camb. Med. Hist. vol. 5, p.245,

Canard: Histoire de la Dynastie des Hamdanides,

pp. 599 -600 .

(٣٥) محمد الشيخ : تاريخ مصر الاسلامية ص ١٣٩ ، ص ١٤٩ .

Camb. Med. Hist. vol. 4, p. 302

إفاقة الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي :

بزغت حقبة جديدة وهامة في حياة بيزنطة، فشهدت الإمبراطورية إفاقة عظيمة في القرن العاشر الميلادي، ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية في الصراع الإسلامي المسيحي[٣٦]، حين بدأ أباطرة الأسرة المقدونية حروباً ضارية ضد القوى الإسلامية في الشرق وفي الغرب على حد سواء، وحققوا انتصارات متتالية في الفترة التي شهد فيها المسلمون الضعف والانقسام فقد نجح أباطرة هذه الأسرة خاصة نقفور فوقاس وحنا زمسكيس وباسيل الثاني في إخراج بيزنطة إلى سياسة الهجوم على المسلمين في عقر دارهم لأول مرة بعد أن لزمت بيزنطة سياسة الدفاع لمدة تزيد عن ثلاثة قرون منذ الفتوحات الاسلامية الأولى، ونجح هؤلاء في مد حدودها في بلاد الشام وأعالي الرافدين، وإلى مناطق كانت قد فقدتها وخضعت للمسلمين طوال تلك القرون[٣٧]، كما أثار هؤلاء الأباطرة روح الحرب والقتال في نفوس رعاياهم وأذكوا روح الكراهية ضد المسلمين في نفوس شعوبهم، وتطلعوا إلى استعادة الأراضي المقدسة المسيحية من أيدي المسلمين، فاصطبغت الحرب منذ النصف الثاني للقرن العاشر (الرابع الهجري) بصبغة صليبية، وميزها نوع من الحماسة الدينية والإثارة الروحية التي سبقت بها بيزنطة الغرب الأوربي بنحو قرن ونصف من الزمان، حتى عدها البعض مقدمات العدوان الصليبي على الشرق[٣٨].

---

(36) Diehl : Histoire de L' Empire Byzantin. pp. 97 , p. 99 (Paris 1920)

Bailly : Byzance , p. 240 (Paris 1939)

(37) Ostrogorsky : op. cit. p. 258

(38) Grousset : Histoire des Croisades, Tome I,

عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي على الشرق ص٢

ولهذا فقد كتب أحد هؤلاء الأباطرة وهـو نقفـور فوقـاس في عـام ٩٦٤م رسالة إلى الخليفة العباسـي في بغـداد تطفـح بـالروح الصليبيـة، وتتضمن إنذاراً صيغ في عبارات دينية حماسـية، كمـا تتضمـن تهديـداً صريحاً بهدم الكعبة ونشر المسيحية في الشـرق وفي الغـرب، ويتوعـده فيها بالتنكيل، إن لم ينسحب المسلمون ويخلـون بـلاد الشـام والعـراق ومصر ويعودون إلى قلب الجزيرة العربية، وأنه قادم إلى الشـرق لينـتزع منهم حتمـاً الأراضـي المقدسـة المسـيحية في فلسـطين وبيـت المقـدس، ويستولي على الأقاليم التي كانت تتبع بيزنطة فيما مضى[٣٩]، واعتـبر المؤرخ جروسيه هـذا الكتـاب بدايـة للحركـة الصليبيـةوجاراه في ذلـك بعض المؤرخين المحدثين في الشرق وفي الغرب على حد سواء[٤٠].

وعلى الرغم من أن عهود الأباطرة الثلاثة : نقفور فوقـاس وحنـا زمسكيس وباسيل الثاني ابتداء من النصـف الثـاني مـن القـرن العاشـر الميلادي والربع الأول من القرن الحادي عشر، هى التي شـهدت ذروة هذه الإفاقة وهذه الصحوة البيزنطيـة، فـإن هـذه الـروح المتسـمة بـروح الحروب الصليبية وضحت منذ أوائل القـرن العاشـر الميـلادي أى منـذ أوائل عهـد الإمـبراطور قنسـطنطين السـابع تقريبـاً (٩١٣ - ٩٥٩م). وخليفتـه الإمـبراطور رومـانوس الثـاني (٩٥٩ - ٩٦٣م)[٤١]، اذ اصطبغت الحروب منذ ذلـك الوقـت ضـد المسـلمين بصبغـة جديـدة لم نعهدها في حروب بيزنطة من قبل، وظهرت فيها روح التعصب الديني

---

(٣٩) انظر محمد الشيخ : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٢٢٧،
سيد الناصري : الروم ص ٣٢٧
حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٠

(40) Grousst: op. cit. T. I,
Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 427 - 30

(41) Ostrogorsky : op. cit. p. 250
Canard : op. cit. p. 807

والحماسة الدينية الطاغية في الاشتباكات التي جـرت مـع الحمدانيـين في شمـال الشـام وأطـراف العـراق، وكذلـك مـع الإخشـيديين والقــوى الإسلامية في منطقة الشرق الأدنى اذ استولت بيزنطة منذ ذلـك الوقـت على مدن كثـيرة ومـدت حدودهـا لمنـاطق جديـدة لم تبلغهـا مـن قبـل وأكدت أنها بدأت تعيش فترة إفاقة عظيمة وبداية توسع خطـير علـى حساب المسلمين[٤٢] .

فلقد استولت بيزنطة خلال هذه النوبة من الحماسة على ملطيـة سنة ٩٣٤م ،وعلى الرها سنة ٩٤٤م وعلى مدينة مرعـش الهامـة سـنة ٩٤٩م ، وعلى ديار بكر من أرض الجزيرة سنة ٩٥٠م، وعلى آمد سنة ٩٥٧م وعلى سميساط سنة ٩٥٨م [٤٣] ، وحرص الإمبراطور قنسـطنطين السـابع علـى اسـتثارة الحماسـة وروح القتـال والرغبـة في الإنتقـام مـن المسلمين في نفوس البيزنطيين حتى عد هذا الإمبراطور هو الذي استهل عصـر الحـروب الصليبيـة في الشـرق قــرب منتصـف القــرن العاشـر الميلادي[٤٤] .

واستمرت هذه الـروح وهـذا المـد البـيزنطي في عهـد خليفـة هـذا الإمبراطور وفي السـنوات التاليـة علـى عهـد رومـانوس الثـاني (٩٥٩-٩٦٣م) ،حين نجحت بيزنطة في اسـتعادة كريـت مـن المسـلمين سـنة ٩٦١م في الغرب[٤٥] . وتـحولت للاستيـلاء على بعـض المعاقـل الهامة

(42) Ostrogorsky : op. cit. p. 250

(43) Vasiliev : op. cit. I, p. 306 - 8

(44) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire , p. 467

(٤٥) يحي ابن سعيد الانطاكي : التاريخ المجموع على التحقيق ص ٨٤ ، اسمت
غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٥٠
العريني : الدولة البيزنطية ص ٤٣٦ ،
Lewis : Naval power and Trade, pp. 185-6

في إقليم قيليقيا التابعة لسيف الدولة الحمداني، واتجهت القوات البيزنطية إلى شمال الشام فاستولت على بعض المدن والقلاع ودمرت حلب وخربت مساجدها سنة ٩٦٢م [٤٦] ، كل ذلك قبل أن تبزغ الحقبة الهامة بداية من عهد الامبراطور نقفور فوقاس سنة ٩٦٣م .

ثم شهدت الفترة التالية أعظم الانتصارات التي حققتها بيزنطة على المسلمين في الشرق وفي الغرب على حد سواء، خلال عهود الأباطرة الثلاثة العظام: نقفور فوقاس وحنا زمسكيس وباسيل الثاني في الفترة ما بين سنتى ٩٦٣ و ١٠٢٥م ،حتى اعتبر عصر هؤلاء الثلاثة العصر الذهبي لعهد الأسرة المقدونية[٤٧] ، إذ استرد نقفور فوقاس جزيرة قبرص من المسلمين سنة ٩٦٥م، ومرح الاسطول البيزنطي في البحر المتوسط بَعد استرداد نقفور لجزيرتى كريت وقبرص حتى تباهى هذا الإمبراطور بقوله لمبعوث إيطالي من أنه وحده أصبح يسيطر على البحر[٤٨] ثم استولى نقفور على بعض المدن والقلاع الهامة في قيليقيا وحطم دفاعات المسلمين في تلك المناطق وفتح الطرق والدروب إلى شمال الشام وشمال العراق، فمكنه ذلك من الاستيلاء على كثير من المدن والمعاقل الهامة في تلك المناطق، حيث عاث الفساد. فخرب بعض المدن وأحرق معالم مدن أخرى ومساجدها وأجبر حلب على دفع الجزية، وتمكنت قواته في النهاية من الاستيلاء على أنطاكية سنة ٩٦٩م ، ليصبح للبيزنطيين وجود فعلي في شمال الشام منذ الفتوحات

---

(٤٦) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٩٩–٤٠٠ ، Canard :op. cit. pp. 806 -7

(٤٧) الناصري : الروم ص ٣٣٠ ، Hussey : op. cit. p. 31

(48) Runciman : Byzantine Civilization , p. 151,

حسن حبشي : المرجع السابق ص ٨

الاسلامية قبل ثلاثة قرون أو يزيد(٤٩) .

بعد ذلك واصل الإمبراطور حنا زمسكيس الحروب التي شنها سلفه نقفور فوقاس في أعالي الرافدين وفي بلاد الشام ذاتها، فأجبر إمارة الموصل على دفع الجزية وجعلها إمارة حاجزة بينه وبين الخلافة العباسية، على الرغم من أنه كان يخطط للهجوم على هذه الخلافة في عقر دارها في بغداد سنة ٩٧٤م لولا أن أعاد النظر في هذا المشروع وعاد إلى عاصمته(٥٠) قبل أن يواصل في العام التالي هجومه على بلاد الشام، حيث أخضع بعض المدن وحصل الجزية من مدن أخرى وقتل وخرب وأتلف أرباض بعض المدن وكان في نيته الوصول إلى بيت المقدس واستعادتها من أيدي المسلمين في أغلب الظن لأنه كتب إلى أشوط ملك أرمينيا يقول له: " إن رغبتنا متجهة إلى استخلاص القبر المقدس من إهانات المسلمين والصلاة فيه " (٥١) ، إلا أنه اكتفى في النهاية بإخضاع بعض القلاع والمدن وعاد إلى أنطاكية ومنها عاد إلى عاصمته سنة ٩٧٦م حيث توفي فجأة، فتنفس المسلمون الصعداء، لأن هذا الإمبراطور أظهر حماسة دينية وروحاً صليبية مثل سلفه نقفور فوقاس

---

(٤٩) مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ص ٢١١-٢٢١، ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص٤١٤،

Canard : op. cit. pp. 821 - 6 ,

Ostrogorsky : op. cit. pp. 257 - 60

Grousset : L'Empire du Levant, p. 124 ,

يحى بن سعيد الأنطاكي : التاريخ ص ١٣٣ - ١٣٤ (نشر شيخو)

(50) Schlumberger: L'Epopee, I, p. 280, يحي بن سعيد: نفسه ص١٤٠

Camb. Med. Hist. vol. 4 , p. 147.

(51) Mathiew d' Edesse (Documents Armeniens, R.H.C. Arm) V. I, pp 13 - 20.

Schlumberger : op. cit. T. I , pp. 254 - 5 (Paris 1896)

وتاق لاسترداد الأراضي المقدسة المسيحية التي شهدت مولد المسيح والتي دفن بها لولا أن توفي فجأة قبل أن يحقق هدفه[٥٢] ، ومثلت حروب هذا الإمبراطور حلقة هامة وخطيرة في الصراع بين العالمين الاسلامي والمسيحي في العصور الوسطى[٥٣] .

وقد بلغت ذروة الإفاقة البيزنطية في القرن العاشر على عهد نقفور فوقاس وحنا زمسكيس لأن خليفتهما باسيل الثاني قنع بالسيطرة الكاملة على أنطاكية في بلاد الشام والسيادة غير المباشرة على حلب ، وسعى لعقد هدنة مع الفاطميين بعد أن استولى هؤلاء على دمشق سنة ٩٧٨م[٥٤] ، ولم يمنع ذلك باسيل من الهجوم على بلاد الشام قرب أواخر القرن العاشر مرتين ، حين شعر أن الفاطميين يعملون على تهديد النفوذ البزنطي في شمال الشام والاستيلاء على حلب ، فاستولى باستيل الثاني على بعض المدن ودمر مدناً أخرى وأتلف أرباض غيرها ثم عقد معاهدة جديدة مع الفاطميين[٥٥] في محاولى لإقرار الأوضاع في تلك المناطق ليتفرغ لمشاغلة في أوربا وحروبه ضد البلغار ، ولكنه مع ذلك نجح في إجبار المسلمين على الإقرار بما كان لبيزنطة من نفوذ في شمال الشام ومواصلة حكمها لأنطاكية المدينة الهامة في تلك المنطقة .

---

(52) Canard : op. cit. p. 247 , Ostrogorsky : op. cit. pp. 263 - 4

(٥٣) محمد الشيخ : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٢٦٥

(٥٤) يحي بن سعيد : التاريخ ص ١٦١-١٦٥ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص ١٧٤

Canard : op. cit. p. 855, Ostrogorsky : op. cit. p. 266

(٥٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٦٣ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ ،

Schumberger : op. cit. II , p. 86

Camb. Med. Hist. vol. 4 , p. 250

وتعتبر جهود الإمبراطور باسيل الثاني في بلاد الشام، خاتمة الحروب الصليبية التي قامت بها بيزنطة في القرن العاشر، لم تستطع خلالها أن تستولي على بيت المقدس والأراضي المقدسة[٥٦] ، وأدى ذلك إلى اعتقاد الصليبيين الغربيين بأنهم وحدهم أصحاب الفضل في استرداد بيت المقدس من المسلمين، وليس للبيزنطيين فضل سابق في ذلك، بل ترتب على تقاعس البيزنطيين في القرن الحادي عشر أن تمكن الفاطميون من بسط نفوذهم على حلب سنة ١٠١٥م ، ثم أسس المرداسيون إمارة لهم فيها سنة ١٠٢٣م ، وأنزل أحد أمرائهم الهزيمة بالجيوش البيزنطية سنة ١٠٣٠م[٥٧] ، ولم يشفع للبيزنطيين تقاعسهم عن حرب المسلمين في بلاد الشام، ما حدث من قيام الخلافة الفاطمية الفتية في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر بالدفاع عن هذه البلاد ومد نفوذها في المنطقة، كما لم يشفع للبيزنطيين انشغالهم بشئون أرمينيا وضمها إلى ملكهم اعتباراً من سنة ١٠٢١م، لأن هذه المسألة ألقت عبئاً جديداً على بيزنطة[٥٨] ، سيما وقد تطلع الأتراك السلاجقة للاستيلاء على تلك البلاد.

والخلاصة أن الروح الصليبية كانت قد بلغت ذروتها إبان حروب بيزنطة ضد المسلمين في القرن العاشر، أعقبتها فترة خمود طويلة في القن الحادي عشر، لكن على الرغم من ذلك ونظراً لأن الحروب الصليبية تبلورت حول فكرة واحدة هى استرداد الأماكن المقدسة بطريقة مباشرةأو غير مباشرة على حد قول الكونت رايان[٥٩] ،

---

(٥٦) سعيد عاشور : الحركة ج١ ص ٦٩

(٥٧) محمد الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام ص ١٨٧ ،

Grousset : L'Empire du Levant , p. 127

(58) Grousset : Histoire de L'Armenie , p. 517 f.

(59) Raint : op. cit. (Archives de L'Orient Latin) Vol. I p. 2

فلهذا يمكن اعتبار البيزنطيين من أوائل القوى المسيحية التي حاولت القيام بهذه الحروب الدينية ضد المسلمين، خاصة في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، أى قبل قيام حملات الغرب الأوربي على الشرق بنحو قرن ونصف من الزمان، ووضحت هذه الحروب منذ عهد الإمبراطور قنسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩م) ضد قوى المسلمين في بلاد الشام وأطراف العراق حين وجهت ضد الحمدانيين في السنوات الأخيرة من عهد هذا الامبراطور، ثم في حروب نقفور فوقاس بعد ذلك ومن بعده حنا زمسكيس الأمر الذي دفع بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يطلق على حروب هؤلاء ضد المسلمين " مقدمات العدوان الصليبي على الشرق "[٦٠]، على الرغم من أن بعض المؤرخين المحدثين لايميل إلى اعتبار هذه الحروب حروباً صليبية، ويجد في ذلك كثيراً من المبالغة، لأنها لم تكن موجهة إلى بيت المقدس بقد ما كانت موجهة إلى تضيق الخناق على المسلمين في الجهات الشمالية بغية قطع المواصلات بين حلب والموصل حتى تتفكك الجبهة الاسلامية ويضعف المسلمون، فضلاً عن أن دوافع هذه الحروب لم تكن دينية خالصة بل كان أكثرها دوافع سياسية، ومن هؤلاء المؤرخين المحدثين المؤرخ كانار Canard الذي أنكر تماماً وجود أية حروب بيزنطية مقدسة ضد المسلمين في تلك الفترة[٦١] .

---

(60) Schlumberger : Un Empereur Byzantin, Nicephore Phocas pp. 728- 31 (Paris 1895)

عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي على الشرق ص ٢

(٦١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٨ - ١٥، وانظر أيضاً ماريوس كانار في مقالته :

Canard : "La guerre sainte dans le monde islamique et dans le mont cretien" R. A. Lxxix (1936) . 605 - 23

الروح الصليبية في الغرب الأوربي :

ربما انبعثت روح صليبية في الغرب الأوربي أيضاً لاتقل عن تلك الروح، التي أظهرتها بيزنطة في القرن العاشر الميلادي، كانت استمرارا لما أظهره البيزنطيون من حماسة دينية من قبل، فقد اندلع الصراع رهيباً في بلاد الأندلس بين المسلمين والمسيحيين لم ينته إلا بطرد المسلمين من تلك البلاد[٦٢] . فالمعروف أن المسلمين استولوا على أسبانيا في أوائل القرن الثامن الميلادي وأقاموا بها دولة إسلامية قوية ونشروا الاسلام بها، فلم ترض الكنيسة الغربية وشعوب أوربا المسيحية عن ذلك، لأن أسبانيا كانت من أوائل البلاد التي وصلتها المسيحية، وغدت تضم كثيراً من الأماكن المقدسة التي كان يحج إليها المسيحيون من كافة البقاع، حتى في أقصى شمال غرب الأندلس في بلاد أشترياس Asturias حيث توجد مزارات لبعض القديسين[٦٣] ،ومن ثم ظلت القوى المسيحية تتحين الفرص لاسترداد أسبانيا ذلك الإقليم المسيحي الهام.

ثم قام شارلمان في أواخر القرن الثامن بحروب ضد المسلمين هناك حرصت أنشودة رولان في القرن الحادي عشرعلى اكسابها طابعاً صليبياً، وتغنت في نفس الوقت بعظمة شارلمان وبطولته في الحرب ضد العرب في أسبانيا، وبسالة رجاله ومثلهم العليا التي تتبلور حول الدين والحرب، وتعبر عن أفكار الناس في ذلك الوقت وتمثل عقلية العصر الوسيط خير تمثيل[٦٤] ، كما أخذت القوى المسيحية تتأهب أيضاً

---

(٦٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٧١ - ٧٢

(٦٣) عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ٢٣٢

(64) Crump, Jacob: The legacy of the Middle Ages, p. 183,193
LaMonte : The world of the Middle Ages, p. 248,594
(N.Y. 1949)

لاسترداد جنوب إيطاليا وصقلية من المسلمين، بعد أن دانت صقلية للمسلمين أكثر من قرنين من الزمان، ووثب منها المسلمون إلى جنوب إيطاليا وهددوا روما ذاتها وأذكوا روح الحقد والكراهية في نفوس المسيحيين فترة طويلة من الزمن ولهذا تحفزت البابوية، وحرضت على طرد المسلمين من هناك(٦٥). وهكذا يمكن القول أنه إذا لم يكن بوسع الإمبراطورية البيزنطية أن تبدأ هجومها المضاد ضد المسلمين قبل القرن العاشر فإن غرب أوربا لم يبدأ ذلك الهجوم إلا في القرن الحادي عشر الميلادي، حين شهد هذا القرن اضمحلالاً تدريجياً في قوى المسلمين في غربي البحر المتوسط سواء في أسبانيا أو في جنوب إيطاليا وصقلية.

ففي الوقت الذي أخذت فيه الخلافة الأموية بقرطبة تضعف وتضمحل بعد وفاة الوزير القدير "المنصور" سنة ١٠٠٢م (٦٦)، كانت الدويلات المسيحية الواقعة إلى الشمال والتي لم يستطع المسلمون القضاء عليها تقوى وتتوسع وهى ليون ونافار وبرشلونة وقشتالة، وهى التي انبعث منها الخطر الذي هدد المسلمين في الأندلس أو ما عرف بحركة الإسترداد التي سماها البعض بالحروب الصليبية في داخل الأندلس(٦٧). فلم تلبث الخلافة الأموية أن سقطت سنة ١٠٣٠م، وتقدم ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة فاستولى على مدريد ثم على طليطلة سنة ١٠٨٥م التي أحدث ضياعها من أيدى المسلمين دوياً هائلاً في الجانب الإسلامي، وأثار حماسة دينية عظيمة في العالم المسيحي(٦٨)، وفي

---

(65) Runciman : A Hist. of the Crusades, I , p. 57, 98

(٦٦) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٣٦

(٦٧) عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢٨،

Grousstet : Bilan de L'Histoire, p. 48

(68) Runciman : op. cit. vol. I , p. 91

السنوات القليلة التالية دعا البابا أوربان الثاني (١٠٨٩م) إلى مساندة الأسبان في حروبهم ضد لمسلمين، فاستجاب لهذه الدعوى كثير من فرسان جنوب فرنسا الذين وجدوا في هذه الدعوة فرصة للقيام بحروب صليبية حقيقية في أسبانيا(٦٩).

وترتب على سقوط طليطلة في أيدي المسيحيين أن استعان ملوك الطوائف بقوة إسلامية فتية، كانت حينذاك في شمال إفريقية وهى قوة المرابطين، فأنزل زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين الهزيمة بألفونسو السادس في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦م(٧٠) التي نزلت فيها هزيمة ثقيلة بالقشتاليين واضطر ألفونسو السادس إلى الهرب في فلول جيشه بعد أن فقد في المعركة عدة آلاف من القتلى ومثلهم من الأسرى(٧١). ثم تطورت الأمور بعد ذلك إلى أن وضع المرابطون أيديهم على كل بلاد الأندلس فيما عدا مدينة طليطلة، وعندما زالت دولة المرابطين وحل محلها الموحدون بشمال إفريقية، قام زعيمهم عبد المؤمن بضم بلاد الأندلس إلى ملكه(٧٢).

على أن المقاومة المسيحية في الأندلس انبعثت بعد ذلك من مملكة أرغونة (اراجون) ثم من كونتية برشلونة، حيث استطاع ملوك هذه الدويلات أن يقضوا مضاجع المسلمين ويطردونهم من بعض المدن في الأندلس(٧٣)، في الوقت الذي اشترك فيه فرسان الداوية والاستبارية في الحروب ضد المسلمين لاسيما في وادي نهر إبرو، فضلاً عن نشاطهم

---

(69) Grousset : L'épopée des Croisades , p. 2

المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ١٩٠ (تونس ١٩٨٢)

(٧٠) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٤١ – ١٤٣

(71) Camb. Med. Hist. Vol. 6 , pp. 398 - 9

(٧٢) ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ص ١٥١ ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣

(٧٣) ماجد : المرجع السابق ص ٢٤٠

المعروف في بلاد الشام، وتكاثرت المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية مثل هيئة القديس جوليان فضلاً عن جماعة السسترشيان، وحظيت هذه المنظمات بتأييد البابوية فاشتدت حماسة المسيحيين في حروبهم ضد المسلمين في بلاد الأندلس، كما غلب الطابع الديني على تلك الحروب ليجعل منها حروباً صليبية مقدسة(٧٤) .

ولقد نجح الموحدون في مقاومة هذه الروح الصليبية، بل وأنزلوا الهزيمة بألفونسوا التاسع ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة ١١٩٥م ، حين هاجموا الأسبان مرات وانتصروا عليهم في تلك الموقعة بالقرب من قرطبة حيث حققوا انتصاراً باهراً على قوات الأسبان مجتمعة بزعامة ألفونسوا التاسع ملك قشتالة(٧٥) ، وبالغ المؤرخون كثيراً في أعداد قتلى الفرنج في هذه المعركة، حتى ذهب المؤرخون المسلمون إلى أنهم بلغوا نحو مائة وستة وأربعين ألف محارب فضلاً عن نحو ثلاثين ألفاً من الأسرى، وعلى الرغم مما في هذا من مبالغة(٧٦) ، إلا أن ماجرى في تلك المعركة لابد قد أذكى روح الحقد والكراهية ليس في أسبانيا وحدها وانما في العالم المسيحي كله في الغرب، لهذا لم تستطع البابوية أن تغض الطرف عن هذه الهزيمة وقام البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) بإثارة الحماسة الدينية والروح الصليبية في أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالي البلاد الغربية للمشاركة في الحروب ضد المسلمين(٧٧) ، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوربا، فضلاً عن قوات أرغونة ونافار وقشتالة، وجرى إنزال هزيمة ساحقة بالموحدين في موقعة العقاب سنة ١٢١٢م ، لم تقم للموحدين بعدها قائمة ببلاد

---

(٧٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٧٦

(75) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 409

(٧٦) ماجد : نفسه ص ٢٣٩

(٧٧) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٧٧

الأندلس[٧٨] ،فأخذت المعاقل الاسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى في قبضة المسيحيين فسقطت قرطبة العاصمة السابقة للامويين سقطت سنة ١٢٣٦م ، كما سقطت اشبيلية عاصمة الموحدين سنة ١٢٤٤م ، وحتى جزر البليار استولى عليها الجنويون[٧٩] ، ولم يبق للمسلمين في أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة وهى التي قدر لها أن تعيش بعد ذلك نحو قرنين ونصف من الزمان[٨٠] .

وفي القرن الحادي عشر أيضاً بدأ الهجوم المضاد على المسلمين في جنوب إيطاليا وصقلية فقد هاجرت جموع غفيرة من النورمان من دوقية نورمانديا في غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها وإلى صقلية[٨١] ، ونجح روبرت جويسكارد في تأسيس دولة النورماند في جنوب إيطاليا وصقلية، بعد أن تم إعلانه دوقاً في أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩م[٨٢] ، كما نجح جويسكارد في انتزاع آخر معاقل البيزنطيين في إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزي سنة ١٠٦٢م ثم باري سنة ١٠٧١م ، كما نجح النورمان أيضاً في انتزاع صقلية من المسلمين، إذ انتهت عمليات فتح النورمان بها سنة ١٠٩١م ليصبح هذا التاريخ حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ، هذة الجزيرة، العهد الإسلامي بها والحقبة النورمانية الجديدة[٨٣] .

---

(78) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 410

(٧٩) ماجد : المرجع السابق ص ٢٤٠

(٨٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٧٧

(81) Keen : A Hist. of Medieval Europe , p. 69(London 1967)
Curtis : Roger of Siclly , p 62
Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 174

(82) Hearder , Waley : A Short Hist. of Italy , p. 38
Haskins : The Normans in European Hist. p. 208

(83) Curtis : op. cit. p. 100

الأتراك السلاجقة وبعث قوى الإسلام :

شهد القرن الحادي عشر أيضاً ظهور قوة الأتراك السلاجقة في المشرق حيث اتسعت دولتهم هناك وفرضت وجودها على جيرانها هناك(٨٤) ، ثم ما لبث السلاجقة أن سيطروا على معظم بلاد إيران ثم انسابوا إلى العراق وأرمينيا وآسيا الصغرى، فدخل طغرلبك بغداد سنة ١٠٥٥م، ووضع الخلافة العباسية تحت حماية السلاجقة لأول مرة في التاريخ خاصة بعد أن تحمس هؤلاء السلاجقة للاسلام وللمذهب السني(٨٥) ، وبمقدم طغرلبك إلى العراق وهيمنته على الخلافة العباسية وتوحيده بين إيران والعراق شهد العالم الإسلامي قوة جديدة وبعثاً جديداً لقوى المسلمين في منطقة الشرق الأدنى الأمر الذي استشعرت معه بيزنطة روح الخطر، لأنه كان عليها أن تتعامل منذ ذلك الوقت فصاعداً، مع قوة فتية على حدودها الشرقية، خاصة وقد تاقت هذه القوة الجديدة للتوسع على حساب البيزنطيين(٨٦) ، ورد اللطمات التي وجهت إلى المسلمين خلال فترة إفاقة بيزنطة في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، خلال عصور أباطرة الأسرة المقدونية العظام، بعد أن جددت هذه القوة دماء المسلمين، وبعثت فيهم روحاً جديدة في الوقت الذي عادت فيه بيزنطة إلى الركود والضعف في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي(٨٧) .

---

(84) Browne : Account of a rare... manuscript Hist. of the seljugue, in J. R.A.S. 1902 , PP. 588-591

(٨٥) البنداري : تواريخ آل سلجوق ص ١٠

(86) Camb. Med. Hst. Vol. 4 , p. 302

(87) Grousset : Hist. de L' Armenie. p. 596

وبعد وفاة طغرلبك اعتلى عرش السلاجقة ابن أخيه ألب أرسلان (١٠٦٤-١٠٧٢م) الذي تستند شهرته على ما أبداه من نشاط ضد الدولة البيزنطية ومحاربتها والاستيلاء على أملاكها في الشرق، فقد بدأ بانتزاع مدينتى آنى وكارس منها وكانتا تمثلان خط الدفاع الأول عن السيادة البيزنطية في أرمينيا[٨٨] ، ثم كان وقوع أرمينيا ذاتها في أيدى السلاجقة فاتحة لاستيلائهم على معظم أراضي آسيا الصغرى وفتح الطريق أمامهم لابتلاع داخليتها شيئاً فشيئاً. كما تستند شهرة ألب أرسلان على انتصاره المؤزر على قوات بيزنطة في موقعة مانزكرت (ملاذكرد) سنة ١٠٧١م ذائعة الصيت[٨٩] ، حيث حلت بالبيزنطيين أكبر كارثة منذ الفتوحات الاسلامية قبل عدة قرون، الأمر الذي أضاف إلى روح الحقد والكراهية في نفوس المسيحيين في الشرق وفي الغرب على حد سواء، وجعل أوربا الغربية ذاتها تستشعر الخطر، بعد أن يئست من استطاعة بيزنطة حراسة المداخل الشرقية لآوربا، وأوجست خيفة من هذا المد السلجوقي ، حتى ليقال أن الدعوة للحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر جاءت كرد فعل لما حل بالبيزنطيين في مانزكرت سنة ١٠٧١م وانهيار قوة بيزنطة في ذلك الوقت[٩٠] وعدها بعض المؤرخين أكبر كارثة حلت ببيزنطة عبر تاريخها الطويل ، ونقطة تحول خطيرة في تاريخ الصراع والحروب بين الإسلام والمسيحية[٩١] ، ومال على أثرها ميزان القوى الحربية في

---

(88) Laurent : Buzance et les Seldjoucides , p. 24

(89) Camb. Med. Hist. Vol. 4, p. 307

(90) Ostrogorsky : op. cit. p. 305

(91) Baynes : Byzantine Empire, p. 138
Runcimam : op. cit. Vol. I, p. 64
Grousset : Hist. dos Croisades, T. I, Introd .

منطقة الشرق الأدنى لصالح المسلمين[٩٢] .

ثم اعتلى عرش السلاجقة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاة (١٠٧٢-١٠٩٢م) ، وهو أعظم سلاطين السلاجقة على الاطلاق[٩٣]، ولوقدر لهذا السلطان أن يشهد عصر الحروب الصليبية لأصبح من الصعب التكهن بمصير الصليبيين وأطماعهم في بلاد الشام والأراضي المقدسة. لكن الأخطر من ذلك هو غزو الأتراك السلاجقة لأسيا الصغرى بعد تطرقهم إلى منطقة أرمينيا، لأن آسيا الصغرى جزء هام من بيزنطة والأرض التي طالما أمدت القسطنطينية بالمحاربين والقادة العظام، لأنها موطن الأسر الكبيرة والاقطاعيين والقادة العسكريين على امتداد تاريخ هذه الامبراطورية[٩٤] .

فلقد انساب السلاجقة في آسيا الصغرى حتى بلغوا بحر مرمرة، بعد أن تدفقوا على غربها، واستولوا على كثير من مدنها مثل نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا ووصلوا إلى البسفور، وعقدت زعامة السلاجقة خلال هذه الفتوح لسليمان بن قتلمش فاتح آسيا الصغرى وواضع دعائم سلطنة سلاجقة الروم بها[٩٥]، والذي اتخذ مدينة نيقية عاصمة لسلطنته، وبلغ أتباعه بحر إيجه بل هددوا القسطنطينية ذاتها، في الوقت الذي تشكلت فيه إمارات سلجوقية أخرى في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، حيث أقام آل الدانشمند إمارة هناك حول قيصرية

---

(٩٢) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٣٥

(93) Browne : op. cit. p. 601

(٩٤) محمد الشيخ : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٢١٢ ،

Camb. Med. Hist. Vol. 4 , p. 321

Vasiliev : op. cit. pp. 351 -2

(95) Ostrogorsky : op. cit. p. 308

وسيواس وأماسيا، فأصبح السلاجقة سادة آسيا الصغرى[٩٦] من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً، ولم يبق لبيزنطة سوى السواحل المطلة على البحر الأسود وكذلك السواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيليقيا، بينما نهض حكام من الأرمن في الرها وفي أنطاكية، كانوا يعترفون بالتبعية لبيزنطة، وظلت أنطاكية على هذا الوضع إلى سنة ١٠٨٥م والرها إلى سنة ١٠٨٧م[٩٧]، وفي نفس الوقت استفحل خطر المرتزقة السلاجقة الذين استعان بهم بعض قادة بيزنطة في آسيا الصغرى، لاسيما المتمردون ضد سلطان العاصمة والطامعون في السلطة والنفوذ[٩٨]، غير أن ظهور إمارات أخرى مستقلة ببعض جهات شبه الجزيرة تعمل لحسابها الخاص في إطار سيادة سلجوقية عامة، قد جعل مهمة استرداد آسيا الصغرى مهمة صعبة وشاقة أمام المسيحيين[٩٩].

وفي الوقت الذي شهد ظهور قوة الأتراك السلاجقة، كانت بلاد الشام تتنازعها قوى مختلفة، هيمنت على أقدارها كان أبرزها الخلافة الفاطمية وبقايا نفوذ البيزنطيين والإمارات العربية في بعض جهاتها[١٠٠]، لذا وجه السلاجقة اهتمامهم منذ البداية إلى تقويض دعائم السيادة الفاطمية في بلاد الشام من جهة، والحد من نفوذ الدولة البيزنطية في شمال الشام وغيرها من القوى من جهة أخرى. ففي عام

---

(96) Cahen : Turkish Invasions pp. 162- 4

وانظر العريني : **الشرق الأوسط والحروب الصليبية** ج١ ص ١٠ –١١

(٩٧) سعيد عاشور : **الحركة الصليبية** ج١ ص ٩٣ – ٩٤

(98) Laurent : op. cit. p. 98

(٩٩) سعيد عاشور : **المرجع السابق** ج١ ص ٩٣

(١٠٠) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق** ص١١٣، ابن ميسر: **أخبار مصر** ج٢ ص٣٧–٤٠ ابن خلدون : **العبر** ج٤ ص ٣٥٥ .

١٠٧١م نزل السلطان ألب أرسلان على مدينة حلب وأخضع أميرها محمود بن صالح المرداسي وربطه بالتبعية له(١٠١) ، ثم تحول إلى البيزنطيين فانتصر على قواتهم في مانزكرت انتصاراً باهرا في نفس العام، وجعل هذه الدولة في حاجة إلى وقت غير قصير قبل أن يفيق من هول الضربة القاسية(١٠٢) . أما في جنوب الشام، فقد وفق مقدم الأتراك الغز ويدعى أتسز بن أوق (الإقسيس) في نفس العام في الإستيلاء على بيت المقدس والرملة من يد القوات الفاطمية، ثم انتزع منهم دمشق أيضاً عام ١٠٧٥م(١٠٣)، وبدا أن النفوذ السلجوقي قد بدأ يعرف طريقه إلى هذه البلاد لأول مرة .

ولما تولى السلطان ملكشاة العرش سنة ١٠٧٢م سير أخاه تاج الدولة تتش إلى بلاد الشام، وأقطعه كل ما يفتحه من البلاد، فاستولى تتش على دمشق وبيت المقدس والرملة بعد أن قضى على الإقسيس(١٠٤)، ودخل في صراع مع سليمان بن قتلمش زعيم سلاجقة الروم بآسيا الصغرى حول حلب قتل فيه الأخير(١٠٥) ، وكان لقتل سليمان هذا أثر كبير في الضعف الذي ران على دولة السلاجقة بآسيا الصغرى، إذ لم يستطع قلج أرسلان بن سليمان وهو صبي أن يملأ فراغ والده في سلطنة السلاجقة هناك، مما أضعف جبهة الأتراك بآسيا الصغرى(١٠٦) ،كما لم يؤد ذلك إلى استيلاء تتش على حلب لأن

---

(101) Grousset : Histoire de L'Armenie, p. 627 ,

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٩

(102) Camb. Med. Hist. Vol. 4 , p. 307

(١٠٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٢٢

(١٠٤) ابن القلانسي : ذيل ص ١٠٩ – ١١٢

(١٠٥) ابن العديم : زيدة الحلب ج٢ ص ٩٦ – ٩٧

(106) Runciman : op. cit. I, p. 78

ملكشاه، ما لبث أن قدم إلى الشام وأقر الأوضاع فيها وحال دون استفحال أطماع أخيه تاج الدولة تتش في إقامة دولة سلجوقية قوية في تلك البلاد، وجعله يقنع بما في يده من مدن وقلاع[(١٠٧)]، ووضع في حلب أحد أتباعه المخلصين وهو قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكي[(١٠٨)].

كما قام ملكشاه بوضع أتباعه المخلصين بأهم مدن وقلاع بلاد الشام وأطراف العراق فاستولى في طريقة على حران وأقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم، كما ملك الرها وأعطاها للأمير بوزان[(١٠٩)]. واستولى على أنطاكية ومنحها لياغي سيان أحد قواده الأتراك[(١١٠)]. وهكذا أنشأ ملكشاه نوعاً من الإقطاع السلجوقي كان له نتائج بالغة الأهمية ورسم خطوط إمارات سلجوقية جديدة دانت له طالما كان على قيد الحياة، بحكم قوته وهيبته، ولكنها ما لبثت أن طرحت طاعة السلطنة حينما أحست بضعف هذه السلطنة وانقسامها[(١١١)].

وطبقاً لهذه التغيرات التي شهدتها المنطقة، نجد السيادة السلجوقية امتدت حتى لتكاد تشمل بلاد الشام بأسرها، واستتبع ذلك انحسار نفوذ بقايا الأسر العربية كثيراً، كما تقلصت السيادة الفاطمية أيضاً، وفشل مشروع سلاجقة الروم في التدخل في شمال الشام وربطه بسلطتهم بآسيا الصغرى[(١١٢)]، وباستثناء بعض المدن الساحلية التي

---

(١٠٧) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٢٠

(١٠٨) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٩

(١٠٩) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٤٠ – ١٤١ (أحداث سنة ٤٧٩ هـ)،
Grousser : L'Empre de Levant p. 180

(١١٠) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج١ ص ١٩

(١١١) محمد الشيخ : الجهاد ص ٢١

(١١٢) محمد الشيخ : نفسه ص ١٩
ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٩٧

بقيت في أيدى الفاطميين وبعض البيوت العربية والتركمانية نجد السيادة السلجوقية قد عمت المنطقة سواء أكانت تابعة للسلطان نفسه أم تابعة لأخيه تتش إذ أصبحت حلب وأنطاكية والرها وحران وما أضيفت إليها من إقطاع سروج والرحبة والرقة والخابور كلها بأيدي أتباع السلطان ملكشاه الأوفياء، كما مد تتش نفوذه فضلاً عما بيده من حكم دمشق وبيت المقدس والرملة إلى حمص وعرقة وأفامية وبعض حصون الساحل الشامي[(١١٣)] ، وبقيت شيزر بيد بني منقذ، وتغيرت معالم الخريطة السياسية في هذه البلاد في الفترة الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) .

(١١٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٣٠ (احداث سنة ٤٧٤)

الفصل الثالث

الأوضاع في الغرب وفي الشرق قبيل الحملة الصليبية الأولى



الفصل الثالث

الأوضاع في الغرب وفي الشرق قبيل الحملة الصليبية الأولى

شهد العالم غرباً وشرقاً تطورات هائلة في النواحي الدينية والسياسية في الفترة السابقة مباشرة لقيام الحملة الصليبية الأولى، كان لها دور في اندلاع تلك الحرب وإشعال الروح الصليبية وإحداث تلك الحلقة من الصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. ففى الغرب يمكن إجمال تلك التطورات فى الأمور التالية: ما حدث من قيام حركة الإصلاح الدينى الكلونية وتطورها فى القرن الحادى عشر، فضلا عن تطور فكرة الحج الأوربى إلى الأراضى المقدسة المسيحية فى الشرق، بالإضافة إلى تطور فكرة ومبدأ الحرب المقدسة فى غرب أوربا[1]. أما فى الشرق فيمكن إجمال ذلك فى: حدوث الخلاف المذهبى بين الخلافة العباسية السنية وحماتها السلاجقة من جهة وبين الخلافة الفاطمية الشيعية من جهة أخرى، فضلا عن تفكك القوى الاسلامية فى الشرق وعلى وجه الخصوص فى بلاد الشام وأطراف العراق، بالإضافة إلى عدم إدراك المسلمين لحقيقة الخطر الصليبى فى أول أمره[2].

---

(1) Williamson : From Feudalism to Despotism, p. 36
(London 1925)

وانظر أيضاً : ديفيز : أوربا في العصور الوسطي ص ١٠٢

(2) Encyc. of Islam Art " Alafdal " by G. Wiet
Lane - poole : A Hist. of Egypt , p. 164
Grousset : L' Empire du Levant , p. 191
Runciman : A Hist of the Crusades , I , p. 229

الغرب الأوربى :

أما فيما يتعلق بالغرب الأوربى، فقد مهدت حركة الاصلاح أو الاحياء الدينى على يد رهبان دير كلونى لقيام الحروب الصليبية، فقد بدأ هذا الاصلاح فى القرن العاشر وانبعث من دير كلونى في برجنديا[٣]، فاهتم رهبان كلونى Cluny بإصلاح أحوال رجال الدين، والدعوة إلى فضائل المسيحية من تقوى وعفة وطهارة، كما قامت هذه الحركة كاحتجاج ضد الانهماك فى الشئون الدنيوية على حساب الشئون الروحية، كما قدمت هذه الحركة منهجا يفسر الأمور المتعلقة بالطقوس الدينية[٤]، ومن أهم أسس هذه الحركة محاولة فرض رقابة أكثر على أهل الدير، ووضع حد للتهاون الذى ساد الديرين وحاد بهم عن الأسس القويمة للديرية الحقة، بإخضاع جميع الأديرة التابعة للمنظمة الجديدة للإشراف الموحد[٥]، كما كان من أهداف زعماء دير كلونى تحرير الكنيسة من تسلط الحكام العلمانيين، ونجحت الأديرة الكلونية فى تحرير نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين وربطت نفسها بالبابوية مباشرة[٦]، فغدا أثر هذه الحركة فى الحياة الديرية بعيدا، لأنها بعثت فيها الحياة من جديد، ونفخت فيها روحا جديدة[٧].

---

(٣) جوزيف نسيم : حاشية (١) في ص ١٧٢ من ترجمة لكتاب كولتون: عالم العصور الوسطى .

كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٦٨ -٣٦٩ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم)

(٤) هلستر : أوربا في العصور الوسطى ص ٢٢٨

(5) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 662 - 4

(6) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 667

(٧) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج٢ ص ٢٤٣

وتطور أمر هذه الحركة الإصلاحية فى القرن الحادى عشر إلى تحقيق إصلاح دينى شامل، باتباع نوع من الإشراف المركزى الدقيق على جميع الكنائس الغربية، وتدعيم النظام الكنسى وجعل البابا زعيما للعالم المسيحى [٨] ، كما عمد رهبان دير كلونى إلى إثارة نوع من الحماسة الدينية بشكل عام فى غرب أوربا من خلال الإنتاج ومد العمران و الاهتمام بالعلوم والآداب والثقافة والفكر، فضلا عن دعوة الناس وحثهم على زيارة الأراضى المقدسة المسيحية فى الشرق، وإقامة المحطات والمراكز التى يستريح فيها الحجاج، فامتد تأثير هذه الحركة إلى خارج غالة، حتى غدت حركة دولية وشمل نشاطها معظم أنحاء الغرب الأوربى [٩] ، وبلغت هذه الحركة ذروتها فى الفترة السابقة مباشرة لقيام الحروب الصليبية .

ومثلما أسهمت حركة الاصلاح الكلونية فى التمهيد للحروب الصليبية، نجد أن حركة الحج إلى الأراضى المقدسة المسيحية، كان لها ضلع فى التمهيد لتلك الحروب .فالمعروف أن زيارة أضرحة القديسين والأولياء أمر متأصل فى النفس البشرية، لما يحدثه ذلك من شعور بالاتصال الروحى بهؤلاء القديسين والأولياء، وما يثيرة ذلك فى النفس من عاطفة تثير الحماسة الدينية [١٠] .فإذا كانت الزيارة إلى الأراضى التى عاش ودفن بها السيد المسيح نفسة فإن الرغبة تصبح ملحة لا يمكن مقاومتها، ولهذا كان الحج إلى الأراضى المقدسة المسيحية راحة روحية عظيمة وتذكرة بما عاناه السيد المسيح من مشاق ومتاعب وتضحيات، ضربها مثلا لمن بعده وتحملها فى سبيل أتباعه[١١] .

---

(٨) جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٧٢

(9) Coulton : Med. Village , p. 210

Baldwin : Med. Church , pp. 34 - 6 , p. 41

(10) Runciman : op. cit. I. p. 38

(١١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ١٦

ولقد كان الحج نادرا فـي القرنـين الأول والثـانى الميلاديـين، إذ نزع التفكير المسيحى فى تلك الفترة إلى تأليه المسيح وإلى عالميتـه، ولم يحفل بالصفة البشرية له من ناحية، ولم تشـجع السـلطات الرومانيـة أمر الإرتحال إلى فلسطين من ناحية أخرى [١٢] ، بل إن مدينـة بيـت المقدس كانت لا تزال فى ذلك الوقت خرابا منذ أن دمرهـا الامـبراطور تيتوس (٧٩-٨١م) فى أواخر القرن الأول الميلادى.وظلت خرابا حتـى أعـاد بناءهـا الامـبراطور هادريـان (١١٧-١٣٨م) [١٣]. ولقـد تعـرف المسيحيون فى القرن الثالث على الكهف الموجود فى بيت لحم والـذى يقال أن المسـيح قـد ولـد فيـه، فمـن ثـم عظـم تبجيلهـم لـه، وأخـذوا يرتحلون إليه وإلى جبل الزيتون وإلى الموضع الذى صعد منه المسـيح إلى السماء، كما أخذوا يتوافـدون علـى المكـان الـذى يعتقـدون أن المسـيح صلب فيه، فصار من الشعائر الدينية زيارة هذه الأماكن المقدسة [١٤] ، وازداد إقبالهم على تلك البقع على الرغم من أن الكنيسة لم تعين ثوابا لمن يقوم بذلك، وإنما فعلوه بغرض البركة وإقامة الصـلاة والعبـادة فـى تلك البقع المقدسة .

ونشط الحج إلى الأراضى المقدسة فى القرن الرابع، بعـد اعـتراف الامبراطوريـة الرومانيـة بالديانـة المسـيحية، وقيامهـا بتسـهيل طـرق الحـج، وقـدوم الامـبراطورة هيلينـا Helena والـدة قنسـطنطين إلى فلسطين[١٥] ، والعثور على خشـبة الصليـب المقـدس، واكتشـاف آثـار السـيد المسـيح والمقدسـات الدينيـة المتعلقـة بـه، وقيـام الإمـبراطور

(١٢) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٧

(13) Runciman : op. cit. I, p. 38

(14) Runciman : op. cit. I, p. 38

(15) Jacob Burckardt : The Age of Constantine the Great , p. 323

قسطنطين الكبير ببناء كنيسة المهد فى بيت لحم وكنيسة القيامة فى بيت المقدس[16] ، أو الضريح المقدس التى صارت طيلة تاريخها أقدس مكان بالنسبة للعالم المسيحى كله ، بما وضع فيها من أيقونات وما حوته من تمثال العذراء الذى ألبسه الأباطرة وكبار الأمراء الحلى من الذهب ، وزينوه بالأحجار الكريمة والجواهر الغالية تعبيرا عن إيمانهم العميق ، فإذا كان فى قدرة الأغنياء أن يلبسوا هذا التمثال تلك الحلى الثمينة وأن يزينوه بتلك الجواهر الغالية ، ففى قدرة الفقراء من الناس أن يقدموا تعبهم وما يمكن أن يتجشموه من مشاق فى رحيلهم إليه قربانا كريما هو أصدق تعبير عن إيمانهم الصادق العميق [17] .

ولهذا شهد القرن الخامس الميلادى ذروة نشاط الحج فى دوره المبكر ، وذلك بعد أن أعلن بعض رجال الدين المسيحى أنه من الممكن الحصول على عون الله وتحقيق المعجزات بالدعاء عند أضرحة القديسين ، وأن زيارة الأحرام الطوبانية ، تطهر النفس من أخطائها وخطاياها وتكفر عن آثامها وأن القداسة ليست فى بيت المقدس وحدها ، وإنما شملت كل مكان فيه قديسون وشهداء [18] . واعتبر القديس جيروم أنه من الإيمان زيارة فلسطين [19] ، بل إنه حث على تحريك المسيحيين لزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق ، بل وحاول تنظيم إقامتهم أثناء هذه الزيارة ، وأدى ذلك إلى زيادة عدد الحجاج الذين وفدوا من معظم بقاع الغرب الأوربى [20] ومن بيزنطه أيضا ، فقد هجرت الإمبراطورة يودوكيا Eudecia زوجة الإمبراطور ثيودسيوس الثانى

---

(16) **Runciman** : The Pilgrimage to Palestine , p. 69

(١٧) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ١٦

(١٨) حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٨

(19) **Runciman** : A Hist. of the Crusades , I , p. 40

(٢٠) حسن حبشي : نفسه ص ١٧

حياة البلاط، ورحلت إلى بيت المقدس حيث عاشت فـى عزلـة هنـاك وشغلت نفسها بالعناية بالآثار المقدسة ، بل أخذت تجمع كل ما تصل إليه يداها من تلك الآثار وتبعث به إلى القسطنطينية [٢١] .

لكن هذه الحركه ما لبثت أن اعتراها الذبول فى القرنين السادس والسابع على أثر تعذر المواصلات البحرية بسبب هجمات الوندال، ثـم التوسع الإسلامى، على الرغم من أن عددا من الحجاج لم يعدم وسـيلة للوصول إلى الشرق للقيـام بـالحج، إذ مـا زال المسـيحيون فـى الغـرب يتطلعون فى شوق ولهفة إلى الأماكن المقدسـة فـى الشـرق، ولازال يفـد مئات من الشجعان بعـد مواجهـة الأخطـار للوصـول إلى فلسـطين، وإن استغرقت رحلاتهم سنوات [٢٢] .

على أن حركة الحج ما لبثت أن نشطت فى القرن الثـامن علـى أثر استقرار الأمور نسبيا فى غرب أوربا وفى الشـرق أيضـا، وزاد عـدد الحجاج وتعددت أجناسهم، وتبادلوا الرسائل مع سادتهم وأصدقـائهم فى مواطنهم الأصلية، وكتبت بشـأن الحـج مذكـرات لا تـزال بعضهـا محفوظة إلى الآن [٢٣] ، كما نشطت الحركـة لمـا أظهـره المسـلمون مـن تسامح جم مع الحجاج المسيحيين، الأمـر الـذى شـجع شـارلمان علـى إقامة علاقات ودية مع هارون الرشيد، وتمكن بفضـل ذلـك مـن إقامـة بعـض الـنزل فـى الأراضـى المقدسـة لتسـهيل عمليـة الحـج ورعايـة الحجاج، وساعد على زيادة عدد الحجـاج فـى تلـك الفـترة أيضـا مـا أعلنته بعض الكنائس الغربية من وعـود بـالمغفرة، واعتبـار الحـج مـن

---

(21) Bury : Hist. of the Later Roman Empire , I , p. 225 - 33

(22) Runcinam : The Pilgrimage to Palestine , p. 71

(٢٣) انظر ترجمة بعضها في الجزء الثالث من مجموعة
Palestine Pilgrims Text. Society
وانظر كذلك حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٨

وسائل التوبة [٢٤] .

وإذا كانت حركة الحج قد انتابها عهد آخر من الضعف والاضمحلال فى القرن التاسع على أثر اضمحلال الامبراطورية الكارولنجية ، وخطورة المواصلات البحرية بسبب هجمات الفيكينج والمسلمين، إلا أن هذا العهد لم يدم طويلا ، فقد عادت الحركة من جديد إلى نشاطها فى القرن العاشر الميلادى الذى يعد العهد الزاهر لحركة الحج [٢٥] ، بل يكاد ينعقد الاجماع على أنه القرن الذى بلغ فيه الاقبال على الحج غايته ، فقد شهدت هذه الفترة تقلص النفوذ الاسلامى فى كثير من نواحى البحر المتوسط، وخرجت من أيدى المسلمين بعض الموانى فى جنوب إيطاليا وسواحل فرنسا ، وفقدوا فيه جزيرة كريت [٢٦] ، وهيمنت البحرية البزنطية على معظم نواحى البحر المتوسط واستعادت نفوذها فيه ، وفقد المسلمون كثيرا من مراكزهم البحرية فى غربى البحر المتوسط، وتسامحت السلطات الاسلامية فى فلسطين سواء أكانت عباسية أم إخشيدية أم فاطمية [٢٧] ، فضلا عن تطور عقيدة الثواب نفسها عند المسيحيين والرغبة فى الفوز بالمثوبة بزيارة الأراضى المقدسة ، حتى بلغ الأمر ببعضهم حد الاعتقاد بأن زيارة الأراضى المقدسة تخلص المرء من جميع خطاياه[٢٨] ، بل ساد الاعتقاد يوم ذاك بأن نهاية العالم قد دنت ، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين على رأس الألف من السنين التى غبرت ، ولم تقف رغبة

---

(24) Runciman : op. cit. , p. 71

(25) Ibid. p. 73

(٢٦) اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ص ٢٦٢ ،

Ostroyorsky : op. cit. pp. 251 - 2

(٢٧) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٩١

(28) Runciman : The Pilgrimage to Palestine , p. 73

هؤلاء الحجاج عند الزيارة فحسب بل أراد بعضهم البقاء بفلسطين حتى يوافيه الأجل[٢٩] . وشيئا فشيئا وابتداء من القرن العاشر تحددت أماكن قيل أن زيارتها تخلص المرء من آثامه وخطاياه بعضها فى أسبانيا وأخرى فى إيطاليا خاصة فى روما وثالثة وهى الأهم الأماكن المقدسة فى فلسطين التى يرتبط بها تاريخ المسيحيه الأولى[٣٠] .

وفى القرن الحادى عشر وحتى العقدين الأخيرين منه ظلت حركة الحجاج دائبة ، وتدفقت جموع الحجاج إلى الشرق ، وساروا فى جماعات كبيرة بلغت أعدادها أحيانا عدة آلاف اشترك فيها الرجال والنساء، وكانت هذه الجموع تعود إلى الغرب فتستقبل استقبالا رائعا فتبعث فى المواطنين هناك حماسة وشوقا إلى الأراضى المقدسة واهتماما بها [٣١] . وهكذا تطورت عملية الحج إلى الأراضى المقدسة وساعد على تطورها فى الفترة الأخيرة ما حدث من قيام رهبان دير كلونى من بناء المراكز والنزل التى يستريح فيها الحجاج خلال رحلتهم، فضلا عن جهودهم فى ترغيب الحجاج للقيام بزيارة الأراضى المقدسة فى الشرق ، ولهذا زاد حجاج فرنسا واللورين على حجاج الأقطار الأخرى[٣٢] .

أما عن تطور ونمو فكرة الحرب المقدسة فى غرب أوربا ، فعلى الرغم من أن الديانة المسيحية كانت ديانة سلميه نبذت الحروب منذ البداية ودمغتها بأنها ليست إلا مذابح بشرية رهيبة ، فإن الأمور ما لبثت أن تبدلت بعد قيام دول مسيحية فى أوربا وظهور فكرة القتال

---

(٢٩) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ١٩ - ٢٠

(30) Runciman : A Hist. of the Crunsades, I , p. 44

(31) Runciman : op. cit. I , p. 50

The Pilgrimage to Palestine , p. 76

(٣٢) حبشي : المرجع السابق ص ٢١

للدفاع عن الوطـن المسيحى والديـن المسيحى، ثـم مـا لبـث القديـس أوغسطين أن أعلن بأن الحـرب يصـح أن تنشـب بـأمر مـن ا لله[٣٣] ، على حين أسهمت طبعة المجتمع الأوربى في العصور الوسطى في تطـور فكرة الحرب المقدسة، فقد غدا ذلـك المجتمـع مجتمعـا حربيـا يغلـب عليه الطابع العسكرى على أثر غزوات الجرمان والسـلاف والمجريـين والفيكنـج بـل والمسـلمين أيضـا[٣٤] ، وجنـح ذلـك المجتمـع إلى نظـام الفروسية. واتخذت الطبقة الاقطاعية الحرب وسـيلة لتمضيـة الوقـت، واستمد النبيل مكانته من شجاعته وفروسيته ومدى حبه للقتال، ولهذا انتشرت الحروب الاقطاعية، وازداد العنف في المجتمع الأوربى[٣٥] .

ولعل ذلك ما دفع بعض رجال الدين وآباء الكنيسـة إلى محاولـة التخفيف من حدة القتال ومنع الحرب، بل عقدت مجالس دينية مـن أجـل ذلـك تقـرر فيهـا الالتجـاء إلى التحكيم لا إلى السـلاح في حـل المنازعات، كما تقرر أن كل من يخرج عن هـذه القـاعدة ينبغـى قطعـة من رحمة الكنيسة[٣٦] ، وذلك مـن أجـل أن تحـول الكنيسـة جهـود الفرسان إلى ما اعتبرته أكثر نفعـاً وفـائدة فبذلـت الكنيسـة كـل مـا في طاقتها لمحاولة حصر نطاق الحرب في المجتمع الإقطاعي خلال القـرن الحادي عشر بصفة خاصة[٣٧] ، إذ قررت الكنيسـة مـا يعـرف بهدنـة ا لله Treuga Dei التي نهت عن القتال في الأيام الأخيرة مـن الأسـبوع وفي الأعيـاد الدينيـة، كمـا قـررت الكنيسـة أيضـاً سـلام ا لله

---

(33) Runciman : A Hist. of the Crusades , I, p. 84

(34) Camb. Med. Hist. Vol. 2, p. 129

(35) James : Hist. of Chiralry , p. 14 (London 1830)

(٣٦) العريني : الشرق الأوسط ص ١٠٢

(٣٧) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٤٢

Pax Dei الذي أنكر شن الهجوم على غير المقاتلين أو علـى التجـار أو على النساء أو الفلاحين الآمنين[٣٨] ، فكـأن هدنـة ا لله وسـلام ا لله أو السلام الإلهى ألزما تحريم القتال في فترات معينة وضـد فئـات معينـة من الناس، وفرضت على النبلاء الاقطاعيين أن يكونوا جماعات لحفـظ السلام، وأن يعدوا بعدم القتال في أيام معينة[٣٩] .

ويبدو أن رجال الدين كـانوا قـد نزعـوا إلى فكـرة تحويـل نشـاط الفرسان إلى قتال المسلمين، وتوجيه الحروب لصـالح الكنيسـة، أى أن رجال الديـن صرحـوا بـالحرب إذا كـانت حربـا مقدسـة وفـى خدمـة الكنيسة، بل إن الكنيسة شجعت على قيام تلك الحروب المقدسة[٤٠]. فقد صرح البابا ليو الرابع Leo IV فى منتصف القـرن التاسـع الميـلادى بأن أى شخص يموت أثناء الدفاع عن الكنيسة سوف ينـال ثوابـا مـن الرب، كما أن البابا يوحنا الثامن John VIII اعتبر-بعد ذلك بسـنوات- أن من يموتون فى الحرب المقدسة يصبحون مـن الشـهداء[٤١] . ويبـدوا أيضا أن تطور هذه الفكرة قد صاحب نشاط المسلمين فى الجزء الأوسـط والغربى من البحر المتوسط، فضلا عـن هجمـاتهم فـى جنـوب إيطاليـا وجنوب فرنسا وفى أسبانيا، ولهذا أسهمت الظروف العسكرية فى نمو وتطور فكرة الحرب المقدسة فى الغرب الأوربى، فقد اتخذ القتال ضـد المسلمين فى أسـبانيا صفـة الحـرب المقدسـة، ولم يلبـث البـابوات أن اشتركوا فى توجيهها[٤٢] .

---

(38) Painter : Western Europe on the Eve of the Crusades, p. 16

(٣٩) كانتور : المرجع السابق ص ٣٤٢

(40) Runciman : A Hist. of Crusades, I, p. 84

(41) Ibid. p. 84

(٤٢) العريني : المرجع السابق ص ١٠٦

وبلغ تطور هذه الفكرة الذروة على عهدى البابا اسكندر الثانى والبابا جريجورى السابع ابتداء من العقد السابع من القرن الحادى عشر الميلادى، فقد أعلن الأول وعوده بغفران الكنيسة لكل من حارب من أجل الصليب فى شبه جزيرة أيبيريا، بل وعمل على جمع المحاربين من أجل ذلك على حين دعا البابا جريجورى السابع المحاربين المسيحيين لمواصلة القتال هناك، كما أعلن سيادة الكنيسة على أسبانيا المسيحية وحدد جزاءً روحيا لكل من يموت من المحاربين هناك ضد المسلمين[٤٣]، ومضى فى ذلك حد إعلانه أن كل فارس مسيحى يمكنه الاحتفاظ بالاراضى التى ينتزعها من العدو كاقطاع خاص به، وتحددت بذلك فكرة الحرب المقدسة أى الحرب فى خدمة الكنيسة والمسيحية[٤٤].

وقرب أواخر القرن الحادى عشر بذل البابا أوربان الثانى كل ما فى وسعه لتأييد الحروب المقدسة، فطلب من الحجاج أن يغدوا إلى أسبانيا وأن ينفقوا أموالهم فى عمارة ما تخرب من المدن الأسبانية[٤٥]. وفى القرن الثانى عشر راح الكتاب الكنسيون يحاولون تنمية فكرة الكنيسة عن الفارس المثالى المسيحى الورع الهادف إلى حماية الكنيسة المدافع عن عقيدتها الذى ينكر الجرائم ويرعى الضعفاء، وأخذ رجال الدين فى تشجيع استخدام الطقوس الدينية فى احتفالات تنصيب الفرسان وتدشينهم[٤٦].

---

(43) Runciman : op. cit. I, p. 91

(44) Ibid. p. 91

(45) Raint : Inventaire critique , pp. 68 - 9

(46) Williamson : From Feudalism to Despotism , p. 36 (London 1925)

وانظر أيضاً : ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ١٠٢ – ١٠٣

الدولة البيزنطية:

ولقد اعتبرت الدولة البيزنطية حصن المسيحية فى الشرق والدولة التى استطاعت أن تتصدى للإسلام وتمنع المسلمين من النفاذ إلى أوربا من جهة الشرق، وتمكنت من رد ذلك الخطر عدة قرون لتصبح بمثابة حصن أمامى لحماية حدود أوربا المسيحية[٤٧] ، هذه الدولة أصبحت تمر بأزمة خطيرة فى النصف الثانى للقرن الحادى عشر الميلادى، بعد انتهاء عهد الأسرة المقدونية سنة ١٠٥٧م وهى الأسرة التى منحت الامبراطورية البيزنطية فترة من القوة والتماسك امتدت نحو قرنين من الزمان[٤٨] ، بل إن الضعف والاضمحلال بدأ يدب فى أوصال هذه الإمبراطورية فى الفترة الأخيرة من عصر هذه الأسرة بعد وفاة الامبراطور باسيل الثانى ١٠٢٥م وحتى نهاية عهد الأسرة سنة ١٠٥٧م، حين ركنت بيزنطة فى سياستها الخارجية على ما حازته من هيبة ومكانة فى العصر السابق فى الوقت الذى ران على سياستها الداخلية الضعف والتداعى[٤٩] ، وتهيأت الفرصة أمام الطامعين والباحثين عن الجاه والسلطان، وانهار النظام السياسى بما فى ذلك الناحية العسكرية، ونظم الدفاع وتداعت السلطة الامبراطورية تداعيا خطيرا وعجز الأباطرة عن كبح جماح الأرستقراطية الإقطاعية فى الأقاليم وكذلك الأرستقراطية المدنية فى العاصمة، ونشب الصراع بين هذين الفريقين للفوز بالحكم[٥٠] .

---

(47) Lewis : The Arabs in Hist. p. 76
Maclagan : The city of Constantinople, p. 81

(48) Lemerle : Histoire des Byzance , p. 86 (Paris 1975)

(49) Vasiliev : op. cit. I , p. 351

(50) Ostrogorsky : op. cit. p. 288 ,
Camb. Med. Hist. Vol. 4, p.319

ثم ما لبثت الإمبراطورية أن عانت الضعف والاضمحلال في الفترة بين ١٠٥٧-١٠٨١م فضعفت السلطة المركزية، وبرزت سلطة الأمراء الإقطاعيين وتفكك جيش الامبراطورية فى الوقت الذى اجتاحت فيه الأخطار جبهة البلقان من قبل البجناك وهجمات النورمان، وتقدم النورمان بقيادة روبرت جويسكارد وولده يوهيموند فأنزلوا بالإمبراطورية هزائم متوالية(٥١)، كما تقدم الأتراك السلاجقة فى الجبهة الشرقية بقيادة ألب أرسلان كما سبق أن بينا، فأحرزوا انتصار باهرا على الامبراطور رومانوس ديوجينز Diogenes فى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١م ووقع الامبراطور نفسه أسيرا فى يد ألب أرسلان وأصيبت بيزنطة بكارثة خطيرة إثر هذه الهزيمة(٥٢).

ولقد ترتب على هذه المعركة بالذات نتائج بالغة الأهمية، إذ استقر الأتراك السلاجقة والتركمان بالأراضى البيزنطية، والتمس سكان أرمينيا وقبادوقيا الحماية منهم بعد أن أدركوا عجز بيزنطة عن الدفاع عنهم، بل أخذت جماعات من الأرمن تهاجر إلى بقاع أخرى داخل الامبراطورية البيزنطية(٥٣). وأدى ازدياد ضعف بيزنطة فى الفترة التالية أن تهيأت الفرصة للتركمان للتوغل فى داخل آسيا الصغرى ليس للإغارة وإنما للإقامة(٥٤)، فبلغوا فى زحفهم بحر مرمرة والبسفور

---

(51) Charanis : The Byzantine Empire , in Setton : The Crusades, I, pp. 180 - 2

Runciman : A Hist. of the Crusades , I , p. 56

Haskins : The Normans in European Hist. pp. 200 - 2

(52) Cahen : Tnrkish Invasion , p. 148

Charanis : op. cit. p. 193

(53) Grousset : Histoire de L'Armenie , p. 554

(54) Runciman : op. cit. I, PP. 64 - 5

وبحر إيجة واتخذوا من نيقية عاصمة لهم وسيطر سليمان بن قتلمش على أطراف الجزيرة وبعض جهات الشام[٥٥] .

لكن الأخطر من ذلك فيما يتعلق بنتائج مانزكرت أن عجزت بيزنطة عن حشد جيش آخر لصد خطر الأتراك السلاجقة ففقدت بذلك لقب حامية أوربا والمسيحية ضد الإسلام، بل إن هذه الهزيمة جاءت دليلا على نهاية دور بيزنطة فى حراسة الباب الشرقى لأوربا من غزو الأسيويين [٥٦] ، وتقدم الأتراك السلاجقة فبسطوا نفوذهم على حساب بيزنطة وتوسعوا فى أملاكها حتى استولوا على معظم آسيا الصغرى، ووقعت فى أيديهم أهم المراكز البيزنطية فى شمال الشام وأطراف العراق [٥٧] .

وذا كان الامبراطور ألكسيوس كومنين الذي حكم من سنة ١٠٨١م إلى سنة ١١١٨م قد استطاع التغلب على بعض صعاب الامبراطورية، بأن حقق اسقراراً نسبياً بالداخل وصد هجمات النورمان، وتصدى للاخطار التي هددت جبهة البلقان[٥٨] ، فإنه وقف عاجزاً عن التصدي لخطر السلاجقة، لما يحتاجه ذلك من جيش كبير لم يتوافر له وجهود مضنية لم يكن يستطيع النهوض بها، لهذا أضحى بحاجة إلى عون خارجي كيما يتمكن من صد ذلك الخطر، ولهذا قيل أنه استنجد بالبابا أوربان الثاني وبعض قادة الغرب الأوربي، وحتى يضمن تحرك البابا، أشار ألكسيوس إلى أنه لابد من تحرير الأراضي المقدسة المسيحية من المسلمين، ولن يتأتى ذلك إلا بإرسال نجدات من الغرب الأوربي[٥٩] .

---

(55) Cahen : op. cit. p. 150 , العريني : السرق الأوسط ص٨

(٥٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٨٨

(٥٧) العريني : المرجع السابق ص ٨

(58) Runciman : op. cit. I, p. 74

(59) Charanis : op. cit. p. 219

البابوية :

كانت القطيعة الدينية قد حدثت بين بابوية روما وكنيسة القسطنطينية سنة ١٠٥٤م بسبب رغبة روما في فرض سلطانها الديني على القسطنطينية، مع عناد هذه ورغبتها في الاستقلال عن كنيسة الغرب، للخلاف المذهبي واللغوي بين العالمين الاغريقي واللاتيني من ناحية، واعتقاد بيزنطة أنها أكثر رقياً وحضارة من الغرب من ناحية أخري[٦٠]، وقوى هذا الخلاف ما حدث من دخول النورمان في حلف مع البابوية اعتباراً من سنة ١٠٥٩م مع ما كانوا يمثلونة من خطر على أملاك بيزنطة في جنوب إيطاليا بل وفي البلقان ذاتها، فما لبث النورمان أن استولوا على باري سنة ١٠٧١م ،وتهيأوا لابتلاع بقية أملاك بيزنطة ي جنوب إيطاليا، فأدى ذلك إلى دفع بيزنطة إلى محاولة مصادقة البابوية والتقرب منها لاستخدامها أداة لوقف خطر النورمان في الغرب[٦١]، خاصة بعد أن منيت بيزنطة بكارثة في مانزكرت في نفس العام الذي فقدت فيه باري في جنوب إيطاليا .

وفي الوقت الذي جذبت فيه المحنة التي منيت بها بيزنطة في الشرق انتباه البابوية وأثارت اهتمام الغرب الأوربي كله، اعتلى البابا جريجوري السابع سنة ١٠٧٣م كرسي البابوية وشغله حتى سنة ١٠٨٥م، ولهذا سارع الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧٢ - ١٠٧٨م) بتهنئته وقرن ذلك بإبداء رغبته في توطيد العلاقات والمودة مع البابوية[٦٢]، وفي نفس الوقت كان هذا البابا يفكر في شن الحرب

---

(60) Ostrogorsky : op. cit. p. 297, Vasiliev : op. cit. I, p. 338
Camb. Med. Hist. Vol. 4, p. 259

(61) Ruuciman : op. cit. I, p. 97 -8
Holt : The Age of the Crusades, p. 17

(62) Runciman : op. cit. I , pp. 98 - 100
Holt : op. cit. p. 18

المقدسة على المسلمين في الشرق بعد نجاحها في أسبانيا خاصة بعد أن أرسل له ذلك الامبراطور يطلب منه النجدة لصد خطر الأتراك السلاجقة المتزايد في آسيا الصغري، ووجد البابا في هذه الدعوة فرصة سانحة لوضع حد للقطيعة الدينية الكبرى التى حدثت سنة ١٠٥٤م بين كنيستي القسطنطينية وروما، وفرض سيادته على كنيسة القسطنطينية(٦٣) .

وبلغ من حماسة هذا البابا لتقديم العون للبيزنطيين ضد المسلمين أن فكر في إعداد حملة عسكرية يقودها بنفسه، تتجه نحو الشرق، على إثر الحماسة التي أبداها بعض الرعايا الكاثوليك في غرب أوربا لاسيما في إيطاليا، بعد الرسائل التي بعث بها هذا البابا إلى بعض ملوك وأدواق أوربا(٦٤) أوضح فيها سوء موقف المسيحيين في الشرق، وما كانت تعانيه بيزنطة على أيدي الأتراك السلاجقة، أمل البابا من خلالها أن يقدم العون لبيزنطة ويستخلص لها آسيا الصغري، فإذا نجح في ذلك أقبل المسيحيون في الشرق على الاعتراف بزعامته وزعامة روما الدينية(٦٥) .

ومن الثابت أنه في سنة ١٠٧٤م كانت هناك خطة جاهزة لدى البابا جريجوري السابع لمساعدة القسطنطينية ، إذ يؤكد بعض المؤرخين المحدثين أنه عثر على ست وثائق تتعلق بمشروع هذه الحملة منها رسالة أرسلت إلى الامبراطور هنري الرابع(٦٦) قال فيها البابا " إن

---

(63) Runciman : op. cit. I , pp. 98 -9
Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 270
(64) Holt : op. cit. p. 18
(65) Runciman : op. cit. I, p. 99
العريني : الشرق الأوسط ص ١١٢
(٦٦) اسحق عبيد: روما وبيزنطة من قطيعة فوتيوس حتى الغزو اللاتيني للقسطنطينية ص ٢٥ – ٤٣٩؛ قاسم عبده قاسم: المرجع السابق ص١١٤ .

المسيحيين فيما وراء البحار فقدوا عدداً كبيراً منهم وأخذوا في الهلاك، ويذبحون ذبح الماشية على أيدي الوثنيين، وأخذ الجنس المسيحي في الفناء وأرسل بعضهم في طلب النجدة من اخوتهم المسيحيين.."(٦٧)، وفي رسالة أخري من تلك الرسائل قال البابا : ".. ونأمل ان نعبر إلى القسطنطينية لتقديم العون للمسيحيين الذين يعانون الكثير من جراء هجمات المسلمين المتعددة والذين رجونا بلهفة لتقديم العون لهم"(٦٨).

غير أن البابا لم يمض في سياسته، ولم يتمكن من تنفيذ مشروع الحملة المقدسة التي أزمع القيام بها، لأنه مالبث أن دخل في صراع رهيب مع الامبراطورية في الغرب، وجاءت السنوات لأخيرة من عد هذا البابا طافحة بالآلام والمتاعب، فقد نجح هنري الرابع في اقتحام روما وتنصيب بابا آخر مناهض فيها، في الوقت الذي اضطر فيه جريجوري السابع إلى الفرار إلى الأراضي الخاضعة للنورمان حيث توفي بعيداً عن روما سنة ١٠٨٥م (٦٩) ،بل شهدت السنوات القليلة قبل وفاته برودا في العلاقات بين الغرب المسيحي والشرق البيزنطي وبالتالي بين بابوية روما وامبراطورية بيزنطة، فقطع الامبراطور ألكسيوس من رحمة الكنيسة، ولقي النورمان تشجيعاً من البابا لمهاجمة أملاك بيزنطة، بينما أظهر ألكسيوس كومنين تأييده للامبراطور هنري الرابع في نزاعه مع البابوية وقدم له المساعدة علناً، فزاد ذلك من فتور العلاقات وبروز العداوة من جديد بين الجانبين(٧٠) ،ولهذا لم يظهر

---

(67) Minge : Patrologia Latina CVXIII , 329

وانظر عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٥

وقاسم عبده قاسم : نفسه ص ١١٤

(68) Minge : op. cit. 329, وعمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢٥

(69) Holt : op. cit. pp. 17 - 18

(70) Runciman : op. cit. I, p. 100

خليفة جريجوري السابع – فكتور الثالث – حماسة لنجدة بيزنطة، بل إنه لم يكن من القوة بحيث يصلح لمثل هذه المشروعات الكبيرة بل إنه لم يعمر طويلاً في كرسي البابوية إذ توفي سنة ١٠٨٧م ،وترك مشاكل البابوية ومشروع الحملة المقدسة لخلفه الذي عرف بالبابا أوربان الثاني[٧١] .

والواقع أن الظروف غدت مهيأة للبابا الجديد لكي ينجز المشروع الكبير الذي فكر فيه البابا جريجوري السابع، لاسيما وأن ذلك سوف يقترن بمد سلطان البابوية والكنيسة الكاثوليكية إلى الشرق، فلقد مهدت حركة الإصلاح الديني الكلونية السبيل لقيام نهضة دينية في غرب أوربا[٧٢] ، واستحوذت الكنيسة الغربية على سلطان عظيم ونفوذ كبير على كل رعاياها الكاثوليك وأصبحت البابوية قوة لها خطورتها في أوربا[٧٣] ،ونهضت البابوية لتنازع الملوك العلمانيين سلطانهم وتفرض سلطانها الديني في الشئون الدنيوية خاصة على عهد البابا جريجوري السابع[٧٤] ، فكان لابد من التفكير في مد هذا النفوذ إلى شرق أوربا والقسطنطينية بل وإلى الأراضي المقدسة المسيحية في فلسطين إن أمكن، لذا كان البابا أوربان الثاني يتحين الفرص لإثارة الغرب، وقد نظلمه إذا قلنا أن الدين كان كل شئ وراء ذلك[٧٥] ،إذ الواقع أن البابوية كان لها سياستها ورؤيتها ونظرت إلى مشروع إرسال حملة مقدسة تحت إشرافها نظرة فيها عمق ودهاء ورأت فيها فرصة لتحقيق

---

(٧١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٦

(72) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 667

(73) Powike : Christian life in the Middle Ages, p. 22

(74) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 161

(٧٥) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٥١

المزيد من نفوذها وهيبتها[٧٦] وضمان مصالحها تحت ستار محاربة المسلمين في الشرق[٧٧] .

ففوق أن هذا المشروع يمد سلطان البابوية على الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية ، فإنه كان حتماً سيحمل هذا النفوذ بعيداً إلى الأراضي المقدسة موضع احترام وتقدير جميع المسيحيين شرقاً وغرباً[٧٨] ، هذا بالإضافة إلى إشراف البابوية على جيش غربي كبير لإرساله إلى الشرق فيه تدعيم لسلطة البابوية ، التي غدا من شأنها توجيه قوة عسكرية كبيرة لتنفيذ أغراضها[٧٩] فضلاً عن أن هذا المشروع سوف يشارك فيه لفيف من الحكام العلمانيين وسوف يخلص البابوية من أهم مناوئيها الذين سيصحبون معهم أتباعهم المحاربين فيخلو الجو للبابوية في غرب أوربا لتمارس مزيداً من نفوذها وقوتها وتسمو أكثر بالنسبة لكافة القوى[٨٠] ،خاصة وقد عاد الإمبراطور ألكسيوس كومنين يخطب ودها ويحرص على صداقتها ويجدد التماس بيزنطة لطلب المساعدة من البابوية ضد السلاجقة ، وإن كانت المساعدة التي

---

(76) Runciman : op. cit. I, p. 99,

قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ١٠٩

(٧٧) محمد المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ٣٤

(٧٨) جوزيف نسيم : الاسلام والمسيحية ص ١٨٩ . Holt : op. cit. p. 17

باركر : الحروب الصليبية ص ١٦

(٧٩) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ١٨٩ .

Ostrogorsky : op. cit. p. 320

(80) Rousset : Les Origines et les caracteres de la premiere Croisades, pp. 47 - 8

Delarc : Les Normands en Italie, pp. 202 - 37

وانظر حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٥١

طلبها لا تتجاوز بعض العساكر المأجورة أو الجند المرتزقة لا الجيوش الكبيرة، وذلك قبل انعقاد مجمع بياكنزا[٨١] .

وكان قد اعتلى كرسي البابوية في تلك الظروف البابا ذائع الصيت أوربان الثاني، وهو فرنسي الأصل ولد حوالي سنة ١٠٤٢م من عائلة نبيلة واسمه الحقيقي أودو دي لاجري **Odo de Lagery** ونال حظاً وافراً من التعليم، فقد أرسل إلى المدرسة الكتدرائية في ريمز **Reims** (ريمس) التي كان يرأسها القديس برونو **Bruno** الديري المعروف الذي أسس نظام الكارثوسيان، ثم قرر اودو بعد ذلك الانضمام إلى جماعة كلوني وصار راهباً فيها فأطراه كثيراً هيو **Hugh** مقدم الدير سنة ١٠٧٠م واعترف بقدراته[٨٢] ، فاختير مقدماً للدير فترة قبل أن يسافر إلى روما حيث لمع نجمه هناك الأمر الذي جعل البابا جريجوري السابع يختاره ليشغل بعض المناصب الدينية الهامة فتدرج في هذه المناصب حتى أمّل البابا أن يخلفه في البابوية، لكن ذلك لم يتحقق إلا في سنة ١٠٨٨م حين جرى اختياره لهذا الكرسي فاعتلاه باسم البابا أوربان الثاني[٨٣] ،وكان حينئذ في السادسة والأربعين من عمره وشغل هذا المنصب بين سنتي ١٠٨٨ و ١٠٩٩م ،وقد جرى إعلانه بابا وهو لاجئ إلى أراضي تابعة للنورمان في الوقت الذي اتسع فيه نفوذ الإمبراطور هنري الرابع، وأصبح سيد كل ألمانيا وشمال إيطاليا وحملته انتصاراته في كل مكان على الظهور بمظهر العاهل الكبير الذي لا يقيم وزناً كبيرا للسلطة الدينية، لأنه بادر بتعيين بابا آخر في روما عرف باسم جربرت، لأنه لم يكن يطيق البابا أوربان

---

(81) Duncalf : The Councile of Piacenza and Clermont (ed.Sehon)p.227, وانظر العريني : الشرق الأوسط ص ١١٤

(82) Runciman : op. cit. I, p. 100

(83) Gay: Les Papes du xie Siecle , p. 356 - 8

الثاني وكان قد سجنه من قبل في ألمانيا بسبب مساندته للبابا جريجوري السابع فضلاً عن أنه كان يعتبره رجلاً عنيفاً فيه صلف وكبرياء[٨٤] .ولهذا لم يكن البابا أوربان الثاني في وضع يمكنه من فرض زعامته الدينية على كل العالم المسيحي بل إنه ورث تركة مثقلة بالمتاعب منذ عهد البابا جريجوري السابع[٨٥] .

غير أن أوربان الثاني ما لبث أن أثبت أنه على درجة كبيرة من الحصافة والمقدرة، فبفضل ما اشتهر به من قوة الشخصية، وما كان له من ذكاء وفطنة استطاع في أمد قصير أن يبدل الأوضاع في صالحه ويعلي شأن البابوية، بل ويشرع في إنجاز مشروعاتها في الشرق، فقد كان خطيباً مفوهاً طلق الحديث شديد التأثير في السامعين، كما كانت له مقدرة عظيمة على الإقناع، وكان فوق ذلك سياسياً قديراً فضلاً عن أنه اتصف بالتسامح والاعتدال، ولم يكن كسلفه جريجوري السابع عنيداً أو متكبراً، وإنما اتصف بالاتزان والتواضع وسعة الأفق[٨٦] ،كما كان نبيل المحتد راسخ الإيمان دمث الأخلاق يحاول تجنب الخلافات مؤمناً بما يعتقد في صحته، وعول الناس على مواهبه ومقدرته في إعادة التوازن بينه وبين إمبراطور ألمانيا[٨٧] ،والواقع أنه استطاع أن ينقذ البابوية من المأزق الذي ساقها إليه سلفه جريجوري السابع وأحسن استغلال طلب الإمبراطورية البيزنطية المساعدة لصالح الزعامة البابوية[٨٨] .

---

(٨٤) انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٧

(٨٥) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢٧

(86) Runciman : op. cit. I, p. 101
Gay : op. cit. p. 356

(٨٧) انتوني بردج : المرجع السابق ص ٣٧ - ٣٨

(٨٨) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ١١٥

واستطاع أوربان الثاني في النهاية أن يدخل روما سنة ١٠٩٣م بعد أن استمال الأنصار واستقطب الشخصيات الهامة فيها مستغلاً ما حدث من قيام ثورة ضد الإمبراطور هنري الرابع تحت زعامة ابنه كونراد(٨٩) ، إذ بادر أوربان الثاني بإذكاء نار هذه الثورة، وقدم المساعدة إلى كونراد سراً ونجح في غضون سنوات قليلة في مد سلطانه على كنائس فرنسا وأسبانيا، وأخذت سائر البلاد الأوربية تعترف بزعامته الدينية، ولم تأت سنة ١٠٩٥م إلا وكان هذا البابا السيد الروحي الأعلى لغرب أوربا كله(٩٠) .

الدعوة للحملة الصليبية الأولي :

في مارس سنة ١٠٩٥م بدأ البابا أوربان الثاني برنامجه الإصلاحي ومشروعاته الدينية في محاولة لتحقيق أهداف الكنيسة، وتنفيذ مشروعاتها البابوية، فوجه الدعوة إلى جميع ممثلي الكنائس الغربية الاجتماع في أول مجمع ديني يعقد بعد اعتلائه كرسي البابوية، وتحرك في نفس الوقت بادئاً جولة تفتيشية كبيرة حملته إلى شمال إيطاليا لتفقد الأحوال الدينية هناك(٩١) ،حيث عقد المجمع في مدينة بياكنزا بشمال إيطاليا في أواخر شهر مارس من نفس العام. فناقش المجتمعون بعض الأمور الدينية، وطرحوا للبحث بعض المشكلات، انتهت باتخاذ قرارات لإصلاح بعض العيوب الكنسية مثل

---

(89) Robinson : An Introduction to the Hist. of Western Europe, I, p. 200

(90) Gay : op. cit. pp. 358 - 63
Runciman : op. cit. I, p. 102

(91) Chalandon : Histoire de la premiere Croisade, pp. 19 - 22
وانظر عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ٢٩

الرشوة وزواج رجال الدين والخلافات الداخلية في الكنيسة الغربية[٩٢].

وفي مجمع بياكنزا هذا استقبل البابا رسلاً من قبل الإمبراطور ألكسيوس كومنين حملوا إلى البابا خطاباً يطلب فيه مساعدة البابوية ضد الأتراك[٩٣] ،بعد أن أقض السلاجقة مضاجع البيزنطيين في آسيا الصغري ،وباتوا يهددون الدولة البيزنطية تهديداً خطيراً، وقيل أن البابا سمح لهؤلاء الرسل بعرض طلب بيزنطة المساعدة على المجتمعين في ذلك المجمع الديني[٩٤] ،وقد طلب البابا أوربان من الحاضرين أن يعملوا على تقديم المساعدة إلى الإمبراطور البيزنطي ،بل قيل أنه جعلهم يقسمون على أن يذهبوا إلى هناك ليقدموا إلى هذا الإمبراطور ما يمكنهم من مساعدة ضد المسلمين[٩٥] .

ولا ينفي معظم المؤرخين المحدثين وجود هذا الخطاب، بل حددوا تاريخه فيما بين أغسطس ١٠٩٤ ويناير سنة ١٠٩٥م ،وإن تشككوا في أمره وذهب بعضهم إلى أنه من الوثائق المزورة التي استخدمتها الكنيسة في الدعاية للحملة التي تحمس لها أوربان الثاني[٩٦] ،خاصة وأن النسخة التي عثر عليها مكتوبة باللاتينية ولم يعثر على أصلها اليوناني[٩٧] . وانقسم المؤرخون المحدثون حول هذه

---

(92) Runciman : op. cit. I, p. 104

(93) Ibid . p. 104

(94) Mayer : The Crusades, pp. 7-8 ,
Boase : Kindom and Stronghold, p. 12,
Camb. Med. Hist. Vol. 4 , p. 272,
قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ١١٥

(٩٥) قاسم عبده قاسم : المرجع نفسه ص ١١٥

(٩٦) قاسم عبده قاسم : نفسه ص ١١٥

(٩٧) جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ضمن مقالات في كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٦.

القضية فريق ينادي بصحة الخطاب منهم المؤرخ هاجنيماير Hagenmeyer ورهرشت Rohricht ، ويمثلان المدرسة الألمانية ، وفريق يعارض في صحة هذا الخطاب وينفي نفياً قاطعاً إرساله ومنهم العالم شالندون Chalandon وشارل ديل Diehl ويمثلان المدرسة الفرنسية وأيدهم بعض المؤرخين الكبار أمثال بول ريان Paul Raint وفازيلييف Vasiliev واستروجورسكي Ostrogorsky ورانسمان Runciman (٩٨) .

ولا يعنينا من ذلك كله إلا ما يتعلق بطلب ألكسيوس المساعدة من الغرب الأوربي والبابوية . فإذا ثبت أنه طلب المساعدة فعلاً ، فلابد وأنه كان يطلب جنداً مرتزقة لمعاونته ضد السلاجقة دون أن يطرأ على فكره حملة صليبية كبيرة لمحاربة المسلمين والوصول إلى الأراضي المقدسة في فلسطين وأنه كان يأمل حتماً في وصول جنود مأجورين ينخرطون في الجيش البيزنطي تحت سيطرته ، ولم يكن يتوقع أبداً جيوشاً ضخمة تأخذ طريقها عبر القسطنطينية إلى الشرق .

ويبدو أن البابا اقتنع حينئذ بمشروع الحملة الصليبية ، وعزم على تنفيذها بعد تلقيه طلب الإمبراطور البيزنطي المساعدة ، فواصل البابا جولته بعد إنهاء مجمع بياكنزا إلى فرنسا فوصلها في أواخر صيف سنة ١٠٩٥م ثم انتقل إلى جنوبها في خريف نفس العام وراح يرتب لعقد مجمع ديني في كليرمونت في نوفمبر سنة ١٠٩٥م (٩٩) ، للنظر في بعض المسائل الكنسية. ويقال أن البابا أخذ يفكر تفكيراً جدياً

---

(٩٨) عن هذه القضية انظر جوزيف نسيم يوسف المرجع السابق ص ١٤ وانظر ايضاً :

Grousset : Histoire des Croisades, I, p. 2

Diehl : L' Europe Orientale , p. 16

Chalandon : Alexis Comnene , p. 156 - 7

(99) Chalandon : Histoire de la prèmiere Croisade, pp. 19 - 22

في مشروع الحملة الصليبية إلى الشرق وهو في طريقه إلى كليرمونت لاسيما وقد التقي في طريقه ببعض الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في القتال ضد المسلمين في أسبانيا أمثال ريموند الصنجيلي صاحب تولوز وبروفانس، وبعض رهبان كلوني الذين نقلوا إلى البابا صورة مزعومة لبعض المشاق والمتاعب التي لاقاها الحجاج المسيحيون في طريقهم إلى الأراضي المقدسة وفي بيت المقدس، كما عزم البابا على عرض موضوع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيليب الأول على ذلك المجمع في كليرمونت، لاتهامه بالزنا(١٠٠) ، على الرغم من إحجام عدد من رجال الدين عن حضوره، فقد حال ملك إنجلترا بين رجال كنيسته وبين المساهمة في هذا المجمع، وحضرت قلة من إكليروس ألمانيا، وكان أكثر المساهمين فيه من فرنسا(١٠١) .

انعقد مجمع كليرمونت الديني في ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥م واستمر عشرة أيام، وناقش الحاضرون فيه الأمور الكنسية في الأيام التسعة الأولى، وفي اليوم العاشر أعلن البابا أمام جمهور كبير من رجال الدين ومن العلمانيين أيضاً مشروعه الكبير لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين(١٠٢) ،وعرض في أسلوب بلاغي عظيم مدى ما يعانيه الحجاج من متاعب في الأراضي المقدسة، ومدى ما يتعرض له المسيحيون في الشرق من ظلم، فأثر كثيراً في السامعين فصاح الجميع صيحة رجل واحد " Deus lo volt " هذه مشيئة الله، "God wills it"(١٠٣) . ولعل أكثر ما أثار حماسة الحاضرين ما صاغه البابا من عبارات في قدسية بيت المقدس، وحاجة المسيحيين في الشرق إلى العون

---

(100) Runciman : op. cit. I, p. 106 - 7

(١٠١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٥١

(102) Holt : The Age of the Crusades , p. 16

(103) Runciman : op. cit. I, p. 108

والمساعدة ، وما وعد به الناس من الغفران التام لكل من يلقـي مصرعـه في تلك الحرب المقدسة[١٠٤] .

ولم ينس البابا أن يتحدث في أسلوب أخاذ ومؤثر كيف أصبحت الحياة في الغرب بائسة وآثمة ، وكيف اندفع الناس إلى الآثام والخطايـا ليهلكون أنفسهم ويخسرون حياتهم وآخرتهم في حـين أنهـم بالذهـاب إلى الشرق ، سوف يحققون الرخاء لأنفسهم ويفوزون بالسعادة في دنياهم وينالون الرضا في آخرتهم، " فليتحول أولئك الذيـن ظلـوا زمنـاً طويـلا لصوصاً ، إلى أجناد للمسيح ، وينبغي على أولئك الذين حاربوا إخوتهـم وأقاربهم أن ينهضوا الآن لقتال المتبربرين"[١٠٥] .وما أن فرغ البابـا مـن إلقاء خطابه الخطير في كلـيرمونت حتـى اندفـع ادهيمـار دي مونتيـل أسقف بوي Puy ، ليجثو أمام قدمي البابا راجياً أن يكـون لـه شـرف المساهمة في الحرب المقدسة ضد المسلمين ، فصار ذلك الأسقف أول مـن افتتح قائمة المتطوعين وأول مـن حمـل الصليـب فاختـاره البابـا قـائداً روحياً للحملة ومندوباً بابوياً في الحملة الصليبية الأولى[١٠٦] .

أخذ البابا بعد ذلك يتنقل بين المدن والبلـدان وراح يـذرع أرجـاء فرنسا عاقداً المجامع داعياً للحرب الصليبية[١٠٧] ، فالتحق به في تلـك الأثناء ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس ، وأخذ يتنقل معه من مكـان إلى مكان عازماً على المشاركة في هذا المشروع الكبير على الرغم من أنـه

---

(104) Krey : The First Crusade , pp. 24 - 45
Runciman : op. cit. I, p. 108

(105) Krey : op. cit. pp. 57 -8 , ١٥٦ العريني : الشرق الأوسط ص

(١٠٦) سعيد عاشور :الحركة الصليبية ج١ ص ٢٢،
Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 213

(107) Raint : Inventaire des Lettres Historique des Croisades (Archives de L'Orient Latin) Paris 1881 Vol. I, p. 116

لم يعين قائداً للحملة إذ لم ترد من الدلائل ما يشير إلى أن البابا كان ينوي اختيار أحد العلمانيين لقيادة الحملة، ولكن ريموند هو الذي نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على قوة بحرية لتنفيذ هذا المشروع[١٠٨]، فارسل البابا إلى جنوة طالباً مشاركتها في الحملة، ويبدو أن هذه المدينة التجارية أملت في الحصول على بعض المكاسب الاقتصادية فأبدت موافقتها على الاشتراك في الحملة وسوف يكون للمدن التجارية الايطالية شأن في هذا المجال خلال عصر الحروب الصليبية[١٠٩]، وأعدت جنوة اثنتي عشرة سفينة حربية لمساعدة الحملة ونقل الصليبيين إلى الشرق وإن لم يقلع هذا الأسطول إلا في يوليو سنة ١٠٩٧م، بعد أن تأكدت جيداً من جدية هذه الحركة[١١٠].

وأخذ البابا يتلقي العروض من كافة بقاع أوربا للمساهمة في الحروب الصليبية ويستقبل رسل الأمراء والقادة، فأعلن البابا بأن كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له جميع ذنوبه[١١١]، ولتشجيع الناس على الانخراط في الجيش الذاهب إلى الشرق وعدهم البابا بامتيازات دنيوية إلى جانب ما أعلنه من قبل من امتيازات دينية وغفران الذنوب، لأنه نظر إلى الصليبيين بإعتبارهم جند المسيح لبوا نداء الكنيسة في حرب دعت إليها البابوية وباركتها، فأعلن أن الكنيسة وعدت بأن تبسط حمايتها على أسرهم وأملاكهم طوال فترة غيابهم[١١٢]. وأخيراً عاد البابا إلى إيطاليا في أواخر سنة ١٠٩٦م بعدأن أشعل الحماسة الدينية في قلوب المسيحيين للذهاب إلى الشرق

(108) Runciman : op. cit. I, p. 112,
Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 273

(109) Heyd : Histoire du Commerce , I, p. 130 n3. ,p. 149

(110) Grousset : op. cit. p. 4

(111) Krey : op. cit. pp. 24 - 5

(112) Runciman : op. cit. I, p. 109

وتأكد من ان مشروعه أصبح حقيقة واقعة، بعد أن استجاب الناس في فرنسا وإيطاليا واسبانيا وأيضاً بلدان أوربا البعيدة مثل اسكتلندا والدانمرك[١١٣] .وبدأت صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر بعد ذلك عدة قرون.

وأصدر البابا بعد ذلك عدة قرارات تنظيمية أهمها أن الذين أزمعوا الاشتراك في الحملة يتحتم عليهم أن يضعوا على أكتافهم الصلبان الحمر أى يرتدي كل منهم صليباً أحمر للدلالة على أنه عزم على اقتفاء أثر السيد المسيح، وكل من علق ذلك الصليب ينبغي عليه أن يواصل مسيره إلى الأراضي المقدسة، فإذا نكص على عقبيه أو استبد به الجبن أو الضعف أو تخاذل في هذه الحرب المقدسة أو عاد حلت عليه عقوبة الحرمان وقطع من رحمة الكنيسة[١١٤] ،وأعفي البابا المسنين والعجزة من الاشتراك في الحملة، ولابد لكل راغب في الذهاب إلى الشرق أن يحصل على موافقة رائده الروحي، كما تقرر أن يترك كل محارب موطنه في أغسطس سنة ١٠٩٦م بعد جمع المحصول وأن تجتمع كل القوات في القسطنطينية[١١٥] .

الأحوال في الشرق الاسلامي:

بينما كانت هذه الاستعدادات تجري في الغرب الأوربي على قدم وساق، كانت أحوال الشرق الاسلامي تبعث على الأسي وتثير القلق في النفوس، فبوفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢م انتهى عصر الامبراطورية السلجوقية، وبدأ عهد جديد في عمر هذه الدولة[١١٦] ،كما جاءت وفاة

---

(١١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٣٥

(114) Runciman : op. cit. I, p. 109

(115) Ibid. p. 115

(116) Camb. Med. Hist. Vol. 4 , p. 309,

وانظر مقدمة راحة الصدور للراوندي نشر إقبال ص ٧

ملكشاه نذيراً بتفكك المسلمين في الشرق، بعد أن عجز أبناؤه الصغار عن حفظ وحدة أراضي الدولة وخاصة بعد أن حدث الخلاف بينهم واشتعلت الحرب، وطمع تتش أخي ملكشاه في السلطة ومات في سبيلها تاركاً بلاد الشام مسرحاً للفوضى والانقسام(١١٧) .

وغرقت بلاد الشام في الضعف والاضمحلال في السنين القليلة السابقة لوصول الحملة الصليبية الأولى، فقد حدث صراع رهيب بين أبناء تتش: رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق، لعب فيه الأمراء الأتراك دوراً كبيراً ووسعوا شقة الخلاف بينهما، وتنافر أمراء المدن الشامية الكبيرة وتنافسوا فيما بينهم(١١٨) ،وانقسمت إمبراطورية السلاجقة العظيمة وتفتتت فأصبح هناك: سلاجقة فارس والعراق ولهم سلطنة عاصمتها أصفهان وعليها بركياروق ومملكة حلب وعليها رضوان بن تتش، ومملكة دمشق وعليها دقاق بن تتش، ثم سلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى(١١٩) .وللأسف جاء هذا التفكك في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة فيه إلى التماسك والتكاتف للوقوف في وجه التحديات التي وجهت لهم في عقر دارهم .

---

(117) Browne : Account of a rare...Manuscript, p. 501

ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٧٠ (أحداث سنة ٤٨٧ هـ)

ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١١٨ -١١٩ .

البنداري : تواريخ آل سلجوق ص ٨٥

(١١٨) الن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

Browne : op. cit. p. 550

Camb. Med. Hist. Vol. 4,p. 310

(١١٩) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٧٦ (سنة ٤٨٨ هـ) .

ابن القلانسي : ذيل ص ١٣١ -١٣٢ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٢٥ - ١٢٦

ولم يقتصر الأمر على انقسام القوى الاسلامية وتنازعها في الشئون السياسية والعسكرية حينذاك، بل إن الخلافة الاسلامية نفسها كانت منقسمة إلى خلافتين متنازعتين متنافرتين، نافست كل منهما الأخرى للفوز بزعامة العالم الاسلامي وتناحرتا في سبيل ذلك بالرغم من حالة الضعف والاضمحلال التي أمست فيه كل منهما إبان القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) [١٢٠] ، فقد انصرف العباسيون إلى التشكيك في نسب الفاطميين دعاة المذهب الشيعي وعمل المحاضر بذلك وأخذ توقيعات القضاة والشهود والأشراف واتهام الفاطميين بأنهم ديصانية وأنهم مارقون[١٢١] ،وانصرف الفاطميون إلى محاولة انتزاع زعامة العالم الاسلامي من الخلافة العباسية راعية المذهب السني[١٢٢] ،وذلك بدلاً من توحيد قوى المسلمين واستعادة مكانة الاسلام وإعادته إلى سالف عزه وسالف مجده، ونشبت الحروب واحتدم القتال بين الخلافتين، وأظهرت الخلافة الفاطمية الشيعية رغبة جامحة في تقويض دعائم الخلافة العباسية ومد السيادة الفاطمية على ولايات وأقاليم دانت زمناً للعباسيين سياسياً وروحياً، ومحاولة القضاء على المذهب السنى

---

(١٢٠) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٦٢ (سنة ٥٣٢ هـ)،

المقريزي : إغاثة الأمة ص ١٨ - ٢٤

الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٣ ص ٣٢٠ (تحقيق فؤاد سيد)

مجموعة الوثائق الفاطمية نشر الشيال ص ٤٨ ،

Camb. Med. Hist. Vol. 5 p. 260

(١٢١) الديصانية طائفة عن المجوس

(١٢٢) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٣٧ ،ص ٥٧

المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٢٥،

ابن ميسر : أخبار مصر ج٢ ص ٦ ،ص ٣٧ (نشر هنري ماسيه) ،

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص٥٣

واجتثاثه من أساسه في بعض مراحل ذلك لاصراع[١٢٣] . ومثلت بلاد الشام وبلاد العراق نفسها جبهتين لذلك الصراع والتنافس بين الخلافتين بما استتبع ذلك من محن على المسلمين وإضعاف الكيان الاسلامي كله[١٢٤] .

ومن الأمور الغريبة أيضاً ما أظهره المسلمون من جهل واضح بحقيقة الغزو الصليبي وأهدافه، وعدم إدراكهم لطبيعة الحركة الصليبية ذاتها، حدودها وأبعادها[١٢٥] ، حقيقة كان هذا الغزو الصليبي تجربة جديدة بالنسبة للقوى الاسلامية في هذه المنطقة بل في الشرق كله غير محدود مجاله ومداه، لكن كان يمكن معرفة مقصد هذه الحركة منذ البداية وأهدافها. ويبدو أن الصليبيين عمدوا منذ البداية إلى إحاطة مقاصدهم بشئ من الغموض حرصاً منهم على عدم إثارة كافة القوى الاسلامية في المنطقة وتأليبها[١٢٦] ،بل حاولوا كسب بعضها ريثما تتاح لهم فرصة التغلب على ما صادفهم من أخطار في طريقهم، ثم يتفرغون لالتهام بقية القوى الأخري.

وترتب على عدم فهم المسلمين لحقيقة الحركة الصليبية ومقاصد الصليبيين نتائج بالغة الأهمية، فقد أظهرت بعض القوى في بلاد الشام

---

(١٢٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٧ (سنة ٣٥٩ هـ)

(124) Camb. Med. Hist.Vol. 4 , p. 302 ,

المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٢٥

ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٧

(125) Wiet : Encyc. Isl. Art (Ala fdal) ,
Runciman : op. cit. I, p. 229
Grousset: L'Empire du Levant , p. 191

(١٢٦) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ٩١،

Runciman : op. cit. I, p. 230

عدم اكتراثها بهذه الحركة، فتقاعست في البداية عن الجهاد في حين هرع الأفضل شاهنشاه - الوزير الفاطمي - إلى محاولة محالفة الصليبيين وهم يحاصرون مدينة أنطاكية[١٢٧] ،وخطط لاستخدام هذا الحلف ضد إخوته السلاجقة السنيين، معتقداً أن الصليبيين أقل خطراً عليه من السلاجقة، حتى قيل أن " أصحاب مصر من العلويين ... أرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين."[١٢٨] .وهكذا لم يتنبه المسلمون منذ البداية إلى طبيعة الحركة الصليبية ولم يدركوا مدى خطورتها عليهم ، فالتهمهم الصليبيون قوة بعد اخري قبل أن يفيق المسلمون من ذهولهم ويبدأوا حركة جهاد طويلة ضد الصليبيين.

نخلص من ذلك كله أن أحوال الشرق الاسلامي لم تكن مرضية قبيل الحملة الصليبية الأولى، وأن جبهة بلاد الشام وأطراف العراق أصابها الضعف والانقسام والتفتت واستشرت بين حكامها الحروب واستعر بين رجالها القتال واشتد التنافس بين أمرائها[١٢٩] . وبلغ من شدة التفتت أنه لم تأت الحملة الصليبية الأولى، إلا وهذه البلاد تنقسم إلى مجموعة كبيرة من الوحدات السياسية المصغرة والمتنافرة حتى ليشعر عابر تلك البلاد حينئذ اذا انتقل من مدينة إلى أخري مجاورة أنه إنما تخطي حدود امارتين كل منهما لها أمير مستقل لاتربط بينه وبين الآخر صلة أو تجمعهما أية علاقة. وليس هناك ما يجسم ذروة التفكك أكثر من هذا. فقد كان في كل من حلب ودمشق وأنطاكية أمير

---

(127) Grousset : op. cit. p. 191

(١٢٨) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٨٥ (سنة ٤٩١ هـ)

(129) Hagenmeyer : Chronolgie de la premiere Croisade, p. 322, n. 2

وانظر أبي الغدا : المختصر في أخبار البشر ج١ ص٣ (ط أوربا)

من السلاجقة مستقل عن غيره من الأمراء، كما وجد في حمص أمير آخر[١٣٠] ،واستقل بطرابلس أمير من أسرة بني عمار، بينما تأسست في شيزر إمارة عليها أمير من أسرة بني منقذ العرب[١٣١] ،في الوقت الذي كانت لاتزال فيه بعض مدن الساحل الشامي في أيدي الفاطميين، كما استولى الفاطميون أثناء تقدم الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس من الأمراء التركمان سنة ١٠٩٨م [١٣٢] ، ومرحت بعض القبائل العربية في جهات مختلفة من بلاد الشام وفلسطين واستقلت بيوت تركمانية وكردية بجهات أخري من بلاد الشام وأطراف العراق وارض الجزيرة وبعض جهات آسيا الصغري[١٣٣] وانعدمت روح الود والاخلاص بين أولئك الأمراء سواء الترك أو من العرب وجاء ذلك في صالح الصليبيين الذين مالبثوا أن طرقوا أبواب الشام فأقاموا إماراتهم الصليبية ومملكتهم وسط هذا الكيان المتداعي المتهالك.

---

(١٣٠) ابن القلانسي : ذيل ص ١٢٠ – ١٢١ ،
ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٢٥ – ١٢٦

(١٣١) ابن الفرات : تاريخه ج٨ ص ٧٧
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج١ ص ٣٨
محمد الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام ص ٢٠٠ ، ص ٢٩٥

(132) Lane-poole : A Hist. of Egypt. p. 164,
Conder : The Latin Kingdom , p. 63
محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ١٣٥

(133) Runciman : op. cit. I, p. 65,
ابن الازرق الفارقي : تاريخه ص ٥١ – ٥٨ ، ص ٢٣٦



الفصل الرابع

الحملة الصليبية الأولى

الفصل الرابع

الحملة الصليبية الأولى

المعروف أن الحملة الصليبية الأولى جاءت كاستجابة من شعوب الغرب الأوربي بمختلف فئاته لحرب المسلمين لاسترداد الأراضي المقدسة المسيحية في فلسطين وربطها بالبابوية والغرب الأوربي، ولهذا فقد ضمت الحملة فريقين من الذاهبين إلى الشرق: فريق شكل الشق الأول من هذه الحملة وهو الذي عرف باسم حملة العامة، والفريق الآخر مثل الشق الثاني من الحملة وهو ما عرف بحملة الأمراء[1].

فقد ترتب على دعوة البابا أوربان الثاني أن حدث اهتمام كبير في كافة الأوساط الأوربية بأمر الحملة الصليبية[2] ، وانبرى للدعوة لهذه الحرب بعض رجال الدين من الأساقفة والرهبان الذين طلب منهم البابا أوربان الثاني أن يعودوا إلى بلادهم بعد انتهاء مجمع كليرمونت ليبشروا بالحرب الصليبية، فعهد إلى أحد رؤساء الأديرة بالدعوة لهذه الحرب في نورمانديا وإنجلترا ووجه أسقفين آخرين لإثارة حماسة مواطني مدينة جنوه[3]، وفضلاً عن ذلك تحمس للتبشير بهذه الحملة والدعوة لها نفر من الدعاة قاموا بجهد كبير في الدعاية للحرب المقدسة وحركوا مشاعر العامة وجموع الدهماء في أنحاء أوربا مثل بطرس الناسك وروبرت أربريسيل Arbrissel [4]، وساعدهم على ذلك ما تعرضت له تلك الطبقة بالذات من آلام ومتاعب في حياتهم الاجتماعية في ظل الظروف الإقطاعية ومساوئ رجال الإقطاع في

---

(1) Holt : The Age of the Crusades , p. 19

(2) Grousset : Histoire des Croisades , 1 , p. 5

(3) Runciman : op. cit. I, p. 113

(٤) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ١٦٣

غرب أوربا كما مر بنا من قبل[٥].

حملة العامة :

ارتبطت تلك الحملة باسم بطرس الناسك Peter the Hermit، الرجل الذي قيل أنه أثار مشاعر طبقة العامة في غرب أوربا، وحرك في قلوبهم الحنين إلى الأراضي المقدسة، وجعل جموعهم تدفعهم في غير تبصر إلى الشرق[٦]، حتى غدا بطرس الناسك أسطورة سرعان ما توهجت في بداية الحروب الصليبية، ثم ما لبثت أن خبت وانطفأ بريقها بعد قليل من بداية الطريق إلى المدينة المقدسة .

وكان بطرس الناسك رجلاً غريباً في مظهره وملبسه، إذ كان يرتدي أسمالاً بالية قذرة ويخطو عاري القدمين، ويتنقل على حمار أعرج، ويقتصر في طعامه على السمك، ولا يتناول اللحم أو الخبز ويتخذ النبيذ شراباً، ويزداد في كل يوم قذارة، وكلما ازداد قذارة كلما ازداد إيمان العامة به والتفافهم حوله، معتقدين بأن في أثواب هذا الرجل قديساً، حتى وصفه أحد المؤرخين المعاصرين بأنه كان " نصف ملهم" وأن " ما يردده أو يفعله يبدو كأنه من صنع الله " [٧]، لكن هذه الهيئة الغريبة وذلك السلوك غير المألوف والتصرفات الغامضة، فضلاً عن روعة بيانه وفصاحة لسانه، جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء في غرب أوربا[٨]. كما قيل أنه حاول القيام بالحج إلى بيت المقدس، لكنه تعرض لبعض

---

(5) Michaud : Histoire des Croisades , Tome I, pp. 105 - 6
Brehier : L'Eglise et L'Orient , p. 69

(6) Runciman : op. cit. I, p 113

(7) Guibert de Nogent :Historiea ...(R.H. Occ. Cr.),T. IV,p.142
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى ص٥٣-٥٤، العريني: الشرق الأوسط ص١٦٤

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٣٦

المتاعب من قبل الأتراك، فعاد أدراجه دون أن يحقق أمنيته، فترك ذلك أثراً سيئاً في نفسه ووجد في الدعوة للحرب الصليبية شفاء لغلته[٩].

طاف بطرس في أنحاء فرنسا وألمانيا يدعو للحرب الصليبية، وفي نفس الوقت حشد من مريديه من أنفذهم إلى الجهات التي لم يستطع أن يبلغها ومن هؤلاء المريدين زعيم آخر من زعماء هذه الحملة هو والتر المفلس **Walter the Penniless** ، الذي لعب هو الآخر دوراً هاماً في تحريك العامة والدهماء في جهات من غرب أوربا[١٠] ، وكلما قصد بطرس أو أحد رجال مكاناً لحق به الرجال والنساء ، فلم يكد يصل إلى كلوني حتى اجتمع معه عدد ضخم من الأتباع قدر بنحو خمسة عشر ألفاً من الفلاحين ورقيق الأرض وجموع العامة وبعض صغار المحاربين وازداد هذا العدد بمن التحق به في ألمانيا[١١] ، وفي الوقت الذي قام فيه والتر المفلس بجمع عدد آخر من الأتباع قادهم عبر المجر (هنغاريا) إلى أراضي الدولة البيزنطية[١٢] .

ولقد ساعد بطرس ووالتر وبقية رفاقهما في الدعوة لهذه الحملة ووصولها إلى قلوب العامة، ما كانت تمر به أوربا الغربية حينئذ من محن وما تعرضت له من فيضانات وطواعين ومجاعات، وما كانت تعانيه طبقة العامة بالذات من تحكم الإقطاعيين، وما شهدته البلاد من قسوة في العيش وتقلص في الأراضي الزراعية، ومن هجمات اللصوص وقطاع الطرق، وما كان يجري من نهب وسلب وقصور في

---

(٩) عن تفاصيل حياة بطرس أنظر :

Hagenmeyer : Le Vrai et les Faux Sur Pierre l'Hermite, pp.17 - 63 (trans. by Furcy Raynaud)

(10) Runciman : op. cit. I, p. 122

(11) Chalandon : op. cit. pp. 57 - 9

(12) Vasiliev : op. cit. II, P. 404

وسائل الامن والأمان لعامة الناس(١٣)، يضاف إلى ذلك ما ذاع حينئذ من كرامات ومعجزات واعتقاد الناس بأن بطرس الناسك يعلم الغيب، وأن نزول السيد المسيح ثانية إلى الأرض وشيك الحدوث، فلابد من المضي في الاستغفار وعمل الخير قبل هبوطه، والتكفير عن الذنوب واسترداد الأراضي المقدسة قبل عودة المسيح(١٤).

وتحركت الجموع التي قادها والتر المفلس أولاً عبر بلاد المجر(هنغاريا) في طريقهم إلى القسطنطينية، فعبروا نهر السافا Sava إلى بلغاريا، وعلى الرغم من محاولتهم الالتزام في مسلكهم عبر هذه البلاد، إلا أنهم لم يستطيعوا كبح جماح أنفسهم في بلغراد بسبب رغبتهم في الحصول على المؤن والعلف للماشية والخيل، فنشبت الفتنة هناك(١٥)، فارتكب هؤلاء كثيراً من الأخطاء ضد إخوانهم المسيحيين، فسلبوا ونهبوا وأحدثوا الخراب والدمار في طريقهم إلى الأراضي البيزنطية، ثم ما لبثوا أن وصلوا إلى القسطنطينية في يوليو سنة ١٠٩٦م(١٦).

أما بطرس الناسك فعلى الرغم من حصوله على إذن من ملك المجر (كولمان) باجتياز بلاده شريطة ألا يلجأ أتباعه إلى السلب أو النهب ، إلا أنهم ما لبثوا أن هاجموا مدينة سملين المجرية واستولوا على قلعتها، وأحدثوا بأهلها مذبحة بشرية رهيبة، اثناء زحفهم راح ضحيتها نحو أربعة آلاف من الأبرياء المسيحيين(١٧)، ثم عجل بطرس

---

(13) Michaud : op. cit. Tome I, pp. 105-6

(14) Runciman : op. cit. I, p. 115,

العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ١٦٥ – ١٦٦

(15) Runciman : op. cit. I, pp. 122 -3

(16) Vasiliev : op. cit. 2, p. 404

(17) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 275

بالخروج برجاله من المجر خوف الانتقام، فعبروا نهر سافا وتوجهوا إلى بلغراد ثم إلى صوفيا ثم وصلوا إلى أدرنة ومنها إلى القسطنطينية حيث وصلها بطرس في أول أغسطس سنة ١٠٩٦م فاستقبله الامبراطور ألكيسيوس كومنين استقبالاً حسناً ووعده بتقديم المساعدة له[١٨] .

وتجمع العامة عند أسوار القسطنطينية، ونصح الامبراطور ألكسيوس بطرس بالانتظار حتى تصل الجيوش النظامية التي يقودها الأمراء[١٩] ، إلا أن جموع هذا الجيش غير النظامي راحت تتسابق على الإغارة على الأراضي الزراعية وأخذوا يعبثون بالقرى والضياع المجاورة، الأمر الذي دفع الامبراطور إلى الاسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطىء الأسيوى للبسفور. ويبدو أن الامبراطور ألكسيوس لم يكن متحمساً منذ البداية لبقاء جيش بطرس بالقرب من عاصمته، لما أحدثه ذلك الجيش من نهب وسلب وإتلاف للمزارع والبساتين والحقول[٢٠]، لهذا عجل الإمبراطور بعبور هذا الجيش إلى الجانب الأسيوي للقاء الترك وللحصول على مؤنهم وزادهم من القرى الإسلامية وليس من القرى البيزنطية الآمنة، بل تشير بعض الروايات إلى أن الامبراطور البيزنطي لم يكن راضياً عن بطرس[٢١] .

---

(18) Brehier : L'Eglise et L'Orient, p. 69

(19) Anna Comnena : The Alexiad, pp. 73-103
(trans. from Greek by Sewter. Penguin Books)

(20) Guibert, in Permoud, The Crusades, pp. 31-2
(trans. by Melead 1962)

(21) Gesta ,Francorum, I, pp. 6 - 12
وانظر تفاصيل هذه القضية في مقالتى: " حملة بطرس الناسك الصليبية في ضوء كتابات آنا كومنينا " مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام بالرياض سنة ١٩٧٨/١٣٩٨هـ

وتشير الدلائل إلى أن جيش بطرس لم يبـق بجـوار القسـطنطينية سوى خمسة أيام، فقد كان وصوله أول يوم في أغسطس سـنة ١٠٩٦م، وكـان بـدء عبـوره في ٦ أغسـطس، أى بعـد خمسـة أيـام فقـط مـن وصوله[٢٢]، وأشار إلى ذلك المؤرخ المعاصر جيبرت وعلله بسوء سـلوكهم ومهاجمتهم للآمنـين وإشـعالهم النـيران في الأبنيـة العامـة، وانـتزاعهم الرصاص من سقف الكنائس[٢٣] ، وأكدت معظم المصـادر المعـاصرة هـذا السلوك السيء الذي سلكه رجال الحملة ضد قرى المسيحيين والسـكان الآمنين[٢٤] ،ولعل ذلك هو الـذي جعـل الامـبراطور ألكسـيوس يسـدي النصح لهم بعد عبورهم البسفور بأن يتجمعوا في معسـكر أعـد لهـم مـن قبل على خليج نيقوميديـا قـرب البسـفور وأن يخلـدوا للسـكينة ريثمـا تصل الجيوش النظامية من الغرب تحت قيادة الأمراء[٢٥] .

غير أن هذا المعسكر كان قريباً من أراضي الأتراك، فأغراهم ذلـك بالإغارة على القرى التركية المجاورة، فهاجموا الأراضي التركيـة، ولم يستطع بطرس الناسك أن يكبح جماحهم، بل فقد السيطرة تماماً علـى جموع الألمان والإيطاليين، بل أمعنت طائفـة كبـيرة مـن الفرنسـيين في السير حتى بلغت أبواب مدينة نيقية عاصمة السلطان قلج أرسلان بـن سـليمان[٢٦] ، فـأوقعوا بـالقرى أذى كبـيراً وسـرقوا الماشــية والأغنـام وقتلواالسكان حتـى المسـيحيين منهـم في وحشـية، بـل قـاموا بتقطيـع الأطفال إرباً وربط بعضهم على قطع من الخشب وشيهم على النار، أما

(22) Runciman : op. cit. I, p. 127
(23) Guibert in Permoud, op. cit. p. 33
(24) Albert of Aix, I, 15, pp. 283-4
Gesta Francorum, I, 2, p. 6
(25) Camb. Med. Hist. Vol. 5, P. 276
(26) Runciman : op. cit. I, p. 129

الكبار فقد أخضعوهم لشتى أنواع التعذيب(٢٧) .

وكان رد فعل السلطان السلجوقي أن أرسل بعض قادته على رأس فرقة من جيشه لتتعامل مع هؤلاء المغيريين، فنجح الأتراك في القضاء بسهولة على جموع العامة وحولوهم إلى كومة من الأشلاء قرب نيقية وكانوا نحو خمسة وعشرين الف رجل " ولكثرة من قتل من اللاتين والنورمان جمعت بقايا الجثث المبعثرة في كومة هائلة أو تلاً أو هضبة بل جبلاً كبيراً له ارتفاع وعمق واتساع هائل "(٢٨)، ولم ينج منهم إلا عدد قليل فر إلى العاصمة البيزنطية ومنهم بطرس الناسك نفسه، حيث ظلوا في رعاية الامبراطور ألكسيوس حتى وصول حملة الأمراء، وأمام ألكسيوس نسب بطرس الناسك هذه الكارثة إلى رجاله لأنهم _ على حد قوله _ لم يكونوا مطيعين وانساقوا وراء أهوائهم الشخصية وأطلق عليهم لقب " لصوص " وقطاع طرق ووصمهم بأنهم لايستحقون الخروج من أجل المسيح أو يتعبدوا في كنيسته المقدسة(٢٩).

حملة الأمراء :

إذا كانت حملة العامة افتقرت للخبرة العسكرية والنظام والفهم الحقيقي لما قدمت من أجله، ففشلت في النهاية وذهب ريحها وانتهت إلى ما يشبه الانتحار، فإن حملة الأمراء كان قوامها الأمراء الإقطاعيون سواء أكانوا فرنسيين أم إيطاليين أو نورمان أم غيرهم، استعدوا بالسلاح والأموال والمحاربين والعتاد، واتصلوا مقدماً بحكام وأمراء النواحي التي سيمرون بها وبالإمبراطور ألكسيوس كومنين نفسه يطلبون مدهم بالعون والمساعدة وما يحتاجون إليه في طريقهم إلى بيت المقدس(٣٠) .

---

(27) Anna Comnena : op. cit. p. 311

(28) Ibid. pp. 312-13

(29) Ibid. p. 313

(٣٠) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٤

ويذكر المؤرخون أن هذه الحملة تمثل فيها الإقطاع خير تمثيل، إذ كانت تحت قيادة عدد من الأمراء لكل أمير أتباعه ورجاله وجنده ومعاونوه، وإن اختلفت نظرتهم لهذه الحملة وأهدافهم منها، وتباينت آراؤهم حول مفهوم الحرب المقدسة ذاتها، حتى غدت حملة الأمراء في واقعها عدة حملات لكل منها أسلوبها وطابعها الخاص ولكل منها طريقتها المميزة ومسلكها الخاص في زحفها إلى الشرق وفي بلاد الشام ذاتها[٣١] .

وقد تولى قيادة هذه الحملة عدد من الأمراء، على رأس أتباعهم وفرسانهم، فكان أول من أرتحل من الأمراء الأمير هيو كونت فرماندوا الذي عرف بهيو العظيم أو هيو الأصغر **Le Maisne** ، وهو شقيق ملك فرنسا فيليب الأول الذي كان حينئذ محروماً من رحمة الكنيسة والذي لايستطيع المشاركة في الحملة، فحث أتباعه على حمل الصليب، وأرسل أخاه قائداً عليهم التماساً لرضى البابوية[٣٢]،وعلى الرغم من أن هيو هذا كان شاباً وينحدر من أسرة ملكية، وأنه كان يأمل أن يحوز في الشرق من السلطة والنفوذ والأموال ما يتناسب مع شرف نسبه، إلا أنه افتقر كثيراً لمواهب القادة وكانت تعوزه الكفاءة والحصافة، ولذلك لم يلعب هذا الأمير دوراً أثناء الحملة الصليبية الأولى بل انصب اهتمامه على الزعم بأنه أعظم الرجال على سطح الأرض، بل طلب من الامبراطور ألكسيوس أن يلقى من التشريف والتكريم عند وصوله إلى القسطنطينية ما يليق بأصالته[٣٣] . فقد كان شديد الاعتزاز بأصله وأسرته ومكانتها، يهمه قبل كل شيء مظاهر التفخيم والاحتفاء[٣٤]،

---

(31) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 280 - 1

(32) Runciman : op. cit. I, p. 144

(33) Duncalf: The First Crusade, Clermont to Constantinople, p.260

(٣٤) حسن حبشي : المرجع السابق ص ٦٥

فكان هيو هذا أول من وصل إلى القسطنطينية فاستقبله الإمبراطور ألكسيوس بالحفاوة والتكريم، وغمره بالهدايا والأموال، فانبهر هيو بعظمة الإمبراطور وسخائه، فوقع في شراك سياسة ألكسيوس وأقسم له يمين الولاء والطاعة(٣٥) .

ومن قادة الحملة أيضاً جودفري دي بويون **Gaudefroi de Bouillon** أو جودفري أوف بويون، دوق اللورين الأدنى(٣٦) ، وبرفقته أخويه إيوستاش وبلدوين على رأس جيش كبير، واختلفت الأراء حول نوازع جودفري وأسباب خروجه في هذه الحمله، فذهب البعض إلى أنه كان يمثل الفارس المسيحي بما تحمله هذه الكلمة من معنى، فقد كان شديد الالتصاق بالفكرة الصليبية شديد التعلق بالكنيسة، مؤمناً أشد الإيمان بوجوب استرداد بيت المقدس وإطاعة أوامر البابا(٣٧) ، كما كان شديد الحماس للتعاليم الكلونية، ودللوا على شدة حماسه الصليبي، بأنه باع مقاطعاته على نهر الميز، ورهن قلعته الرئيسية في بولون ليصرف من دخل ذلك على إعداد حملته(٣٨) . بينما أنكر الآخرون عليه هذا الوازع الديني وذهبوا إلى أنه اشتهر بابتزاز أموال الأديرة المجاورة لبويون، ولذلك ساءت سمعته كثيراً في الوقت الذي اشتهرت فيه أمه بالتقوى والورع، ولهذا حثته على إعطاء المنح والعطايا لبعض الكنائس ليطهر سمعته مما لحق بها، فلما تحمس الأمراء الإقطاعيون للذهاب إلى الشرق قرر جودفري أن يمضي معهم(٣٩) . وأضاف البعض سبباً آخر لخروجه فذهبوا إلى القول بأن جودفري كان قد قدم المساعدة

---

(35) Runciman : op. cit. I, p. 145

(36) Grousset : op. cit. I, pp. 11 - 12

(٣٧) حسن حبشي : المرجع السابق ص ٦٥ – ٦٦

(38) Runciman : op. cit. I, p. 146

(٣٩) العريني : الشرق الأويط والحروب الصليبية ص١٣٨

والولاء للامبراطور هنري الرابع في حروبه بألمانيا واشترك معه في حصار روما، لهذا جعله الإمبراطور دوقاً على اللورين الأدنى، إلا أن جودفري أدرك أنه لايطمئن كثيراً للبقاء في تلك الدوقية بسبب تغلغل النفوذ الكلوني فيها وما يقترن به من عطف البابا من ناحية، فضلاً عن أنه لن يبقى طويلاً موضع ثقة الإمبراطور من ناحية أخرى، فقرر الاشتراك في الحرب الصليبية[٤٠] .

أما أخواه إيوستاش **Eustace** الثالث وبلدوين، فيشير المؤرخون إلى أن الأول منهما وهو الأخ الأكبر لجودفري وصف ببرود عاطفته الدينية وانصرافه إلى الدنيا وكل ما كان يشغله هو أملاكه الخاصة أو ما يمكن أن يحوزه من أملاك أخرى، وتذهب بعض الروايات[٤١] إلى أنه كان قد رحل مع أخيه جودفري وفي صحبة أخيه الآخر بلدوين، غير أنه ليس من المحقق ما إذا كان إيوستاش قد رحل مع جودفري أم مع الأمير روبرت النورماندي[٤٢] . بينما كان بلدوين أصغر الإخوة الثلاثة قد حرم من أن يصيب شيئاً من المقاطعات كأخويه، بل كان والده قد وهبه في صغره للكنيسة، على الرغم من كره بلدوين لذلك وضيقه بالتعليم الديني الذي فرض عليه فرضاً، فما لبث أن انصرف للحياة المدنية، وأصبح تابعاً لأخيه جودفري ثم نظر للحملة الصليبية باعتبارها فرصة لتعويضه عما لم يحزه في وطنه من السيادة والجاه ولذلك صحب زوجته وأطفاله، عازماً على تحقيق مالم يحققه في الغرب، مؤملاً إقامة إمارة في الشرق ، كما صحب جودفري أيضاً بلدوين لي بور **Le Bourg** وكان من أقاربه ربما كان ابن عمه وعدداً

---

(40) Duncalf : The First Crusade , p. 267
Runciman : op. cit. I, p. 146

(٤١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ١٠٩ (ترجمة د. حسن حبشي)

(42) Runciman : op. cit. I, pp. 146 - 6

في لوثرنجيا وما حولها[٤٣].

ووصل هذا الشق من الحملة إلى أسوار القسطنطينية في أول ابريل سنة ١٠٩٧م وبقى هناك انتظاراً لوصول بقية الأمراء على رأس جيوشهم. واستطاع الامبراطور ألكسيوس كومنين الحصول على يمين الولاء من جودفري، بمعنى أن يكون هذا الأمير تابعاً للامبراطور البيزنطي في الأراضي الأسيوية التي عساه ينجح في استردادها من المسلمين[٤٤]. وذلك يتمشى مع رغبة الامبراطور في استخدام الحملة الصليبية لتنفيذ أعراض الامبراطورية واسترداد أملاكها التي سبق أن استولى عليها السلاجقة، وفي مقابل ذلك تعهدت الامبراطورية بمد الصليبيين بكل ما يحتاجون إليه من المؤن والزاد والعتاد وكذلك إرشادهم إلى الأراضي المقدسة، وإن لم يترتب على هذه الاتفاقية احترام الصليبيين لها طويلاً[٤٥].

ولم يكد الامبراطور يحقق هذا القدر من سياسته مع الأمير جودفري، حتى سارع بحث هذا على العبور إلى الشاطىء الأسيوي، فجرى ذلك في الأيام الأولى من شهر ابريل سنة ١٠٩٧م ويبدو أن الإمبراطور أراد بذلك ألا تجتمع هذه القوات مع القوت النورمانية القادمة تحت قيادة بوهيموند النورماني والتي كان متوقعاً وصولها بين يوم وآخر، لذلك ألح على جودفري بالعبور إلى الناحية الأخري، وعلى حد قول وليم الصوري أن الالحاح هذا " لم يكن صادراً عن إخلاص وصدق طوية، بل كان على العكس من ذلك نابع مما طبع عليه من الختل والرغبة في خداع الدوق، حتى لاتنضم قواته إلى قوات اللاتين الاخرين عند وصولها"[٤٦].

---

(43) Michaud : op. cit. I, pp. 146 - 7

(44) Anna Comnena : The Alexiad, pp. 326 - 9

(45) Grousset : op. cit. I, p. 19

(٤٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ١٦٨ – ١٦٩

ومن زعماء الحملة أيضاً بوهيموند **Bohemond** النورماني، وابـن اختـه تنكرد **Tancred** اللذان وصلا إلى أسوار القسطنطينية في ١٠ إبريل سنة ١٠٩٧م، فبادر بوهيموند في اليوم التالي مباشرة بالاجتماع بالامـبراطور ألكسيوس وإعلان إخلاصه له وإبداء نواياه الطيبة تجاه الامبراطوريـة، كما أقسم له بيمين الولاء والطاعة وقدم تبعيته له(٤٧). وكـان بوهيموند أشد الصليبيين خطورة على بيزنطة وألكسيوس، فلقـد وصفتـه الأمـيرة البيزنطية آنا كومنينا ابنة ألكسيوس وكاتبة سيرته، وصفـت بوهيموند بالمكر والخبث، وأبدت كراهيتها الشديدة له وللنورمان بصفة عامـة(٤٨) للعداء الطويل بين الإمبراطورية البيزنطية والنورمـان وبسـبب الحـروب التي اسـتعرت بينهمـا منـذ أيـام روبـرت جويسـكارد(٤٩) . ونظـراً لأن بوهيموند كان حصيفاً وحكيماً كما كان سياسـياً مـاهراً، فقـد أدرك أن هذا القسم سيحد مـن نشـاطه في الشـرق، لهـذا طلـب مـن الإمـبراطور تعويضه بإقطاع كبير في إقليم أنطاكية، فوعده الإمبراطور بتحقيـق هـذا المطلـب كمـا وعـده بـأن ينظـر في طلبـه بتعيينـه قـائداً عامـاً للقـوات الإمبراطورية في آسيا(٥٠) . ثم انتقل بوهيموند وتنكرد على رأس قواتهما إلى الشاطىء الأسيوي في أواخر إبريل سـنة ١٠٩٧م ليلحقـا بجودفـري انتظاراً لوصول بقية الجيوش الصليبية. والجدير بالذكـر أن تنكـرد لم يوافـق على أن يقسم للامبراطور ألكسيـوس يمـين الـولاء والطاعـة هـو وبعض قادة الجيش النورماني(٥١) .

---

(47) Hagenmeyer : Chronologie de la prèmiere Croisade,p. 64
Anna Comnena : op. cit. pp. 326 - 9

(48) Anna Comnena : op. cit. p. 66

(49) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 176, pp. 180 - 1

(50) Brèhier : Vie et Mort de Byzance , p. 312

(51) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 282
Chalandon : Hist. de la prèmieire , Croisade, p. 137

ووصل أيضاً في نفس الوقت الأمير ريموند أوف تولوز أو ريموند أوف سانت جيل أو ريموند الرابع وبرفقته المندوب البابوي إدهيمار[٥٢] ، وكان ريموند على رأس أضخم الجيوش الصليبية وأكثرها عدداً، وصحب معه أيضاً زوجته وابنه الأصغر، بينما ترك ابنه برترام من زوجته الأولى هناك ليعهد أملاكه في الغرب[٥٣] ، وكان وصوله في أواخر إبريل سنة ١٠٩٧م إلى القسطنطينية. ولم ينجح الإمبراطور ألكسيوس في استخلاص يمين الولاء والتبعية منه نظراً لآماله الواسعة في زعامة الصليبيين ومنافسته لبوهيموند الذي حظى بتأييد الإمبراطور ورعايته[٥٤] ،فقد لمس ريموند ما بين ألكسيوس وبوهيموند من علاقات ودية، في الوقت الذي كان يؤمل فيه أن يجري الاعتراف به قائداً علمانياً لكل الحملة الصليبية لعلاقته بالبابا ومصاحبته للمندوب البابوي، فإذا أقسم ريموند يمين الولاء والتبعية للامبراطور تحتم عليه أن يتلقى الأوامر من بوهيموند باعتباره ممثلاً للامبراطور[٥٥] ،لذلك أعلن ريموند أن الله وحده هو وليه ومولاه، غير أنه أشار إلى أنه اذا تولى الإمبراطور قيادة الصليبيين فلا يسعه إلا أن يخدمه[٥٦] .

ووصل بعد ذلك في مايو سنة ١٠٩٧م فريق من الصليبيين من الفرنسيين على رأسهم روبرت أمير نورماندیا وصهره ستيفن أمير بلوا وشارتر، وكان روبرت النورماندي أخا للملك إنجلترا فرهن روبرت

---

(52) Duncalf:The first Crusade, p.272,

أنتوني بردج: المرجع السابق ص ٣٦

(53) Runciman : op. cit. I, p. 160

(54) Ibid. p. 163

(٥٥) العريني : الشرق الأوسط ص ١٩٨

(56) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 25

Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 283

دوقيته عند أخيه هذا للحصول على مبلغ من المال ينفقه على إعداد الحملة، وصحبه صهره ستيفن كونت بلوا وشارتر الذي اشتهر بالثراء والجاه ولذلك لم يجد صعوبة في إعداد حملته فصحبه كبار أتباعه وصحبه عدد من رجال الدين منهم فولشر أوف شارتر مؤرخ الحركة الصليبية الشهير(٥٧)، كما صحبهما ابن عمهما روبرت الثانى كونت الفلاندرز الذى سبقهما في الوصول إلى القسطنطينية، وأقسم كل من روبرت دوق نورمانديا وصهره ستيفن أوف بلوا يمين الولاء والتبعية للإمبراطور ألكسيوس، وبدأت الحملة الصليبية كلها في التقدم في آسيا الصغرى (٥٨).

وواضح من ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية كانت حريصة على انتزاع يمين الولاء والتبعية من زعماء الحملة الصليبية بغية الإفادة من هذه القوات لتحقيق أهدافها في استرداد ما فقدته من أراضى ومدن استولى عليها المسلمون(٥٩) من نيقية إلى أنطاكية، ولقد تعارض ذلك مع أهداف الصليبيين وآمالهم الواسعة في الاستحواذ على إمارات في الشرق والفوز بمكاسب على حساب المسلمين والبيزنطيين جميعا، ومثلت هذه مشغلة للصليبيين، فبدأ نوع من الصراع الخفى بين الطرفين ثم ما لبث أن ظهر هذا الصراع سافرا(٦٠) وساعد على استفحاله ما كان من خلاف بين البيزنطيين واللاتين من ناحية واختلاف في المستوى الحضاري والفكري من ناحية ثانية واختلاف في المصالح من ناحية ثالثة. لكن

---

(57) Runciman : op. cit. I, p. 165

(58) Rely - Smith (ed.) ; The Crusades , p. 12

Holt : The Age of the Crusades , p. 20

(٥٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٥١ – ١٥٢

(60) Runciman : op. cit. I , pp. 240 - 1,

المطوي : الحروب الصليبة في المشرق والمغرب

الصليبيين كانوا مضطرين إلى تأجيل هذا الصراع لحاجتهم إلى معونة بيزنطة وللحصول على المؤن والزاد والمرشدين الذين يرشدونهم إلى الأراضي المقدسة وفرقة من الجيش البيزنطي تساعدهم في الحرب[٦١]، ولهذا اقترب الطرفان في البداية والتقيا في منتصف الطريق، وأقسم كل زعماء الحملة فيما عدا ريموند وتنكرد يمين الولاء والتبعية للإمبراطور، ثم ما لبث أن دب النزاع وحل سوء التفاهم بين الجانبين وتفاقم العداء وازدادت الكراهية بينهما، حتى لتصبح سمة بارزة من سمات عصر الحروب الصليبية[٦٢]، أثرت كثيراً في مركز الصليبيين في الشرق وأدت في بعض الأحيان إلى إضعاف الكيان الصليبي كله أمام المسلمين وأساءت في نفس الوقت إلى سمعة بيزنطة في الغرب الأوربي بأنها أداة من أدوات تعويق الحركة الصليبية كلها[٦٣].

طريق الحملة :

تجمع الصليبيون كلهم على الشاطئ الآسيوي قرب أزمير، والتحق بطرس الناسك مع فلول حملته الفاشلة[٦٤]، فأصبح الجيش الصليبي يمثل حشداً كبيراً بالغ المؤرخون كثيراً في عدده فجعلوه مئات الألوف، لكن الراجح أنه قارب المائة وخمسين ألفاً من الرجال[٦٥]. وكان على الصليبيين تنفيذاً لبنود الاتفاقية التي أبرمت بينهم وبين

---

(61) Diehl : L'Europe Orientale , pp. 22 - 3
Chalandon : Alexis Comnene , p. 188
Ostrogotsky : op. cit. p. 322

(62) Grousset : L' epopee des Croisades , p. 18 , pp. 27 - 8

(٦٣) باركر : الحروب الصليبية ص ٣٠

(64) Gesta Francorum , I , 2 , pp. 6 - 12

(65) Runciman : op. cit. I, pp. 336 - 41

الإمبراطور، أن يسيروا إلى نقية لاستخلاصها من السلاجقة وتسليمها لممثلي الإمبراطور وكانت نيقية حينئذ حاضرة السلطنة السلجوقية بآسيا الصغري، والمركز الرئيسي للسلطان قلج أرسلان بن سليمان ومقر حكمه، وهي تقع على شاطئ بحيرة غير بعيدة عن مرمرة وتتمتع بحصانة شديدة وتتحكم في مختلف طرق المنطقة[٦٦] ، وكانت في نفس الوقت تمثل أهمية خاصة لبيزنطة لكونها مدينة مقدسة يرتبط بها جانب من تاريخ الإمبراطورية الدينى من ناحية، فضلاً عن أنها كانت تقع على الطريق الحربي القديم الذي يجتاز آسيا الصغري من ناحية أخرى، أما بالنسبة للصليبيين فكان لابد من الاستيلاء عليها قبل المضي في الزحف في أملاك السلاجقة، فلو ظلت بيد السلاجقة فستكون البقعة التي تهدد مواصلاتهم وإمداداتهم الحربية[٦٧] .

وفي أوائل مايو سنة ١٠٩٧م حاصر الصليبيون مدينة نيقية، وكان السلطان قلج أرسلان إذ ذاك متغيباً عن العاصمة، إذ دخل في نزاع مع أسرة تركية أخرى هى أسرة آل الدانشميذ في الطرف الشرقي لآسيا الصغري، حول مدينة ملطية، ظاناً أن جموع الصليبيين في هذه المرة أيضاً مثل أتباع بطرس الناسك، غير مقدر لخطورة القوات الصليبية، فخبرته بجماعة بطرس الناسك خدعته في تقدير حقيقة قوة التجمعات الصليبية الجديدة التي قصدت هذه المرة نيقية[٦٨] فاكتفي السلطان بإرسال قوة لنجدة المدينة أو لمحاولة شغل الصليبيين ريثما يعود ، غير أن هذه القوة عجزت عن شغل الصليبيين أو اختراق

---

(66) Runciman : op. cit. I, p. 172
Grousset : op. cit. I, p. 28

(٦٧) حسن حبشي : الحروب الصليبية الأولي ص ٨٥

(٦٨) حسن حبشي : المرجع نفسه ص ٨٦

حصارهم للمدينة فانسحبت انتظاراً لوصول الجيش الرئيسي تحت قيادة السلطان نفسه[٦٩] ،الذي ما لبث أن عقد هدنة مع آل الدانشمند وعاد مسرعاً إلى نيقية من الجهة الجنوبية ، وبادر بالهجوم على الصليبيين ليشق طريقاً إلى داخل المدينة ، ودارت معركة ضارية مع الصليبيين عجز السلطان خلالها عن فتح طريق إلى المدينة فآثر الانسحاب إلى الجبال القريبة ، وفي نفس الوقت بعث إلى حامية المدينة يطلب منها أن يتخذ ما تراه لصالحها[٧٠] .

شدد الصليبيون الحصار على نيقية وعاونهم البيزنطيون بالمؤن والعتاد وأدوات الحصار وبفرقة من الجيش البيزنطي وببعض السفن لإحكام الحصار حول المدينة ومنع نفاذ المؤن إليها عن طريق البحيرة توطئة لاقتحامها ، على الرغم من أن الإمبراطور ألكسيوس كان حريصاً على ألا يصيب نيقية كثير من التخريب أو الهدم ، لأنه كان يريدها سليمة[٧١] ، فلما وصلت هذه المساعدات الجديدة لم تجد حامية المدينة بدا من الاستسلام ، ويبدو أن رجال الحامية أحسوا برغبة الإمبراطور في تسلم المدينة دون تخريب ، وفي نفس الوقت يئسوا من وصول نجدات من قبل السلطان لهذا بادروا بالاتصال سراً بالإمبراطور لتسليمه المدينة نظير تأمين حياتهم وخروجهم بما يملكون ، وفي النهاية استسلمت المدينة لجنود الإمبراطور في ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧م وعادت إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية بعد ستة عشر عاماً من خضوعها للسلاجقة[٧٢] ،

---

(٦٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(70) Runciman : op. cit. I, pp. 179 - 180

(71) Anna Comnena : The Alexiad , pp. 312 - 13
Chalandon : Alexis Comnene , p. 190

(72) Holt : The Age of the Crusades , pp. 20 - 21
Bréhier : Vie et Mort de Byzance , p. 312

ففوجئ الصليبيون بالرايات البيزنطية تخفق فوق أسوار المدينة وعلى حصنها ويدخلها ممثلو الإمبراطورية لتملكها دون مناقشة هذا الأمر أو إجراء الترتيبات لذلك مع القادة الصليبيين(٧٣) .

وقد أسهم ذلك في زيادة الكراهية للإمبراطور، إذ كان الصليبيون يأملون أن يحصلوا على بعض المغانم والأسلاب من المدينة ، فضلاً عن الحصول على الفدية من الأمراء الترك في المدينة المستسلمة ، ولكن الإمبراطور حال بينهم وبين ذلك(٧٤) ، وإن عاد فخصص جانباً مما حصل عليه من نفائس المدينة وأموالها لبعض زعماء الصليبيين أو من اختارهم من زعمائهم، خاصة أولئك الذين لم يحصل منهم على يمين الولاء والتبعية طمعاً في أن يعيدوا النظر في موقفهم ويقسموا له ذلك اليمين ، فاضطر تنكرد النورماني للقسم بعد أن وصله الإمبراطور بكثير من الهدايا والأموال مما غنمه من المدينة(٧٥) . وكان لسقوط مدينة نيقية أثر عظيم في نفوس الصليبيين ، إذ أثار حميتهم وبث فيهم عزيمة وشجعهم على المضي نحو تحقيق أهدافهم ، كما أحدث سقوط نيقية دوياً هائلاً في الغرب الأوربي ، فبدأ من كان يحجم عن الخروج بالتفكير في الذهاب إلى الشرق وتشجعت المدن الإيطالية وأخذت تعد العدة للإسهام مساهمة فعّالة في الحروب الصليبية(٧٦) .

وفي أواخر يونيو سنة ١٠٩٧ م تقدم الصليبيون نحو مدينة قونية ، عبر الطريق البيزنطي القديم الذي يخترق آسيا الصغري من

---

(73) Stevenson : The Crusaders in the east. , p. 12

(74) Anna Comnena : op. cit. p. 330 - 1
Grousset : op. cit. I, p. 30

(75) Runciman : op. cit. I, p. 180

(٧٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٦٥ ،
Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 285

الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، وكان قلج أرسلان قد أعد عدته وأنهى نزاعه مع آل الدانشمند، واتفق معهم على التصدي للصليبيين فاحتشدت قوات الأتراك كلها في سهول ضورليوم(أسكي شهر) لمنع الصليبيين من التقدم ومفاجأتهم أثناء زحفهم وعند اجتيازهم الدروب(٧٧) ،وكان جيش بوهيموند قد عسكر بالقرب من ضورليوم انتظاراً لقوات ريموند وجودفري، عندئذ بادره قلج أرسلان بالهجوم على رأس قوات كبيرة من الترك والعرب والتركمان وذلك في ٤ يوليو سنة ١٠٩٧م ،ودارت معركة ضارية في ضورليوم قتل فيها المسلمون خلقاً عظيماً من الصليبيين، وكادوا يفتكون بقوات بوهيموند كلها، لولا وصول جيش جودفري وتلتها قوات إدهيمار وريموند فتغير مسار الحرب، وتحولت دفة المعركة واضطر المسلمون إلى الانسحاب، على الرغم مما منى به الصليبيون من خسائر وفقدهم لكثير من رجالهم وبعض قادتهم(٧٨) .

وهكذا انتصر الصليبيون في ضورليوم وغنموا من الأتراك كميات كبيرة من المؤن والزاد وكثير من المغانم والأسلاب، بعد أن ترك المسلمون وراءهم معسكرهم بما حفل به من خيام وثروات ومؤن وزاد، فضلاً عما استولى عليه الصليبيون من الخيول والدواب والإبل(٧٩) . ويكاد يجمع المؤرخون القدامى منهم والمحدثون على أن الصليبيين لقيوا في ضورليوم درساً لن ينسوه مما جعلهم يولون جنود الترك ما هو خليق بهم من الاحترام والتقدير، وأظهروا الإعجاب ببسالتهم وشجاعتهم وفنونهم في القتال ما لم يظهروه للبيزنطيين، بل اعتبروا طرق هؤلاء في الحرب طرقاً متداعية وعقيمة إذا قيست بطرق وخطط

---

(77) Runciman : op. cit. I, p. 184, العريني : الشرق الأوسط ص ٢١١

(٧٨) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٤٠- ٤١ (ترجمة د. حسن حبشي)

(79) Runciman : op. cit. I, p. 186, العريني : الشرق الأوسط ص ٢١٢

الترك[٨٠] . وهكذا كشفت هذه الموقعة للصليبيين القناع عن حقيقة ثابتة هى قوة بأس السلاجقة بصورة تختلف عما كان في أذهانهم عن هذا الجنس[٨١] .غير أن معركة ضورليوم أعلنت في نفس الوقت للعالم عن ظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هي قوة الصليبيين الغربيين التي دحرت قوة السلاجقة التي طالما عجزت أمامها قوة البيزنطيين[٨٢] .

ثم تقدم الصليبيون بعد ذلك في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو مدينة قونية عبر فريجيا، فتعرضوا في طريقهم لكثير من المتاعب بسبب وعورة الطرق وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة الحرارة في أشهر الصيف، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم، فضلاً عما ترتب على غارات الترك في تلك الجهات من تخريب القرى والطرق وحرق الزراعات وطم الآبار وتحطيم الجسور وتفرق السكان بالإضافة إلى ثقل العتاد الحربي وهلاك عدد كبير من الخيول[٨٣] ،ولكنهم وصلوا في النهاية إلى مدينة قونية في منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧م ، وكان قلج أرسلان قد اتخذها عاصمة له ومركزاً لتجمعاته بعد هزيمته في نيقية وضورليوم، وكانت مفاجأة للصليبيين أن وجدوا المدينة خاوية على عروشها، بعد أن أخلاها السلاجقة مفضلين الانسحاب إلى الداخل، وإخلاء المدن أمام الصليبيين حاملين معهم كل ما استطاعوا حمله حتى لا يتركوا شيئاً من المؤن أو الزاد للصليبيين[٨٤] .

---

(٨٠) أعمال الفرنجة ص ٤٠ - ٤٢، العريني : المرجع السابق ص ٢١٢ ،
Runciman : op. cit. I, p. 187

(٨١) حسن حبشي : الحروب الصليبية الأولى ص ٩٣

(٨٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٦٦
Grousset : op. cit. I, p. 35

(83) Runciman : op. cit. I, p. 189 ,Grousset : op. cit. I, p. 36

(٨٤) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٢٣٤

وبعد ذلك تقدم الصليبيون صوب مدينة هرقلة، ولم تجد محاولةالسلاجقة للمرة الأخيرة لمنعهم من التقدم، فقد استولوا على هرقلة بعد فرار الجيش السلجوقي ناحية الشمال متخلياً عن المدينة للصليبيين وذلك في ١٠ سبتمبر سنة ١٠٩٧م [٨٥] .

وبعد ذلك انقسم الصليبيون إلى قسمين: فريق ضم بلدوين وتنكرد النورماني واتجه هذا القسم إلى قيليقية في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغري، والفريق الآخر تكون من جودفري وبوهيموند وريموند ومعهم المندوب البابوي إدهيمار وزحفوا في الاتجاه الشمالي الشرقي، حيث استولوا على قيصرية في أواخر سبتمبر سنة ١٠٩٧م [٨٦] ،ولم يواجه هذا القسم صعوبة تذكر في ذلك لأن السلاجقة واصلوا خطة انسحابهم وتجريد المدن مما يمكن أن يفيد به الصليبيون فضلاً عن تخريب الطرق، وحتى ذلك الوقت كان التعاون لازال قائماً بين الصليبيين والبيزنطيين، فقد حرص الصليبيون على الالتزام ببنود الاتفاقية التى عقدت مع الإمبراطور لأنه لولا إرشاد البيزنطيين للجيش الصليبي في دروب ومسالك آسيا الصغري لما استطاع الصليبيون التقدم عبر تلك البلاد ولهذا كان كل بلد يقع في أيديهم يتولى حكمه رجل يرشحه الإمبراطور البيزنطي [٨٧] .

ولم يلبث الصليبيون أن عادوا إلى الاتجاه الجنوبي الشرقي في آسيا الصغري، فاخترقوا مجموعة من سلاسل جبال طوروس العالية، ووصلوا إلى مدينة مرعش التي يسكنها الأرمن ويحكمها رجل أرمني بذل كل ما في وسعه لمساعدة الصليبيين، فأقره مندوب الإمبراطور

---

(85) Runciman : op. cit. I, p. 180
Anna Comnena : op. cit. p. 342
(86) Stevenson : op. cit. p. 23
(87) Grousset : op. cit. I, p. 38
Runciman : op. cit. I. p. 191 - 3

البيزنطي على حكم المدينة[٨٨] فأضيفت مرعش لأملاك الإمبراطور البيزنطي ، وبذلك ظل الصليبيون يحافظون على تعهداتهم للإمبراطور، إذ سلموا إليه ما استولوا عليه من المدن والقرى التي كانت تابعه فيما سبق لبيزنطة[٨٩] . ومن مدينة مرعش تقدم الصليبيون نحو بلاد الشام، فوصلوا إلى جسر الحديد على نهر العاصي شرقي مدينة أنطاكية في ٢٠ أكتوبر سنة ١٠٩٧م[٩٠] .

بلدوين البولوني وتأسيس أول إمارة صليبية في الرها :

كان بلدوين البولوني وتنكرد النورماني قد انفصلا عن الحملة الرئيسية عند هرقلة ، وفي منتصف شهر سبتمبر سنة ١٠٩٧م ،وتوجها صوب الجنوب إلى منطقة قيليقية ، التي تنازع فيها زعماء الأرمن بجبال طوروس والأمراء السلاجقة الذين كانوا يحكمون الجهات المطلة على ساحل البحر المتوسط، فضلاً عما كان للإمبراطورية من حقوق في بعض الجهات[٩١] . ونظراً لأن بلدوين وتنكرد مال كل منهما إلى المغامرة ولم تكن الحملة الصليبية عندهما أكثر من مغامرة سياسية القصد منها الاستيلاء على الشرق الأدني ، ومحاولة تكوين إمارات لهما فيها ،فضلاً عن أنهما اعتبرا سلوك الجيش الرئيسي الطريق الذي يجتاز قبادوقيا عبر قيصرية ومرعش ، خطأ لم يكن القصد منه سوى تنفيذ المعاهدة المعقودة مع الإمبراطور لتمكين هذا من الاستيلاء على إقليم أرمينيا الصغري التي يسكنها الأرمن المسيحيون ،وتحطيم قوة الترك في آسيا الصغري والقضاء على سيطرتهم[٩٢] فقد هبط تنكرد

---

(88) Michel le Surien : Chronique (ed.) Chapot, pp. 173 - 4

(89) Grousset : op. cit. I, p. 38

(90) Runciman : op. cit. I, p. 193

(91) Grousset : op. cit. I, p. 44

(٩٢) العريني : الشرق الأوسط ص ٢٢٠

وبلدوين من هرقلة مباشرة إلى سهل قيليقية الخصيب يحدو كل منهما أمل في تحقيق آماله وإقامة إمارة له في الشرق، غير أنه جرت بين بلدوين وتنكرد منازعات واشتباكات وتنافس على امتلاك طرسوس[٩٣]، فتأكد بلدوين صعوبة إنشاء إمارة في قيليقية الأرمينية، فعاد بلدوين إلى مرعش عند وصول الجيش الرئيسي إليها - كما يقول وليم الصوري - ليطمئن على أخيه جودفري الذي عاني من جروح شديدة إثر رحلة صيد، ومن ناحية أخري ليدرك زوجته " جودهيلد " التي كان قد تركها في رعاية أخويه وكانت حينئذ تحتضر وتعاني سكرات الموت وتوفيت فعلاً في مرعش بعد أيام قليلة [٩٤] .

فلم يلبث بعد وفاتها أن ارتحل من جديد، ولكنه اتجه هذه المرة نحو الشرق والشمال الشرقي ، لأنه يبدو تحقق أنه ليس بوسعه إنشاء إمارة له في قيليقية، وإن لم يتخل بعد عن تحقيق حلمه، ومن ثم كان اتجاهه هذه المرة إلى الاتجاه الشمالي الشرقي إلى بلاد أرمينيا[٩٥] ، فيمم وجهه صوب شمال العراق ومنطقة الجزيرة ونحو الفرات[٩٦] ،وفي صحبته مستشار أرميني يدعي باكراد (بقراط) كان قد صادقه عند نيقية فلازمه هذا وصار مقرباً إليه، وهو في نفس الوقت أخ لأحد أمراء الأرمن شرقي مرعش يدعى كوغ باسيل ومعناها اللص باسيل لأنه سرق عدة قلاع فتملكها الأرمن[٩٧] وغدت له السيادة على كيسوم ورعبان، فحرص بلدوين على الاتصال بأمراء الأرمن في تلك النواحي بمساعدة

---

(93) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 23, n. 2

(٩٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية ج١ ص٢٣٤-٢٣٥، ص ٢٤٦(ترجمة د.حبشي)

(95) Grousset : op. cit. I, p. 49

(٩٦) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلي القدس ص ٥٤ (ترجمة د.زياد العسلي)

(٩٧) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٣٤

(نشر الأب أنطون اليسوعي.لبنان ١٩٨٣)

بقراط، فاعتبره الأرمن محرراً لهم وحامياً لمتلكاتهم ورحبوا به وساعدوه ليخلصهم من حكم الأتراك السلاجقة، ونظروا إلى الصليبيين عامة باعتبارهم أقرب إليهم وأولي بالتأييد نظراً لأنهم مسيحيين[٩٨].

استولى بلدوين بفضل مساعدات الأرمن على حصني الراوندان وتل باشر[٩٩] الواقعين فيما بين عينتاب ونهر الفرات ،أما الرها التي تقع في أقصي شمال العراق، فقد كانت تحت حكم زعيم أرمني يدعي ثوروس، الذي كان قد وثب إلى حكمها سنة ١٠٩٥ م ، وكان ملكشاه قد منحها لأحد رجاله يدعي بوزان[١٠٠] ،غير أن ثوروس استغل ما نشب من نزاع بين السلاجقة ووثب إلى حكم المدينة وانتزعها لنفسه، ولهذا ظل ثوروس يترقب ويخشي أن يعود السلاجقة لتهديد المدينة، الأمر الذي جعله يرحب بمقدم الصليبيين تحت زعامة بلدوين ليكون تحت حمايتهم[١٠١].

اتخذ بلدوين تل باشر – على الناحية الأخري من الفرات – في أول الأمر عاصمة لإمارته، وذلك في أكتوبر سنة ١٠٩٧م ،غير أنه ما لبث أن تلقى رسالة من ثوروس الأرمني من الرها في مستهل سنة ١٠٩٨م يستحثه على القدوم لمساعدته[١٠٢] ،على أثر الأنباء التي تواترت باستعدادات كربوغا أتابك الموصل المعروف بصلفه وشدته وشجاعته للزحف إلى شمال الشام لإنقاذ أنطاكية التي جد الصليبيون في حصارها في ذلك الوقت، وخوف ثوروس من أن يقتلع كربوغا في طريقه الرها وكل الإمارات الأرمينية في تلك الجهات، فضلاً عن

(98) Stevenson : op. cit. p. 23

(99) Albert d'Aix , p. 350

(100) Holt : The Age of the Crusades , p. 14

(101) Runciman : op. cit. I, p. 204

(102) Stevenson : op. cit. pp. 22 - 4

توجسه خيفة من تحرك بعض الأرمن الكارهين لحكمه في الرها والذين كانوا يتحينون الفرصة للإطاحة به[١٠٣] ، ولهذا قام ثوروس باستدعاء بلدوين للتآزر به ووضع الرها تحت حمايته .

غير أن بلدوين لم يكن بوسعه قبول ما عرضه عليه ثوروس ، لأن معنى ذلك أن يدخل بلدوين في خدمة ثوروس، وبطبيعة الحال كانت هذه مناورة أفلح بلدوين في القيام بها ليخطو خطوة أخرى لتملك المدينة، التي اقتنع بصلاحيتها مقراً لإمارته المرتقبة، ولهذا لم يسع ثوروس إلا أن يعلن أنه اتخذ بلدوين ابناً ووريثاً له في الحكم خاصة وأنه كان مسناً ولم يكن له وريث، وطلب من رعاياه الأرمن أن يعتبروا بلدوين شريكاً له في حكم الرها[١٠٤] ،وكانت هذه فرصة بلدوين لتحقيق أحلامه في إقامة إمارة كبيرة في الشرق، خاصة وقد وجد في أهل الرها من الأرمن خير عون وتأييد، إذ استقبلوه بحماسة شديدة واتخذه ثوروس ابناً له ووريثاً[١٠٥] في احتفال كبير البسه فيه قميصاً كان يلبسه هو ، وتدانيا من بعضهما البعض وتلاحقا، وفعل بلدوين نفس الشئ مع زوجة ثوروس إظهاراً للبنوة وإكمالاً لمراسم التبني[١٠٦] .

لم يكد يمضي أكثر من شهر على دخول بلدوين المدينة، حتى انفرد بحكم الإمارة في مارس سنة ١٠٩٨م ،بعد أن دعاه أهلها لذلك وبالحاح شديد وبعد أن شهد نهاية أليمة لحاكمها ثوروس الذي اغتيل

---

(103) Matthiew d' Edesse, pp. 218 - 20 ,
Conder : The Latin Kingdam, p. 38

(104) Runciman : op. cit. I, p. 204

(105) Matthiew d' Edesse , pp. 37 - 8
Grousset : op. cit. I, pp. 53 - 6

(١٠٦) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولي ص ١٠٤ ،
فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس ص ٥٣

فجأة على يد بعض المتآمرين، وقيل أن بلدوين هو الذي دبر هذه المؤامرة لتصفو له الرها، وقيل أيضاً أنه علم بالمؤامرة ولم ينهض لإفسادها وإنقاذ ثوروس، بل إن المتآمرين ارتكنوا إلى تأييده، ثم دعاه سكان المدينة لتقلد حكمها(١٠٧) . وكيفما كان الأمر فقد انفرد بلدوين بحكم الرها وأسس أول أمارة صليبية في الشرق، غدت أول إمارة أقامها الصليبيون في الشرق الأدني(١٠٨) ، ومثلت أكبر عون للصليبيين الذين كانوا حينئذ يحاصرون أنطاكية، إذ عطلت جيوش المسلمين الزاحفة إلى شمال الشام، وكفلت للصليبيين جانباً من الحماية كانوا في أشد الحاجة إليها في مواجهة النجدات الإسلامية إلى مدينة أنطاكية وفي حماية ممتلكات الصليبيين بعدئذ بالشام(١٠٩) ،ولم يلبث أن ترامت أخبار نجاحه في الرها إلى أسماع الصليبيين في أنطاكية، فقدم إليه بعض زعماء الصليبيين ليكونوا في خدمته، وتحمس هو لذلك ليشد هؤلاء أزره، فأغراهم بالزواج من أرمينيات ليقوى العلاقات مع الأرمن من ناحية، ويزيد التآلف بين عنصري الإمارة الجديدة من ناحية أخري وبادر هو نفسه بالزواج من إحدي الأرمينيات ابنة أحد كبار رجال الأرمن(١١٠) .

الصليبيون وأنطاكية :

تقدم الصليبيون من مرعش في أكتوبر سنة ١٠٩٧م نحو مدينة أنطاكية وكانت أكثر المدن تحصيناً وأعظم مدن الشام قوة، إذ نالت عناية البيزنطيين طوال خضوعها لهم على مدى أكثر من قرن من

(107) Runciman : op. cit. I, pp. 205 - 7

(108) Reley - Smith (ed.) : op. cit. p. 12

(١٠٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٨٤

(110) Albert d' Aix, p. 361

الزمان (٩٦٩ - ١٠٨٥م) ، حتى يمكن مقارنتها بمدينة القسطنطينية من حيث المنعة وقوة التحصين[١١١] ،إذ تحتضنها المرتفعات والجبال العالية من جهتي الجنوب والشرق فتجعل أمر اقتحامها عسيراً، في حين كان يحدها من جهة الغرب مجري نهر العاصي، وتقع في شمالها أحراش ومستنقعات فضلاً عن أن بها أربعمائة برج تقع بـأعلى الأسوار ولها عدة أبواب وتوافر الماء بداخلها والمراعي[١١٢] ولها قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها، لأنها ترتفع عن المدينة نحو ألف قدم، وكان البيزنطيون قد اهتموا بتحصينها خلال حكمهم لها حتى استردها السلاجقة سنة ١٠٨٥م ،ولم يكن استيلاء هؤلاء عليها بالقوة، وإنما لجأوا إلى الحيلة والمكيدة لدخولها، وقد وصفها أحد الرحّالة قرب منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) فقال : " وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل... فتتم دائرة، وفي رأس الجبل داخل السور قلعة"[١١٣] .

وترجع أهميتها عند المسيحيين إلى أنهم اتخذوا بها لأول مرة اسم المسيحيين كما يقول وليم الصوري: " فقد عقد في هذه المدينة أول مجمع للمؤمنين الذين اصطلح على تسميتهم بالمسيحيين اشتقاقاً من كلمة المسيح"[١١٤] ،فضلاً عن أن القديس بطرس أنشأ بها أول كنيسة أسقفية " وكان فيها أبرشيه كهنوتية لكبير الحواريين، الذي كان أول من تبوأ وظيفة الأسقف هناك" [١١٥] وكان أغلب سكانها من السريان والأرمن وبعض اليونانيين الأرثوذكس .

---

(111) Grousset : op. cit. I, p. 72

(١١٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ (ترجمة د. حبشي)

(١١٣) انظر ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥

(١١٤) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٢٧٢

(١١٥) وليم الصوري : نفسه ص ٢٧١

وكانت أنطاكية تحت حكم الأمير السلجوقي ياغي سيان، أحد رجال ملكشاه، ثم انتقلت تبعية ياغي سيان إلى رضوان أمير حلب، الذي ما لبث أن دخل في صراع مع أخيه دقاق أمير دمشق، فانحاز ياغي سيان إلى جانب دقاق في محاولة للاستقلال بالمدينة، بل لجأ إلى سياسة الإيقاع بين الأخوين وتوسيع شقة الخلاف بينهما لتصفو له إمارة أنطاكية، ولهذا ساءت العلاقة بينه وبين رضوان في الوقت الذي أخذ فيه الصليبيون يدقون أبواب الشام ويتجهون ناحية أنطاكية[١١٦]، وترتب على ذلك تقاعس رضوان وأهل حلب عن نجدة أنطاكية حينما حاصرها الصليبيون[١١٧].

وحينما علم ياغي سيان بتقدم الصليبيين نحو المدينة لم يهدأ ولم يهمل في الدفاع عنها وبعث إلى كافة القوى الإسلامية يستنجد بها، ثم ما لبث أن أخرج المسيحيين من المدينة وحفر حولها خندقاً، إذ يبدو أنه كان يخشى تمرد المسيحيين داخل أنطاكية، فعمد إلى إخراج الذكور منهم حتى لا يثبوا عليه من الخلف[١١٨]، ويفسر ذلك ابن الأثير فيقول أنه " أخرج النصارى لعمل الخندق... فلما أرادوا دخول البلد منعهم... فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج" [١١٩] وكان حفره الخندق حول المدينة لزيادة تحصينها كما شحن قلعتها بالجند، ووفر لها كميات كبيرة من المؤن استعداداً لحصار طويل[١٢٠].

---

(١١٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣١ – ١٣٢

(117) Grousset : op. cit. I, p. 71

Runciman : op. cit. I, p. 213

(118) Chalandon : Histoire de la premiere Croisade, p. 193

(١١٩) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٨٦ (ط مصر).

حسن حبشي : المرجع السابق ص ١١٥

(120) Runciman : op. cit. I, pp. 214 - 15

وعندما حاصر الصليبيون أنطاكية، أبدى ياغي سيان شجاعة عظيمة، مما أعجز الصليبيين وفت في عضدهم، فطالت مدة الحصار، وقلت الأقوات لديهم وفشلوا في الحصول على كميات منها من الجهات المجاورة، فهلك كثير منهم، وأصبح الصليبيون لا يجرؤون على مغادرة المعسكر وفقدوا كل ما يمكن أن يمسكوا به أودهم(١٢١)، فهلك كثير من رجالهم ولاذ فريق آخر بالفرار عائدين إلى أوطانهم، ولم تتحسن الأمور بعض الشئ إلا بوصول إمدادات جلبها تنكرد، بعد أن استبد بهم الخوف وعانوا كثيراً خاصة في شهر نوفمبر ١٠٩٧م(١٢٢) كما دأبت قوات أنطاكية على الإغارة عليهم بين الحين والحين، فضلاً عما يقوم به السلاجقة المنحدرون من قمم الجبال المحيطة من هجمات للفتك بهم، الأمر الذي أجبر بوهيموند على تحصين المنطقة التي يعسكر بها جنده(١٢٣)، واستمر حصار الصليبيين للمدينة أكثر من سبعة أشهر (أكتوبر ١٠٩٧ - ٣ يونيو ١٠٩٨م) .

وبحلول الشتاء تفاقمت مشكلة نقص المؤن والعلوفة، وفي أواخر ديسمبر ١٠٩٧ غدت هي المشكلة الأساسية للجيش الصليبي، خاصة وقد تسربت الرطوبة إلى خيامهم والعفن إلى ما كان باقياً من طعامهم، وتفشي الوباء في كتائب العسكر وعمت المجاعة(١٢٤)، فاستقر الرأى على أن ينهض فريق من الجيش على رأسه بوهيموند وروبرت كونت

---

(١٢١) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٥١ (ترجمة د. حبشي). وكان المؤرخ صاحب هذا الكتاب واحداً من شهود العيان وواحداً أيضاً ممن ألمت بهم المجاعة. انظر حبشي : نفسه ص ١١٦

(122) Grousset : op. cit. I, p. 88 ,Runciman :op. cit. I, p. 219

(١٢٣) ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ص ٨٦ - ٨٨ (ترجمة د. حسن حبشي)

(١٢٤) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٢٩٢ - ٢٩٣

فلاندرز للزحف في وادي نهر العاصي ناحية حماة علـه يستطيع الحصول على بعض الأقوات للجيش الجائع، بينما يبقي الفريق الآخر على حصار المدينة[١٢٥]، وحينما وصل بوهيموند وروبرت إلى أرض البارة بالقرب من حلب اصطدما بقوة إسلامية كانت قد خرجت من دمشق تجاه أنطاكية لمساعدة ياغي سيان يقودها دقاق أمير دمشق وبصحبته طغتكين أتابك وشمس الدولة ابن ياغي سيان وانحاز إليهم أمير حماة، ولم تسفر المعركة عن نتائج حاسمة وإن ذهبت الرواية الإسلامية إلى أن المسلمين قتلوا منهم جماعة، ثم عاد بوهيموند وروبرت دون أن يحصلا إلا على قليل من المؤن والزاد فاشتدت المحنة على الصليبيين[١٢٦].

وأثناء هذه المحنة أخذ بعض الصليبيين في الفرار متسللين، ومن الغريب أن بطرس الناسك وبعض رفاقه كانوا من بين أولئك الفارين، فأدرك زعماء الصليبيين أن مثل هذا العمل يمكن أن يسهم في إضعاف الروح المعنوية للجيش الصليبي فجد تنكرد في أثره حتى قبض عليه هو وجماعته وأعادهم إلى المعسكر الصليبي وهم في أشد حالات الخزي والعار، وتعرض بطرس الناسك لتوبيخ القادة وزعماء الصليبيين، بل أخذ عليه تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس[١٢٧].

ويبدو أن ياغي سيان كان على علم بتفاصيل المحنة التي كان يمر بها الصليبيون، وخروج فريق للبحث عن المؤن والزاد في حوض نهر العاصي في نحو عشرين ألف محارب، ولهذا خرج على رأس قواته من أنطاكية لمهاجمة الجيش الصليبي الباقي على حصار المدينة

---

(125) Runciman : op. cit. I, pp. 220 - 1

(126) Albert d' Aix . p. 394

(١٢٧) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٥٥ (ترجمة د. حبشي)

وذلك في ليلة ٢٩ ديسمبر سنة ١٠٩٧م تحت جنح الظلام، فباغت الصليبيين وأنزل بهم خسائر كبيرة وقتل كثيراً من جندهم، على الرغم من أن هذا الهجوم انتهى بارتداد ياغي سيان ودخوله المدينة[(١٢٨)] ،ثم ما لبث أن عادت قوات بوهيموند وروبرت دون أن تحصل على أقوات أو ميرة تكفي لإشباع ذلك الجيش الضخم وما معه من خيول، فما لبث الصليبيون أن فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم الذين هلكوا بسبب نقص المؤن والمرض قدره المؤرخون بنحو سبع رجال الحملة، كما نفقت الخيول ولم يبق منها سوى سبعمائة حصان[(١٢٩)] ،فانتهز بعض السريان والأرمن الفرصة، وراحوا يتسوقون الأطعمة والقمح من الجهات الجبلية ويرسلونها لتباع للصليبيين بأثمان باهظة، لم يكن يستطيع دفعها سوى قلة من كبار الأمراء[(١٣٠)] . وبصعوبة شديدة أيضاً نجح الصليبيون في رد هجوم قام به بعد ذلك رضوان أمير حلب وسقمان بن أرتق أمير ديار بكر وأمير حماة في آخر محاولة لمساعدة ياغي سيان وإخراجه من محنته قبل سقوط المدينة[(١٣١)] .

ساءت أحوال الصليبيين كثيراً أمام أنطاكية، وعجزوا عن اقتحامها، ولما أبداه حاكمها ياغي سيان من شجاعة في مقاومتهم، ولما نزل بهم من شدائد بسبب قلة المؤن وصعوبة الحصول على شئ منها من الجهات القريبة[(١٣٢)] ،ولهجمات الترك التي أقضت

---

(١٢٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥

(129) Runciman : op. cit. I, p. 222

(١٣٠) ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة ص ٩٠ ،أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٥٤ - ٥٥،

Matthiew d' Edesse , p. 217

(131) Stevenson : op. cit. p. 27

(132) Runciman : op. cit. I, p. 227، Stevenson: op. cit. p. 26

مضاجعهم[١٣٣]، يضاف إلى ذلك انسحاب قائد الفرقة البيزنطية (تاتيكيوس) على رأس رجاله من أمام أنطاكية في أوائل فبراير سنة ١٠٩٨م [١٣٤]،فلم يبق أمام الصليبيين إذن سوى طريق التآمر للاستيلاء على المدينة، وقد وجد بوهيموند - وكان يخطط للانفراد بتملك المدينة بعد سقوطها - أن التآمر خير طريق لإنهاء الشدة التي عاشها جموع الصليبيين أمام حصانة المدينة، وقوة استحكاماتها وعناد أهلها، فتواطأ بوهيموند مع أحد حراس الأبراج في الجبهة الشمالية الغربية من المدينة، ويدعى فيروز (نيروز) قيل أنه ينتسب إلى أسرة أرمينية، وتظاهر باعتناق الإسلام، وكسب ثقة ياغي سيان حتى عهد إليه بحفظ برج كبير من أبراج المدينة[١٣٥] ، بالرغم من إضماره الحقد والكراهية لياغي سيان، فقام بالاتصال سراً ببوهيموند عن طريق الأرمن من بني جلدته، وتم الاتفاق على تيسير استيلاء بوهيموند على المدينة، في مقابل وعد بوهيموند بالحصول على مال وإقطاع فقام بتسهيل مهمة اقتحام رجال بوهيموند المدينة من جهته، ومن ثم سقطت المدينة في أيدي الصليبيين في ٣ يونيو سنة ١٠٩٨م ، وخرج منها ياغي سيان مع بعض رجاله هارباً، ولكنه لم يلبث أن ندم على فراره وعدم مقاتلته الفرنج حتى الموت، ومن شدة حزنه خر عن جواده مغشياً عليه، ولما يئس أصحابه منه تركوه ومضوا فاجتاز به رجل أرمني عرفه، فقطع رأسه وحملها إلى الصليبيين بأنطاكية[١٣٦] .

---

(١٣٣) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٢٨٦

(134) Grousset : op. cit. I, p. 81

(135) Conder : The Latin Kingdom, p. 46

Grousset : op. cit. I, pp. 92 - 3

(١٣٦) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٥٨ (سنة ٤٩١ هـ)،

ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٤،

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٣٥،

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٧٠

ولما دخل الصليبيون أنطاكيـة، أحدثـوا بهـا مذبحـة رهيبـة راح ضحيتها الآلاف من أهلها من الرجال والنساء والأطفال، وغنموا ما بها من الأقوات والأموال والسلاح وغير ذلك فعادت إليهم قوتهم شيئاً مـا، وارتفعت معنوياتهم[١٣٧]، ومـع ذلـك فقد عـزت عليهـم قلعتهـا الـتي صمدت حاميتها، ولجأ إليها من فر من المذبحة الرهيبـة مـن الـترك، وكانت القلعة تقع في الجنوب الشـرقي مـن المدينـة علـى إحـدى قمـم الجبل. والواقع أنه بسقوط أنطاكية ينتهي فصل هـام في قصـة المقاومـة الباسـلة ليـاغي سـيان، الحـاكم الـذي لم تهزمـه القـوة وإنمـا هزمتـه الخيانة[١٣٨].

وينبغى أن نشير إلى أمور هامـة جـرت أثنـاء حصـار الصليبيـين لأنطاكيـة أولهـا: مـا حـدث مـن فتـور العلاقـة بـين الصليبيـين والبيزنطيين، بل تحولها إلى عداء سافر، فقد كـانت هنـاك فرقـة مـن الجيش البيزنطي تسـاعد الصليبيـين في حصـار أنطاكيـة علـى رأسـها تـاتيكيوس. تنتظـر سـقوط المدينـة لتنفيـذ الاتفاقيـة بـين الإمـبراطور والصليبيين بتسليم المدينة لممثلي الإمبراطور[١٣٩]، غير أن بوهيموند وكان يعمل للفوز بأنطاكية، ويخطط للانفراد بحكمها ويبيـت النيـة للتحلـل من تعهداته للإمـبراطور البـيزنطي أوحـى إلى زعمـاء الصليبيـين بتـآمر البيزنطيين مع المسلمين ضد القوات الصليبية، حتـى تسـوء العلاقـات مع بيزنطة، وتتهيأ الفرصة له للتحلل مـن تعهداتـه لهـا، ولمـا واجـه أمراء الحملة القائد البيزنطي بذلـك التـآمر المزعـوم، غضـب وانسـحب بجنوده أثناء الحصار تاركاً الصليبيين في محنة شديدة[١٤٠]، على الرغم من اختلاف المؤرخين المعاصرين حول تفسير هذا الانسحاب.

---

(137) **Grousset** : op. cit. I, p. 96

(١٣٨) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ١٢٦

(139) **Chalandon** : Hist. de la prèmiere Croisade, p. 193

(140) **Runciman** : op. cit. I, p. 224

فمن المؤرخين من فسره على أنه كان هروباً من هذا القائد بجنوده خلال المحنة التي عاناها الصليبيون أمام أنطاكية، وأنه فر جبناً وخوفاً من مواجهة الجيش السلجوقي المتوقع وصوله[١٤١] ،ومنهم من فسره بأن هذا القائد تذرع بذرائع واهية لهذا الانسحاب منها : عدم أخذ الصليبيين بنصائحه في إدارة الحرب، ومنها رغبته في الالتحاق بجيش الإمبراطور ألكسيوس الذي قيل أنه قادم لمعاونة الصليبيين لاجتياز تلك المحنة، ومنها تظاهره بالرغبة في إحضار المؤن والزاد للصليبيين، إضافة إلى غضبه مما نسبه بوهيموند للإمبراطور من اتصال سري بالمسلمين والتآمر ضد الصليبيين، ولاتهامه هو شخصياً بخيانة الصليبيين والتدبير ضدهم[١٤٢] .

وتشير آنا كومنينا إلى ذلك بقولها أن بوهيموند أحكم المؤامرة تماماً، إذ تظاهر بقربه من تاتيكيوس ومصادقته، ثم ما لبث أن أخبره بأن ثمة أنباء وردت إلى قادة الصليبيين بأن الإمبراطور يراسل سلطان المسلمين سراً ضد مصالح الصليبيين، وأن الغيظ قد تملك القادة الصليبيين لهذه الأنباء لدرجة جعلته يخشى على حياة تاتيكيوس ويوجس خيفة على سلامته[١٤٣] ،وأنه فعل كل ما في وسعه لنصحه ويترك له في النهاية حرية التصرف هذا فضلاً عن أن تاتيكيوس كانت لديه أسباب أخري للقلق خاصة ما تعرض له رجاله من محنة الجوع ونقص المؤن، بالاضافه إلى يأسه من قرب سقوط أنطاكية . كل هذا جعله ينطلق إلى ميناء سان سيمون (السويداء أو السويدية) ليركب سفينة أقلته إلى قبرص[١٤٤] ،متظاهراً بأنه ماض لتزويد الجيش

---

(141) Grousset : op. cit. I, p. 81

(١٤٢) انظر بعض هذه التفسيرات في : ريموند اجيل: تاريخ الفرنجة ص ٩٢ ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٥٦، Albert d' Aix, p. 416

(143) Anna Comnena : The Alexiad, p. 343 (trans. Sewter)

(144) Ibid. p. 343

الصليبي بما يحتاجه من مؤن[١٤٥] .

ومهما تكن أسباب هذا الانسحاب، فقد أضاف إلى سوء أحوال الصليبيين أمام أنطاكية، وبالغ في ضيقهم خاصة وأن الصليبيين كانوا قد أظهروا استياءً شديداً تجاه الإمبراطور لعدم مدهم بالمؤن والميرة مما عرضهم للخطر الشديد وأوصلهم إلى الحالة التي كانوا فيها ولهذا ازداد العداء لبيزنطة، وأزمع قادة الجيش الصليبي على التحلل من شروط الاتفاقية مع الإمبراطور ألكسيوس[١٤٦] .

وثاني تلك الأمور : النشاط الكبير الذي أظهره بوهيموند بصفة خاصة ليفوز بأنطاكية ويؤسس بها إمارة كبيرة، وفي سبيل ذلك قام بكثير من المناورات بهدف إجبار بقية زعماء الحملة على التسليم بأحقيته في تلك المدينة[١٤٧] ،فبعد أن دق إسفيناً في العلاقات الصليبية البيزنطية والتمس الأسباب لطرح طاعة الإمبراطور ألكسيوس والتحلل من قسمه له، تظاهر أثناء الحصار ووسط المحنة التي عاشها الصليبيون، بأنه عازم على سحب جيوشه والعودة إلى بلاده[١٤٨] ، متعللاً بأنه لا يستطيع البقاء طويلاً بعيداً عن أملاكه في الغرب التي بدأ يقلق عليها من ناحية، وأنه لا يستطيع أيضاً تحمل الخسائر الكبيرة في جنوده أمام أنطاكية، بسبب الجوع والمرض وهجمات الترك وانخفاض الروح المعنوية من ناحية أخري، تظاهر بذلك كله وهو يعلم شدة حاجة الصليبيين لجهوده وجيشه في ذلك الوقت[١٤٩] ،وعندئذ

---

(145) Chalandon : Hist. de la premiere Croisade, pp. 192- 3
Essai sur la regne d' Alexis Comnene, pp. 200 - 3

(١٤٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٩٦

(147) Holt : op. cit. p. 22

(148) Grousset : op. cit. I, p. 79

(149) Ibid. p. 80

سارع بقية زعماء ما عدا ريموند بالتوسل إليه بالبقاء، وعدم تركهم أمام أنطاكية خاصة وقد كانت الفرق النورمانية أكثر فرق الصليبيين جسارة وأكثرها قوة ولا غنى عنها في تلك الحرب، أما عن أملاكه في الغرب فيمكن تعويضه عما قد يلحقها من أذى بأنطاكية بعد سقوطها لتكون مقر إمارة له في الشرق، وأكدوا له وعدهم بتسليمه المدينة فور الاستيلاء عليها، على الرغم من أن معظم القادة لم يفتهم أن تلك مناورة تهدف لاستخلاص هذا الوعد، بالحصول على المدينة التي خطط طويلاً للاستئثار بها[١٥٠] .

وثالث هذه الأمور ما حدث من مشروع تحالف بين الصليبيين والخلافة الفاطمية ضد السلاجقة، فقد اعتقد الأفضل شاهنشاه الوزير الفاطمي المسئول عن الخلافة (١٠٩٤ -١١٢١م) ،أن بالإمكان عقد محالفة مع الصليبيين ضد السلاجقة السنيين، الذين نازعوا الخلافة الفاطمية الشيعية نفوذها وسلطانها في بلاد الشام[١٥١] ،فأرسل إلى الصليبيين سفارة في أوائل سنة ١٠٩٨م منتهزاً فرصة اضطراب السلاجقة وقام من جانبه بإرسال جيش استولى على بيت المقدس من أيدي الأراتقة التركمان (سقمان ابن أرتق) في نفس الوقت تقريباً[١٥٢] ،ونظراً لأن الصليبيين كانوا في محنة في ذلك الوقت، فقد فضلوا التظاهر بمحالفة الخلافة الفاطمية ريثما يتم لهم القضاء على السلاجقة، فيلتفتون للفاطميين بعد ذلك، إذ لاشك أنهم كانوا يريدون العمل على زيادة الهوة بين المسلمين وأمرائهم، فرحبوا برسل الوزير الفاطمي بل أعلنوا كذباً أنهم ما قصدوا سوى الأراضي والمدن التي كانت تابعة لبيزنطة فيما مضي مثل أنطاكية واللاذقية والرها[١٥٣] .

---

(150) **Runciman** : op. cit. I, p. 225

(151) **Stevenson** : op. cit. p. 26

(١٥٢) ابن القلانسي: ذيل ص١٣٥. Conder: The Latin Kingdom, p.63

(١٥٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٥٨ (سنة ٤٩١ هـ)

وهكذا أسهموا في خدعة جديدة للفاطميين، كان لها أثرها في تسهيل اختراقهم بلاد الشام والاستيلاء على بيت المقدس هدفهم الأساسي، بل أنهم حاولوا استمالة رضوان ملك حلب هو الآخر، حتى إذا فرغوا من مشاكلهم استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام إمارة بعد الأخرى[١٥٤] .

كربوغا وزعامة الحلف الإسلامي لمحاربة الصليبيين ببلاد الشام سنة ١٠٩٨ م :

كان ياغي سيان قد استنجد بكافة القوى الاسلامية لمساعدته وإخراجه من محنته، فلما يئس من قدرة أمراء الشام على تقديم المساعدة له، استحث السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه وأتابكة كربوغا في الموصل والخليفة العباسي على مساعدته[١٥٥] ،وفي نفس الوقت أدركت الإمارات الإسلامية الصغيرة في بلاد الشام ضآلة إمكاناتها وضعفها في مواجهة الصليبيين، فتهيأت للانضواء تحت راية كربوغا أتابك الموصل لمحاربة الصليبيين[١٥٦] .

زحف كربوغا فعلاً على رأس قواته من الموصل في طريقه إلى أنطاكية، ولكنه أدرك خطورة بقاء الرها في شمال العراق وراء ظهره بما يعنيه ذلك من إمكان قطع طرق مواصلاته مع إمارته والوثوب على مؤخرة جيشه، ففضل حصارها لمحاولة الاستيلاء عليها[١٥٧] فقضى الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر مايو سنة ١٠٩٨م أمام أسوارها، لكنه عجز عن اقتحامها لحصانتها من ناحية، وحماسة الصليبيين

---

(١٥٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٩٩

(١٥٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤

(156) Grousset : op. cit. I, p. 88

(157) Runciman : op. cit. 1, pp. 230 - 1

فيها مع الأرمن لحفظها، فأضاع فيها وقته سدى وبدد جهوده عبثاً[١٥٨] ،وكانت هذه الأسابيع الثلاثة فرصة للصليبيين لإحكام الحصار حول المدينة بعد أن تأكد لهم حرج موقفهم واحتمال وصول كربوغا في أى وقت فيقعون بين قوات أنطاكية من الداخل وبين جيشه كربوغا من الخارج، وبعد أن نجحوا أيضاً في بناء قلعة على تل قريب من المدينة أسهمت في تضييق الخناق عليها من ناحية وزادت في متاعبها من ناحية أخري[١٥٩] بمنع المؤن والزاد من النفاذ إليها ومنع أهلها من رعي قطعانهم في المروج القريبة منها وخارج أسوارها، بل ومنعهم من الخروج لشن الهجمات على الصليبيين[١٦٠] .

لكل هذه الأسباب جد الصليبيون في إسقاط المدينة، فتآمر بوهيموند مع فيروز كما سبق أن أشرنا ونجح الصليبيون في دخول المدينة مكرا وخديعة وعن طريق الخيانة وذلك في ٣ يونيو سنة ١٠٩٨م[١٦١] ،في الوقت الذى فشل فيه كربوغا في اقتحام الرها، فتقدم على رأس قواته إلى بلاد الشام وعند مرج دابق اجتمع مع كربوغا كل من : دقاق ملك دمشق وبصحبته طغتكين أتابك، وجناح الدولة الحسين صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسقمان بن أرتق ووثاب بن محمود ومعه جنده من العرب[١٦٢] . أما رضوان صاحب حلب فلم يشترك في هذا الحلف، وأكد فساد سياسته في هذه الظروف التى توشك أن تشهد تقرير مصير بلاد الشام بأكملها[١٦٣] ،

---

(١٥٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج١ ص ٣٤٠

(159) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 292

(160) Runciman : op. cit. I, p. 229

(161) Grousset : op. cit. I, pp. 96 - 7

(١٦٢) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٨٦ (سنة ٤٩١ هـ)،

ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٦

(١٦٣) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ١٢٧

وتحرك هذا الحلف فوصل إلى أنطاكية يوم ٤ يونيو أى في اليوم التالى مباشرة لسقوط المدينة في أيدى الصليبيين، فعلم كربوغا أن قلعتها لم تسقط(١٦٤).

ألقى كربوغا الحصار على الصليبيين بأنطاكية بعد أن تسلم قلعة المدينة، وحاول النفاذ إلى المدينة عن طريق القلعة، ولكن الصليبيين حشدوا فرقهم تحت قيادة بوهيموند وريموند، واستماتوا في منعه من النفاذ إلى المدينة، كما أقاموا تحصينات تكفل لهم جانبا من الأمن من هذه الناحية، وعندئذ لجأ كربوغا إلى إحكام الحصار حول الصليبيين بالمدينة وتجويعهم داخلها(١٦٥). وكانت حالة الصليبيين داخل المدينة قد بدأت تتدهور وتتدرج من سيئ إلى أسوأ نظرا لقلة المؤن والزاد وعدم عثورهم على ما كانوا يؤملونه فيها من هذه المؤن، فازدادت حالتهم سوءا، وانحطت معنوياتهم وقلت الأقوات لديهم يوما بعد يوم وبدأ الجوع يعضهم من جديد" فتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر(١٦٦) "وآثر بعض أعيانهم الهروب، فشقوا طريقهم وسط المسلمين إلى ميناء السويدية(سان سيمون) حيث نقلتهم السفن إلى ميناء طرطوس(١٦٧)، ومنهم ستيفن أوف بلوا وغيره من رجالات الصليبيين المبرزين(١٦٨)، وهكذا" وقعوا بين خطبين: السيف فى الخارج والفزع فى الداخل(١٦٩). "وزاد فى بأسهم ما بلغهم من أن الامبراطور البيزنطى

(164) Grousset : op. cit. I, pp. 97 - 8

(165) Runicman : op. cit. I, pp. 237 - 8

(١٦٦) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٨٧ (٤٩١ هـ) ، ابن القلانسي: ذيل ص١٣٦

(167) Conder :op. cit. p. 45, Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 292,

وليم الصوري : نفس المصدر ج١ ص ٣٧٦

(168) Raint : Inventaire des lettes Historiques. pp. 171- 8,

ريموند اجيل: تاريخ الفرنجة ص ١٤١

(١٦٩) وليم الصوري : نفس المصدر ج١ ص ٣٧٥

ألكسيوس الذى قيل أنه قادم لمساعدتهم، والذى اتخذ الطريق فى آسيا الصغرى قاصدا أنطاكية قد قرر مرة ثانية العودة إلى عاصمته، على أثر ما زعمة له الفارون من الصليبيين من أن السلاجقة استردوا أنطاكية وأنهم فى طريقهم لمحاربته هو الآخر[١٧٠] .

وترتب على ذلك أن يئس الصليبيون ، وأيقنوا بالهلاك، حتى قيل أنهم عرضوا أن يستسلموا لكربوغا مقابل أن يمنحهم الأمان على أرواحهم، إلا أن كربوغا ثقة فى قوته ورغبة فى محاربتهم إشفاء لغلته، رفض ذلك وقال لهم: "لا تخرجوا إلا بالسيف[١٧١] "، وأصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط[١٧٢] ، وجاء هذا الرفض فى وقت كان الصليبيون يتطهرون من مباذلهم وذنوبهم، حسب إشارة رجالهم الأتقياء، وأحسوا أن قوى غيبية قد بدأت تهىء لهم سبل النصر[١٧٣] .

فوسط متاعب الصليبيين وانحطاط روحهم المعنوية، وسط ساعات الترك والمجاعة التى كادت تودى بهم، جاءت مسألة الحربة المقدسة التى زعم رجل صليبى يدعى بطرس بارثلميو أن القديس أندراوس، تراءى له فى النوم، وأمره أن يمضى إلى ريموند الصنجيلى ويخبره أن الحربة المقدسة التى طعن بها جنب المسيح مدفونة فى كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، وأنهم متى استخرجوها، أصبح النصر حليفهم،

---

(170) Michaud : op. cit. I, pp. 300 - 1,
Grousset : op. cit. I, p. 102

(١٧١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٣٦،
ابن العبري : تايخ مختصر الدول ص ٣٤١(ط لبنان ١٩٨٣) .
ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٨٦ – ١٨٧ (سنة ٤٩١ هـ)

(172) Chalandon : Hist. de la premiere Croisade, p. 220

(١٧٣) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ١٣٨

وتأكدوا من الظفر بأعدائهم[١٧٤] ، وفى نفس الوقت ذكر أحد القساوسة لأدهيمار أنه تراءى له المسيح والعذراء وأن المسيح أخبره أنه إذا ندم رجال الجيش على ما ارتكبوه من آثام وعادوا إلى جادة الصواب، فسوف يحميهم وينصرهم خلال خمسة أيام[١٧٥] ، فأحدث ذلك حماسة كبيرة بين الصليبيين وأسرع رجال ريموند إلى كتدرائية القديس بطرس لاستخراج الحربة المقدسة، غير أنهم لم يعثروا على ما ادعاه بارثلميو، وعندئذ وثب بطرس بارثلميو إلى الحفرة فأخرج قطعة من الحديد يبدوا أنه سبق له وضعها[١٧٦] ، فاشتدت حماسة الناس وهللوا لمرآها وكان ذلك يوم ١٤يونيو سنة ١٠٩٨م[١٧٧] ، وادعى الرجل أنها ذات الحربة التى طعنت الجنب الأيمن ليسوع المسيح[١٧٨] .

وأخذت الرؤيات تنتشر بينهم إذ إدعى البعض أنهم رؤا رؤيا العين أشباح الملائكة والرسل الطوبانيين[١٧٩] ، وقال أحدهم أنه كان يقف أمام أبواب كنيسة مريم المباركة" فإذا بكاهن فى ملابس بيضاء يظهر وعندما سألته عن اسمه ووطنه أجاب: اننى مرقس المبشر الإنجيلى جئت من الإسكندرية[١٨٠] "، وكان لذلك كله أثر فى رفع روحهم المعنوية وإعطائهم دفعة كانوا فى أمس الحاجة إليها فأبشروا

---

(174) Runciman : op. cit. I, pp. 243-4,

وليم الصوري :الحروب الصليبية ج١ ص ٣٩٦ – ٣٩٧

(175) Anne Comnena : The Alexiad, pp. 351 - 2

(176) Runciman : op. cit. I, p. 245

(177) Chalandon : op. cit. pp. 210 -18

(١٧٨) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس ص ٥٨ – ٥٩

(١٧٩) وليم الصوري : نفس المصدر ج١ ص ٣٩٧ .

أعمال الفرنجة وحجاج بيت القدس ص ٨٠

(١٨٠) ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت القدس ص ٢٠١

بالنصر وقويت عزيمتهم[١٨١] . وفى نفس الوقت أخذ المعسكر الاسلامى يتصدع شيئا فشيئا ، وبدأ يعانى عوامل الفرقة والانقسام، وهى التى عصفت بالحلف الكبير فى تلك الظروف الحرجة[١٨٢] ، فقد كان هذا الحلف يحمل معه عوامل فشله وأسباب انهيارة، قبل الدخول فى معركة مع الصليبيين، لأنه كان يضم مجموعة متنافرة من الأمراء والقادة وخليطا غريبا من الجنود فى غير توافق أو تفاهم، فضلا عن أن الدافع لدى الأغلبية لم يكن مقدسا فى هذه الحرب ، التى تحتاج إلى شيء من الوازع الدينى والحماسة الروحية[١٨٣] .

أصبح الصليبيون أكثر استعدادا لخوض حرب يائسة، بعد نفاذ قوتهم ومعاناتهم داخل أنطاكية ، فى الوقت الذى يئسوا فيه من وصول أية نجدات، وفى صبيحة يوم ٢٨يونيو بدأ الصليبيون يخرجون من أنطاكية جماعات صغيرة فى إثر بعضها ، وباشر هذه العملية بوهيموند بنفسه بعد أن كلف من يبقى بالمدينة لمراقبة الحامية التركية بالقلعة[١٨٤] ، وتتابع خروج الصليبيين والمسلمون على مقربة منهم يرونهم، فأشار أحد القادة على كربوغا بالوقوف قرب باب المدينة ومهاجمة كل من يخرج منهم قبل أن يتكامل عددهم غير أن كربوغا رفض، وقال: " أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم[١٨٥] "، وحال بين عسكره وبين الوثوب على الصليبيين حين خروجهم فرادى،

---

(١٨١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٢

(182) Grousset : op. cit. I, pp. 104 - 6

(١٨٣) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ١٢٧ - ١٢٨

(184) Runciman :op. cit. I, p.247, ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة ص ١٤٣

(١٨٥) ابن العديم :زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧، أعمال الفرنجة ص ٩٣

ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٨٧

وسمح للصليبيين أن يخرجوا من أنطاكية دون مضايقات رغم أنه كان يستطيع سد الطريق عليهم[١٨٦] .

ولما تكامل عددهم ضربوا مصافا عظيما وبادروا بالزحف على جبهة المسلمين فى اندفاع شديد وزحف اليائس، مما أذهل الجيش الاسلامى وأحدث الاضطراب به، فاشتد القتال على الجبهة الرئيسية، وعجز الترك عن وقف تقدم الصليبيين واضطربت صفوفهم[١٨٧] ،وبادر فى هذه الظروف فريق من الأمراء المسلمين بالانسحاب من المعركة تحت قيادة دقاق بن تتش، فتركوا موقعهم وأحدثوا خللا كبيرا في صفوف المسلمين، فساد الذعر بين الجنود، وانهزم فريق آخر منهم وتبعهم آخرون" ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم[١٨٨] "، عندئذ أيقن كربوغا أن المعركة خاسرة فأحرق خيامة وسرادقه وإنهزم إلى حلب، حتى قال ريموند اجيل "وهرب العدو دون أن يعطينا فرصة للقتال، ثم طاردتهم قواتنا حتى غروب الشمس"[١٨٩]، انسحب كربوغا إلى حلب ولكنة لم يمكث بها طويلا إذ قرر العودة إلى الموصل بعد أن تداعت هيبته وتفرقت قواته المنهزمة لتترك للصليبيين حرية العمل في بلاد الشام[١٩٠] . واستولى الصليبيون على ما في المعسكر الاسلامى من مؤن وآلات وأسلحة ما لا يدركه حصر، وتتبعوا القوات المنهزمة فأعملوا فيها القتل وأظهروا حقدا وأبدوا وحشية وعنفا بشهادة مؤرخهم فوشيه الشارترى" أما النساء اللواتى وجدن في خيام العدو، فإن الفرنجة بقروا بطونهن بالحراب" [١٩١] ، ووثب السريان

---

(١٨٦) ريموندااجيل : تاريخ الفرنجة ص ١٤٥

(187) Runciman : op. cit. I, p. 248, أعمال الفرنجة ص ٩٤

(١٨٨) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٨٧ (سنة ٤٩١ هـ) ،
ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ١٣٧

(١٨٩) ريموندااجيل: نفسه ص ١٤٦

(١٩٠) محمد الشيخ الجهاد المقدس ص ١٤٤

(١٩١) فوشيه الشارتري تاريخ الحملة إلى القدس ص ٦٣

والأرمن على فلول القوات المنهزمة فقتلوا ونهبوا وسلبوا[١٩٢] . كذا وقعت الهزيمة على الجانب الاسلامى وأصبح الطريق مفتوحا أمام الصليبيين إلى بيت المقدس .

الطريق إلى بيت المقدس:

أضاع الصليبيون بعد ذلك نحو تسعة أشهر حتى إبريل سنة ١٠٩٩م، ولم يتـ وا مباشرة إلى بيت المقدس، بل شغلهم التنافس فيما بينهم حول ملكية أنطاكية، إذ تنازع بوهيموند الرومانى وريموند الصنجيلى وتنافسا فى سبيل الفوز بها، فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية البيزنطية تتمسك بأحقيتها فى المدينة[١٩٣] ، ولقد طالب الصليبيون الامبراطور ألكسيوس كومنين بالزحف إليهم على رأس قواته لمساعدتهم فى الاستيلاء على بيت المقدس حتى يردوا له أنطاكية، إلا أن الامبراطور تكاسل واستمهلهم وشاع بين الصليبيين أنه عقد محالفة مع الفاطميين ضدهم[١٩٤] .

وعلى الرغم من أن بوهيموند أخذ يتصرف فى أنطاكية باعتباره أميرا لها، واتخذ من الاجراءات ما يكفل له التحلل تماما من عهوده للامبراطور البيزنطى، وعلى الرغم أيضا من أن زعماء الصليبيين—باستثناء ريموند—أظهروا موافقتهم على ذلك[١٩٥] ، إلا أن الاتجاه العام لدى الأغلبية منهم كان يفضل تأجيل النظر فى هذه المشكلة مؤقتا حتى تتضح الصورة تماما انتظارا لمقدم الامبراطور الذى أرسلوا يستحثونه

(١٩٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧

(193) Ostrogorsky: op. cit. p. 181,
Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 294 - 5

(194) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 205 - 7
Grousset : op. cit. I, p. 112

(195) Grousset : op. cit. I, p. 109

على القدوم للسير معهم إلى بيت المقدس، ويطلبون منه كذلك مدهم بما كانوا يحتاجون إليه من المؤن والزاد والمساعدات لانجاز مشروعهم الكبير الذى قدموا من أجله[١٩٦] .

ولما وصل رد الامبراطور في إبريل سنة ١٠٩٩م يستمهلهم إلى شهر يوليو ليتمكن من القدوم إليهم والمسير معهم إلي بيت المقدس، كان الصليبيون قد قرروا قبل شهور الزحف جنوبا إلي الأراضى المقدسة، وبدأوا فعلا بالاستيلاء على بعض المدن .ويعلق المؤرخون على تقاعس الامبراطور عن المجيء أو اتخاذ ما يضمن حقه في أنطاكية، أنه بذلك أضاع الفرصة لاسترداد المدينة وما حولها[١٩٧] ، وفي نفس الوقت لم يستسلم ريموند لاستئثار بوهيموند بالمدينة وكان ريموند حينئذ يتحكم في الأحياء الجنوبية الغربية من المدينة وفى جسر الحديد، ومثلت هذه مشكلة أمام الصليبيين، كان عليهم مواجهتها، خاصة وقد توفى في شهر أغسطس سنة ١٠٩٨م إدهيمار دى مونتيل بسبب الوباء الذى انتشر في أنطاكية منذ أوائل الصيف وكان هذا المندوب البابوى من ضحاياه[١٩٨] ، ولهذا أرسلوا إلى البابا يطلبون منه القدوم لمرافقتهم إلى بيت المقدس، ولعلهم كانوا يحتاجون إلى مشورته في مشكلة أنطاكية فالواقع أن كتاب زعماء الصليبيين إلى البابا أوربان الثانى يشير من طرف خفى إلى ما نشب بين بوهيموند وريموند من صراع في ذلك الوقت[١٩٩]

---

(196) Brehier Vie et Mort de Byzance. 314,

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٩٨. وليم الصوري الحروب الصليبية ج٢ ص ١٧ - ١٨. Albert d'Aix , 434

(197) Runciman : op. cit. I, p. 250

(198) Michaud : op. cit. I, p. 333,

ريموندداجيل . تاريخ الفرنجة ص ١٥١-١٥٣

(١٩٩) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ١٥٢

استولى الصليبيون على البارة فى أواخر سبتمبر سنة ١٠٩٨م، وهى مدينة كانت تتبع حلب وتقع شرقى نهر العاصى إلى الشمال قليلا من معرة النعمان[٢٠٠] ، وبدأوا فى الهجوم أيضا على بعض المدن الأخرى على الطريق إلى بيت المقدس، ويبدوا أن هذه الاغارات وما أسفرت عنه من سقوط بعض المدن فى أيديهم لم تكن إلا للحصول على المؤن والزاد من ناحية[٢٠١] ، والبعد لبعض الوقت عن أنطاكية الموبوءة بالطاعون من ناحية ثانية، ولشغل القادة عن التفكير فى مشكلة أنطاكية من ناحية ثالثة، لكن الأهم من ذلك كله كما يشير مؤرخ محدث أنها كانت لشغل الوقت ريثما يتقرر الزحف النهائى إلى بيت المقدس[٢٠٢] .

ولهذا استأنفوا الهجوم واتجهوا إلى معرة النعمان وهاجموها، ولم يتحرك أحد من أمراء المسلمين المجاورين لنجدتها فاستسلمت المدينة[٢٠٣] فى ديسمبر من نفس العام[٢٠٤] .وفى البارة ومعرة النعمان تعسف الصليبيون كثيرا، وتصرفوا بوحشية مع السكان ولم يحترموا أمانا أو عهدا منحوه للأهالى ، فقتلوا وسبوا وخربوا وأحرقوا، وحولوا المساجد إلى كنائس، بل إن ريموند أسكن فى البارة جماعة من

---

(٢٠٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤،
Chalandon .. la premiere Croisades, p. 249

(٢٠١) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة ص ١٥٦

(٢٠٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٢١

(٢٠٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦،
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٠٢

(204) Stevenson op. cit. p. 30,
أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٠٥ -١٠٦

المسيحيين الأوربيين بدلا من المسلمين(٢٠٥). ودخلوا المعرة فرفعوا الصلبان فوق المدينة، وفرضوا على أهلها المكوس(٢٠٦). كما أخذوا يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود، ومضى بعضهم يقطعون لحومهم قطعا(٢٠٧).

واصل الصليبيون الزحف إلى بيت المقدس في يناير سنة ١٠٩٩م، فاتجهوا إلى كفر طاب إلى الجنوب من المعرة بنحو عشرين كيلومترا، وعندئذ سارعت الامارات العربية في أواسط بلاد الشام باتباع سياسة لينة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين، بعد أن أدرك الأمراء العرب في شيزر وطرابلس وحمص ضعف إمكاناتهم في مواجهة الصليبيين من ناحية، وتقاعس القوى الاسلامية الكبرى عن مساعدتهم من ناحية أخرى(٢٠٨). فتعهدوا بعدم اعتراض طريق الصليبيين بل وتقديم ما يحتاج إليه الجيش الصليبي من مؤن وزاد وكذلك إرشادهم عبر إقليم نهر العاصي بشرط ألا يتعرضوا بالأذى لأراضيهم أثناء إجتيازهم لها(٢٠٩). ويذكر وليم الصوري أن حكام شيزر وحماة وحمص أمدوهم بالحراس "وجهزوا لهم أسواقا يتم فيها البيع والشراء...هذا بالاضافة إلى إهدائهم الكثير من الذهب والفضة وتزويدهم بالماشية والأغنام، كما قدمت لهم جميع أنواع المؤنة منعا لأيديهم من أن تمتد بالسوء إلى تلك المناطق"(٢١٠).

---

(٢٠٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٧ .
فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ٦٨

(206) Hagenmeyer : Chronologie de la prèmiere Croisade, 319

(٢٠٧) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٠٦

(208) Grousset : op. cit. I, p. 125,
Runciman : op. cit. I, p. 268

(209) Stevenson : op. cit. p. 31, ريموندأجيل : تاريخ الفرنجة ص ١٨٥

(٢١٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٤٣

وناقش الصليبيون بعد ذلك الطريق التى يسلكونها إلى بيت المقدس، وظهر اتجاهان: الأول اتخاذ طريق ساحل البحر المتوسط ليظل الصليبيون على اتصال بأنطاكية وبالأساطيل التى تربطهم بقبرص وبيزنطة والغرب الأوربى(٢١١)، إلا أن بعضهم أشار إلى أن هذا الطريق متعرج وطويل ولا يتوافر فيه الأمان بسبب كثرة الموانى الواقعة عليه، ولن يتوافر فيه الاطمئنان إلا بالاستيلاء على تلك الموانى كجبلة وطرابلس وصيدا وصور وعكا، فى الوقت الذى نقصت فيه أعدادهم، واستنفذت قوتهم خلال الحروب السابقة ولم يتوافر لهم سوى نحو ألف فارس وخمسة آلاف من الرجالة(٢١٢). أما الاتجاه الآخر أن يسلك الصليبيون الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس على امتداد نهر العاصى إلى وادى البقاع، ثم إلى نهر الأردن. واعترض البعض على ذلك متذرعين بصعوبة الحصول على المؤن اللازمة عبر هذا الطريق، ولأن جانبا من هذا الطريق يمر بأراضى تابعة لدقاق أمير دمشق الذى سيجد حتما فى منعهم من المرور(٢١٣). وفي النهاية اتفق الجميع على التوفيق بين الرأيين، فيسير الجيش في الطريق الداخلى ويتجه إلى البحر المتوسط بين الحين والحين للحصول على الإمدادات، وعلى هذا جرى الاتفاق على أن يعود الصليبيون إلى الطريق الساحلى قرب طرابلس(٢١٤).

واصل الصليبيون زحفهم عبر الطريق الداخلى، فوصلوا إلى مصياف فعاهد أميرها، ثم مروا برفنية التى هرب أهلها " وتركوا ما بها من البساتين الممتلئة.. وخلوا مساكنهم الذاخرة بالقوت وهاموا

(211) Heyd : Histoire du Commerce , I, p. 134

(212) Runciman : op. cit. I, p. 268

(213) Ibid. p. 268

(214) Holt : The Age of the Crusades, p. 22

على وجرهم" (٢١٥) .ثم هبطوا بعد ذلك إلى سهل البقاع الذى يتحكم فيه حصن الأكراد وكان قد لاذ بهذا الحصن سكان المناطق المجاورة بقطعانهم، فهاجمه الصليبيون، واستولوا على ما به من ماشية وأغنام، بعد أن هجره سكانه ولاذوا بالهرب وذلك في ٢٩يناير سنة ١٠٩٩م، ومنه إلى عرقه الواقعة على نحو خمسة عشر ميلا إلى الشمال الشرقى من طرابلس، وكانت ضمن أملاك بنى عمار فى طرابلس، فهاجموها فى ١٤فبراير سنة ١٠٩٩م(٢١٦) ، وألقوا الحصار عليها، لكنهم عجزوا عن اقتحامها، وطال حصارهم لها نحو أربعة أشهر دون طائل فرفعوا الحصار عنها فى مايو سنة ١٠٩٩م، واضطروا للانسحاب من أمامها، واسهمت الخلافات بين بعض قادة الصليبيين في رفع الحصار عن عرقة للمسير إلى بيت المقدس(٢١٧). وأثناء حصارهم لعرقة استولت فرقة منهم على أنطرسوس المعروفة باسم طرطوس، والتى تبعد عن عرقة مسافة عشرين ميلا على الساحل(٢١٨)، في فبراير من نفس العام، فأدى ذلك إلى سهولة تموينهم من السفن الايطالية والبيزنطية(٢١٩) .

---

(٢١٥) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٠٨ .

Grousset . op. cit I, pp 123 - 130

(216) Archer · The Crusades , pp. 81 - 82

(٢١٧) انظر عن ذلك:

Chalandon :Essai sur le regne d' Alexis Comnene,p.248

وانظر كذلك ريموندداجيل : تاريخ الفرنجة ص ٢١٥،

Stevenson : op. cit. p. 32

(٢١٨) وليم الصوري الحروب الصليبية ج٢ ص ٤٧ ،وانظر أيضاً :

Le Strang:Palestine under Moslems,

Vol. I, 562,Vol.2 602

(219) Grousset op. cit. I, pp. 132 - 3

وبعد انسحابهم من أمام عرقة عاد الصليبيون إلى الطريق الساحلى، فوصلوا إلى طرابلس حيث لاطفهم أميرها ابن عمار، فأطلق من كان عنده من الأسرى وكانوا أكثر من مائتى أسير ومنح الصليبيين خمسة عشر ألف دينار، وقدم لهم عددا من الخيل الأصلية وأمدهم بما يحتاجون إليه من مؤن وزاد ودواب وأرسل فى معيتهم الأدلاء والمرشدين(٢٢٠) . وغادر الصليبيون إقليم طرابلس فى ١٦مايو سنة ١٠٩٩م، فمروا بالبطرون وجبيل الساحلية، ثم عبروا نهر الكلب إلى شمال بيروت، ثو وصلوا إلى بيروت نفسها فهاداهم واليها بالمال، وأمدهم بكميات وفيرة من المؤونة(٢٢١) .

وكان الفاطميون قد بسطوا نفوذهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ولكنهم-فيما يبدو-لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم فى تلك الجهات والدفاع عنها، على الرغم من أن الأسطول الفاطمى كان لا يزال يرتاد هذه الموانى ويمدها أحيانا بما تحتاج إليه من رجال وسلاح(٢٢٢) ، ولكن على الرغم من ذلك نحت معظم الموانى الساحلية نحو طرابلس فى مسالمة الصليبيين والفوز بأحسن الشروط الممكنة(٢٢٣) ، كما حرص الصليبيون من جانبهم على مهادنة هذه المدن مقابل الحصول على الزاد والمؤن وما يحتاج إلية الجيش الصليبى، ومن تلك الموانى مدينة بيروت نفسها .ثم مر الصليبيون بعد ذلك بصيدا فهاجمتهم حاميتها بضراوة فسارع الصليبيون بالمسير إلى صور فى مايو سنة ١٠٩٩م فأقاموا بقربها يومين، ثم اتجهوا إلى عكا التى سارع

---

(٢٢٠) ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة ص ١٨٩ ،

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٤٦

(٢٢١) وليم الصوري · الحروب الصليبية ج٢ ص ٦٣

(222) Runciman : op. cit. I, p. 275

(٢٢٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٣٩

حاكمها بمد الصليبيين بالمؤن والزاد كما تعهد بالدخول فى طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس .

ثم اجتاز الصليبيون حيفا حتى وصلوا إلى أرباض قيسارية في ٢٦ مايو سنة ١٠٩٩م حيث "نصبنا معسكرنا قرب قيسارية واحتفلنا بعيد العنصرة يوم ٢٩ مايو (٢٢٤) "، ثم اتجهوا إلى أرسوف وبعدها عادوا فسلكوا الطريق الداخلى إلى بيت المقدس مباشرة، تاركين طريق الساحل مع حرصهم على بقاء الاتصال بينهم وبين الساحل، ولهذا استولوا على الرملة، وفيها عقدوا مجلسا للحرب(٢٢٥) ، وكان أهلها قد هجروها ففرح الصليبيون كثيرا باستيلائهم على مدينة في قلب فلسطين، ثم استولوا أيضا على اللد في أوائل مايو سنة ١٠٩٩م، وتسلموا بيت لحم فارتفعت أعلامهم على كنيسة المهد دون أن يلقوا مقاومة، ثم اتجهوا إلى بيت المقدس(٢٢٦) .

سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين:

ترك الصليبيون الرملة فى ٦مايو سنة ١٠٩٩م، وزحفوا نحو بيت المقدس، وتجمعت الفرق الصليبية كلها أمام المدينة في ٧مايو(٢٢٧)، وكان حاكم المدينة من قبل الفاطميين " افتخار الدولة " قد اتخذ بعض الاستعدادات للدفاع عن المدينة بقدر ما سمحت ظروفه، وقام بإخراج جميع المسيحيين منها، حتى يمنع وقوع الخيانة أو ممالأة العدو، واهتم بتقوية تحصينات المدينة والتأكد من سلامة

---

(٢٢٤) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١١٤

(٢٢٥) ريموندأجيل : تاريخ الفرنجة ص ٢٢٥ ،

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٦٦

(226) Runciman : op. cit. I, p. 277

(٢٢٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٩٤

أسوارها، وحشد فيها ما يكفى الحامية من المؤن والزاد إذا طال الحصار وأرسل إلى مصر يطلب الإمدادات والنجدات العاجلة[٢٢٨]. ويذكر وليم الصورى أن صاحب مصر أمر أيضا لكسب ولاء سكان بيت المقدس بأن تصرف لهم أجور سخية من خزائنه الخاصة، وأن يسامحوا نهائيا فيما عليهم من الضرائب والمكوس[٢٢٩].

وفى تلك الأثناء وصلت إلى ميناء يافا السفن الجنوية حاملة إلى الصليبيين ما كانوا فى حاجة إليه من عدد الحصار ومواد التموين، فاستولى الجنوية على يافا فى سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين، فسارع الجنوية بالالتحاق بقوات ريموند فى الجهة الجنوبية من المدينة وساعدوه فى إحكام الحصار على المدينة[٢٣٠]، على حين حوصرت القوة الفاطمية داخل المدينة وانقطع الاتصال بها، على الرغم من أن الصليبيين كان لا يزال يعوزهم السلاح وأدوات الحصار، ولم تكن لديهم القوات الكافية لإحكام حصارهم للمدينة ومنع هجمات الحامية الفاطمية[٢٣١].

ولذلك طال أمد الحصار، واشتدت حرارة الجو فى الصيف وبدأ الماء يقل عندهم بل وينفذ، لأن المسلمين كانوا قد طموا منابع الآبار وأفسدوا مخازن المياة حول المدينة وإلى مسافة منها[٢٣٢]، وتعرض الصليبيون لهجمات المسلمين إذا ابتعدوا للحصول على الماء من الجهات المجاورة فضلا عن أن المؤن لديهم لو تكن تكفى إذا طال

---

(٢٢٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ – ١٣٧ ،
Runciman : op. cit. I, p. 280

(٢٢٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٦٧

(230) Stevenson : op. cit. p. 34

(231) Chalandon : Hist. de la prémiere Croisade, pp. 269 -71

(٢٣٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٩٣ – ٩٤

حصار المدينة لأنها بدأت فـي النفـاذ أيضـا "وفي أثنـاء الحصـار بقينـا عشرة أيام لا نجد خلالها الخبز.. ووقعنا فريسة الظمأ المحرق "[٢٣٣]، يضاف إلى ذلك ثقل الأسلحة التى كان يحملهـا الفرسـان، فضـلا عمـا برز عندهم من منازعات القادة حول مصير بيت المقدس بعد سـقوطها، في الوقت الذى سرت فيه إشاعة بقـرب وصـول جيـش فـاطمى كبـير لنجدة المدينة وفك حصارها[٢٣٤].

أدرك الصليبيـون أنـه ينبغـى المبـادرة بـالهجوم علـى المدينـــة، ومحاولـة اقتحامهـا، خاصـة بعـد أن نجـح الجنويـة في نقـل الأدوات اللازمة للحصار والأسلحة، وبعد أن نجح الصليبيون في الحصـول علـى كميات من الأخشاب من الغابات القريبة لصناعة برجين يسيران علـى عجل وانتهى العمل في البرجين وعدد مـن آلات الحصـار الأخـرى في نهاية الأسبوع الأول من شهر يوليو[٢٣٥]، فبدأوا هجومهم الشامل ليلة ١٤ يوليـو سـنة ١٠٩٩م " فـانهمرت الأحجـار مـن المقـاذيف وطـارت الصخور فى الهواء وتساقطت السهام كالبرد" [٢٣٦] واشـتد الهجـوم في صباح اليوم التالى(١٥ يوليو) بعد أن نجحـوا في تركيـب آلات الحصـار ووضعها في الأماكن المناسبة قبل شـروق الشـمس " ونصبـوا الكباسـش" وبعد أن " نصبـوا مـا معهـم مـن سـلالم الصعـود إلى الأسـوار" [٢٣٧]، فتمكنوا فى النهاية من اقتحام المدينة بعد حصار دام أكثر مـن أربعـين يومـا، فتدفـق الصليبيـون داخـل المدينـة، وتراجـع المدافعـون عـن

---

(٢٣٣) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١١٥،

ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة ص ٢٢٧

(234) Runciman : op. cit. I, pp. 283 - 4

(235) Stevenson : op. cit. p. 34

(٢٣٦) ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة ص ٢٤٥

(٢٣٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٢٣

الأسوار إلى الداخل " فتعقبهم رجالنا...معملين فيهم القتل والتذبيح...فجرت مذبحة هائلة كان رجالنا يخوضون في دماء القتلى حتى كعوبهم[٢٣٨] "، وفرت جموع هائلة إلى المسجد الأقصى معتقدين أن بإمكانهم الاحتماء به فتتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخلة مذبحة بشرية، وصفها شاهد العيان صاحب الجستا بأنها كانت مذبحة هائلة، ووصفها ألبرت الاخيني بأنها كانت مذبحة رهيبة[٢٣٩] ، حتى أولئك الذين استسلموا لم ينجوا من القتل " حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم القتل طوال اليوم حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم[٢٤٠] " وركب الناس السيف " ولبث الفرنج فى البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين[٢٤١] ".

وقيل أن من لقى حتفه من المسلمين فى تلك المدينة بلغ أكثر من تسعين ألف نسمة، وجرى نهب تحف المدينة وكنوزها واستولى الصليبيون " على الذهب والفضة...كما أخذوا فى نهب البيوت الممتلئة بالثروات " وقال المؤرخون المسلمون "وغنموا منه ما لا يقع عليه حصر[٢٤٢] "، ثم تتبع الصليبيون آلاف الأبرياء من سكان المدينة في الطرقات والبيوت والمساجد، فقتلوهم دون تفرقة بين رجل وامرأة وطفل، ومنهم جماعة مُن أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم " ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف[٢٤٣] "، وحتى اليهود الذين فروا إلى معبدهم الكبير أشعل الصليبيون فيه النار فلقى

---

(٢٣٨) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١١٨

(239) Albert of Aix, 485, Stevenson : op. cit. p. 35

(٢٤٠) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١١٨ – ١١٩

(٢٤١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٢

(٢٤٢) ابن الأثير : الكامل أحداث سنة ٤٩٢

(٢٤٣) ابن الأثير : الكامل أحداث سنة ٤٩٢ هـ

اليهود مصرعهم محترقين[٢٤٤] ،وقطعت رءوس بعض المسلمين "بينما عذب آخرون لوقت طويل وأحرقوا حتى الموت، وتكدست في الطرقات والبيوت الرؤوس والأيدى والأقدام[٢٤٥] ".حتى ليذكر المؤرخ وليم الصورى أن المدينة المقدسة أصبحت " مخاضة واسعة من دماء المسلمين " وشهدت " مذبحة فظيعة سفك فيها الدم بطريقة مخيفة، حتى شعر المنتصرون أنفسهم بالخوف وأحسوا بالتقزز والاشمئزاز"[٢٤٦] وما تأتى " لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة"[٢٤٧] . وأثارت هذه المذبحة استياء المؤرخين القدامى منهم والمحدثين، فذكر مؤرخ معاصر أنه لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة، واعترف بعض المؤرخين الأوربيين المحدثين بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩م فى بيت المقدس كانت وصمة عار لطخت الحركة الصليبية ذاتها[٢٤٨] ودمغت الصليبيين بالوحشية وألصقت بهم العار إلى نهاية عصر الحروب الصليبية كلها .

ومهما يكن من أمر، فقد حقق الصليبيون هدفهم بامتلاك بيت المقدس، التى أسسوا فيها بعد ذلك مملكة صليبية، ستكون لها الزعامة على الامارات الصليبية الأخرى ما تشكل منها فعلا وما سوف يظهر في السنوات القليلة التالية، فقد نجح صليبيو الحملة الأولى في تأسيس إمارة الرها في أقصى شمال العراق، ثم أقاموا إمارة أنطاكية

---

(٢٤٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧،

Michaud : op. cit. pp. 424- 5

(٢٤٥) ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة ص ٢٤٧

(٢٤٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٢٦

(٢٤٧) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٢٠

(248) Grousset : op. cit. I, p. 161

Runciman : op. cit. I, p. 287, عاشور : الحركة ج١ ص ٢٤٥

في شمال الشام، ثم أسسوا المملكة الصليبية في فلسطين ونشطوا لحفظ هذه الكيانات وسط الحشود الاسلامية الآخذة فى الإفاقه من الصدمة[٢٤٩] ، كما نشطوا أيضا في إسقاط مدينة طرابلس العتيدة، على الساحل الشامي- التى تنبهوا أنها تفصل بين أجزاء ممتلكاتهم في الشمال وفى الجنوب، وتجزىء كيانهم وتمنع الاتصال بين أوصال هذا الكيان، فأصبح الاستيلاء عليها هدفا حيا من أهدافهم فى السنوات الأولى من استقرارهم في أطراف العراق وفى بلاد الشام، ولعل دأب ريموند(الصنجيلى) على هدم معالم هذه الامارة العربية منذ البداية كان يحظى بتأييد عقلاء الفرنج الذين أملوا فى الاستيلاء عليها وجعلها عاصمة لإمارة جديدة لتصبح الامارة الرابعة من الامارات اللاتينية في الشرق[٢٥٠] .

تأسيس إمارة طرابلس الصليبية سنة ١١٠٩م:

وعلى عهد بلدوين الأول ملك بيت المقدس جرى إسقاط مدينة طرابلس الهامة، وتأسيس إمارة لاتينية بها، بعد نجاح الصليبيين في إقامة إمارة الرها وإمارة أنطاكية والمملكة الصليبية في بيت المقدس فكانت طرابلس آخر الامارات التى أقامها الصليبيون في الشرق . والمعروف أن طرابلس كان يحكمها بنو عمار العرب وأن أميرها سلك مسلكا لينا مع الصليبيين أثناء اجتيازهم إمارته فى طريقهم إلى بيت المقدس[٢٥١] ، فقدم لهم المؤن والزاد والأموال وزودهم بالمرشدين والأدلاء، ورفع علمهم على مدينته، مقابل عدم تعرضهم لإمارته بسوء، وحين اجتاز به بلدوين فى طريقه إلى بيت المقدس عقب وفاة

---

(٢٤٩) محمد الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام ص ٢٦٣

(250) Mills : The Hist. of the Crusades, I, p. 292

(٢٥١) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة ص ١٨٥

جودفرى، قدم له ابن عمار المؤن والزاد والمرشدين أيضـا، وحـذره مـن الكمائن التى نصبها لـه دقـاق أمـير دمشـق[٢٥٢] ، فكـانت هـذه كلهـا محاولات لحفظ إمارته، وعدم تعريضها للخطر، خاصـة وأنـه لم يكـن لديه إلا جيش صغـير، ويحكـم إمـارة بالغـة الثراء، علـى الرغـم مـن حصانة المدينة وما اشتهر به أهلها من شـدة المـراس وحسـن البـلاء في مدافعة الأعداء[٢٥٣] .

والمعروف أيضا أن ريموند أوف سان جيل (الصنجيلـى) ، كـان قـد تطلـع إلى أنطاكيـة، ورغـب فـى الفـوز بهـا عقـب سـقوطها سـنة ١٠٩٨م، ونافس بوهيموند النورمانى فيهـا، إلا أن الأمـر انتهـى بفـوز بوهيمونـد بأنطاكيـة ومسـير ريمونـد مـع الجيـش الصليبـى إلى بيـت المقدس، فلما تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس عرضوا حكمهـا على ريموند، إلا أنه رفض[٢٥٤] ، وعاد إلى اللاذقية وفى ذهنـه تكويـن إمارة له في الشمال. وتشير الروايات إلى أنه فكر في تكوين إمارة تتحكم في الطريقين المؤديان إلى فلسطين وهمـا الطريـق السـاحلى وطريـق نهـر العـاصى، بحيـث يتخـذ حمـص مركـزا لهـا للسـيطرة علـى هذيـن الطريقين[٢٥٥] ، ولينافس إمـارة بوهيمونـد فـى أنطاكيـة، إلا أنـه عـاد فتطلع إلى مدينة طرابلس الهامة على السـاحل لحصانتهـا مـن ناحيـة وثرائها من ناحية أخرى .

بدأ ريموند فى الاستيلاء على المدن والموانـى التابعـة لطرابلـس، ليشكل ملامح الإمارة الجديدة، فبدأ بأنطرسوس الواقعة إلى الشمال من

---

(٢٥٢) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٠٣

(253) Runciman : op. cit. II, pp. 57 - 60

(254) Albert d' Aix, p. 485, ريموندأجيل : المصدر السابق ص ٢٥٧

(255) Grousset : op. cit. I, pp. 335 - 6

طرابلس والتابعة لبنى عمار أيضا، فاستولى عليها سنة ١١٠٢م، مستفيدا من فلول حملة سنة ١١٠١م وبمساعدة أسطول جنوى، فسقطت المدينة دون مقاومة تذكر(٢٥٦) ، ثم اتجه بعد ذلك لمهاجمة طرابلس ذاتها، غير أنه لم يكن لديه من القوات ما يكفى للاستيلاء عليها نظرا لما اشتهرت به المدينة من استحكامات وما اتصف به أهلها من مثابرة، حتى بعد أن استخدم ريموند أسطولا جنويا تألف من نحو خمسين سفينة لمهاجمتها(٢٥٧) ، ولذلك تحول عنها مستفيدا من هذا الأسطول للاستيلاء على جبيل، وهى قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت، وكانت تابعة لبنى عمار أيضا فاستولى عليها فى أواخر سنة ١١٠٤م بمساعدة الأسطول الجنوى(٢٥٨) ، وحصل الجنويون على ثلث المدينة مقابل ما بذلوه من مساعدة(٢٥٩) ، وأحدث الصليبيون بجبيل مذبحة بشرية رهيبة، واستباحوا المدينة واستولوا على كل ما فيها، وساموها شتى أنواع العذاب(٢٦٠) . وبالاستيلاء على جبيل فى جنوب طرابلس ومن قبلها على أنطرسوس فى شمالها وضع ريموند بذلك ملامح إمارته، كما أزمع إسقاط طرابلس ليتخذها مركزا لهذه الإمارة الجديدة وعاصمة لها(٢٦١) .

---

(٢٥٦) فوشيه الشارتري : المصدر السابق ص ١٢٤

(257) Archer : The Crusades, p. 115 ,
Grousset: op. cit. I, pp. 346 - 7

(٢٥٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ ، Albert d' Aix, p. 606

(259) Stevenson : op. cit. p. 55 ,
Heyd : op. cit. I, pp. 139 - 141

(٢٦٠) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢١٩ (سنة ٤٩٧ هـ)،
ابو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ٢١٧

(٢٦١) محمد الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام ص ٢٣٩

شرع ريموند فى مهاجمة طرابلس ومحاولة الاستيلاء عليهـا، إلا أن المدينة كانت حصينـة وزاد مـن حصانتهـا أنهـا مبنيـة علـى شبه جزيرة داخلة فى البحر، مما أتاح لها فرصة الحصول على مـا تحتـاج إليه من مؤن وزاد عن طريق البحر، وما اشتهر به ابن عمـار مـن ثـراء أتاح له أن يستخدم أسطولا تجاريا ضخما وأن يجلب لمدينته ما يلزمها من المؤن من الموانى الواقعة إلى الجنوب منها[٢٦٢] .ولذلك فشل ريمونـد أكثر من مرة فى النيل منها، فلجأ إلى بناء قلعة على قمة أعلى الجبال المقابلة لها لإحكام الحصار عليها من ناحية والرقابة عليها من ناحيـة أخري، فوقع اختياره على تلـة أبـى سمـرة الحاليـة، وكـانت تعـرف باسم " تلة الحجاج Mon Pereginus[٢٦٣] " فبنى قلعة عليها، وأطلـق المسلمون على هذه القلعة إسم " قلعة صنجيل " .وترتب على بناء تلك القلعة أن أصبح موقف بنى عمار فى طرابلـس خطـيرا، ولذلـك اضطـر فخر الملك بن عمار إلى الخروج من المدينة على رأس قواتـه فـى أواخـر صيف سنة ١١٠٤م لإحراق تلك القلعة فأصابها ببعض الخسـائر وقتـل بعض الفرنج[٢٦٤] ، ونجح المسلمون فى إصابة ريموند نفسـه فـى ذلـك الهجوم الذى أصابته جروح وحروق شديدة، بعد أن انخسف به سقف مشـتعل، ثـم مـا لبـث ريمونـد أن مـات بعـد شـهور فـى فـبراير سـنة ١١٠٥م، قبل أن يحقـق أمنيتـه فـى تملـك طرابلـس وجعلهـا عاصمـة لإمارته المرتقبة[٢٦٥] .

---

(٢٦٢) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٤٣٥

(263) Mills : The Hist. of the Crusades, I p. 292

(٢٦٤) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٦ ،

ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٣٥ ،

ابو الفدا : المختصر ج٢ ص ٢٢١

(٢٦٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٦١

وكان ريموند قد خلف وراءه فى تولوز ابنه غير الشرعى برتراند، بينما كان ابنه الشرعى ألفونسو فى صحبته وكان طفلا، ولهذا فقد أكمل ابن أخته وليم جوردان حصار طرابلس وواصل هذا الحصار بلا انقطاع بعد موت خاله ريموند[٢٦٦] .وكان وليم جوردان فى الأصل كونتا لسردينيا وقدم إلى الشرق حديثا[٢٦٧] ، لكنه نشط لإتمام مشروعات خاله الراحل، ونفذ سياسته بدقة وحرص على استمرار الصداقة مع الإمبراطورية البيزنطية، وبفضل هذه الصداقة كان يحصل بانتظام على المؤن والزاد من قبرص واللاذقية[٢٦٨] ، فاشتدت وطأة الحصار على طرابلس بقية عام ١١٠٥م وفى العامين التاليين، فساءت أحوالها، وقلت الأقوات بها، وتعرضت للفاقة واشتد القتال خلال تلك السنوات، وعم المدينة البؤس خاصة فى سنتى ١١٠٦، ١١٠٧م، وكان لتحكم وليم جوردان فى قلعة صنجيل المشرفة على الطرق الرئيسية المؤدية إلى المدينة أثر كبير فى إحكام الحصار على المدينة ومنع تسرب الامدادات إليها، فضلا عن أن الفرنج كشفوا الطرق والدروب التى كانت تتسرب منها السلع إلى المدينة، فعانت طرابلس كثيرا وتعرضت لغلاء شديد فلم يجد ابن عمار بدا من محاولة الاستنجاد بكل القوى الاسلامية المحيطة دون جدوى[٢٦٩] ، فاضطر فى النهاية إلى الخروج فى مارس سنة ١١٠٨م، قاصدا بغداد لالتماس المساعدة من الخليفة العباسى والسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى[٢٧٠] .

---

(٢٦٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٧٥

(267) Mills : op. cit. I, p. 293

Grousset : op. cit. I, p. 245 - 6

(268) Chalandon : Alexis Comnene, p. 238

(٢٦٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٦

(٢٧٠) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٥٠

وعلى الرغم من مظاهر الحفاوة والتكريم التى استقبل بها فخر الملك بن عمار فى بغداد والثناء على جهوده وصموده وما قدمه للاسلام من خدمات[٢٧١] ، إلا أنة لم يحصل إلا على وعود بتسيير العساكر، فأدرك أن السلطان السلجوقى لن ينهض لمساعدته فعاد إلى بلاد الشام، فوجد طرابلس وقد خرجت من يده وآلت إلى الخلافة الفاطمية بانقلاب حدث بها[٢٧٢] ، فى الوقت الذى دخل فيه وليم جوردان حصن عرقة التابع لطرابلس فى إبريل سنة ١١٠٨م، فتحول ابن عمار إلىجبلة، لكنه لم يستمر بها طويلا إذ لاحقه فيها تنكرد أمير أنطاكية فى مايو سنة ١١٠٩م وأجبره على مغادرتها فانسحب منها إلى دمشق حيث قضى بها بقية حياته[٢٧٣] .

وفي نفس الوقت (سنة ١١٠٩م) وصل إلى بلاد الشام برتراند قادما من الغرب ليتسلم إرثه فى والده، وفى صحبته جيش تألف من نحو أربعة آلاف فارس وراجل يحملهم أسطول من أربعين سفينة، بعد أن عقد اتفاقا مع الجنوية لمساندته في الاستيلاء على طرابلس، نظير منحهم بعض الامتيازات التجارية، فرحب الجنوية بذلك وقدموا على رأس سفنهم[٢٧٤] للاشتراك فى هذا الهجوم وبعد أن جرى تقسيم إرث ريموند بين برتراند ووليم جوردان بعد أن تنازعا وتخاصما في ذلك فاتفق على أن يحتفظ وليم جوردان بأنطرسوس وعرقة، بينما يحصل برتراند على جبيل وطرابلس بعد سقوطها[٢٧٥] ، اجتمع قادة

---

(٢٧١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج١٠ ورقة ٢٧٨

(٢٧٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٤٣

(273) Sobernheim : Encyc. Isl. art " Ibn Ammar "

(٢٧٤) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٤٤،

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٧٧

(٢٧٥) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٢٧٦

الصليبيين كلهم أمام طرابلس بقيادة الملك بلدوين الأول، الذى قدم على رأس نحو خمسمائة فارس وعدد كبير من الرجالة، وتنكرد على رأس سبعمائة فارس وعدد من الرجالة أيضا، وأمير الرها بلدوين دى بورج وبصحبته تابعه جوسلين بقواتهما، واستعد برتراند بجيشه وما انضاف إليه من الجنوية والبيازنة[٢٧٦]، حتى بلغ عدد السفن التى حاصرت المدينة نحو سبعين سفينة[٢٧٧]، فلم يكن بوسع طرابلس بعد أن آلت إلى الفاطميين الضعفاء أن تقاوم هذه المرة، فقد ألح واليها فى طلب المساعدة من مصر دون جدوى، فى الوقت الذى أحكم أسطول جنوة وسفن برتراند الحصار عليها، فسقطت المدينة فى يونيو سنة ١١٠٩م[٢٧٨]، فدخلها الصليبيون فأحدثوا بها مذبحة بشرية، وقاموا بكثير من أعمال السلب والنهب، وسلك فيها الجنوية مسلكا فظا للغاية ثم أصبح برتراند أميرا عليها واتخذ لقب كونت، ثم ما لبث أن حاز أملاك وليم جوردان بعد مقتل هذا فى ظروف مريبة، ودان بالولاء والتبعية لملك بيت المقدس[٢٧٩].

وهكذا شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى ببلاد الشام تسقط فى أيدى الفرنج وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس، ولكنها فى نفس الوقت كانت آخر إمارة صليبية فى بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين فى أواخر القرن الثالث عشر[٢٨٠]. فالرها التى سقطت فى أيدى

---

(276) Mills : op. cit. I, p. 292

(٢٧٧) فوشيه الشارتري : نفسه ص ١٤٤ ، وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ٢٧٧.

(٢٧٨) وليم الصوري : نفس المصدر ج٢ ص ٢٨٠ وانظر أيضاً المختصر لأبي الفدا ج٢ ص ٢٢٤ ، وسبط ابن الجوزي : مرآة ج٩ ص ٢٨٣.

(٢٧٩) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٤٥ ، وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ٢٧٦، Michaud : op. cit. I, p. 288

(٢٨٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٦١

الصليبيين سنة ١٠٩٨م استردها المسلمون سنة ١١٤٤م، وبيت المقدس التى دخلها الصليبيون فى سنة ١٠٩٩م عادت إلى المسلمين سنة ١١٨٧م، وأنطاكية التى استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٨م استعادها المسلمون سنة ١٢٦٨م، أما طرابلس التى لم تسقط فى أيدى الصليبيين سوى فى عام ١١٠٩م بقيت بأيديهم حتى سنة ١٢٨٩م، فكانت آخر إمارة صليبية يستردها المسلمون، حينما دالت دولة الصليبيين فى بلاد الشام، وانتهى عصر الحروب الصليبية فى الشرق[٢٨١] .

---

(281) Grousset : op. cit. I, pp. 344 - 45

الفصل الخامس

مملكة بيت المقدس الصليبية

الفصل الخامس

مملكة بيت المقدس الصليبية

على الرغم من تباين العناصر التي تألفت منها الحملة الصليبية الأولى، واختلاف الأهواء وظهور المطامع الشخصية بين زعماء الصليبيين، الأمر الذي دفع بلدوين البولوني إلى إنشاء إمارة خاصة به في مدينة الرها، وبوهيموند في أنطاكية، وتطلع ريموند الصنجيلي لإقامة إمارة في طرابلس، على الرغم من كل ذلك، فقد كان على الصليبيين أن يتبعوا سياسة متكاملة تؤدي إلى خلق دولة ثابتة في بيت المقدس. وكان على رأس الصليبيين حينذاك كل من جودفري بوايون وريموند الصنجيلي وتنكرد وايوستاش بوايون أخي جودفري وروبرت دي فلاندرز وروبرت النورماني[١] ، وتخلف بلدوين البولوني في الرها، وبوهيموند في أنطاكية، ثم أعلن كل من روبرت دي فلاندرز وروبرت النورماني أنهما عازمان على العودة إلى غرب أوربا .

ولقد واجه الصليبيون مشكلة اختيار زعيم الدولة الجديدة، فهل يكون من العلمانيين أو من الكنسيين؟ حقيقة كان للكنيسة الغربية سند واضح في التطلع إلى رئاسة بيت المقدس بحكم أنها دعت للحملة الصليبية، وبذلت جهوداً صادقة في تحقيق حلم المسيحيين بالاستيلاء على بيت المقدس[٢] ، وتطلع رجال الدين إلى الفوز بهذه الزعامة، واجتمعوا فيما بينهم وخاطبوا قادة الصليبيين برغبتهم في اختيار رجل من رجال الدين لهذه الزعامة[٣] . غير أن المندوب البابوي إدهيمار دي

---

(1) Runciman : op. cit. I, p. 291.

(2) Grousset : op. cit. I, pp. 164-6.

La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, pp. 1-5.

(٣) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٤٣-١٤٤.

مونتيل كان قد توفى في أنطاكية في أغسطس سنة ١٠٩٨م ، وكان يمثل الزعيم الروحي للصليبيين وتمتع بينهم بكثير من الاحترام لاتزانه ومكانته ونشاطه الدائب في التوفيق بين زعمائهم كلما عنت مشكلة أو حدث نزاع[٤] ، كما توفي بطريرق بيت المقدس الأرثوذكسي سيمون (سمعان) بقبرص قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس[٥] ، وفي روما توفى أيضاً البابا أوربان الثاني في ٢٩ يوليو سنة ١٠٩٩م قبل أن تصل إليه أخبار استيلاء الصليبيين على بيت المقدس[٦] . وهكذا لم يكن معهم رجل دين يمكن التفكير في اختياره قيماً وزعيماً أو يصلح لهذه المهمة[٧] .

هذا فضلاً عن أن فكرة إقامة حاكم كنسي على بيت المقدس لم تلق ترحيباً من الصليبيين الذين أيقنوا أن ثمة بقعة صليبية مثل بيت المقدس، لايمكن لها أن تبقى وسط الكيان الإسلامي المعادي وحاكمها كنسي أو من رجال الدين، لأنها تحتاج إلى قائد عسكري أو حاكم علماني ينهض بالدفاع عنها، ولهذا استبعدوا نهائياً فكرة تنصيب حاكم ديني على المدينة، ونزعوا نحو إقامة حاكم علماني عليها[٨] ، " ولم يكترث الأمراء باعتراضات رجال الدين وعزموا على تنفيذ مشروعهم "[٩] ، وبعد التأكد من إزماع كل من روبرت دي فلاندرز وروبرت النورماني العودة إلى الغرب، لم يبق أمامهم سوى ريموند وجودفري وتنكرد وإيوستاش، ولم يكن للأخيرين من الأهمية ما كان

---

(٤) ريمودا جيل : تاريخ الفرنجة ص ١٥١ – ١٥٢.

(5) Albert d'Aix , p. 489.

(٦) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ص ٨٣

(7) Grousset : op. cit. I, p. 167.

(8) Holt : op. cit. p. 23.

(٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٤٦.

للأميرين الأولين (ريموند وجودفري) ، فلم يبق إذن أمامهم سوى ريموند وجودفري[١٠] .

أما ريموند فعلى الرغم من مكانته وثروته ونضوجه وصلته قبل الحملة بالبابا وصداقته خلال الحملة بإدهيمار دي مونتيل، إلا أن ميله لبيزنطة وحرصه على التعاون معها والتزامه بتنفيذ تعهدات الصليبيين لها، أثار رفاقه وتسبب في سخط بقية الأمراء عليه وانتقص من مكانته، على الرغم من شجاعته وخبرته وما اشتهر به من التقوى والورع[١١] . فلم يبق أمامهم إذن سوى جودفري الذي تمتع بمكانة هامة بينهم، وأحبه رفاقه وجنده ووقروه كثيراً، فقد كان ينحدر من بيت شارلمان، كما كان فارساً شجاعاً فضلاً عن ورعه وتقواه، بالاضافة إلى أنه كان أول من دخل بيت المقدس من الأمراء " ثم علاوة على ذلك لوسامة طلعته " [١٢] .

وتشير الروايات إلى أن الصليبيين عرضوا تاج بيت المقدس أولاً على ريموند، إلا أنه رفضه[١٣] ،فلم يعد أمامهم سوى جودفري، الذي أيد اختياره روبرت دي فلاندرز وروبرت النورماني، وقبل هو هذا الاختيار " فانعقد إجماعهم على اختيار الدوق جودفري فتم انتخابه"[١٤] ، لكنه رفض أن يحمل لقب ملك بيت المقدس أو أن "يرتدي تاجاً من الذهب في المكان الذي ارتدى فيه المسيح تاجاً من الشوك " واكتفى باتخاذ لقب حامي بيت المقدس **Defender of the Holy Sepulchre** [١٥] . ومن الواضح أن اختيار جودفري هذا اللقب

---

(10) Archer : op. cit. p. 93

(11) Runciman : op. cit. I, p. 291

(١٢) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ٧٧ .

(13) Albert d'Aix , p. 485 , ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة ص ٢٥٧

(١٤) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٤٧ .

(15) Stevenson : op. cit. p. 36, Runciman : op. cit. I, p. 292 .

جاء اعترافاً بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحته، وأن لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها[١٦] .

بينما وقع اختيار رجال الدين على أرنولف مالكورن ليشغل منصب بطريرق بيت المقدس بتأييد روبرت النورماني صديق أرنولف ورفيقه في الرحلة، بعد أن نشط النورمان في السيطرة على المجلس الذي عقد لاختيار البطريرق حتي تم اختياره[١٧] ، فأظهر هذا اعتدالاً شديداً في سياسته ولم يشأ أن يقحم نفسه في مشاكل مع جودفري، وقصر نشاطه على الشئون الكنسية والنواحي الروحية، واستبعد القساوسة الأرثوذكس من الكنيسة، وألغى ما كان يجري بها من الطقوس غير اللاتينية، وأضفي صبغة لاتينية على كنيسة بيت المقدس[١٨] . غير أن هذا البطريرق لم يستمر في مركزه إلا وقتاً محدوداً، ولم يقدر له أن يتمتع طويلاً بهذا المنصب " إذ سرعان ما اضطر أرنولف للتخلي عن هذا المنصب " وحل محله مندوب بابوي جديد أرسله البابا هو دامبرت رئيس أساقفة بيزا[١٩] .

وبعد استقرار الصليبيين في بيت المقدس، أصبح لزاماً عليهم اتمام فتح فلسطين، والاستيلاء على بقية مدنها، لتأمين المملكة الناشئة التي تملكوا فيها حتى ذلك الوقت على بيت المقدس وبيت لحم والرملة ويافا[٢٠] ، فأزمعوا الاستيلاء على نابلس، وتطلع تنكرد إليها آملاً أن يتخذها مركز إمارة له، ونازعه فيها إيوستاش شقيق جودفري، نظراً

(١٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٥١.

(١٧) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ١٤٩ .

(18) Runciman : op. cit. I, p. 294, Holt : op. cit. p. 24

(19) La Monte : op. cit. pp. 1 - 5

(20) Grousset : op. cit. I, p. 172

لأن أهل المدينة ارسلوا إليهما وأبدوا استعدادهم لتسليم المدينة لهما فتسلماها في أواخر يوليو سنة ١٠٩٩م [٢١] . ثم مالبث جودفري أن تلقى أخباراً بخروج جيش فاطمي كبير على رأسه الأفضل شاهنشاه قاصداً عسقلان لحرب الصليبيين واسترداد بيت المقدس .

ويبدو أن الأفضل كان قد جهز جيشاً للمسير إلى فلسطين لصد الصليبيين ومنعهم من الاستيلاء على بيت المقدس بعد أن اتضحت نواياهم وبات معروفاً تماماً مقصدهم[٢٢] ، وسار الجيش فعلاً إلى فلسطين تحت قيادته ، بعد أن أرسل إلى الصليبيين يهددهم ويوبخهم[٢٣] ، إلا أنه وصل إلى عسقلان في أغسطس بعد أن كانت بيت المقدس قد سقطت فعلاً في أيديهم ، فلم يشأ الأفضل أن يتقدم لمفاجأة الصليبيين ، بل انتظر في عسقلان[٢٤] وصول أسطوله في البحر وتكامل وصول جنوده ، فأضاع بذلك وقتاً ثميناً كان يمكن أن يباغت خلاله الصليبيين قبل أن يستعدوا لحربه ، والعكس هو الذي جرى ، إذ سارع جودفري للالتحاق بفرق تنكرد وإيوستاش وانضم إليهما بعض القادة الآخرين على رأسهم ريموند دي سان جيل ، وتجمعت هذه القوات كلها في الرملة قبل أن تزحف على عجل إلى عسقلان[٢٥] .

وقرب عسقلان نشبت معركة في فجر يوم ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩م ، استطاع خلالها الصليبيون تحت قيادة جودفري إلحاق

---

(٢١) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٢٠

(22) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 296

(٢٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٩٠ (سنة ٤٩٢ هـ) ،

ابن ميسر : أخبار مصر ج٢ ص ٣٩ (نشر هنري ماسيه)

(٢٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧

(25) Runciman : op. cit. I, pp. 295 - 6,

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٢٢

هزيمة قاسية بقوات الأفضل شاهنشاه، إذ باغتت هذه القوات جيش الأفضل مع الخيوط الأولى لضوء ذلك اليوم " ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم فأعجلهم الفرنج فهزموهم " (٢٦) ، وقال وليم الصوري "وكان فرار العدو متيحاً النصر للصليبيين من غير جهد يبذلونه أو مشقة يكابدونها " (٢٧) ، وترتب على هذا الانتصار الذي تم في أقل من ساعة نتائج بالغة الأهمية إذ أمن الصليبيون بذلك وجودهم في بيت المقدس من جهة الفاطميين، وأكدوا قيام كيانهم الجديد في فلسطين، كما انكمش الأفضل وقبع في مصر دون عمل قرابة عامين قبل أن يفكر في الجهاد من جديد، وبذلك ترك للصليبيين فرصة نادرة لتأسيس المملكة الصليبية دون أية مضايقة(٢٨) .

ويبدو ان النصر الذي أحرزه الصليبيون في عسقلان قد طمأن قادة الصليبيين على كيانهم الجديد في فلسطين، فبدأ بعضهم ممن كان قد أزمع العودة إلى الغرب الأوربي، الاستعداد للعودة ومنهم روبرت دي فلاندرز وروبرت النورماني، فأبحر هذان القائدان ومعهما أتباعهما بعد أن " كللت بالنجاح رحلة الحج التي شاركا فيها "(٢٩) ، وأسهما في تأسيس الكيان الصليبي في بيت المقدس، أما ريموند فقد عاد إلى اللاذقية حيث كان قد خلف بها زوجته(٣٠) ، وفي الربيع التالي سنة ١١٠٠م لم يعد لدي جودفري في بيت المقدس سوى ثلاثمائة فارس وألفا رجل، حتى أولئك الذين عزموا على البقاء لم يلبث بعضهم أن هجر إقطاعه وبدأ في العودة إلى أوربا (٣١) .

---

(٢٦) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٩ (سنة ٤٩٢ هـ)

(٢٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٦٦

(28) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 97

(٢٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٦٧

(30) Albert of Aix , pp. 501 -5 , فوشيه الشرتري : تاريخ الحملة ص ٧٩

(٣١) وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ١٨٠

وعلى الرغم من ذلك كان على الصليبيين أن يؤمنوا أطراف كيانهم الجديد ويرسلوا دعائم ملكهم في فلسطين، فقاموا باحتلال إقليم الجليل بمدنه الشهيرة طبرية وبيسان والناصرة بالاضافة إلى مدينة نابلس التي كانت في أيديهم، وأكملوا فتح هذا الإقليم بإسقاط مدينة حيفا على الساحل سنة ١١٠٠م لتكتمل إمارة الجليل التي فاز بها تنكرد[٣٢] ، وجعل قاعدتها ومركزها الرئيسي في طبرية وحصلت هذه الإمارة على منفذ على البحر المتوسط هو مدينة حيفا، ففي خلال عام واحد غدا تنكرد يسيطر على إقليم الجليل بمدنه الهامة ومنفذه على البحر، وأصبحت إمارته تتاخم أملاك دقاق في دشق[٣٣] .ونظراً لأن تنكرد كان بحكم النظام الإقطاعي فصلاً تابعاً لجودفري، فإن أملاك بيت المقدس قد اتسعت فامتدت شمالاً إلى نابلس وجنوباً إلى حبرون وشرقاً إلى نهر الأردن[٣٤] .

على أن فترة جديدة من الصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية قد بدأت بتنصيب دامبرت بطريركاً على بيت المقدس بدلاً من أرنولف الذي جرى عزله على أساس أن انتخابه لم يكن متفقاً مع القانون الكنسي[٣٥] ، وكان دامبرت قد قدم من الغرب كمندوب بابوي استمد سلطته من البابا، أما قوته الحقيقية فقد استمدها من أسطول البيازنة وتأييد بوهيموند[٣٦] ، وكان هذا الرجل طموحاً صاحب شخصية قوية جاداً في فرض سلطان الكنيسة على بيت المقدس، وإخضاع الرجال

---

(٣٢) نفسه ج٢ ص ١٦٨

(33) Runciman : op. cit. I, p. 304,
Grousset : op. cit. I, pp. 179 - 181

(34) Stevenson : op. cit. p. 37

(٣٥) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ١٧٢

(36) Grousset : op. cit. I, pp. 189 - 94

العلمانيين لسيطرة الكنيسة، ولهذا يرى المؤرخون أن وصول دامبرت واختياره بطريقاً لبيت المقدس عاق لفترة قيام ملكية قوية فيها[٣٧].
فبعد انتخابه بطريقاً في أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٩م ركع أمامه جودفري طالباً تقليده حكم بيت المقدس، وليس بخاف علينا أن ذلك لايعني إلا أن البطريرق قد أصبح أكبر سلطة في المدينة المقدسة يركع أمامه الحكام العلمانيون كما يفعل الأتباع في النظام الإقطاعي الأوربي، حتى بدت حكومة المدينة المقدسة حينئذ وكأنها قد أصبحت حكومة دينية[٣٨].

فلقد اعتبر دامبرت نفسه فعلاً صاحب الكلمة العليا في الشئون الدينية والعلمانية على حد سواء في عهد جودفري، ففي خطاب وجهه في ابريل سنة ١١٠٠م إلى المسيحيين في ألمانيا طالباً المساعدة لم يهتم بذكر جودفري وتحدث عن صعوباته الشخصية في الحصول على عدد كاف من الرجال للدفاع عن بيت المقدس وبيت لحم وطبرية والرملة وغيرها من المدن والقلاع[٣٩]، واعتبر نفسه الحاكم الفعلى لبيت المقدس خاصة وقد وجد في جودفري ضعفاً وطيبة ولين عريكة فعمل على الحد من نفوذه ومعاملته باعتباره تابعاً له، على حين رأى جودفري أن إجلاله للكنيسة واسترضاءه للبطريرق والاعتراف بسيادته يساعد على توطيد مركزه وتثبيت حكمه[٤٠]، واستفادته من مساندة البيازنة بأسطولهم القوى.

لكن ما لبث الصراع أن استحكم بين جودفري ودامبرت في فبراير سنة ١١٠٠م، عندما أصر دامبرت على أن يأخذ جزءاً من يافا

(٣٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٧٢

(38) Grousset : op. cit. I, p. 195

(٣٩) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٦٦

(40) Michaud : op. cit. II pp. 9 - 10

وجزءاً من بيت المقدس، وعلى الرغم من أن جودفري لم يكن يمانع في ذلك، بل إنه وافق على أن يستولي البطريرق على حكم المدينتين معاً، إذا تيسر لـه أن يستولي على مدينة أو اثنتين أخريين، كما وافق جودفري على أنه اذا مات دون وريث، فإن جميع الأملاك تنتقل من غير معارضة إلى سلطة البطريرق المعظم[٤١] ،إلا أن دامبرت فيما يبدو لم يكن يطيق الانتظار، وكان يتعجل القضاء على كل أثر لنفوذ السلطة العلمانية في المدن المقدسة، ثم مالبث جودفري أن مرض في شهر يوليو سنة ١١٠٠م وتوفى في ١٨ يوليو في نفس العام، فأثار ذلك مشكلة اختيار حاكم جديد لبيت المقدس، وكان جودفري قد أوصى بأن يرثه أخوه بلدوين أمير الرها في الحكم[٤٢] .

ولقد جاءت وفاة جودفري بوايون، بعد نحو عام من تنصيبه حاكماً على بيت المقدس بداية لصراع جديد بين السلطتين العلمانية والدينية، ففي الوقت الذي طمع فيه دامبرت في إقامة حكومة دينية ترتبط بالكنيسة في بيت المقدس، تطلع العلمانيون إلى تنصيب حاكم علماني بل وسارعوا إلى إرسال رسل إلى بلدوين بوايون في إمارة الرها ليأتي على عجل ليتسلم إرث أخيه جودفري في بيت المقدس[٤٣] . وعلى الرغم من محاولات دامبرت والتجائه إلى بوهيموند أمير أنطاكية وتنكرد أمير الجليل للحيلولة بين بلدوين والاستئثار بالسلطة في بيت المقدس، فقد نجح بلدوين في الوصول إلى المدينة المقدسة، بعد أن ترك إمارته لقريبه بلدوين دي بورج، ودخل المدينة المقدسة في ٩ نوفمبر سنة ١١٠٠م، بعد رحلة مثيرة تعرض أثناءها لكثير من المخاطر لاسيما من قبل دقاق ملك دمشق، الذي حاول قطع الطريق عليه واصطياده،

---

(٤١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٧٤

(42) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 304

(43) Holt : op. cit. p. 24

كما يذكر مؤرخه فوشيه الشارتري[٤٤] ، فأفلت منه بلدوين ووصل إلى بيت المقدس سالماً ، فاستقبله أهلها استقبالاً حافلاً ، ونادوا به ملكاً وسيداً عليهم[٤٥] ،وفشلت بذلك محاولات دامبرت لفرض حكومة ثيوقراطية (دينية) في المدينة المقدسة ، وإن استمرت أكثر من خمسة أشهر ، واضطر دامبرت إلى الانزواء في كنيسة فى جبل صهيون ، فى الوقت الذى لم يشأ بلدوين أن يوسع شقة الخلاف مع هذا البطريرق بعزله من منصبه وإحداث فتنه داخلية فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ المملكة ، فشغل نفسه ببعض المشروعات الحربية العاجلة[٤٦] ، ثم جرى الصلح بينه وبين دامبرت الأمر الذى جعل هذا يوافق على تتويج بلدوين فى يوم عيد الميلاد فى ديسمبر سنة ١١٠٠م فى كنيسة العذراء ببيت لحم[٤٧] ، فأصبح بلدوين أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية[٤٨] .

واعتبرت الفترة التى تزعم فيها جودفرى فترة مهادنة بين السلطتين الدينية والعلمانية وكان النصر النهائى للسلطة العلمانية ، بل يرى بعض المؤرخين أن تتويج بلدوين جاء خاتمة مثيرة للحملة الصليبية الأولى[٤٩] ، وعلى الرغم من أننا لا نعرف كافة التفاصيل الخاصة بالعلاقة بين بلدوين ودامبرت ، ولا كنه الاتفاقية التى عقدت

---

(٤٤) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٠٣

(٤٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٠٦

(46) Stevenson : op. cit. pp. 43 - 4

(٤٧) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١١١

وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٢٠٩ – ٢١٠

(48) Stevenson : op. cit. p. 44

(49) Runciman : op. cit. I, p. 326,

العريني : الشرق الأوسط ص ٢٩٤

بينهما ، لكن المهم أن نلاحظ أن التتويج كان في بيت لحم وليس في بيت المقدس ، وأن بلدوين لم يحمل لقب ملك بيت المقدس ، وإنما كان يحمل فقط لقب ملك[٥٠] ، إذ لم يشأ أن يطلق على نفسه "ملك بيت المقدس" منذ البداية ، وإنما آثر التريث ولا سيما أن البابا بادر بإرسال مندوب جديد فوصل هذا إلى الأراضى المقدسة ، وتم عزل دامبرت من منصبه سنة ١١٠٢م بمقتضى قرار من المجلس الكنسى الذى وجه له تهمة تحريض بوهيموند على قتل بلدوين أثناء قدومه إلى بيت المقدس ، ورحل دامبرت في العام التالى (سنة ١١٠٣م) إلى أنطاكية ، حيث استقبله بوهيموند بحفاوة وأحسن وفادته[٥١] ، فزال خطر جديد كان يهدد المملكة الجديدة في المدينة . ولهذا استعمل بلدوين لقب "ملك بيت المقدس" اعتبارا من سنة ١١٠٤م ، فحدد بذلك البداية الرسمية للمملكة الصليبية فى المدينة المقدسة .

الملك بلدوين الأول(١١٠٠-١١١٨م):

يعتبر بلدوين الأول المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس الصليبية ، فقد بذل جهودا صادقة في تنظيم أمور المملكة ، وتوسيع رقعتها وتصفية الجيوب الاسلامية التى تتخلل ممتلكات الصليبيين فيها ، والاستيلاء على الموانى الساحلية التى كانت لا تزال تحت حكم المسلمين ، لفتح منافذ جديدة على البحر ، وربط المملكة بالغرب الأوربى ، وتلقى المساعدات البحرية وتسهيل قدوم الحجاج إلى الأراضى المقدسة .

---

(٥٠) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٧٣

(٥١) وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢

ولقد نجح بلدوين فى ذلك على الرغم من قلة الإمكانات التى اتيحت له ونقص عدد المحاربين لديه لتواصل الحروب واندلاع المعارك، ومقتل عدد كبير من الفرسان والرجالة، فضلا عمن مات منهم بسبب الأوبئة والطواعين، وكذلك لأن كثيرا من الصليبيين فضل العودة إلى الغرب الأوربى عقب إنجاز أهداف الحملة الصليبية الأولى وإقامة المملكة الصليبية إذ لم يكن لديهم فى ذلك الوقت-على قول فوشية الشارترى-"اكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من المشاة للدفاع عن القدس ويافا والرملة ومدينة حيفا"[٥٢] .هذا فضلا عن أن كثيرا من الأمراء قد نزع إلى الاستقلال المحلى بما تحت أيديهم من الفرسان والقوات العسكرية، وأقام بعضهم إمارات وبارونيات فيما استطاعوا الاستيلاء عليه من أراضى ومدن المسلمين[٥٣] ، كما أن الموارد المالية للمملكة لم تكن تكفى للقيام بكل تلك الأعباء، فى الوقت الذى تربصت فيه القوى الإسلامية بالمملكة من كل جانب واعتبرت هذه المملكة كيانا غريبا أقحم على المنطقة أو مرضا عضالا لابد من استئصاله[٥٤] .

ففى الجنوب كانت عسقلان لازالت بأيدى الفاطميين، وكان بوسعهم جعلها قاعدة للانطلاق لمحاربة المملكة فى بيت المقدس، وفى الشرق والشمال الشرقى وجدت قوات السلاجقة فى دمشق وتوابعها، وكان بإمكان السلاجقة أيضا الضغط على المملكة من هذه الجهة[٥٥] ، وفي الغرب كانت معظم المدن الساحلية لازالت فى أيدى المسلمين في

---

(٥٢) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١١٢، Stevenson :op. cit. p. 39.

(53) Holt : op. cit. p. 23, Runciman : op. cit. II, pp. 7 - 8

(٥٤) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢١١ (سنة ٤٩٥ هـ)،

Grousset : op. cit. I, p. 179 - 81

(٥٥) ابن القلانسي :ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠، ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص٤٠

الوقت الذى لا تؤمل المملكة كثيرا فى مساعدة الصليبيين فى الإمـارات الشمالية بسبب انشغال هؤلاء بالدفاع عن إماراتهم وحدودهم . وهكذا كان الوضع خطيرا بالنسبة لصليبى المملكة، الذين اتسعت إمارتهم مع نقص كبير في المدافعين عنها[٥٦] .وعلى الرغم من كل ذلك ووسط هـذه المخاطر كلها نجح بلدوين في منح المملكة فترة استقرار وازدهـار وحقق أهدافها في الأمن والاطمئنان إلى حد كبير، وجاء تتويجه ملكاً في تلك الفترة الحرجـة بمثابـة انقـاذ لهـذا الكيـان وللدولـة الناشـئة في فلسطين[٥٧] .

بدأ بلدوين بسد العجز فى الرجال بـأن أقنـع طوائـف الحجـاج الذيـن لم يتقطـع سـيلهم عـن المملكـة بالبقـاء في الأراضـى، ومسـاعدة الصليبيين في عملياتهم العسكرية، وأمام بعض الإغراءات فضل الكثـير منهم البقاء، وعدم العودة فدعموا قوة المملكـة الناشـئة[٥٨] ، كمـا لجـأ بلدوين الأول إلى الإستعانة بأساطيل المدن الإيطالية لإنجـاز مشـروعاته مقابل بعض الامتيازات التى بذلها لتلـك المـدن والتـى حرصـت المـدن الإيطالية دائما على الفوز بها، كالإعفاءات مـن الضرائـب، والحصـول على الأحياء التجارية وغير ذلك من الامتيازات، كما لجـأ بلدويـن إلى تشـجيع التجـارة لإنعـاش النشـاط الاقتصـادى في المملكـة[٥٩] ، أمـا بالنسبة لنقص المـوارد فقد لجـأ بلدويـن إلى الاغـارات السـريعة علـى

---

(٥٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٢٤ ،

Grousset : L' Empire du Levant, p. 198

(57) Camb. Med. Hist. Vol. 5 p. 304

(٥٨) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١١١ - ١١٢ ،

Runciman : op. cit. II , p. 7

(٥٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢١٧ ،

Grousset : Hist . des Croisades, I, pp. 221 - 2

المناطق المجاورة بهدف السلب والنهب والحصول على المغانم وما يؤدى إليه من فديات كبيرة وبيع الأسرى من المسلمين كعبيد للحصول على الأموال . وتشير الروايات إلى أنه حصل على نحو أربع آلاف جمل وثروات كبيرة في إحدى إغاراته ، فضلا عن أنه أحيانا كان يلجأ إلى حصار المدن الساحلية الإسلامية ثم يرفع الحصار عنها نظير الحصول على مبلغ من المال(٦٠) .كما أنه لجأ في سنة ١١١٣م إلى الزواج من أدليدا أرملة روجر ملك صقلية التى قدمت إليه ومعها كنوزا عظيمة وكميات هائلة من المؤن والأسلحة ، فأفادته أموالها في حل بعض مشاكل المملكة (٦١) .

وعلى الرغم من ذلك فلم تكن المهمة أمام بلدوين – وهى الخاصة بتدعيم أسس البناء الذى أقامه الصليبيون بالشام ومحاولة تأمين طريق الحجاج وتنشيط التجارة مع الغرب – بالأمر الهين خاصة في ظل تربص القوى الإسلامية بالمملكة ، فقد بدأ بلدوين بالاستيلاء على أرسوف التى كانت تابعة للفاطميين والتى يقول عنها وليم الصورى أنها تقع وسط مناطق شديدة الخصوبة وحولها غابات ومراعى أغرت بلدوين بمحاولة الاستيلاء عليها فاستعان في ذلك بالأسطول الجنوى ، فاستسلمت له المدينة في إبريل سنة ١١٠١م ، ثم استولى عنوة على قيسارية التابعة للفاطميين أيضا في مايو من نفس السنة(٦٢) وأحدث الصليبيون بها مذبحة بشرية رهيبة ، قتلوا فيها كثيرا من الرجال والنساء والأطفال حتى أولئك الذين احتموا بجامع المدينة ذبحوهم

---

(٦٠) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١١٥ ،
وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٢١١ – ٢١٢

(٦١) وليم الصوري : نفس المصدر ج٢ ص ٣٠٣ – ٣٠٤
فوشيه الشارتري : نفس المصدر ص ١٥٤

(62) Runciman : op. cit. II, p. 7 , pp. 73 - 4,
ابن القلانسي : ذيل ص ١٣٩

فيه[٦٣] ، ويشير فوشـية الشـارترى إلى مـا غنمـه الصليبيـون مـن هـذه المدينة فيقول: " ويستحيل عليّ أن أذكر كم وجـد في تلـك المدينـة مـن الممتلكات من مختلف الأنواع ولكن يكفى أن أقول أن كثيرا من رجالنا اغتنوا بعد فقر" [٦٤] .

ثم تصدى بلدوين لثلاث حملات فاطمية أرسلها الوزيـر الأفضـل شاهنشاه: الأولى سنة ١١٠١م، والثانيـة سـنة ١١٠٢م، والثالثـة سـنة ١١٠٥م[٦٥] ، إذ يبـدو أن ازديـاد خطـر الصليبيـين بالنسـبة لأمـلاك الصليبيين ، ودأب بلدوين الأول على الاستيلاء علـى المـدن السـاحلية والموانى وخاصة المواجهة لبيت المقدس، قـد أزعـج الأفضـل شاهنشاه وجعلـه يفكـر جديـا في مهاجمـة الصليبيــين ومحاولـة طردهـم مـن فلسطين[٦٦] . والغريب أن بلدوين نجـح في كـل مـرة في إنـزال هزيمـة ساحقة بالجيوش الفاطمية، وإن كانت الحملـة الفاطميـة الثانيـة سـنة ١١٠٢م قـد حققـت بعـض النجـاح الوقتـى وألحقـت ببلدويـن هزيمـة فادحة – على حد قول المؤرخ فوشـية الشـارترى[٦٧] – نظـرا لأن قـوة بلدوين لم تزد في أغلب الظن في تلـك المـرة عـن مـائتى فـارس وبعـض الرجالة، فضلا عن أنه قادها في غير حذر ربمـا اسـتخفافا بالفـاطميين واستهتارا بهم بعد انتصاره عليهم في العـام السـابق في الرملـة[٦٨] ، وفي

---

(63) Albert d' Aix , p. 454

(٦٤) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١١٥

(٦٥) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢١١ ، ص ٢١٨ ، ص ٢٢٨

ابن ميسر : أخبار مصر ج٢ ص ٤٠ ، ص ٤١

(٦٦) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ١٥٧

(٦٧) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٢١

(٦٨) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ١٦٥

السهل الممتد بين يازور والرملة وجد بلدوين نفسه وجها لوجه مع القوات الفاطمية الكبيرة، فتحقق من خطئه ولكنه مع ذلك لم يكن بوسعه الانسحاب أو التراجع إلى الوراء[٦٩] ، فلما أعجلة الفاطميون بالهجوم لم يستطع الثبات فانهزم وكثر القتل في أصحابه وقتل في هذه المعركة عدد كبير من النبلاء .ويذكر ابن القلانسى وابن الاثير أن بلدوين اختفى في أجمة قصب حين طورد من القوات الفاطمية المنتصرة فأحرقت تلك الأجمة "ولحقت النار بعض جسده" [٧٠] ،وفر بعض رجاله إلى يافا في حين هرب البعض الأخر إلى الرملة، فلحق بهم الملك في حالة سيئة[٧١] ، ولم تمض أيام على حصار الفاطميين ليافا حتى وصلت في أواخر مايو سنة ١١٠٢م نحو مائتى سفينة تحمل عددا كبيرا من الحجاج فضلا عما طلبه بلدوين من نجدات من أنطاكية والرها[٧٢] ، فقلبت هذه النجدات الأوضاع في صالح بلدوين إذ استفاد من هذه الجموع وحشد رجاله في ٢٧ مايو وخرج من المدينة لمهاجمة الفاطميين، ودارت معركة سريعة انتهت بهزيمة القوات الفاطمية وفرارها ناحية عسقلان، فتخلص بلدوين بذلك من خطر كبير هدد الكيان الصليبي كله في فلسطين[٧٣] .

ولم يكتف بلدوين بما كان للمملكة حتى ذلك الوقت من الموانى، وهى يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا، بل تطلع إلى الاستيلاء على بقية الموانى التى كانت تتبع الفاطميين مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا

---

(69) Runciman : op. cit. II, p. 77

(٧٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠

ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢١٨ (سنة ٤٩٦هـ)

(٧١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٢٧

(72) Albert d' Aix , p. 597, فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٢١

(٧٣) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ١٦٩ – ١٧٠

وبيروت (٧٤) ، وجدّ في مايو سنة ١١٠٤م في محاولة إسقاط عكا الحصينة مستعينا في ذلك بأسطول جنوة، خاصة وقد كانت المملكة في حاجة ماسة للمنافذ الهامة على البحر المتوسط لتستقبل فيها الحجاج والتجارة من ناحية، وتمنع منها الأساطيل الفاطمية من اعتراض طريق الحجاج القادمين من الغرب من ناحية أخرى (٧٥). وكانت عكا مدينة حصينة اشتهرت بموقعها الرائع بين الجبال والبحر وبمينائها المزدوج داخل أسوارها وخارجها، وساعدها ذلك على أن تكون مرفأ آمنا ومرسى هادئا للسفن، فضلا عما كان لها من ثروة كبيرة وفرتها لها أراضيها الشاسعة وحقولها الخصبة (٧٦) .ولقد أفاد بلدوين من وصول الأسطول الجنوى الذى تألف من نحو سبعين سفينة في حصار عكا، بعد أن اتفق مع الجنوية على منحهم ثلث ما يتحصل من رسوم السلع الواردة إليها من جهة البحر، وأن يقيموا لهم كنيسة وأن يكون لهم شارع خاضع لسلطانهم بالمدينة بعد سقوطها .وعلى الرغم من صمود المدينة وحاميتها نحو عشرين يوماً إلا أنها سقطت في النهاية في مايو سنة ١١٠٤م، فاستباح الصليبيون المدينة وقتلوا أعدادا كبيرة من سكانها (٧٧) .

وفى كل مرة يدخل الصليبيون فيها مدينة إسلامية يحدثون بها مذبحة بشرية رهيبة حتى ولو بذلوا لها الأمان واختارت أن تستسلم طواعية، فلم يكن لها في كل مرة أمان أو عهد وراح ضحية ذلك آلاف

---

(74) Grousset : op. cit. I, p. 239

(75) Runciman : op. cit. II, p. 87, ابن القلانسي : ذيل ص ١٧١ – ١٧٢

(٧٦) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٢٤٣ ،

Meron Benvenisti : The Crusades in the Holy land, p. 77

(٧٧) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٣١، Albert d'Aix, p. 606

مؤلفة من المسلمين الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ[٧٨] .ثم ما لبث بلدوين أن استولى على بيروت سنة ١١١٠م مستعينا في ذلك بأساطيل الجنوية والبيازنة ، وبعد مقاومة امتدت لأكثر من ثلاثة أشهر ومعركة بحرية عنيفة استشهد فيها مقدم الأسطول المصرى وكثير من جنوده سقطت المدينة في مايو سنة ١١١٠م، وأحدث البيازنة والجنوية فيها مذبحة رهيبة أيضا هلك فيها معظم سكان المدينة حتى أوقفها بلدوين بعد أن " استفظع الملك هذه المذبحة "[٧٩] .

ثم ألقى الحصار على صيدا في نفس العام بمساعدة أسطول البندقية وجموع الحجاج من النروجيين الذين قدموا في خمس وخمسين سفينة ، فاستسلمت المدينة ودخلها بلدوين ومنح البنادقة امتيازات كبيرة في بعض المدن لا سيما في عكا[٨٠] ، بعد أن صادر أملاك من بقى من أهلها ، الذين حل بهم الفقر والفاقة .وبسقوط صيدا في أيدى بلدوين أصبح للصليبيين السيطرة على كل ساحل بلاد الشام باستثناء عسقلان وصور[٨١] .

ولم تلبث الأحداث أن جعلت بلدوين يظهر بصورة القائد الأعلى لقوات الصليبيين والزعيم الذى يدين له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس، الإمارة الرابعة التى أقيمت عقب سقوط المدينة سنة ١١٠٩م في أيدى الصليبيين[٨٢] .ذلك أن موجة جديدة من الجهاد الإسلامي المقدس بزغت اعتبارا سنة ١١١٠م حين نهض السلاجقة

---

(٧٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣-١٤٤ ،
Runciman : o. cit. II, p. 88

(٧٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٩٠

(80) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. I, p. 148

(81) Grousset : op. cit. I, pp. 258 -60, ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٢

(٨٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٢٧٩ – ٢٨٠

بمسئولياتهم، وبدأوا في محاربة الصليبيين، وكلف السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى أتابك الموصل شرف الدين مودود بالقيام بمحاربة الصليبيين في أطراف العراق وبلاد الشام[٨٣] ، فقام هذا بحملته الأولى ضد إمارة الرها سنة ١١١٠م واشترك معه بعض الأمراء مستفيدين حينئذ مما حدث من خلاف وعداء بين أمراء الإمارات الصليبية في الشمال في الرها وفى أنطاكية إلى حد تبادل الاتهامات فيما بينهم، بأن كلا منهم هو الذي استدعى المسلمين لتعضيده ضد الآخر[٨٤] .ما يعنينا من ذلك كله أن أمير الرها بلدوين دى بورج وتابعه جوسلين دى كورتناى، أرسل إلى ملك بيت المقدس بلدوين الأول يطلبان المساعدة ضد المسلمين ويشيران من طرف خفى إلى شكوكهما في تنكرد أمير أنطاكية . فلما فرغ بلدوين من إسقاط بيروت في مايو سنة ١١١٠م مارس حقه في رئاسة الكيانات الصليبية وجمع قواته، واصطحب برتراند أمير طرابلس على رأس فرسانه وزحف صوب الشمال لنجدة الرها[٨٥] ، ويشير المؤرخ متى الرهاوى إلى أن الملك عرج في طريقه على أنطاكية حيث أقنع تنكرد بمصاحبته على رأس فرسانه[٨٦] ، بينما تشير بقية الروايات إلى أن الملك أرسل بعد وصوله إلى الرها يستقدم تنكرد تحسبا للدخول في معركة مع المسلمين، فقدم هذا على رأس

---

(٨٣) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٢٢١

(٨٤) انظر هذه القضية في :

Albert d'Aix , p. 670 , Matthieu d'Edesse, p. 91

Runciman : op. cit. II , p. 116 , Grousset : op. cit. I, pp. 449-50

(٨٥) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٤٦

(86) Matthieu d'Edesse , p. 92 ,

Runciman : op. cit. II, pp. 116 - 17

نحو ألف وخمسمائة فارس وأنضم إلى قوات الصليبيين[٨٧] ، على حين انضمت إلى قوات الملك قرب سيميساط جموع أخرى من الأرمن، حتى بلغت قوات الملك نحو خمسة عشر ألف محارب، فوصل إلى الرها في أواخر يونيو سنة ١١١٠م . وفى نفس الوقت كان مودود قد وقف عاجزا أمام حصانة الرها وجدية الدفاع عنها، فلما اقترب الصليبيون فضل الارتداد عن الرها والاتجاه نحو حران[٨٨] ، ولكن ما يهمنا من ذلك كله أنها كانت المناسبة الأولى التى ظهر فيها بلدوين الأول ملك بيت المقدس بصورة القائد الأعلى لقوات الصليبيين والزعيم الذى يدين له أمراء الصليبيين في الرها وأنطاكية وطرابلس بالطاعة وإن لم يشتبك في حرب مع المسلمين أو يحسم الوضع معهم لصالح تلك الإمارات في الشمال . أما المناسبة الثانية فكانت في العام التالى(١١١١م)، حين قام مودود بحملته الثانية على الرها وعلى بلاد الشام، مصطحبا معه بعض أمراء الجزيرة وهمذان وخوزستان وآذربيجان[٨٩] ، وبعد أن فتح بعض حصون الأرمن في الجزيرة وديار ربيعة، اتجه الجميع لمهاجمة الرها وحاصرها مودود فترة ثم ما لبث أن قرر رفع الحصار عنها والانصراف إلى تل باشر على الناحية الأخرى من الفرات وحاصرها نحو شهر ثم انصرف عنها أيضا متجها إلى حلب، ودمر في طريقه كل ما مر به من ضياع ومزارع الصليبيين[٩٠] ، وعندما أقترب مودود من حلب سارع رضوان بإغلاق أبواب المدينة في وجهه، في الوقت الذى ألتقى فيه بطغتكين أتابك دمشق بظاهر حلب، فتقدم الجميع إلى معرة النعمان

---

(٨٧) فوشيه الشارتري : نفس المصدر ص ١٤٦

(88) Stevenson : op. cit. p. 59

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢١٢ (سنة ٥٠٥ هـ)

(٩٠) ابن العديم : زيدة الحلب ج٢ ص١٥٨-١٥٩. لبن القلانسي ذيل ص ١٧٤.
Grousset op cit. I, pp. 463-4, Albert d'Aix, p. 681

وحوض نهر العاصي، ثم انصرف بعض الأمراء وعادوا إلى بلادهم، بينما رحل مودود وطغتكين إلى ناحية شيزر(٩١) .وكانت هذه هي المرة الثانية التي يعامل فيها بلدوين كقائد أعلى للصليبيين وزعيما لهم، فقد أرسل تنكرد يستنجد به فسارع بلدوين على رأس قواته ومعظم أفصال المملكة، ومعهم البطريرق ولحق بهم في الطريق برتراند أمير طرابلس(٩٢)، كما انحدر إليه من الشمال أمير الرها بلدوين دى بورج ومعه فصليه جوسلين وباجون، كما أسهم معهم كوغ باسيل حاكم مرعش وكيسوم ورعبان بإمدادات من الأرمن(٩٣) ،حتى بلغت قواته نحو ستة عشر ألف مقاتل من الفرسان والرجالة .لكن يبدو أن بلدوين أحس أن موقف المسلمين كان أفضل من موقفه، لذلك فضل الاعتصام هو وقادته بتل مجاور ورفضوا الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين(٩٤) ، فتجمد الموقف طيلة أسبوعين اضطر بعدهما بلدوين إلى الارتداد ناحية أفامية بعد أن تعرض جيشه لهجمات الترك ومنى ببعض الخسائر، واستطاع الأتراك الإفلات بما استولوا عليه من المغانم(٩٥) .وإذا لم تكن هذه الحملة قد انتهت كسابقتها إلى نتائج حاسمة بين المسلمين والصليبيين، وانفض كل فريق دون الدخول في حرب، إلا أنها كانت مناسبة لظهور بلدوين كقائد أعلى للصليبيين وزعيما لهم كما حدث في المرة الأولى .

---

(٩١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٩٦ ،ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٥

(٩٢) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٤٩ ،

Stevenson : op. cit. p. 61

(93) Runciman : op. cit. II , p. 122

Grousset : op. cit. I, pp. 466 - 9

(٩٤) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٦٣ (سنة ٥٠٥ هـ)

(95) Albert d' Aix p. 684

ثم كانت المناسبة الثالثة حين قام مودود سنة ١١١٣م بحملة أخرى في بلاد الشام على أثر ازدياد هجمات بلدوين الأول على دمشق واستنجاد طغتكين بمودود الذى لم يتوان عن التقدم إلى بلاد الشام، وانحاز إليه بعض أمراء السلاجقة في إقليم الجزيرة ثم التحق به طغتكين، وسارع الجميع بإلقاء الحصار على مدينة طبرية، ثم أخذوا في إحداث الخراب والدمار في ممتلكات الصليبيين(٩٦) ، وكان بلدوين الأول قد بعث في استدعاء أمير أنطاكية روجر وكذلك كونت طرابلس لمساعدته، ولم ينتظر وصولهما وإنما تعجل الرحيل على رأس قواته حيث عسكر بالقرب من معسكر المسلمين(٩٧) ،ولما تسرع بلدوين في الهجوم على المسلمين قبل أن تصله نجدات الإمارات الأخرى تعرض لهزيمة ساحقة واضطر إلى الفرار بعد أن منى بخسائر فادحه"(٩٨) وجرت مذبحة مروعة في صفوف الهاربين حتى أن الملك ذاته ألقى بعلمه إلى الأرض (حتى لا يُعْرف) وكانت نجاته إحدى المعجزات " وفر كذلك البطريرق أرنولف وغيره من قادة المملكة " مخلفين وراءهم المعسكر بكل متاعهم"(٩٩) ، واجتاح المسلمون النواحى القريبة وأضرموا النيران في المدن والقلاع وأنزلوا الخراب والدمار بضياع الصليبيين وممتلكاتهم حتى بيسان ونابلس(١٠٠) .وزاد من سوء أحوال المملكة قيام

---

(96) Grousset : op. cit. I. p. 270

(٩٧) وليم الصوري . الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٠٠

فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٥٢

(٩٨) فوشيه الشارتري : نفس المصدر ص ١٥١،

ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٢٦ (سنة ٥٠٧ هـ)

(٩٩) وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ٣٠١ .

Conder : The Latin Kingdom , p. 88

(١٠٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦

حامية عسقلان بالهجوم على بيت المقدس لخلوها من المدافعين فقتلوا وأسروا وأشعلوا النيران في المحاصيل قبل أن ينسحبوا عائدين[١٠١]. ولم ينقذ المملكة حينئذ سوى وصول قوات أنطاكية وطرابلس، إذ ما لبث أن لحق به روجر الأنطاكي ومعه أربعمائة فارس وستمائة من المشاة، وكذلك وصل بونز أمير طرابلس على رأس قواته، فهدأ بلدوين وأصبح في وضع أحسن لمواجهة السلاجقة[١٠٢] .ثم تجمد الموقف في بلاد الشام من جديد ولم تجر حرب، ولهذا سمح مودود في سبتمبر سنة ١١١٣م لقواته بالتفرق للاستراحة والعوده في الربيع التالي، ودخل هو وبعض خواصة إلى دمشق لقضاء الشتاء ومعاودة الحرب في الربيع، وفي الشهر التالي (أكتوبر) خرج إلى الجامع لتأدية الصلاة " فوثب عليه باطني، فضربه فجرحه أربع جراحات " [١٠٣] فأسلم الروح بعد أيام وقتل غيلة وانتهى دور هام من أدوار الجهاد الإسلامي، ضد الصليبيين.

وإذا كان السلاجقة قد عهدوا بالجهاد بعد ذلك إلى آقسنقر البرسقي أمير الموصل الجديد، الذي حاصر الرها سنة ١١١٤م أكثر من شهرين ومعه بعض القادة المسلمين ثم رحل عنها واتجه إلى ممتلكات الصليبيين حولها فقام بتدميرها وتحالف مع الأرمن حكام مرعش وكيسوم ورعبان ورثة كوغ باسيل[١٠٤] ، إلا أن هذه الأحداث لم تكن من الخطورة بحيث تزعج بلدوين الأول ليزحف إلى الشمال ليتزعم من جديد الإمارات الشمالية لحرب المسلمين، ولهذا لم يولها بلدوين كبير اهتمام حتى انفض المسلمون وانتهت هذه النوبة من الحماسة الإسلامية

---

(١٠١) فوشيه الشارتري : نفسه ص ١٥٢ – ١٥٣، Conder : op. cit. p. 88

(١٠٢) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٢٣٧

(١٠٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٦٨ (سنة ٥٠٧ هـ)،

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٦

(١٠٤) ابن العبري : نفسه ص ٣٤٦ . ابن الإثير :الكامل ج٨ ص ٢١٩(سنة ٥٠٨ هـ)

دون أن تحقق شيئاً [١٠٥] .

ثم عهد السلطان بالجهاد إلى ثالث شخصية تداولت الزعامة في الحرب على عهده وهو الأمير برسق بن برسق في الوقت الذى تبدلت فيه الأمور في بلاد الشام، وارتمى طغتكين في أحضان الفرنج ولم يبق على الولاء للسلطنة السلجوقية سوى الأسرة العربية الحاكمة في شيزر لتعرض إماراتهم لخطر الصليبيين[١٠٦] ، وكذلك صاحب حمص، مع تقلب الوصى على حلب – بعد وفاة رضوان– بين الولاء للسلاجقة ومسايرة أمير دمشق[١٠٧] .فقاد برسق بن برسق حملة جديدة سنة ١١١٥م ومعه بعض الأمراء فألقى الحصار على الرها فترة وجيزه، قبل أن يزحف إلى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين من ناحيته وبسط هيمنة السلطنة السلجوقية على الإمارات الإسلامية في بلاد الشام وشمال الجزيرة من ناحية أخرى[١٠٨] .وفى نفس الوقت استنجد روجر الأنطاكى أمير أنطاكية بالملك بلدوين الأول وبأمير طرابلس وغيرهما من أمراء الصليبيين، فقاد الملك قواته ولحق به أمير طرابلس وانضم إليهم طغتكين حاكم دمشق المسلم، وعسكر هذا الحلف عند أفامية[١٠٩] ، وعندئذ تظاهر برسق بالانسحاب إلى الجزيرة ثم ما لبث أن ارتد وانقض على كفر طاب فاقتحمها، إلا أنه لقى بعد ذلك عداء الأمراء المسلمين في بلاد الشام قبل أن يلقى عداء الصليبيين، فخذله المسلمون وفاجأه الصليبيون فأنزلوا به هزيمة ساحقة عند تل دانيث سنة

---

(١٠٥) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ٢٤٩

(106) Grousset : op. cit. I, p. 498

(١٠٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٧٤

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل ج٨ ٢١٩ (٥٠٨ هـ)،

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣١٠

(109) Grosset : op. cit. I, p. 503 ,

فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٥٥

١١١٥م[١١٠] ،ونجى برسق نفسه من القتـل، لكنـه مـا لبـث أن توفـى حزينا بعد بضعة أشـهر، وبموتـه أحجمـت السـلطنة السـلجوقية عـن الجهاد لفترة، وانتهت حلقه هامة من حلقات الجهاد الإسـلامي ضـد الصليبين في بلاد الشام وأطراف العراق[١١١] .

ولقد أظهر بلدوين الأول بعد نظر وحصافة في سياسته الدفاعيـة ضد القوى الإسـلامية ودل مشـروعه علـى حمايـة مملكتـه مـن ناحيـة الجنوب الشرقى بالسيطرة على الصحراء الممتدة جنوبـى البحـر الميـت حتى خليج العقبة (وادى عربة) على مـا لهـذا الرجـل مـن دهـاء، إذ مكنه ذلك من عزل مصر عن بقيـة القـوى الإسلامية، وقطـع الطريـق البرى بينها وبين بـلاد الشـام والعـراق والحجـاز[١١٢] ، وقـام بلدويـن بتشييد حصن الشوبك سنة ١١١٥م ليتمكـن مـن السـيطرة علـى وادى عربة بأكمله، وبنى في أيلة، على ساحل خليج العقبة، قلعـة حصينـة للتحكم في الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام سنة ١١١٦م[١١٣] .

ثم بدأ بعد ذلك مشروعه لمهاجمة الفاطميين في مصر، فخرج على رأس قـوة صغـيرة في سـنة ١١١٨م إلى حـدود مصـر، دون أن يتعـرض لمقاومة، ووصل إلى الفرمـا واسـتولى عليهـا[١١٤] ،ثـم اتجـه غربـا نحـو

---

(١١٠) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٦٩ ، ابن العديم : زيدة ج٢ ص ١٧٦

فوشيه الشارتري :تاريخ الحملة ص١٥٧.وليم الصوري: نفسه ج٢ ص٣١٥

(١١١) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٢٥٩

Smail : Crusading Warfare, p. 29

(112) Grousset : op. cit. I, p. 213

(١١٣) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣١٧.

فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٥٨ .

Stevenson : op. cit. p. 65

(١١٤) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٣٢٩

مصب نهر النيل، ويقال أنه وصل إلى مصب النيل فعلا، ولكنه لم يستطع أن يمضي في مشروعه لقلة قواته من ناحية ولأنه مرض فجأة من ناحية أخرى، فعاد به جنده حيث توفى في الطريق قرب العريش في إبريل سنة ١١١٨م[١١٥] ،ويبدو أنها كانت حملة استطلاعية هدف منها اختبار ردود فعل الفاطميين من ناحية واستكشاف الطريق من ناحية أخرى توطئة للقيام بغزو مصر في وقت لاحق ولكنه لم يعش ليحقق هذا الحلم ومات سنة ١١١٨م بعد أن أدى خدمات جليلة للمملكة الصليبية في بيت المقدس وفرض زعامته على أمراء الإمارات الصليبية الأخرى في بلاد الشام وأطراف العراق، وفى نفس العام الذى توفى فيه بلدوين الأول توفى البابا باسكال الثانى في روما والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقى وأرنولف بطريرق بيت المقدس والخليفة العباسى المستظهر في بغداد وأخيرا الإمبراطور ألكسيوس كومنين إمبراطور بيزنطه[١١٦] . وكان بلدوين آخر من بقى على قيد الحياة من زعماء الحملة الصليبية الأولى، فقد مات قبله كل من ريموند وبوهيموند وتنكرد الذين اختاروا الإقامة في الإمارات التى أنشأوها بالشرق، ولكن بلدوين كان أكفأ هؤلاء جميعا وأكثرهم نجاحا، إذ يعتبر المؤسس الحقيقى لملكة بيت المقدس الصليبية التى ظل يحكمها ثمانى عشرة سنة فلما مات كان لملكته الصدارة على سائر الإمارات اللاتينية في الشرق[١١٧] .

---

(١١٥) فوشيه الشارتري : المصدر السابق ص ١٦٣،

وليم الصوري : نفسه ج٢ ص٣٢٩-٣٣٠

(١١٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٣٨

(١١٧) السيد الباز العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٣٢٣-٣٢٤

الملك بلدوين الثانى(١١١٨-١١٣١م):

تجددت من جديد مشكلة الوراثة في بيت المقدس، لأن بلدوين الأول لم يترك ولدا يرثه إذ انتهى بوفاته حكم السلالة المباشرة في بيت بويون، فانعقد مجلس المملكة لاختيار خلف له شهده بعض سادة المملكة العلمانيين وبطريرق بيت المقدس وكبار رجال الكنيسة[١١٨]، فاستقر الرأى في النهاية على إقامة بلدوين دى بورج ابن عم الملك الراحل وأمير مدينة الرها ملكا على بيت المقدس بترشيح من جوسلين دى كورتناى والبطريرق أرنولف، ولعل جوسلين تطلع إلى أن يخلفه في إمارة الرها[١١٩]، وتصادف أن بلدوين دى بورج كان في طريقه إلى بيت المقدس لزيارة الملك والتشاور معه وزيارة الأماكن المقدسة أيضا، لكنه وصل إلى المدينة في اليوم الذى شيع فيه بلدوين الأول فجرى تتويج بلدوين دى بورج ملكا في كنيسة القيامة وذلك في إبريل سنة ١١١٨م[١٢٠]، واعتلى العرش باسم بلدوين الثانى، بعد أن عهد بإمارة الرها إلى جوسلين دى كورتناى، على أن يكون تابعا إقطاعيا له، فقد كان النظام الإقطاعي هو النظام السائد فى الكيانات الصليبية فى بلاد الشام وأطراف العراق، وهو النظام الذى قدم به الصليبيون من الغرب الأوربى[١٢١].

بدأ بلدوين الثاني بفرض هيبته ونفوذه على الإمارات الصليبية الأخرى خاصة طرابلس التي طرح أميرها بونز طاعة الملك ورفض أن يؤدى إلتزاماته الإقطاعيه حسب يمين الولاء والطاعة للملك[١٢٢]، كما

---

(118) Runciman :op. cit. II, p. 143

(١١٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٣٨

(١٢٠) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٨٥

(121) La Monte : Feudal Monarchy , p. 8

(١٢٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٣٦٢

فرض هيبته أيضا على الإمارات الإسلامية المجاورة، وأظهر نشاطا جما فى الدفاع عن المملكة، إذ كان محاربا قويا وقائدا حكيما، كما أظهر تدينا وتقوى وكثيرا ما أخذ معه الصليب المقدس في حملاته العسكرية[١٢٣]، كما اهتم بإنعاش أحوال المملكة الاقتصادية، فسمح لجميع الغربيين بحرية نقل البضائع والسلع بين المملكة وغيرها ومنها وإليها "فلم يعد أى لاتيني يدخل المدينة أو يخرج منها ومعه سلعة ما ملزما بدفع أى شئ تحت أية حجة"[١٢٤]. وأعطى جميع الطوائف حرية دخول بيت المقدس والمتاجرة فيها من السريان والأرمن والإغريق بل والعرب أيضا "فصار لهم الحق في أن يحملوا إلى المدينة المقدسة القمح والشعير لا يسألون شيئا يدفعونه على ما يحملون"، وذلك بمقتضى الوثيقة المؤرخة في سنة ١١٢٠م، وتجاوز بلدوين الثانى أيضا عن الرسوم المقررة على المكاييل والموازين، فوفر المؤن للأهالى وشجع الناس على الإقامة في بيت المقدس فكثر سكانها[١٢٥]، وراجت المملكة وأنعشت الأحوال الاقتصادية فيها[١٢٦].

ولقد شجع بلدوين الثانى أيضا هيئات الفرسان التى نشأت في عهده، والتى كانت موجودة قبل ذلك، وأعنى بها هيئة الفرسان الداوية وهيئة الفرسان الاسبتارية، فقد نشأت في عهده الهيئة الأولى سنة ١١١٨م على أساس عسكرى حربى، حين منح الملك بلدوين الثانى مؤسس هذه الجماعة مقرا مؤقتا في قصره الخاص الذى يقع على الجانب الشمالى من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس، ليكون مقرا للمنظمة الجديدة، كما منحهم ساحة كانت تابعة للهيكل

---

(١٢٣) فوشيه الشارتري : المصدر السابق ص ١٨٨

(١٢٤) وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ٣٦٠

(١٢٥) فوشيه الشارتري : نفسه ص ١٨٩

(126) Grousset : op. cit. I, p. 156

يستطيعون فيهـا ممارسـة واجبـاتهم ، ومـن ثـم أطلـق عليهـم فرسـان المعبد[١٢٧] ، وحرف الاسم بمرور الوقت وشاع بعد ذلك بـأنهم فرسـان الداوية ، ثـم أصبحـت هـذه الهيئـة تضـم نخبـة ممتـازة مـن الفرسـان والأجناد الذين جمعوا في الأراضى المقدسة بين الحياة الدينيـة والحيـاة العسكرية ، ولم يكن لهم في البداية زى معين حتى جرى الاتفاق علـى أن يكون البياض لباسهم[١٢٨] فـأصبح شـعارهم صليبـا أحمـر ، اتخـذه الفرسان منهم على سترة بيضاء ووضعه الأجناد على سترة سوداء حتى يمكن التفريق بينهم وبين سواهم ، وتعهد الداوية علـى تـأمين الطريـق الممتد من ساحل البحر المتوسط إلى بيـت المقـدس وتطهـيره مـن قطـاع الطرق وحماية الحجاج[١٢٩] .

وشارك الداوية في كل عمـل حربـى قـام بـه الصليبيـون في بـلاد الشام ، ولشدة مراسهم في الحرب ومـا تمتعـوا بـه مـن قـوة بدنيـة مـن ناحية ورغبة في خدمة الأهداف الصليبية في حربهم ضد المسلمين مـن ناحية أخرى حازوا ثروات طائلة واستولوا على ممتلكات كثيرة "حتى ليقـال أن مـا أصبحـوا يملكونـه يعـادل مـا عنـد الملـوك مـن الـثروات والأموال[١٣٠] " ، فغدت لهم مدن وحصون وقلاع ومعـاقل خاصـة بهـم ، وتزايد عددهم بمرور الوقت وتمتع زعيمهم علـى عهـد بلدويـن الثـاني بمكانة ممتازة حتى أنفذه إلى فرنسا وإنجلترا ليطلب من الأمراء هنـاك المساعدات والنجدات للمملكة الصليبية في الشرق[١٣١] .

---

(١٢٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤٦

(١٢٨) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٣٤٥ – ٣٤٦

(129) Grousset : op. cit. I, p. 543, Knights of the Crnsades, Author : Jay williams , p. 56

(١٣٠) وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ٣٤٦

(131) La Monte : op. cit. pp. 217 - 225
Runciman : op. cit. II, p. 157

أما الجماعة الأخرى " الاسبتارية " فكانت قد نشأت أصلا قبل عهد الحروب الصليبية سنة ١٠٧٠م للعناية بفقراء الحجاج وإيوائهم بدار قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس، وكذلك العناية الطبية بهم، ومن هنا اتخذت الجماعة اسم **Hospitallers** ، إذ كان القائمون عليها من الرهبان الذين اشتهروا بالتقوى والصلاح، ولهم مقدم استمد سلطته من النظام البندكتي، وكان جيرار مقدما على هذه الدار عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس(١٣٢) ، فنجح في إقناع الصليبيين بتدعيم هذه الجماعة ووقف الأوقاف عليها لتتمكن من أداء واجباتها، ثم ما لبثت أن أضحت مستقلة وانتمت للبابا مباشرة .فحصلت على هبات كثيرة وخصص لها عشر ما يرد للكنائس من دخل(١٣٣) ، ثم تطورت وظيفة هذه الجماعة فلم تعد تقتصر على إرشاد الحجاج وإيوائهم ورعايتهم، بل تطورت مهمتها إلى إعداد الفرسان الأشداء الذين يلتزمون بالطاعة والزهد والطهارة وينذرون أنفسهم لقتال أعداء المسيحية، وجعلوا شارتهم قطعة من النسيج الأبيض برسم الصليب فوق ستراتهم التي يختفي تحتها السلاح، وبدأوا في الاشتراك في القتال ضد المسلمين اعتبارا من سنة ١١٣٧م، وأطلق عليهم اسم فرسان المستشفى **Hospitallers** التي حرفت بالعربية إلى اسبتارية بعد أن تحولت إلى هيئة عسكرية(١٣٤) .

---

(132) Heyd : op. cit. I, pp. 103 - 105
Barker : The Crusades, p. 40 , N. 3
Knights of the Crusades, Author : Jay williams, p. 56

(133) Runciman : op. cit. II, p. 157

(134) Grousset : op. cit. I, p. 542
King : The Knights Hospirallers in the Holy land, p. I, p. 19, pp. 31- 32

ولقد استفاد بلدوين الثانى من ذلك كثيرا ووجه تلك الجماعات العسكرية الوجهة التى تخدم مصالح المملكة في بلاد الشام، وأصبح لهذه الجماعات مراكز قوية وحصون ثابتة تخدم أهداف الصليبيين مع أن هذه الجماعات ظلت مستقلة عن سلطان المملكة وتتبع البابوية مباشرة ولا تدين لغيرها بالولاء، وربما أغراها ذلك فضلا عما كان لها من ثروات بالتدخل في الشئون الدينية والكنسية، بل إنهم خرجوا أحيانا على بطريرق بيت المقدس ورفضوا طاعته، فأصبحوا مصدر متاعب شديدة للسلطة الدينية في المملكة[١٣٥] .

وتصدى بلدوين الثانى أيضا للحلف الذى قام لأول مرة ويجمع ما بين الفاطميين الشيعة في مصر وطغتكين أتابك دمشق السنى، حيث تجمعت الجيوش الإسلامية عند عسقلان في صيف سنة ١١١٨م تحت قيادة طغتكين الذى عبر الأردن بعد أن أغار على طبرية ونهب ما حولها[١٣٦] ، في الوقت الذى أرسل فيه الأفضل شاهنشاه أسطوله إلى مدينة صور ذات الاستحكامات المنيعة والميناء الفسيح بالغ الصلاحية، فلم يسع الملك الصليبي سوى أن يستنجد بقوات الصليبيين في الإمارات الأخرى في أنطاكية وطرابلس[١٣٧] فلما وصلت قوات الإمارتين قاد بلدوين الثاني الجيوش الصليبية وعسكر إلى الشمال من عسقلان وعلى مقربة من قوات الحلف الإسلامي[١٣٨] ، ويشير المؤرخون إلى أن بلدوين الثانى نجح في تجميد الموقف عند عسقلان لثلاثة شهور دون أن يحدث التحام بين الجيشين " لأن كل طرف خشى كثيرا من مغبة مهاجمة الطرف الآخ "[١٣٩] ثم انفض الحلف المسلم دون أن يعكر

(١٣٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤٧

(136) Grousset : op. cit. I, p. 564

(١٣٧) فوشيه الشارتري تاريخ الحملة ص ١٨٥

(١٣٨) وليم الصوري . المصدر السابق ج٢ ص ٣٤٣

(١٣٩) فوشيه الشارتري المصدر السابق ص ١٨٥

صفو المملكة، وعاد رجال أنطاكية إلى بلادهم، بعد أن خصصوا ثلاثمائة جندى من خيرة جنودهم لتقوية جيش الملك تحسبا لعودة المصريين للحرب[١٤٠].

وحين طمع روجر أمير أنطاكية في الاستيلاء على حلب، بعد أن اضطربت الأمور فيها منذ وفاة رضوان سنة ١١١٣م، واستغاث حكام حلب حينئذ بالأمير إيلغازى التركمانى، أمير ماردين بديار بكر وسلموا البلد إليه سنة ١١١٨م ليقف في وجه روجر، الذى ألح في محاولة إسقاط حلب وضيق الخناق عليها من كل ناحية[١٤١]، وأصر على مقاسمة أهلها " على أملاكهم بباب حلب[١٤٢] "، خرجت الجيوش الإسلامية تحت قيادة إيلغازى ومعه بعض الأمراء، واستطاعت أن تباغت روجر الأنطاكى الذى تسرع في الخروج، ولم ينتظر وصول النجدات من الإمارات الأخرى والمملكة، ربما لأنه خدعه انتصاره من قبل على قوات برسق بن برسق في تل دانيت سنة ١١١٥م، ولاستهانته بقوة المسلمين وتهديده لحلب، واستثارته حشود التركمان التى بيتت النية على حربه[١٤٣]، فباغتته الجيوش الإسلامية وقضت على جيشه وخر روجر نفسه صريعا[١٤٤] في موقعة البلاط سنة ١١١٩م حيث أنزلت سيوف المسلمين القتل الجماعي بالصليبيين؛ إبادة شبه تامة، حتى اشتهرت هذه الموقعة عند الصليبيين بساحة الدم[١٤٥]

---

(140) Runciman : op. cit. II , p. 146

Stevenson : op. cit. p. 113

(١٤١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٨٥ – ١٨٦،

Grousset : op. cit. I, p. 549

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٨٤ (سنة ٥١٢ هـ)

(١٤٣) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٢٧٤

(١٤٤) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٨٦

(١٤٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤٩

Ager Sanguinis ، ولم يستطع النجاة سوى قلة من الفرسان " دون العشرين رجلا[١٤٦] "، ولم يخسر المسلمون سوى نحو عشرين رجلا. وغنموا غنائم كثيرة لا يدركها حصر[١٤٧] .

ترتب على ذلك أن أصبحت أنطاكية بلا أمير ولا جيش يحميها، وعندئذ سارع الملك بلدوين الثانى إليها بقواته وتسلم الوصاية عليها ونظم شئونها، ثم ما لبث أن ثأر من قوات إيلغازى وطغتكين حيث أنزل بهما هزيمة في أواخر نفس العام[١٤٨] ، وإن أشار المؤرخون إلى أن انتصار الصليبيين لم يكن حاسما، بل إنها لم تمنع إيلغازى من الإغارة على ممتلكات الفرنج في أطراف إمارة الرها وأعمال أنطاكية[١٤٩]، لكنها في نفس الوقت مكنت بلدوين الثانى من استرداد بعض القلاع المشرفة على حلب، فحقق بذلك نجاحا للصليبيين وحمى أنطاكية من الوقوع في أيدى المسلمين وأشرف على شئونها وقت أن حلت بها الكارثة[١٥٠] .

غير أن بلدوين الثانى ما لبث أن وقع في أسر الأمير الأرتقى بلك بن بهرام ابن أخي إيلغازى وصاحب قلعة خرتبرت ومدينة حران، والذى غدا له نفوذ أيضا في ملطية والجهات المحيطة بفضل تحالفه مع آل الدانشمند[١٥١] ، وقع بلدوين الثانى في أسر هذا الأمير في إبريل

(١٤٦) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٩

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٨٤. فوشيه الشارتري: نفسه ص ١٨٦

(١٤٨) فوشيه الشارتري : المصدر السابق ص ١٨٨

وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٣٥٦

(149) Mathieu d'Edesse, p. 127, Groussrt op cit. I, pp.574-5

(150) Runciman op. cit. II, pp. 155 - 8

(151) Cahen Encyc Isl art " Artukids"

سنة ١١٢٣م[١٥٢] على أثر قيام بلدوين بمحاولة فك أسر جوسلين دى كورتناى أمير الرها، الذى كان قد وقع في أسر بلك قبله الذى طالبه بلك بتسليم الرها، مقابل فك أسره، إلا أنة رفض فحمله بلك إلى قلعة خرتبرت وراء نهر الفرات[١٥٣]، ولحق به بلدوين الثانى الذى حمل إلى نفس القلعة ليسجن بصحبة جوسلين، ثم نقله بعد ذلك ليسجن بحران بعيدا عن متناول الفرنج، واختار الصليبيون حاكم قيسارية وصيدا وصياً على المملكة و البطريرق برنارد الوصاية على أنطاكية[١٥٤].

غدت إمارة الرها والمملكة الصليبية في بيت المقدس بدون حاكميهما، فانتهز الفاطميون الفرصة للهجوم على المملكة أثناء أسر بلدوين، فحشدوا جيشا ضخما بعسقلان وسارعوا بمحاصرة يافا برا، بينما هاجمها من البحر أسطول فاطمى مؤلف من نحو سبعين سفينة، إلا أن الهزيمة ما لبثت أن حاقت بالجيش المصرى الذى انسحب إلى عسقلان، على حين تقدم أسطول بندقى لمساعدة الصليبيين فألحق هزيمة أخرى بالأسطول المصرى ونهب بعض السفن المصرية[١٥٥] وأثناء أسر الملك بلدوين ساءت أحوال الصليبيين واضطربت أمورهم لولا أن نجح جوسلين دىكورتناى في الفرار من أسره[١٥٦] وراح ينهض بعبء

---

(١٥٢) فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة ص١٥٩ ،
وليم الصورى : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٦٤

(153) Le Strange : The lands of the Eastern Caliphat, p. 117
ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٠٣، ص٣١٣ ،ابن القلانسى: ذيل ص ٢٠٩

(١٥٤) وليم الصورى : المصدر السابق ج٢ ص ٣٦٤، ص ٣٦٨

(155) Grousset : op. cit. I, pp. 597 - 8
Stevenson : op. cit. p. 114

(١٥٦) فوشيه الشارترى : نفسه ص ٢٠١ -٢٠٢ ،
Runciman : op. cit. II, pp. 163 - 4

الدفاع من الإمارات الصليبية و يحاول تخليص الملك من سجنه إلا أنه فشل في ذلك لأن بلك بن بهرام عاد فنقل الملك ليسجن في قلعة حلب غير أن بلك ما لبث أن توفى بعد ذلك بقليل سنة ١١٢٤م(١٥٧) ،وآلت حلب إلى أمير أرتقى آخر وافق على إطلاق سراح بلدوين الثانى مقابل دفع مبلغ كبير من المال ورد بعض القلاع والحصون المشرفة على حلب(١٥٨) .

وعلى الرغم من غياب الملك وتلاحق الأحداث فقد كان الوصى على المملكة ينازل مدينة صور بمساعدة البنادقة في مقابل امتيازات خاصة منحها لهم في مدينة عكا ولإقامة مؤسساتهم المختلفة ومباشرة نشاطهم التجارى كالفنادق والمخابز والطواحين والحمامات، وإعفاء كل هذه المؤسسات من الضرائب والمكوس(١٥٩) ، وتعاون البنادقة مع الصليبيين أمام مدينة صور وشددوا الحصار عليها برا وبحرا، على الرغم من المحاولات الباهتة التى قام بها المسلمون لحفظها ومنعها من السقوط في أيدى الفرنج، إلا أن المدينة كانه حظها سيئا فقد توفى بلك بن بهرام وهو يتجهز على رأس جيش كبير لإنقاذها، بينما تخاذل طغتكين عن حمايتها وراسل الفرنج لتسليمها إليهم(١٦٠) ، ولهذا فقد استسلمت المدينة فعلا في يوليو سنة ١١٢٤م(١٦١) فأدى ذلك إلى تدعيم مركز الصليبيين في بلاد الشام وإمدادهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول، فانتقل إلى حوزة الفرنج آخر مدينة إسلامية على

---

(١٥٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢١٩

(١٥٨) هو الأمير تمرتاش بن إيلغازي انظر:ابن الجوزي :المنتظم ج٩ ص٢٣٣،٢٤٣

(159) Heyd : op. cit. I, p. 143-4,

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٧٩ – ٣٨٢

(١٦٠) ابن العديم : زبدة ج٢ ص ٢١٩، ابن القلانسي : ذيل ص ٢١٧

(١٦١) فوشيه الشارتري : نفسه ص ٢١٥

الساحل شمال عسقلان[١٦٢] .

وبعد أن أطلق سراح الملك بلدوين الثانى لم يهدأ هذا الملك وكان دائب العمل لتأمين الكيان الصليبى كله ببلاد الشام وأطراف العراق، ففي نفس العام الذى خرج فيه من أسره(١١٢٤م) صمم على الاستيلاء على حلب لأهميتها بالنسبة للصليبيين في بلاد الشام[١٦٣] ، إلا أن أهلها استغاثوا بآقسنقر البرسقى حاكم الموصل الذى قدم على رأس جيوشه، فاضطر بلدوين وحلفه إلى التراجع والعودة من حيث أتوا[١٦٤] .

وفى أواخر سنة ١١٢٦م وصل بوهيموند بن بوهيموند النورمانى قادما من إيطاليا بعد بلوغه سن الرشد ليتسلم إرثه في والده أى حكم إمارة أنطاكية[١٦٥] ، التى تقلب على حكمها بعد والده كل من تنكرد وروجر الأنطاكى ثم ولى الوصاية عليها لفترة الملك بلدوين الثانى عقب مقتل روجر فلما وصل بوهيموند الثانى سلمه الملك الإمارة وزوجه من ابنته إليس واطمأن على أمور أنطاكية[١٦٦] خاصة وقد أظهر هذا الأمير النورمانى حماسة صليبية لا تقل عن حماسة والده لكنها حماسة كلفت هذا الأمير حياته بعد نحو ثلاث سنوات حين دخل في صراع مع آل الدانشمند أصحاب مالطية بسبب تنافس على امتلاك الإمارة الأرمينية بعد موت أميرها، فالتقى الأتراك بالنورمان في سهل عين زربة في أوائل سنة ١١٣٠م حيث دارت معركة ضارية انتصر فيها

---

(162) Grousset :op. cit. I, pp. 616 - 17 ,

العريني : الشرق الأوسط ص ٣٤٢

(163) Stevenson : op. cit. p. 105 , Smail: op. cit. p. 30

(١٦٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٢٨

(١٦٥) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ٢٤٢

(166) Stevenson : op. cit. p. 119

الأتراك وقتل بوهيموند الثانى[١٦٧] ، لتعود إمارة أنطاكية من جديد إلى وصاية الملك بلدوين الثانى بعد نحـو ثلاث سنوات ليواصل هيمنته عليها وحمايتها من أطماع المسلمين ومن مؤامرات ابنته إليس التى طمعت في الاستئثار بالسلطة في المدينة فأرغمها بلدوين على الانصياع ومنحها إقطاع جبلة واللاذقية وأجبرها على ترك أنطاكية[١٦٨] ، وهكذا لعب بلدوين الثانى دوره في حماية الكيان الصليبي في بلاد الشام وأطراف العراق وتصدى لمحاربة المسلمين والوقوف في وجههم كلما تطلب الأمر بل إنه وقع في الأسر وأطلق سراحه ليواصل جهوده في خدمة الكيان الصليبي حتى توفى في النهاية سنة ١١٣١م[١٦٩] .

الملك فولك الأنجوى(١١٣١-١١٤٣م):

بعد نحو ثلاثة عشر عاما في الحكم توفى الملك بلدوين الثانى، دون أن يترك وريثا له، فاعتلى عرش المملكة زوج ابنتة فولك أمير أنجو، المعروف بفولك الأنجوى، وكان قد حضر إلى المملكة سنة ١١٢٩م لهذه المهمة بترشيح من ملك فرنسا، وتزوج من ميلزاند كبرى بنات الملك بلدوين الثانى وأصبح منذ ذلك الوقت ملك بيت المقدس المنتظر بحكم زواجه من وريثة الملك، واحتفل بتتويجه ملكا على بيت المقدس في كنيسة القيامة في سبتمبر سنة ١١٣١م[١٧٠] .وكان على فولك أن ينهض بمسؤليات كبيرة في المملكة وفى الإمارات اللاتينية الأخرى وخاصة وقد صادف اعتلاؤه العرش ظروفاً حرجه في بقية الإمارات الصليبية، فقد توفى في أواخر سنة ١١٣١م أمير الرها جوسلين دى

---

(167) Runciman : op. cit. II p. 183

(١٦٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٩٦

(١٦٩) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٩٦

(١٧٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٨٩ ، ص ٩٣

كورتناى، وتولى ابنه جوسلين الثانى حكم الرها[١٧١] ، على الرغم من أنه لم يكن له ما اشتهر به والده من الشجاعة والإقدام أو الكفاءة الحربية أو السياسية أو الحرص على مصالح الصليبيين[١٧٢] بل إنه حين وجد الرها تتعرض لهجوم المسلمين آثر الانسحاب منها إلى تل باشر لينعم بالهدوء والاستقرار ويحيى فيها حياة الدعة واللهو، الأمر الذى ترتب عليه نتائج بالغة الأهمية لأن المسلمين كانوا يتطلعون لهدم هذه الإمارة ويعملون على تصفية أملاكها، بعد أن أدركوا خطورة بقائها في الشمال تفصل بين قواتهم وتمنع وحدتهم في مهاجمة الكيان الصليبي[١٧٣] .

وفى نفس الوقت اضطربت أمور إمارة أنطاكية بعد مقتل أميرها بوهيموند الثانى في سنة ١١٣٠م، وانتهى-على حد تعبير مؤرخ محدث-الجيل الأول من الصليبيين، فشهدت الأعوام اللاحقة واجهه جديدة للنزاع بين الصليبيين أنفسهم من الجيل الثانى الذين سعوا فقط إلى التمسك بما في أيديهم من ممتلكات ورثوها عن الجيل الأول[١٧٤] هذا إذا لم يكن النزاع بين قادة الصليبيين قد غدا أبرز ملامح الفترة الجديدة وأظهر سمات الجيل الجديد[١٧٥] .ولقد ظلت أنطاكية خلال السنة الأولى من عهد الملك فولك الأنجوى بلا أمير يدير أمورها بعد مقتل أميرها، فطمعت زوجة الأمير الراحل أليس Alice ، ابنة الملك بلدوين الثانى مرة ثانية فى الاستئثار بالسلطة فى الإمارة بعد وفاة والدها دون ابنتها الطفلة كونستانس Constance، على غير رغبة من

---

(171) Stevenson : op. cit. p. 131

(١٧٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٩٥

(١٧٣) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٢٩٩

(174) Runciman : op. cit. II, pp. 185 - 6

(١٧٥) محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٣١٦

كبار رجال أنطاكية[١٧٦] ، ولما دبرت هذه الأميرة مؤامرة سنة ١١٣٢م للانفراد بالسلطة في أنطاكية مستعينة في ذلك بأمير طرابلس (بونز) وأمير الرها (جوسلين الثانى) ، استنجد نبلاء أنطاكية بالملك فولك الذى سارع إلى أنطاكية لإحباط المؤامرة، وهناك نادى به رجال المدينة وصيا على ابنة بوهيموند الثانى وحاميا للإمارة ضد مطامع إليس وبونز أمير طرابلس[١٧٧] .

غير أن بونز هذا لم يعجبه ما أسفرت عنه الأحداث لأنه فيما يبدو كان يتطلع هو الآخر للتخلص من سيطرة الملك، فجمع أتباعه واستعان ببعض الأمراء الصليبيين المجاورين وحاول أن يتصدى للملك فولك، إلا أن هذا لم يتردد في تلقين بونز ورفاقه درسا في وجوب احترام السلطة الإقطاعية وإطاعة الملك، إذ أنزل به الملك هزيمة ثقيلة سنة ١١٣٢م، ووطد سلطان المملكة في أنطاكية بمساعدة كبار نبلائها وعين نائبا عنه في حكمها[١٧٨] ،وفي النهاية عفا عن بونز ورد له أسراه من الفرسان، وفي سنة ١١٣٥م طلب أمراء المدينة من الملك فولك أن يختار زوجاً للأميرة كونستانس خوفاً من طمع والدتها في السلطة من جديد، فرشح الملك الفارس ريموند دي بواتيه للزواج من الأميرة كونستانس، وأرغم في نفس الوقت والدتها أليس على الاخلاد للسكينة في إقطاعها في جبلة واللاذقية، وجرى الزواج فعلاً سنة ١١٣٦م ، فانتهت إلى حد ما بعض متاعب الملك في إمارة أنطاكية[١٧٩] .

---

(176) Grousset : op. cit. II, p. 10 , p. 13

(١٧٧) وليم الصوري : نفسه ص ٩٦ - ٩٧

(178) Runciman : op. cit. II, pp. 189 - 190 ,

وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٩٩

(١٧٩) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ١٢٩

ولقد انتهز المسلمون فرصة الشقاق الواقع بين الإمارات الصليبية وبينها وبين الملك فولك فبدأ التركمان في موجة هجوم على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام، فأغاروا على أنطاكية ثم تحولوا إلى طرابلس فأوقعوا بأميرها بونز هزيمة ساحقة، وأحدثوا مذبحة بين الصليبيين(١٨٠) بينما واصل سوار نائب عماد الدين زنكي في حلب هجماته على إماراتي أنطاكية والرها " فكان له وقعات كبيرة مع الفرنج أبان فيها عن شجاعة وإقدام وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفار "(١٨١) ،عندئذ سارع الصليبيون في أنطاكية بالاستنجاد بالملك فولك، الذي لم يتوان عن نجدة الإمارات الصليبية في الشمال، فأمن إمارة طرابلس من خطر التركمان، ثم ما لبث أن لحق بجموع أخري من التركمان عند قنسرين جنوبي حلب، فأنزل بهم هزيمة قاسية سنة ١١٣٣م (١٨٢) ،وعاد ليستأنف سياسة تدعيم حكمه وتأمين سلامة المملكة نفسها في الجنوب وحماية الحجاج من غارات المسلمين وتشييد الحصون وإقامة القلاع جنوب المملكة من أجل ذلك، وإسناد الدفاع عنها لجماعات الفرسان الأشداء خاصة من الاسبتارية(١٨٣) .

وعلى عهد الملك فولك أيضاً ازداد خطر المسلمين على المتلكات الصليبية، وكانت حلب والموصل قد خضعتا منذ سنة ١١٢٥م لحاكم واحد، حين وكل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي إلى البرسقي حكم الموصل فأصبح هذا أتابكاً للمدينة اعتباراً من تلك السنة، ثم نجح بعد ذلك في ضم حلب إليه، فأصبح حكم الموصل وحلب في يد أمير واحد لأول مرة منذ عهد العقيليين وعهد تاج الدولة

---

(١٨٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠

(١٨١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٤٥

(182) Grousset : op. cit. II, p. 15 , وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ١٠١

(183) King : The Knights Hospitallers , p. 34

تتش[١٨٤] ،وعد هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية ، لأن ضم المدينتين يمثل النواة الأولى للوحدة الإسلامية في أطراف العراق وشمال بلاد الشام ويعد خطوة على طريق تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة وهي الجبهة التي أقضت مضاجع الصليبيين، وفصلت بين إماراتهم في بلاد الشام وإمارة الرها في أقصى شمال العراق، والتي غدت منذ ذلك الوقت في كف القدر[١٨٥] .

وبعد مقتل البرسقي سنة ١١٢٦م ، ظهر على مسرح الأحداث عماد الدين زنكي، الذي ولاه السلطان محمود ابن محمد أتابكية الموصل في سبتمبر سنة ١١٢٧م ،ثم ضم زنكي مدينة حلب في العام التالي في فبراير سنة ١١٢٨م ،وربط شمال العراق بشمال الشام[١٨٦] ، وواصل إرساء قواعد الجبهة الاسلامية المتحدة، وفتح صفحة جديدة في قصة الجهاد الاسلامي المقدس ضد الصليبيين، بعد أن وسع حدود إمارته واستولى على المدن والحصون والقلاع المحيطة، وفرض نفوذه على الإمارات الاسلامية في أواسط بلاد الشام مثل حمص وشيزر، وقلم زنكي أظفار إمارة دمشق، على عهد تاج الملوك بوري الذي خلف والده طغتكين في فبراير سنة ١١٢٨م ، وذلك بالاستيلاء على حماة في سبتمبر سنة ١١٣٠م فهيض زنكي الجناح الأيمن لهذه الامارة، وإن عجز عن الاستيلاء على دمشق ذاتها[١٨٧] فتأخرت الوحدة الاسلامية وتأخر اتحاد الجبهة نحو نصف قرن من الزمان، بعد أن كان وشيك الحدوث في عام ١١٣٥م [١٨٨] . ولكن جهود عماد الدين زنكي مثلت

(١٨٤) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ٢٦٥

(١٨٥) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣١٨ (سنة ٥١٩ هـ)

(١٨٦) ابن واصل :مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج١ ص ٥٨ (تحقيق الشيال)

(١٨٧) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٤٨ ، ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٤٦

(188) Grousset : op. cit. I, pp. 669 - 70

خطوة هامة على طريق إرساء قواعد الجبهة الاسلامية المتحدة وعلامة بارزة في الجهاد الاسلامي في الربع الثاني من القرن الثاني عشر ضد الصليبيين .

بدأ زنكي هذه النوبة من الجهاد ضد الصليبيين سنة ١١٣٥م فاستولى في بلاد الشام على بعض القلاع الحصينة شرقي نهر العاصي التي خضعت للصليبيين سنوات[١٨٩] ، كما قامت قواته في حلب بغزو إمارة أنطاكية ، فأحدثت في قراها وممتلكاتها الخراب والدمار ، وتشجع حكام دمشق فأغاروا على إمارة طرابلس فأنزلوا بحاكمها بونز هزيمة ثقيلة بل وقتل بونز نفسه في المعركة التي جرت سنة ١١٣٧م[١٩٠] ، ولما خرج الملك فولك الأنجوي على رأس جيوشه ، وبصحبته أمير طرابلس الجديد ، ريموند (الثاني) لصد جيوش زنكي نجح هذا في الحاق الهزيمة بهم في يوليو من نفس العام ، " وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب" [١٩١] ،وأسر كثير منهم من بينهم أمير طرابلس نفسه (ريموند الثاني) أما الملك فولك فقد أسرع بالهرب في نفر من رجاله واحتمى بقلعة بعرين[١٩٢] ، وأرسل يستنخد بالإمارات اللاتينية الأخري ، فحاصره زنكي بها ، واشتد في تضييق الحصار على الحصن ، ونصب عليه مجانيق لا تكف عن ضربه ليلاً ونهاراً "واهتزت الجدران من جراء رميات آلاته القوية التي أخذت تقذف الأحجار والصخور الضخمة... فتحطم البيوت وتبث الفزع

---

(189) Smail : op. cit. p. 32, ابن العديم : زيدة الحلب ج٢ ص ٢٥٩

(١٩٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ١٣٣ ،
Stevenson : op. cit. p. 137

(١٩١) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٥٨ (سنة ٥٣١ هـ)

(192) Runciman : op. cit. II, p. 204 ,
وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ١٣٨

الشديد" (١٩٣) .فاضطر الملك فولك إلى مفاوضة زنكي طالباً الأمان، فوافق زنكي على إطلاق سراحه بعد دفع مبلغ كبير من المال واسترداد المسلمين للحصن ولبعض القلاع الهامة شرقي نهر العاصي(١٩٤) .

وعلى الرغم من ذلك لم يكف فولك الأنجوي ملك بيت المقدس عن مواصلة نشاطه لرعاية مصالح الصليبيين وتحصين ممتلكاتهم والدفاع عن كيانهم وفي نفس الوقت كان يرقب محاولات الامبراطور البيزنطي حنا كومنين (١١١٨ -١١٤٣م) ، لضم أنطاكية وإرغام أميرها ريموند دي بواتيه على الاقرار بالتبعية لبيزنطة، ويرقب أيضاً محاولات زنكي للاستيلاء على دمشق ومد الجبهة الاسلامية المتحدة إلى أواسط بلاد الشام بعين الحذر، محاولاً منع هذا وذاك من تنفيذ أغراضه أو تحقيق مطامعه، حفاظاً على أمن الصليبيين وحرصاً على مصالحهم في بلاد الشام (١٩٥) .

إذ كان الامبراطور حنا كومنين قد نشط سنة ١١٣٦م على إثر اتصال الأميرة أليس به لمساندتها في الاستئثار بحكم أنطاكية، مقابل مشروع زواج سياسي بين ابنتها الأميرة كونستانس وابن الامبراطور، إلا أن الملك سارع بترشيح ريموند دي بواتيه زوجاً للأميرة كونستانس(١٩٦) ، نزولاً على رغبة كبار رجال أنطاكية من ناحية، وليحول بين بيزنطة وتدخلاتها في الإمارة من ناحية أخري، ووضع حد لمطامع أليس في الاستئثار بالسلطة في أنطاكية من ناحية ثالثة، فجاء ذلك الزواج سنة ١١٣٦م مخيباً لآمال الامبراطور حنا كومنين في ضم أنطاكية وإضافتها إلى أملاكه في ذلك الوقت، ومحفزاً للإمبراطور

---

(١٩٣) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ١٤٢

(194) Smail : op. cit. p. 33 , ابن القلانسي : ذيل ص ٢٥٩

(195) Runciman : op. cit. II, pp. 198 - 99

(١٩٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ١٢٩

في استخدام القوة لتحقيق ذلك[١٩٧] .

فانتهز الامبراطور فرصة انشغال ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية بنجدة الملك فولك الذي حاصره زنكي في قلعة بعرين في صيف ١١٣٧م -كما سبق أن أشرنا- وألقى الامبراطور الحصار على أنطاكية لإخضاعها وضمها إلى أملاكه. وعلى الرغم من شدة الحصار لها استطاع ريموند دخول المدينة بعد عودته من نجدة الملك[١٩٨] ،غير أن الامبراطور حنا أدرك بعد فترة حصانة أنطاكية وصعوبة اقتحامها من جهة وتحفز المسلمين بقيادة زنكي للافادة من هذا الشقاق من جهة أخري، فمال إلى مفاوضة ريموند دي بواتيه على قاعدة : إعلان ولائه للامبراطور وإقراره بالتبعية لبيزنطة، على الرغم من تأكده من أن هذه التبعية اسمية إلى حد بعيد، وعلى أن يشترك مع الامبراطور في العام التالي في حملة بيزنطية صليبية مشتركة ضد المسلمين في شيزر وحلب وحمص وحماة للاستيلاء على هذه المدن وتشكيل إمارة فيها ينتقل إليها ريموند ويخلي أنطاكية للبيزنطيين[١٩٩] ، فوافق ريموند على كل هذه الشروط بعد أن استشار الملك فولك الذي مال هو الآخر إلى هذا الحل منعاً لاستغلال المسلمين لهذا الشقاق في إلحاق الضرر بالبيزنطيين والصليبيين جميعاً ،فأقسم ريموند يمين الولاء للامبراطور ووافق على رفع علم الامبراطورية على قلعة أنطاكية، وانتهت المشكلة وانسحب الامبراطور للاستعداد للحملة المشتركة في العام التالي[٢٠٠] .

---

(197) Brehier : Vie et Mort de Byzanace, p. 324

(١٩٨) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ١٤٦،

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣

(١٩٩) وليم الصوري : نفس المصدر ج٣ ص ١٤٧

(200) Brehier : op. cit. p. 324 , عاشور : المرجع السابق ص ٥٨٤

غير أن الحملة المشتركة التي تزعمها الامبراطور سنة ١١٣٨م فشلت في تحقيق أهدافها، لتحفز زنكي للدفاع عن ممتلكاته وصمود شيزر ولجوء أميرها إلى الملاطفة كعادته من جهة، ولتقاعس الصليبيين خاصة ريموند دي بواتيه من جهة أخري خشية أن تتشكل الإمارة الجديدة فينتقل إليها وإلى خط المواجهة مع المسلمين ويخلي إمارته في أنطاكية، ولهذا فشلت الحملة وعاد الامبراطور إلى عاصمته دون أن يحقق غرضه[٢٠١].

راقب الملك فولك الانجوي محاولات الامبراطور هذه وشارك في الأحداث في الشمال رعاية لأمن الصليبيين وحرصاً على مصالحهم وفي نفس الوقت كان يرقب محاولات زنكي للاستيلاء على دمشق بعين الحذر، إذ حاصر زنكي المدينة مرتين: مرة في ديسمبر ١١٣٩م، والأخري في مايو سنة ١١٤٠م، فلجأ المهيمن على شؤنها، معين الدين أنر، للاستعانة به لرد زنكي عن المدينة، وأرسل إلى الملك في ذلك وتعهد بدفع مبلغ من المال ومعاونة الصليبيين في الاستيلاء على بانياس[٢٠٢]، فرحب فولك بهذا العرض وزحف على رأس قواته هادفا بالدرجة الأولى إلى إبعاد زنكى ومنعه من السيطرة على دمشق وإعاقة قيام الوحدة الاسلامية التى أوشكت على الحدوث بدخول دمشق في حوزة زنكى[٢٠٣]، حتى لا يصبح وجود زنكى قرب المملكة خطرا كبيرا على الكيان الصليبى، ويذكر وليم الصورى أن زنكى ما كاد يعلم بزحف الصليبيين للانضمام إلى الدماشقة " حتى بادر

---

(٢٠١) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٦٦ .أسامة بن منقذ: الاعتبار ص ١١٤،
Runciman : op. cit. II, p. 218

(٢٠٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٨٨ .
وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ١٧٥

(203) Grousset :op. cit. II, p.132, ابن العديم :زبدة الحلب ج٢ ص ٢٧٤

بالانسحاب...كراهية منه في محاربة جيشين فى وقت واحد...وعلى أرض معادية له"[٢٠٤] ،ثم أكمل معين الدين أنر تنفيذ بنود الإتفاقية مع الملك فولك فساعد الصليبيين في الاستيلاء على بانياس وحاصرها معهم وجد في حصارها وأمدهم بالاخشاب لصناعة برج لقتالها فاستسلمت المدينة سنة ١١٤٠م وتسلمها الصليبيون ثمنا لمساعدتهم أنر في الخلاص من حصار عماد الدين زنكى لدمشق[٢٠٥] .أى أن الملك فولك كان واعيا لنشاط زنكى مترقبا لتحفزاته حريصا على إبعاده عن دمشق متحمسا لرعاية مصالح الصليبيين ومنع ما يمكن أن يهددهم في ممتلكاتهم في بلاد الشام وأطراف العراق .وأخيرا توفى الملك فولك الأنجوى فى أواخر سنة ١١٤٣م وخلفه ابنه بلدوين الثالث الذى كان صبيا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، فولى تحت وصاية أمه[٢٠٦] .

---

(٢٠٤) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ١٧٧

(٢٠٥) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ١٨٤

(206) Stevenson : op. cit. pp. 146 - 7

يشير وليم الصوري إلى أن سبب وفاة الملك فولك أنه وقع على أم رأسه من فوق ظهر جواده أثناء مطاردة لأرنب بري في سهل عكا، وظل ثلاثة أيام في غيبوبة ثم توفي في اليوم العاشر من نوفمبر سنة ١١٤٣ م .

وليم الصوري : المصدر نفسه ج٣ ص ٢١٤ – ٢١٥

الفصل السادس

حياة الصليبيين ونظمهم في بلاد الشام



الفصل السادس

حياة الصليبيين ونظمهم في بلاد الشام

لم يكن في استطاعة الصليبيين إقامة دولة واحدة أو وحدة سياسية تجمع شملهم في الشرق، لأن الممتلكات التي نجحوا في الاستحواذ عليها، جاءت نتيجة لجهود جيش من الحجاج قدم من كافة البلاد المسيحية في الغرب تحت سيادة الكنيسة، وليس نتيجة لجهد بذله أمير واحد أو قائد واحد، يمكن له أن يصبح السيد الأعلى أو الرجل المهيمن على شئون الدولة الجديدة، بل اتخذ كل زعيم طريقه الخاص ونظامه الخاص[1] ، وتعدد القادة وبرزت الأطماع السياسية واختلفت الأهواء والمقاصد بينهم، ولهذا تعددت الكيانات وظهرت الوحدات السياسية أو الإمارات اللاتينية واحدة تلو الأخرى، فنشأت إمارة الرها في أقصى شمال العراق، ثم قامت إمارة أنطاكية في شمال الشام، ثم مملكة بيت المقدس في فلسطين، وأخيراً ظهرت إمارة طرابلس على الساحل الشامي[2] .

وليس من شك في أن مملكة بيت المقدس تبوأت مكانة خاصة بين هذه الكيانات واحتلت الصدارة بين الإمارات التي أقامها الصليبيون، على الرغم مما كان يظهر بين الحين والحين من طموحات الاستقلال لأمراء الإمارات الأخرى، وما كان يدعيه أمراء هذه الإمارات أحياناً من استقلال سياسي وسيادة فعلية في إماراتهم[3] ، تبوأت

---

(١) سميل : الحروب الصليبية ص ٢٤ (ترجمة سامي هاشم)

انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ص٧٦

(ترجمة أحمد غسان ونبيل الجيرودي)

(2) Holt : The Age of the Crusades, p. 24

(3) Runciman : op. cit. II , pp. 189 - 190

المملكة هذه الصدارة لما تمتعت به بيت المقدس من مكانة دينية وتاريخية، ولما كان يظهره القادة والأمراء من احترام وتعظيم لهذه المدينة المقدسة[٤] ، ولهذا اعترفت إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس بتبعيتها للمملكة، ومن ثم فرض الملك وصايته على تلك الإمارات في أوقات الأزمات، حين كان يخلو كرسي الأمير أو يليه حدث صغير السن أو حين يقع نزاع داخل الإمارة أو بين أميرين أو أكثر، وإن اعتبر ملوك بيت المقدس حق الوصاية على هذه الإمارات عبئاً ثقيلاً لا امتيازاً[٥] .

وإذ غدا لمملكة بيت المقدس الصدارة والأولوية على الكيانات الأخرى، فقد تمسك ملوكها برئاستهم وسيادتهم على بقية الأمراء في أنطاكية وطرابلس وساعدهم على ذلك أن الملوك الأوائل منهم، الذين تولوا حكم بيت المقدس، تمتعوا بصفات وسجايا أهلتهم لهذه الزعامة من حيث قوة الشخصية والحنكة السياسية والمقدرة الحربية، فضلاً عما عرف عنهم من رجاحة العقل واستقامة الخلق والتفاف قلوب القادة والنبلاء حولهم[٦] ، وتجلت مقدرة هؤلاء الملوك في حرصهم على الصالح الصليبي العام فيما لجأوا إليه من الإفادة من المناقشات والصراعات بين الترك والعرب وبين السنة والشيعة وبين حكام حلب ودمشق في الوقت الذي مارسوا فيه السيادة الإقطاعية على الإمارات الصليبية الأخرى[٧] .

ولقد نقل الصليبيون إلى منطقة الشرق الأدنى ما عرفوه في الغرب

(4) Grousset : L' Empire du Lerant, pp. 197 - 8

(٥) باركر : الحروب الصليبية ص ٥٣

(٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٩٦ ، ص ٣٤١، ج٣ ص ٨٩

(7) Stevenson : op. cit. p. 37

الأوربي من نظم إقطاعية ولهذا جاء ملك بيت المقدس على رأس النظام الإقطاعي واعتبر المملكة، إقطاعه الكبير، وإن اختلف النظام الإقطاعي في المملكة عما عرفه الأوربيون في الغرب قليلاً بحكم ظروف إنشاء هذه المملكة وبروز الأرستقراطية الإقطاعية واستقرارها قبل ظهور المملكة[٨]، إذ جرت القاعدة بأن لكل الحق في أن يتملك ما استولى عليه من قلعة أو مدينة بشرط أن يرفع علمه عليها وينزل بها حامية بينما كان الملك في إنجلترا مثلاً أول الفاتحين للبلاد ثم يقوم بتوزيع إقطاعاتها بين نبلائه، ولذلك تفوقت الأرستقراطية الإقطاعية في المملكة وأضحى ذلك من خصائص النظام الإقطاعي في بيت المقدس[٩]، وعلى الرغم من ذلك ضم إقطاع الملك في بيت المقدس ثلاث مدن كبيرة هي بيت المقدس وعكا ونابلس ثم أضيفت إليها الداروم وهي قلعة تقع جنوبي غزة، وتقع هذه المدن تحت حكم الملك مباشرة[١٠]، وبمضي الوقت وجد أربعة إقطاعات كبيرة عرفت بالبارونيات، يلي أمر كل منها أمير أشبه بالدوق في الغرب الأوربي هم أمير يافا وأمير الجليل وأمير صيدا وأمير شرق الأردن، كما وجد اثنى عشر إقطاعاً أقل مرتبة تسلمها أصحابها من الملك أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين[١١]، واعتبر هؤلاء جميعاً أفصالاً للملك وإن كانت صلة الملك بأتباع الأتباع صلة ضئيلة باستثناء عهد عموري الأول[١٢]، وكان هؤلاء يؤدون للملك التبعية الإقطاعية والولاء ويقدمون له الخدمة العسكرية وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية مع الأخذ في الاعتبار أن تقدم هذه الخدمة على مدار السنة

---

(٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٤٨

(٩) باركر : الحروب الصليبية ص ٥٤

(١٠) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٠١

(11) Camb. Med. Hist. V. 5 p.302، عاشور :الحركة الصليبيةج١ ص٤٧٩

(12) La Monte Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, pp. 20 - 4

وليس في وقت محدد مثلما كان يجري في الغرب الأوربي والتي جرى تحديدها بأربعين يوماً في السنة[١٣] ، وذلك بسبب ظروف المملكة وما كان يحيط بها من عداء وبسبب استمرار الحروب مع المسلمين وتواصلها ، وحرص الملك على أن يكون إقطاع كل أمير وحدة متماسكة سواء أكان قرية بزمامها أو عدة قرى متجاورة أو مدينة بأرباضها وأعمالها أو حصناً بمشتملاته تسهيلاً لهؤلاء الأتباع ، وضماناً لانتظام أمورهم للوفاء بالالتزامات الإقطاعية[١٤] .

وبالإضافة إلى ما كان يقدم لملك بيت المقدس من خدمة عسكرية من الأفصال لجأ الملك إلى استخدام أعداد من المحاربين لا يحوزون الإقطاعات أو الأراضي ، وإنما يتسلم كل منهم أربعة جياد ومبلغ مائتي بيزانط في السنة وكذلك خمسين مكيالاً من الذرة وعشرين من الشعير وعشرة مكاييل من الفول وخمسين مكيالاً من الزيت ، الأمر الذي حدا بالبعض وصف هذا النوع من النظام بأنه إقطاع عيني[١٥] ، ووصف البعض الآخر أصحاب هذا النظام بأنهم محاربون مأجورين يتناولون أجوراً أو مرتبات مما يتحصل لدى الملك من أموال الإقطاع[١٦] .

أما بالنسبة للموارد المالية التي اعتمد عليها الملك ، فلعل أكبر نقيصة أو عيب في المملكة ،تمثل في افتقارها إلى الأساس المالي ،إذ كان دخل الملك يتألف أولاً مما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة له ، ومن الرسوم المقررة على القوافل[١٧] أو ما يتحصل من الموانى من مكوس وما يجمع من الاحتكارات ورسوم القضايا والجزية المفروضة على

---

(١٣) باركر : المرجع السابق ص ٥٧ ، Holt : op. cit. p. 33

(14) Runciman : op. cit. II, pp. 298 - 99

(١٥) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٠٣

(16) La Monte : op. cit. pp. 118 - 120, p. 161 - 2 , pp.144 - 51

(17) Runciman : op. cit. II, p. 298

المسلمين واليهود وما يمكن أن يحصل عليه من الإتاوات التي يدفعها المسلمون المجاورون ومن حصيلة السلب والنهب من القرى والضياع والقوافل الإسلامية بطريق الإغارة ومن الضرائب التي كانت تفرض على السفن وعلى جموع الحجاج القادمين إلى بيت المقدس، فضلاً عما كان يرسله ملوك غرب أوربا من مساعدات وتبرعات على سبيل البدل عن الاشتراك في الحروب الصليبية [١٨].

غير أن نفقات الملك كانت باهظة، ابتلعت جانباً كبيراً من هذا الدخل إن لم يكن أغلبه، إذ كان عليه الوفاء بما هو مطلوب منه لمقطعيه ودفع الرواتب النقدية والنوعية أو العينية لمن لم يكن لهم قطائع من الأرض، وما تمتعت به الكنيسة من امتيازات[١٩]، جاءت على حساب موارد الملك، فامتلك رجال الدين الأراضي وحصلوا نصيبهم من عشر كل مورد من الموارد ، حتى ما يقع في الحرب من مغانم بالإضافة إلى أن موارد الكنيسة كانت معفاة مما هو مقرر من رسوم ويضاف إلى ذلك كله الأحياء الإيطالية التي كانت تتمتع بكثير من الإعفاءات وما حازه الداوية والاسبتارية من امتيازات باعتبارهم هيئات مستقلة. وهكذا لم يكن لمملكة بيت المقدس قوة مالية يمكن أن تستند إليها "فإن مساوئ الحكومة كانت أقوى من فضائل سائر الحكومات"[٢٠].

أما عن سلطة الملك في بيت المقدس، فقد كانت محدودة أمام سلطة الكنيسة وسطوة رجال الدين من ناحية وأمام رأى أمرائه والمحكمة العليا من ناحية أخرى . حقيقة حاز ملك بيت المقدس الصدارة والرئاسة على الإمارات اللاتينية الأخري وتبوأ مكانة عالية بالنسبة لأمراء تلك الإمارات، إلا أنه كان محدود السلطة في بيت

(١٨) باركر : المرجع السابق ص ٦٥

(19) **Runciman** : op. cit. II, p. 299

(٢٠) باركر : نفسه ص ٦٧

المقدس، فلا ينبغي أن يرفع حاكم علماني رأسه في مدينة المسيح[٢١]، وربما لهذا أبت الكنيسة أن تسهم في ازدياد قوة الملك أمام النبلاء الذين طغا سلطانهم عليه أحياناً، بل إن وثائق محكمة بيت المقدس تتحدث عن البطريق والملك على أنهما قسيمان في حكم المدينة المقدسة، فضلاً عن أن سلوك الجماعات الدينية كالداوية والاسبتارية نحو الملك فإنه جرى باعتبارهم أمراء مستقلين[٢٢].

ومن أهم خصائص مملكة بيت المقدس اللاتينية ما أقامته من نظام القضاء، إذ قامت فيها محكمتان مركزيتان تمارسان القضاء وهما: المحكمة العليا الخاصة بالنبلاء والمحكمة الوطنية لسائر الفرنجة، وقد تألفت هاتان المحكمتان لتقاضي الطبقتين الأساسيتين في المجتمع وهما طبقة النبلاء وطبقة سائر الفرنجة من غير النبلاء بشرط أن يكونوا أحراراً[٢٣]. فتألفت المحكمة العليا من أفصال الملك المباشرين، وهم كبار الأمراء، فكأنها كانت محكمة بارونات تفصل في القضايا التي تتعلق بالنزاع بين الملك وأمرائه كالخدمة العسكرية فضلاً عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم والبعض الآخر من خلافات، وضمت هذه المحكمة ممثلين عن الكنيسة وممثلين للجاليات الأجنبية ولهيئات الفرسان الداوية والاسبتارية، ثم ما لبثت أن اتسع نشاطها واختصاصاتها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لابد من موافقتها على أي قانون أو تشريع جديد في المملكة وأصبح لها رأى مسموع في توجيه السياسة العامة للمملكة[٢٤]. أما المحكمة الوطنية فقد تألفت

---

(٢١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص ٤٨٠
Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 300

(٢٢) باركر: الحروب الصليبية ص ٦٦ – ٦٧

(23) La Monte : op. cit. pp. 105 - 106

(٢٤) عاشور: المرجع السابق ج١ ص ٤٨١،
Runciman : op. cit. II , pp. 300 - 301

من اثنى عشر مشرعاً يرشحهم الملك في أغلب الظن برئاسة الفيوكنت الذي اشتهر بدرايته بالشئون المالية والقضائية، وتتضمن اختصاصاتها النظر في كل ما يجري بين أهل المدن من معاملات وعهود حتى القضايا الجنائية لأهل المدن، ولكل من المحكمة العليا والمحكمة الوطنية مجموعة قوانين ارتكزت على العادات والتقاليد المرعية حتى تلك التي لم يجر تدوينها[٢٥] ، وفي كل مدينة من المدن الكبرى الخاضعة للصليبيين وجدت محكمة وطنية يتولى رئاستها فيكونت المدينة يساعده اثنا عشر محلفاً يختارهم أمير المدينة، كما وجد نوع آخر من المحاكم له صفة التخصص إلى حد ما في المواني البحرية ويختص بشئون هذه المواني والسفن، وكذلك محاكم اتسمت بطابع تجاري في المدينة ذات النشاط التجاري أو المدن التي كان للتجار الإيطاليين فيها أحياء تجارية [٢٦] ، ويتولى رئاسة هذه المحاكم التخصصية القناصل أو وكلائهم، وتشير الدلائل إلى أن هذه الأحياء الإيطالية قد عاشت بعد انهيار مملكة بيت المقدس ، وظلت قائمة في عهد الأمراء المسلمين، وذلك بفضل ما جرى من خضوعها لقوانين بلادها الأصلية[٢٧] ، وكان للكنيسة محاكمها المستقلة اتسعت دائرة نفوذها في الشرق عما كان معروفاً عنها في الغرب، وتفصل في كل ما يتعلق بأملاك رجال الدين وكذا قضايا النزاع والتخاصم بين الرجل وزوجته[٢٨] .

وقد قام بلاط الملك وجهازه الإداري على النمط الموجود في الغرب الأوربي، فأشرف عليه عدد من كبار الموظفين منهم السنشال Seneschal ، الذي وكل إليه الإشراف على الخزانة والشئون المالية،

(25) Barker : The Crusades , p. 42
(26) La Monte : op. cit. p. 108 - 9

(٢٧) باركر : نفسه ص ٦٤ – ٦٥
(٢٨) باركر : نفسه ص ٦٥

ومنهم أيضاً الكونستابل Constable ، وهو الذي وكل إليه الإشراف على الجيش وكل ما يختص بتنظيماته وإمداداته، أى أنه المشرف على الجيش تحت قيادة الملك يساعده المارشال Marshal ، ومنهم أيضاً التشامبرلين Chamberlian أى الحاجب[٢٩] ، وهو الذي وكل إليه الإشراف على دخل الملك ومصروفاته، وعلى القصر الملكي، وبمرور الوقت زاد النشاط الإدارى في المملكة واتسعت اختصاصات كل هؤلاء ورسخت نظم المملكة[٣٠] .وإن مالت إلى محاكاة نظم المسلمين والتشبه بالنظم الإدارية في الشرق .

أما فيما يختص بالإمارات اللاتينية الأخري، فقد حاكت المملكة في نظمها القضائية والإدارية وإن اختلفت إلى حد ما في بعض الأمور بحكم الظروف المحلية وطبيعة السكان والعناصر التي تتألف منها كل إمارة[٣١] . فأدى قرب إمارة الرها من مراكز التأثر البيزنطي والتركي وسيادة العنصر الأرمني على سكانها إلى اعتمادها على عدد كبير من الموظفين الأرمن المتأثرين بالتيارات البيزنطية والنظم البيزنطية، فضلاً عن الأخذ في الاعتبار بعدها عن بقية الكيانات الصليبية في بلاد الشام وتطرف موقعها فرض نوعاً من الاستقلال والمركزية وأوقف التطور الدستوري فيها[٣٢] ، لأنها كانت محاطة باتجاهات عدائية متعددة، فلم تطابق المملكة، في كل نظمها، بل مالت إلى مواءمة نفسها مع، الظروف الداخلية والمحيطة. أما في إمارة أنطاكية فغلبت عليها روح النورمان ودأبهم وميلهم إلى المركزية والاستبداد، على الرغم مما عرف به النورمان من مهارة تنظيمية وحضارية في المجتمعات التي أقاموها

(29) Holt : op. cit. p. 145

(30) Runciman : op. cit. II. p. 303 - 4

(31) Camb. Med. Hist Vol. 5 p. 304

(٣٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٨٣

في كل من جنوب إيطاليا وإنجلترا من قبل[٣٣] . فنزع النورمان في أنطاكية إلى كبت المعارضة من كبار النبلاء، والوقوف بصلابة تجاه الأطماع البيزنطية، على الرغم من تغلغل التأثير البيزنطي في نظم الإمارة خاصة يما يتعلق ببعض التشريعات والنظم الضرائبية[٣٤] ، بينما أدت الظروف الخاصة بإمارة طرابلس على الساحل الشامي إلى أخذ الإمارة بما يناسبها من تنظيمات المملكة من ناحية وما يتلاءم مع ظروفها كميناء كبير من ناحية أخرى، خاصة وأن نشاطها لم يقتصر على ما ساد في الكيانات الأخرى من أنشطة، وإنما زاد عليه كونها ميناءً كبيراً تألف معظم توابعها من مواني صغيرة وقلاع على الساحل الشامي أيضاً، ولهذا أنفقت هذه الإمارة ما يلائم ظروفها من ناحية وحاكت المملكة في بعض نظمها وتشريعاتها من ناحية أخرى[٣٥] .

أما عن الكنيسة فقد تمتعت بمكانة هامة في ذلك المجتمع باعتبار بيت المقدس مدينة المسيح والمدينة التي ينبغي أن يعلو فيها الدين، وكان يمكن أن تقوم حكومة دينية في بيت المقدس منذ البداية لولا وفاة إدهيمار المندوب البابوى في الحملة الصليبية الأولى، وعدم قبول الأمراء لأرنولف لما شاع من سوء سيرته، وما وصفه به وليم الصوري من انحراف في السلوك[٣٦] ، ثم لاستبداد دامبرت وسوء مسلكه، ويبدو أن البابوية ذاتها لم تتحمس لقيام حكومة ثيوقراطية في المدينة المقدسة ولها أسبابها في ذلك ، ربما خوفاً من أن يعلو بطريرق بيت المقدس وحاكمها على بابا روما باعتبار الأول خليفة المسيح في

(33) Haskins : The Normans in European Hist. pp. 12 - 13

(34) Runciman : op. cit. II, pp. 306 - 7

(35) Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 304

(٣٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٤٤ – ١٤٥

مدينة المسيح المقدسة ، بينما قنع الثاني بأنه خليفة بطرس ورأس كنيسته في روما ، ولهذا لم تشجع البابوية قيام حاكم ديني في بيت المقدس. وعلى الرغم من ذلك " تحدثت وثائق محكمة بيت المقدس عن البطريرق والملك على أنهما قسيمان في حكم المدينة المقدسة[٣٧] ، وربحت الكنيسة كثيراً ولم تفقد سوى القليل، فقد تمتع رجال الدين بامتيازات كثيرة، فامتلكوا الأراضي مع أنهم رفضوا الإسهام في الدفاع عن المملكة ، وأصروا على تقاضي نصيبهم كاملاً من العشور عن كل مورد من الموارد ، حتى ما يقع في الحرب من غنائم، وأعفيت أراضي الكنيسة من كل ما هو مقرر على الأملاك من رسوم، فضلاً عما قدم إلى رجال الدين من الهبات والهدايا التي أظهروا جشعاً ونهماً كبيراً في قبولها ، فاكتظت أديرتهم وكنائسهم ببلاد الشام بثرواتها واتسعت أملاك هذه الأديرة والكنائس وكثرت الأموال فيها ، وضمت أملاكاً في جهات أخرى خارج بلاد الشام وفي الغرب الأوربي ذاته[٣٨] .

أما بالنسبة للتنظيم الكنسي في بلاد الشام، فقد وجد كرسيان كبيران الأول في بيت المقدس والثاني في أنطاكية ، والمعروف أن هذين الكرسيين استقرت لهما المكانة الدينية الهامة منذ زمن طويل، وحتى قبل الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام وفلسطين[٣٩] ، واستمرت مكانتهما في عصر الحروب الصليبية ، على الرغم من أن بطريرق بيت المقدس لم ينجح في الحصول على زعامة المملكة أمام القيادة العلمانية ، وضعف مركزه إلى حد ما بعد فشل دامبرت البيزي في صراعه مع القادة الصليبيين[٤٠] ، وقنع من جاء بعده بمسئولياته الدينية والروحية دون

---

(٣٧) باركر : الحروب الصليبية ص ٦٦

(٣٨) عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٨٤ — ٤٨٥، باركر : نفسه ص ٦٦ — ٦٧

(٣٩) كانتور : التاريخ الوسيط ص ٦٨ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم)

(٤٠) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٠٧ ،
وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢

الزعامة الدينية. وعلى هذا كان الملك هو الذي يختار أحد اثنين يجري انتخابهما على يد رجال الدين ليلي المنصب، فأضاف ذلك إلى هيمنة الملك على شئون الكنيسة[٤١]، ولهذا كان البطارقة باستثناء القليلين منهم أوفياء للملوك ومن المؤيدين لهم[٤٢].

وكان يتبع بطريرق بيت المقدس خمسة رؤساء أساقفة في كل من: صور وقيسارية والناصرة والكرك وبصري، ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة في جهات متفرقة من المملكة يختص كل منهم برئاسة منطقة وعدد من القساوسة في الكنائس الصغيرة، ليكمل التنظيم الكنسي في كل أنحاء المملكة. أما الكرسي الآخر في أنطاكية فكانت له الرئاسة في الشمال، إذ كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس والرها وانطرسوس وجبلة والبارة والمصيصة وطرسوس، أى تتبعه كنائس الإمارات الثلاث في الشمال في أنطاكية والرها وطرابلس[٤٣].

وارتبط بموضوع الكنيسة أيضاً نشاط الجماعات الدينية أو هيئات الفرسان، خاصة الاسبتارية والداوية، فقد ازداد نفوذ هذه الجماعات في القرن الثاني عشر، واتسعت أملاكهم وتضخمت ثرواتهم بسبب مشاركتهم في الحروب والغزوات وما حققوه من سلب ونهب فضلاً عما حازوه عن طريق الهبات والهدايا والأوقاف من ثروات[٤٤]، وإذا كانت هذه الجماعات قد بدأت بحياة الزهد والتقشف والتعبد، فقد حازت بالحرب والفروسية مزايا كبيرة وأضافت إلى قوة الصليبيين كثيراً، لأن هؤلاء الفرسان جمعوا بين التعبد والحروب وبين الزهد والفروسية فأظهروا بسالة وشجاعة وصبراً وثباتاً في الحرب ميزهم عن

---

(41) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 216

(٤٢) باركر : المرجع السابق ص ٦٦ – ٦٧

(43) Runciman : op. cit. II, p. 311 - 12

(٤٤) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ٣٤٦

سائر فرسان الصليبيين وجعل لجهودهم النصيب الأوفر في الدفاع عن الكيان الصليبي[٤٥] ، حتى أن المسلمين كانوا يتيهون فخراً وزهواً إن هم نجحوا في الإجهاز أو أسر عدد من فرسان هذه الهيئات، تأكيداً على بسالة هؤلاء وإقدامهم وشجاعتهم في الحروب ضد المسلمين، وإذا أضفنا إلى هذا الدور العسكري ما قدمته هذه الجماعات من خدمات اجتماعية لآلاف الحجاج والقادمين إلى المملكة، في كل عام ورعايتهم طبياً ومادياً ، بالإضافة إلى ما كانوا يقومون به من توزيع الصدقات على الفقراء والمعوزين من الصليبيين[٤٦] ، وتقديم العون لهم عند الملمات وعند حدوث الكوارث الاقتصادية والطبيعية، أدركنا أن فرسان الداوية والاسبتارية أسهموا بنصيب كبير في دعم الكيان الصليبي وإطالة عمره في بلاد الشام وفلسطين، فضلاً عن دأبهم في الدفاع عن طرق الحجاج وحراسة حدود المملكة والاهتمام بالحصون والقلاع الهامة في أطراف المملكة والإمارات اللاتينية في الشرق[٤٧] .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان استقلال هذه الهيئات عن الملك وتبعيتها مباشرة للبابوية جعلها لا تدين لغير البابا بالولاء، وربما أغراها هذا فضلاً عما كان لها من ثروات بمحاولة التدخل في الشئون الدينية بل والسياسية أيضاً، فخرجوا أحياناً عن طاعة بطريرق بيت المقدس، وأصبحوا مصدر متاعب شديدة للسلطة الدينية في المملكة والسياسية أيضاً[٤٨] ،بل إن ما جرى بين هاتين الجماعتين من

---

(45) King : The Knights Hospitallers, pp. 31 - 32
Groussrt : op. cit. I, p. 542
(46) King : op. cit. pp. 64 - 7
(47) Runciman : op. cit. II, p. 312
Jay Williams : Knights of the Crusades, p. 56 - 65

(٤٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤٧

خصومات وشجار أحيانا تسبب في منع القيام بأى عمل فعال تجاه الأعداء. وشغل هذه الجماعات عن أبرز مهامها بل أغراها استقلالها عن الملك بانتهاج سياسة خاصة أحيانا تجاه المسلمين، بل وعقد المحالفات والاتفاقيات معهم دون الالتزام كثيرا بالسياسة العامة أو السياسة الصليبية بصفة عامة في الشرق، فسببوا للمملكة في بعض الأحيان كثيراً من المتاعب[٤٩].

أما عن حياة الصليبيين الاقتصادية ونشاطهم الاقتصادي، فقد ارتكز على الزراعة والرعي والصناعة فضلاً عن التجارة، فقد ضمت ممتلكاتهم التي اغتصبوها مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة التي قامت عليها بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون والخضراوات حول المدن. واصلوا فيها إنتاج الموالح والزيتون وزرعوا قصب السكر الذي لم يكونوا قد عرفوه من قبل فشرعوا في تصدير حاصلاتهم إلى الغرب مثل الموالح والزيتون وكذلك السكر الذي تعلموا استخراجه وأقاموا له المصانع في بعض موانيهم مثل عكا وصور وحرصوا على تصدير كميات وفيرة منه إلى الغرب[٥٠]، كما هيأت لهم سفوح الجبال والمرتفعات والمروج مراعي طيبة، فمثلت الزراعة والرعي جانباً هاماً من نشاطهم الاقتصادي في بلاد الشام، كما اهتم الصليبيون بالنشاط الصناعي، وما كانت تنتجه هذه البلاد من الصناعات مثل الزجاج الذي اشتهرت به البلاد منذ زمن طويل والأقمشة الحريرية والتيلية والمخمل. فضلاً عن الملابس المتنوعة التي صدروا جانباً منها إلى الغرب، بالإضافة إلى الزجاج الذي برع اليهود في انتاجه وتصديره إلى الغرب[٥١]

---

(٤٩) باركر الحروب الصليبية ص ٦٧

(50) Heyd op cit II. pp 680 - 6

(٥١) سعيد عاشور الحركة الصليبية ج١ ص ٤٨٨

وبالنسبة للنشاط التجاري فالمعروف أن الجاليات التجارية للمدن الإيطالية، خاصة البنادقة والبيازنة والجنوية قد استأثروا بنصيب الأسد في هذا النشاط، نظراً لأنهم تمتعوا بامتلاك أحياء بأكملها في كثير من المدن الصليبية مارسوا فيها تجارتهم وأقاموا الفنادق ومنحوا كثيراً من الامتيازات خاصة في الموانى الصليبية[٥٢] ، واستأثروا بالعائد التجاري فيها، ولهذا عاشت هذه الأحياء الإيطالية بعد انهيار المملكة والكيانات الصليبية وظلت قائمة في عهد الأمراء المسلمين كما سبق أن أشرنا – بفضل خضوعها لقوانين بلادها الأصلية سواء أكان ذلك في مجال التجارة أو في الحكم[٥٣] . وعلى الرغم من هذا كان الحافز التجاري للصليبيين عظيماً لأنه كان من أهم حوافز الحروب الصليبية، وهو دفع فئة كبيرة العدد للاشتراك في تلك الحروب لتصبح هذه الفئة بالغة الثراء بسبب ما أخذت تمارسه من التجارة الشرقية[٥٤] ، وأتيح لملوك بيت المقدس وأمراء الصليبيين أن يستخلصوا لأنفسهم عائد الرسوم التي فرضوها على التجارة المارة ببلادهم، أي القادمة من بلاد الشرق الأقصى عن طريق الخليج ثم دمشق ثم إلى عكا أو غيرها من الموانى الصليبية في طريقها إلى الغرب الأوربي، بالإضافة إلى ما فرضوه على السلع والبضائع الواردة إلى بلادهم أو المصدرة منها، وشكل ذلك جانباً من موارد الصليبيين ونشاطهم في بلاد الشام[٥٥] .

واحتلت بعض الموانى على الساحل الشامي، أهمية خاصة في تجارة الصليبيين مثل عكا وصور واللاذقية والسويدية – ميناء

---

(52) Stevenson : op. cit. p. 55
Heyd : op. cit. I, p. 148

(٥٣) باركر : المرجع السابق ص ٦٤ – ٦٥

(٥٤) باركر : نفسه ص ٦٢

(55) Holt : op. cit. p. 34

أنطاكية– وبرزت عكا بالذات بين هذه الموانى نظراً لأنها غدت ملتقى التجار من كل مكان، فاستقبلت السفن من كل اتجاه، وانتهت إليها طرق تجارية هامة[٥٦] ، فضلاً عن أن الحجاج القادمين من الغرب كانوا يفضلون النزول بها ليتجهوا منها إلى بيت المقدس مباشرة، بينما اشتهرت صور باستقبالها السفن الضخمة لاتساع مينائها واستعدادها لاستقبال مثل هذه السفن الكبيرة، في حين جذبت موانى شمال الشام مثل اللاذقية والسويدية كثيراً من القوافل التجارية والسفن الهامة لتنافس عكا في هذا المجال[٥٧] .

وقد حرص المستوطنون من الفرنج أن تجري بينهم وبين المسلمين علاقات تجارية ومصالح مشتركة ولهذا فضل الكثيرون منهم لاسيما من الأجيال الأولى استمرار هذا التعاون مع جيرانهم المسلمين ولم يتحمسوا كثيراً للإضرار بهذه العلاقات، ولم يكن في وسعهم أن يسهموا كثيراً في الشهوة الجامحة التي اندفع بها الصليبيون الجدد لمهاجمة المسلمين، لأن المشتغلين بالتجارة جنوا الأرباح الوفيرة من اتصالهم بالمسلمين وتبادل المصالح معهم، ما جعلهم يحرصون على توفير الفرص للمتاجرة الهادئة ما أمكن ذلك. ومنع كل مغامرة حربية يمكن أم تضر بهذه المصالح[٥٨] ،فالإمارات الصليبية أقامها مغامرون حرصوا على الربح والكسب ولم تفقد هذه الغريزة الفطرية حدتها بمضي الزمن، وإن أدى الحرص على الكسب غير المشروع أحياناً إلى إفساد دماء الفرنج[٥٩] .

ولقد تباينت النقود والعملات المتداولة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية وتنوعت بتنوع العناصر والأجناس التي جمعتها

---

(56) Benvenisti : The Crusaders in the Holy Land, pp. 77 - 8

(57) Grousset : L'Empire du Levant , pp. 319 - 320

(٥٨) باركر : المرجع السابق ص ٦٩

(٥٩) باركر : نفسه ص ٧١

الكيانات اللاتينية في الشرق، خاصة في بيت المقدس فلاشك أنه ظلت العملات البيزنطية التي كانت متداولة في بلاد الشـام وأطراف العـراق المكانة الخاصة[٦٠]، منذ أن حظيت هذه العملات باهتمام التجار منـذ زمـن طويـل حتـى قبـل أن يسـك المسلمون عملتهـم بـدءاً بالدينـارات الدمشقية على عهد الخليفـة عبـد الملـك بـن مـروان[٦١]، ثـم تتـابعت العملات الإسلامية التي غطى اسـتخدامها أركـان المنطقـة قبـل وأثنـاء الحروب الصليبية، وظل لهـا السـيادة بحكـم المسـاحات التـي كـانت بأيدي المسلمين ومن كان يسكنها منهـم بالمقارنـة بالكيانـات اللاتينيـة المبعثرة والتي يتحكم فيها أقليات لاتينية، ثـم حمـل الصليبيـون ومـن كان بعدهم من الغرب عملات كثيرة إلى الشرق، وتنوعت هذه العملات بتنـوع القـادمين مـن الحجـاج وتنـوع العنـاصر القادمـــة إلى الأراضـــي المقدسـة[٦٢]، ثـم سـكت ببـلاد الشـام عملـة خاصـة عرفـت بالدينـار الصوري لتستخدم في التجارة مع المسلمين وكـانت عملـة ذهبيـة تشـبه البيزنط Bezent وعليها بعض النقوش كانت عادة آيات قرآنية، فـأصبح الدينار الصوري أكثر العمـلات انتشـاراً في بـلاد الشـام، وكـان لايـزال مستخدماً عند قدوم القديس لويس إلى الأراضي المقدسة قـرب منتصـف القرن الثالث عشر، ولكن البابا إنوسنت الرابع حرم اسـتعماله لـولا أن أوصى الملك لويس التاسع بأن تحـل عبـارات مسـيحية محـل الآيـات القرآنية فكتبت هذه بالعربية حتى يقبل المسلمون التعامل به[٦٣]، ثـم قام الصليبيون بسك عملات في الشرق إذ يحدثنا بعض المتخصصـين في هذا المجال أنه جرى إعادة سـك عملـة كبـيرة مـن الفضـة كـانت قـد

---

(60) Hobson: Coins and Coin collecting , pp. 29 - 30

(٦١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٩ ، العدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٨

(٦٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٤٩٠

(٦٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٢٤ – ١٢٥

سكت في فرنسا خلال حكم الملك فيليب الثالث ١٢٧٠ - ١٢٨٥م ، قاموا بإعادة سكها في طرابلس وتداولها الصليبيون هناك(٦٤) ، وأضيفت إلى ما كان متداولاً من عملات أخرى .

وكان يمكن للملوك بيت المقدس وأمراء الصليبيين أن ينعموا بالرخاء الوافر كنتيجة حتمية لتنوع هذا النشاط خاصة النشاط التجاري، وبسبب ما فرضوه من ضرائب ومكوس وما مارسوه من احتكارات، ولكن الحقيقة انتقص من هذا الرواج ما التزم الملوك بتقديمه للكنائس والأديرة وللجماعات والهيئات الدينية من امتيازات وإعفاءات كثيرة(٦٥) ، وما حرصوا على تقديمه من هبات وأعطيات لهذه المؤسسات حتى اكتظت بثرواتها وممتلكاتها من الأموال والنفائس والأراضي التي مكنت رجال الدين من العيش في حياة الترف والتنعم بهذا الرخاء فإذا أضيف لذلك ما نهجته هيئات الفرسان من نهج استقلالي عن الملك والولاء مباشرة للبابوية أدركنا أن هذه الجماعات تصرفت كأنها دولة داخل الدولة(٦٦) . وعلى الرغم من هذا الخلل في البناء الاقتصادي للمملكة والإمارات اللاتينية إلا أن كثيراً من المؤرخين يعتقدون أن ملوك بيت المقدس وأمراء الصليبيين كانوا أوفر حظاً وأعظم ثراء من نظرائهم ملوك الغرب الأوربي في تلك الآونة مقارنة بما كان يميز هؤلاء في الشرق من يسر ورخاء وما ساد حياتهم من رفاهية ودعة(٦٧) .

أما عن الحياة الاجتماعية، فقد أسهب المؤرخون في الحديث عنها وتناولتها الأقلام كثيراً، لأن وجود الصليبيين في بلاد الشام

---

(64) Hobson : op. cit. pp. 39 - 40

(65) Barker : op. cit. p. 46

(٦٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٤٧

(٦٧) عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٤٩١

وحياتهم بين ظهراني المسلمين كان أمراً غريباً بالنسبة لعقلية العصور الوسطى، كما كان تجربة جديدة لسكان الشرق الأدنى في ذلك الوقت، خاصة وقد أقام الصليبيون كيانات صغيرة متناثرة بين جموع كبيرة من الرعايا المسلمين من ناحية والمسيحيين الشرقيين من ناحية أخرى[٦٨]، وبطبيعة الحال كانت أعداد الصليبيين قليلة مقارنة برعاياهم في المملكة وفي الإمارات اللاتينية الأخرى، إن لم يكن ذلك بسبب الحروب التي طحنت الكثيرين منهم، فبسبب عودة الغالبية العظمى منهم إلى الغرب بعد نجاح الحملة الأولى في تأسيس المملكة، وإقامة الإمارات اللاتينية الأخرى في الشمال، ولهذا ظل الصليبيون أقلية ضئيلة وسط أغلبية من رعاياهم المسيحيين الشرقيين والمسلمين أيضاً[٦٩].

حقيقة نجح الصليبيون في السيطرة على جموع السكان بحكم ما غدا لهم من هيمنة سياسية وعسكرية، وما كانوا يمثلونه من سلطة أرستقراطية حاكمة[٧٠]، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لبقاء هذه الأقلية الحاكمة محتفظة بأصولها الغربية وعاداتها وتقاليدها وسط هذا المحيط من السكان الشرقيين[٧١]، الذين اضطروا لمواءمة أنفسهم معهم والتأثر بهم في كل مجال، ولم تكن النماذج الغربية لتستطيع الصمود طويلاً، بل كان عليها أن تتشكل من جديد في بيئتها الجديدة في الشرق وفقاً للظروف الجديدة والنماذج المحيطة[٧٢]، ويأتي النبلاء والفرسان على قمة الهرم السكاني والبناء الاجتماعي عند الصليبيين، وكانوا قلة في

(٦٨) سميل : الحروب الصليبية ص ٤٥ (ترجمة سامي هاشم)

(69) Benvenisti : op. cit. p. 17

(٧٠) سميل : الحروب الصليبية ص ٥٨

(71) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 287

(72) Rey : Les colonies Franques , PP. 4 - 14

المملكة، وفي الإمـارات الصليبيـة الأخـرى لأنهـم كـانوا وقـود الحـرب المتواصلة مع المسلمين مع قلة أعداد القادمين من الغرب الذين يفضلـون البقاء في الشرق على العودة إلى الغرب . حقيقة لم ينقطع ورود الحجاج ومنهم بعض الفرسان والنبلاء إلى بلاد الشام والأراضي المقدسـة، ولكـن الكثيرين منهم كانوا يفضلون العودة إلى الغرب بسبب أخطار الحـروب من ناحية واختلاف الظروف المناخية والطبيعية من ناحية أخرى، فلم ينضم إلى أعداد الفرنج في الشرق سوى أعـداد بالغـة القلـة[٧٣] ويذهـب بعض المؤرخين إلى القول بأن سكان المملكة لم يرحبوا كثـيراً بمـن كـان يأتي من الغرب لمساعدتهم، إذ ساور بارونات بيـت المقـدس الشك في أن هؤلاء إنما جاءوا لتحقيق أطماع خفية ولأن يقيموا لأنفسهم إمـارات جديدة على الرغم من أن بعضهم انحلـت أخلاقهـم وفسـدت طبـائعهم وسوف يزيدون ما هو سائد من فساد الصليبيين[٧٤] ، ولهذا ظل النبلاء والفرسان قلة في ذلك المجتمع وظل فوشـيه الشـارتري ووليـم الصـوري وغيرهم من المؤرخين يتندرون بضآلة أعدادهم ويعجبون في نفس الوقـت بما كانوا يحققونه من انتصارات، فلم تزد أعدادهم في كثير من الأحيان عن بضع مئات، إلا إذا اجتمعت قـوات المملكـة مـع قـوات الإمـارات الأخرى لتصل أعداد الفرسان بضعة آلاف وهي مع ذلك قليلة بالمقارنـة ببقيـة طبقـات المجتمـع الصليـبي في الشـرق[٧٥] ، وجمعـت حيـاة البارونات بين ما اشتهرت به الفروسية الغربيـة مـن الإسـراف والبـذخ وبين أسباب الترف في الشرق[٧٦] .

---

(٧٣) باركر : الحروب الصليبية ص ٦٨

(74) Barker : op. cit. p. 48 , n. I

(٧٥) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١١٢

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٢٤

(٧٦) باركر : المرجع السابق ص ٦٩

وثمة طبقة أخرى من طبقات هذا المجتمع هي طبقة المحاربين من عامة الصليبيين الذين لا ينتمون للطبقة الأولى من النبلاء والفرسان، وألف هؤلاء جموع المشاة في الجيش الصليبي وكانت أعدادهم أكثر من أعداد الطبقة الأولى فكثيراً ما أشار المؤرخون المعاصرون إلى أن أعدادهم ربما جاءت ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف طبقة النبلاء والفرسان[٧٧]، وإن جرت الخسائر فيهم أكثر كثيراً مما كان يجري من خسائر بين الفرسان، فكان معظمهم وقود المعارك الطاحنة، وخاصة تلك التي كان يمنى فيها الصليبيون بالهزائم، بينما لا ينجو سوى سراع الفرسان[٧٨]، وهذه الطبقة هي التي تزاوج أفرادها من المسيحيين الشرقيين خاصة الأرمن. ويبدو أن الأرمن بالذات كانوا أكثر الفئات قرباً من الفرنجة من أى من المسيحيين الشرقيين الآخرين، لأنهم كانوا شعباً مولعاً بالحرب وعملوا كجنود وفرسان في الجيوش الصليبية، وقدموا الأدلة البارزة على ولائهم واحترامهم الشديد لحكامهم اللاتين وشكلوا الجانب الأوفر عدداً والأكثر نفوذاً في كونتيه الرها وفي بعض أجزاء من إمارة أنطاكية، بعد أن كانوا قد هاجروا من بلادهم قرب منتصف القرن الحادي عشر[٧٩]، ثم شجع الصليبيون نزوحهم إلى الكيانات الصليبية وقلدوهم بعض الوظائف .

وأدى تزاوج عامة المحاربين الصليبيين من أرمينيات إلى ظهور جيل جديد أو طبقة جديدة في المجتمع الصليبي قرب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، هي طبقة الأفراخ، التي أخذت تحل بمرور الوقت محل الطبقة السابقة، وتقوم بدورها في خدمة المجتمع اللاتيني

---

(٧٧) وليم الصوري : المصدر السابق ج٢ ص ١٨٠

(٧٨) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٨٦

(79) Grousset : L'Empire du Levant , p. 157 - 8 , p. 173
Cahen : La Syeie du Nord , p. 184

بالشرق ولتمثل الطبقة الجديدة بين فئات المجتمع الصليبي في بلاد الشام[٨٠] . وهناك الطبقة المحلية التي جمعت خليطاً من الأجناس والديانات منهم الأرمن والموارنة والسريان واليعاقبة والمونوفيزتيين وكذلك البيزنطيين الإغريق، ونال هؤلاء احتقار الفرنج واستهجانهم، فعهدوا إليهم بأقل الأعمال شأناً وتلك التي أنفوا هم من القيام بها، وارتكزت كراهيتهم لهذه الطبقة على الخلاف الديني والمذهبي من ناحية وعلى أنهم خضعوا للمسلمين فترات طويلة من ناحية أخرى، ونال البيزنطيون الجانب الأكبر من كراهية اللاتين لطول العداء وسوء النوايا بين الجانبين والنزاع المرير حول الحقوق البيزنطية في بعض الأراضي التي استولى عليها الصليبيون[٨١] . ولكن الصليبيين كانوا مضطرين للتعامل مع هذه الطبقة لسد النقص الناجم عن فرار كثير من المسلمين القاطنين بأراضي المملكة والإمارات الأخرى، ولأن بعض فئات هذه الطبقة كانوا بارعين في أعمال كثيرة ومهن احتاج إليها الصليبيون، فضلاً عن مشاركة بعضهم في الحروب كمشاة، وإن كانت هذه المشاركة أقل من مشاركة الأرمن بالذات وعددهم كان عادة ضئيلاً بالنسبة لحجم المجتمع السوري بأكمله[٨٢] .

أما التجار الإيطاليون، فقد مثلوا جانباً من سكان المدن الساحلية بصفة خاصة لاسيما تلك التي حاز الجنوية والبنادقة والبيازنة امتيازات فيها، بحكم مساعدات أساطيل المدن الإيطالية للصليبيين في مشروعاتهم العسكرية في بلاد الشام، وليس من شك في أن هذه الطبقة لم تكن من صلب طبقات المجتمع الصليبي، نظراً لتمتع أفرادها بالاستقلال التام عن الفرنج وخضوعها مباشرة لقوانين بلادهم الأصلية

---

(80) Grousset : op. cit. pp. 315 - 16

(81) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 110

(٨٢) سميل : المرجع السابق ص ٥٣

سواء أكان ذلك في التجارة أم في الحكم(٨٣) ، فكان لهم لغتهم الخاصة وعاداتهم وتقاليدهم، وحرصوا على عدم الاختلاط بغيرهم إلا في أضيق الحدود وحسب متطلبات التعامل التجاري وما تفرضه المعاملات التجارية والمالية على الرغم من وجود تجار في تلك الموانئ من بلاد أخرى من الغرب الأوربي، تمتعوا أيضاً بما تمتع به التجار الإيطاليون من الاستقلال في نطاق دولة الفرنجة في الشرق (٨٤) .

أما المسلمون أهل البلاد الأصليين، فقد نزحت أعداد كبيرة منهم عند الغزو اللاتيني واستقرار الصليبيين في بلاد الشام وأطراف العراق، وإن بقيت أعداد منهم تتشبث بمواقعها وسط الكيانات الصليبية خاصة سكان المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا وكذلك سكان حوض نهر العاصي وسهل البقاع، فضلاً عن قبائل البدو الذين ظلوا يتنقلون خلف المراعي من مكان إلى مكان بقطعانهم من المواشي والأغنام(٨٥) . واضطر الفرنج إلى استغلال القاطنين منهم في الأراضي الصليبية خاصة الفلاحين كضرورة اقتصادية فرضتها الظروف . ويبدو أن الفرنج اضطروا لأن يتركوا لهؤلاء حقوقاً أو بعض حقوق تتعلق بالإدارة الذاتية وتتمتع بالعادات والتقاليد الخاصة مقابل أن يدفع هؤلاء للصليبيين نسبة من إنتاجهم السنوى، فضلاً عن ضريبة الرءوس وضريبة على أشجار الفاكهة(٨٦) ، على الرغم من تحفز هؤلاء المسلمين وتململهم بين الحين والحين وانعطافهم إلى الجانب الإسلامي كلما تعرض الصليبيون لمحنة أو نزلت بهم كارثة عسكرية على أيدي المجاهدين المسلمين(٨٧)، فعلى حد قول وليم الصوري " انضموا إلى كتائب العدو

---

(٨٣) باركر : المرجع السابق ص ٦٤ – ٦٥

(84) Runciman : op. cit. II, p. 294

(٨٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٩٤

(٨٦) سميل : الحروب الصليبية ص ٥٤

(87) Grousset : Hist. des Croisades, I p. 268

ويرشدوهم إلى كيفية القضاء علينا ... لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعنا، إذ ليس هناك وباء أشد فتكاً بالمرء وأشنع فعالية من عدو داخل بيته " [٨٨] ، أى أنه مهما أصبحت العلاقات وثيقة بين الشعبين فلم يكن بوسع المسلمين أن ينسوا نداء الدين والحضارة، لذلك شكلوا خطراً وعاملاً هاماً في الوضع العسكري في الدول اللاتينية[٨٩] .

ومثل الأقنان ورقيق الأرض جانباً من البناء الاجتماعي في المملكة الصليبية والإمارات اللاتينية في الشرق، بحكم انتقال النظام الإقطاعي مع الصليبيين إلى بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية إذ كان الأقنان ورقيق الأرض يمثلون جزءاً من المجتمع الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى[٩٠] ، وشارك الكثيرون من الأقنان في الحركة الصليبية للتخلص من أوضاع الذل والعبودية في الغرب الأوربي، غير أن حالهم هنا لم يزد عن حالهم في الغرب بعد نجاح الصليبيين في الاستقرار في الشرق، بل ربما ساءت حالتهم عنها في الغرب الأوربي[٩١] ، بما انضاف إليهم من الأسرى والعبيد نتاج الحروب والصراع بين الصليبيين والمسلمين على امتداد الفترة كلها ، وفقد هؤلاء جميعاً كل حقوقهم وبيعوا مع الأرض كالمواشي وعوملوا معاملة سيئة، في الوقت الذي بدأت فيه أحوال نظرائهم في الغرب في التحسن، وبدأ الكثيرون منهم يتخلصون من حياة الرق هناك ويحصلون على حرياتهم، وينضمون إلى النشاط التجاري والصناعي[٩٢] .

---

(٨٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٠٢

(٨٩) سميل : المرجع السابق ص ٥٦

(٩٠) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ١١٤ – ١١٥

(٩١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٩٤ – ٤٩٥

(٩٢) محمد الشيخ : النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى ص ٥٧،

Pirenne : Medieval Cities , p. 126 (trans. Halsey)

أما عن حياة الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم في بلاد الشام، فلقد عاشت الطبقة الأرستقراطية حياة الترف والرفاهية في بلاد الشرق، فسكنوا في دورهم وقصورهم الفاخرة التي اشتهرت إيواناتها بالجدران المزينة بالزخارف الجصية والسقوف ذات الفسيفساء والحجرات المفروشة بالسجاجيد الفارسية، والتي ازدانت بالستائر الحريرية المزركشة[٩٣] ، ونحوا في حياتهم نحو الحياة الشرقية مقلدين في ذلك حياة المسلمين الأغنياء، فزخرت موائدهم بالأواني الفضية والنحاسية وحفلت بأنواع المأكولات والحلوى الدمشقية، ولبسوا الأثواب الحريرية وارتدت نساؤهم الأثواب الشرقية الرقيقة المحلاة برقائق الذهب، ورقصت راقصاتهم على أنغام الموسيقى الشرقية وحاكوا المسلمين في كثير من عاداتهم وتقاليدهم[٩٤] .

غير أن حياتهم الأسرية تأثرت كثيراً بالظروف التي عاشها الصليبيون في الشرق، نظراً لطول الحرب وابتعاد كثير من جنودهم ورجالهم عن بلادهم وأسرهم في الغرب لفترات طويلة، مما أدى إلى فساد أخلاقهم وانحلالهم، إذ انغمس الكثيرون منهم في المباذل والآثام خاصة في فترات السلم، فمات الرجال منهم في سن مبكرة بسبب هذا الانحلال من ناحية ولما قاسوه من أهوال الحروب من ناحية أخرى، بينما طال عمر نسائهم بسبب ما عشنه من حياة الدعة والخمول[٩٥] حتى لجأ كثير من هؤلاء النسوة والأرامل إلى الزواج من جديد وأكثر من مرة خاصة وريثات الحكم ووريثات الضياع اللاتي كن ينلن نصف الضيعة بعد وفاة الزوج ويحظين بالنصف الآخر باعتبارهن قيمات على

(٩٣) باركر : المرجع السابق ص ٦٩

(٩٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤٠

(٩٥) باركر : نفسه ص٦٩

الأطفال، فترتب على ذلك أن نقل هؤلاء الأرامل ضياعهن أو ألقابهن إلى ثلاثة أو أربعة من الأزواج على التوالي[٩٦] .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هؤلاء الصليبيين لم يحرصوا على أن يؤدوا من العمل ما ينبغي تأديته بسبب المناخ الذي كان مسئولاً عن جانب كبير مما كانوا فيه من خمول أدركنا أن هؤلاء كان لابد وأن يأخذوا في الانقراض والزوال، إذ أن فرنجة شمال أوربا حاولوا أن يسلكوا في حياتهم تحت شمس الجنوب مثلما درجوا عليه من الحياة تحت مناخ الشمال، في الوقت الذي لم يبلغ عددهم من الكثرة ما يجعلهم يؤدون من العمل ما كان عليهم أداؤه[٩٧] ، فضلاً عما فطروا عليه من الجشع الذي لا يقره قانون، فأفسد الحرص على الحصول على الكسب غير المشروع وفاء الفرنج وجعلهم في كفة القدر، فعلى حد قول أحد المؤرخين إذا جاز للمسلمين أن يصبروا على قيام دولة من "الكفار" فانهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص[٩٨] .

---

(٩٦) باركر : نفسه ص٧٠

(٩٧) باركر : نفسه ص٦٨

(٩٨) باركر : نفسه ص٧١

الفصل السابع

الحملة الصليبية الثانية

الفصل السابع
الحملة الصليبية الثانية

أشرنا من قبل إلى أن عماد الدين زنكي استهل نوبة الجهاد ضد الصليبيين سنة ١١٣٥م ، فاسترد بعض القلاع والحصون التابعة في بلاد الشام، وحاصر الملك فولك الأنجوي في قلعة بعرين سنة ١١٣٧م، وأنزل بعض الهزائم بقوات الصليبيين في بلاد الشام وأطراف العراق، ولم يوقف زحفه سوى ما جرى من تحالف بين الصليبيين والبيزنطيين بزعامة الإمبراطور حنا كومنين[1]، غير أن هذا التحالف ما لبث أن تحول إلى عداوة سافرة وتصدع سنة ١١٤٣م ، مما مكن عماد الدين زنكي من استئناف حركة الجهاد من جديد، منتهزاً فرصة حدوث نزاع وتنافس بين أميري الرها وأنطاكية[2]، إذ اتصف ريموند دي بواتيه – أمير أنطاكية – بالخفة والطيش، بينما مال جوسلين الثاني –كونت الرها – إلى الدعة وإثار العافية والمباذل، وافتقر إلى ما كان يتصف به والده من المهارة في الشئون السياسية والعسكرية[3]، في الوقت الذي لم يكن فيه ملك بيت المقدس بلدوين الثالث بن فولك الأنجوي بالشخص الذي يمكنه أن يكبح جماح أمراء الشمال ويحول دون اندلاع الصراع بينهم، لأنه من ناحية كان لا يزال طفلاً تحت وصاية والدته مليسند، ومن ناحية أخرى كان النزاع بين أمراء الشمال أكبر من أن تحسمه النوايا الطيبة في المملكة مع انشغال هذه بمتاعبها الخاصة وشئونها في الجنوب، حقيقة كانت مليسند الوصية على بيت

---

(1) Grousset : op. cit. II, p. 172

(٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٣٥

(3) Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 307

المقدس حكيمة حصيفة[٤]، وظهر ذلك من حرصها على بقاء التحالف مع دمشق لكفالة الأمن والاطمئنان للمملكة من هذه الجهة، إلا أن قصور نفوذها في إمارات الشمال لم يمكنها من كبح جماح الأطماع الشخصية والشقاق بين إمارتي الرها وأنطاكية، الأمر الذي أفاد منه زنكي كثيراً حين عاود جهاده لاستئصال شأفة الصليبيين في الشمال، وتصفية إمارة الرها التي شكلت خطورة على المسلمين وهددت خطوط مواصلاتهم، وفصلت بين قواهم في شمال العراق وشمال الشام[٥].

استيلاء عماد الدين زنكي على الرها سنة ١١٤٤م :

انصرف زنكي في الفترة بين سنتي ١١٤٠م و ١١٤٤م أى منذ عودته من مشروعه ضد دمشق حتى إسقاطه الرها إلى عمليات عسكرية ناجحة في أرض الجزيرة، نعتقد أنها فضلاً عن كونها تأكيداً لنفوذه وسلطانه في هذه الجهات، ومداً لرقعة دولته كانت تأميناً لحدوده وتمهيداً للهجوم على الرها بعد ذلك[٦]، فقد استولى في سنة ١١٤٠م (٥٣٤هـ) من التركمان على بعض القلاع وانتزع مدينة الحديثة، وأخضع آمد، ثم تحول إلى الأكراد فخرب بعض قلاعهم، وأقام قلعة كبيرة سماها العمادية نسبة إليه سنة ١١٤٣م، وفتح قلاعاً ومدناً أخرى في ديار بكر بعضها كان تابعاً لجوسلين صاحب الرها[٧]، وهكذا طوق زنكي إمارة الرها وبالغ في التضييق عليها توطئة للهجوم على الرها ذاتها وإسقاطها، منتهزاً فرصة الشقاق والنزاع بين أمراء

---

(٤) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٢٣٤

(5) Stevenson : op. cit. p. 153

(٦) محمد الشيخ : الجهاد المقدس : ضد الصليبيين ص ٣٦٥

(٧) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٦٨ ،التاريخ الباهر ص ٥٧ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٠

الصليبيين في الشمال، بين جوسلين الثاني وريموند دي بواتيه[٨]، حتى وصلت العداوة بينهما إلى حد الكراهية السافرة " فلم يعد أحدهما يأسي على ما يحيق بالآخر من المصائب ، بل إن كلا منهما كان يغتبط للمصيبة التي يبلي بها الآخر ويفرح أشد الفرح لأي كارثة تلحق به "[٩] .

وكان جوسلين الثاني قد ترك الرها وانتقل للإقامة في تل باشر على الناحية الأخرى من الفرات - كما سبق أن أشرنا - دون أن يهتم بتوفير المؤن والزاد والسلاح بها لتستطيع المقاومة والصمود للحصار الطويل، ولكنه عول على طوائف السكان من المسيحيين الشرقيين وحامية صليبية صغيرة في الدفاع عنها[١٠] في الوقت الذي تظاهر فيه زنكي بالانصراف إلى مهاجمة الأراتقة التركمان في ديار بكر " ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم " ، ثم اتجه إلى الرها فجأة حيث أحاطت قواته بالمدينة من كل جانب وشددت الحصار عليها ابيداء من ٢٨ نوفمبر سنة ١١٤٤م " وحالوا بينها وبين من يدخل إليها بميرة أو غيرها " ، وظل يضربها طيلة ثمانية وعشرين يوماً بالمنجنيق[١١] .

وعلى الرغم من محاولات المسيحيين الشرقيين والحامية الصليبية ونهوض الأسقف اللاتيني هيو الثاني بالدور القيادي في هذه الأحداث وفي محاولة الصمود لقوات زنكي إلا أن جوسلين الثاني لم يحرك ساكناً ولم يبادر بمحاولة إنقاذ الرها، مما جعله هدفاً لانتقاد

---

(8) Runciman : op. cit. II, p. 235

(٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٣٦، Smail : op. cit. p. 32

(10) Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 317

(١١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٧٩، ابن القلانسي : ذيل ص ٢٧٩

المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي وصفه بالجبن والتخاذل[١٢] ، وإن التمس له بعض المؤرخين المحدثين العذر فقيل أن جيشه لم يكن من القوة بحيث يمكنه الدخول في معركة مع قوات زنكي ، كما أنه كان واثقاً من قوة إستحكامات المدينة واستطاعتها الصمود فترة أطول ريثما يتمكن من استقبال نجدات الإمارات الأخرى والمملكة ، كما أن وجوده بتل باشر يمكنه من قطع النجدات التي قد يلتمسها زنكي من حلب[١٣] . ومهما يكن من أمر فقد نشط زنكي كثيراً للاستيلاء على المدينة وتعجل سقوطها قبل أن ينهض الفرنج لإنقاذها فجد النقابون في إحداث بعض الفجوات في أسوار المدينة " إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السور " ووضعوا الأخشاب في ثقب كبير أحدثوه " فأذن لهم زنكي فألقوا النار فيه فوقع السور في الحال "[١٤] ، فاقتحمت القوات الإسلامية المدينة في يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١١٤٤م (٥٣٩هـ) ، واستولوا على قلعتها بعد يومين ونهبوا الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال وحصلوا على غنائم وفيرة وأسرى كثيرين "[١٥] ، ووصلت نجدة المملكة ، بعد فوات الأوان في الوقت الذي أصم فيه أمير أنطاكية أذنيه عن هذه الأحداث ولم يستجب لطلب النجدة ، بل فرح بنزول هذه الكارثة بكونت الرها جوسلين الثاني[١٦] .

وهكذا كانت الرها أول إمارة لاتينية في هذه المنطقة ، وأول إمارة لاتينية تسقط أيضاً في أيدى المسلمين ، فسر المسلمون لسقوطها كل السرور وغدا لزنكي من الشهرة ما طبق الآفاق وحظي برضا القاصي

---

(١٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٢٣٥

(13) Grousset : op. cit. II, p. 177 - 8

(١٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٧٩

(١٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠

(١٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٣٩

والداني[١٧] ما لم يحظ به مجاهد قبله خاصة وأنه نهض لتصفية الحصون والقلاع التابعة لها خاصة شرقي الفرات، فاستولى على سروج " وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ماعدا البيرة " التي آثر سكانها التسليم في النهاية لأقرب حاكم مسلم إليهم وهو تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين، حتى يكفيهم هذا مئونة التعرض من جديد لهجوم زنكي[١٨]. غير أنه لم يمض وقت طويل على إسقاط الرها حتى شرع زنكي في حصار قلعة صغيرة تسمى قلعة جعبر، كانت تقع بين ممتلكاته، إلا أن حصارها طال وتعرض زنكي لخيانة أحد مماليكه الذي اغتاله فجأة في سبتمبر سنة ١١٤٦(٥٤١ هـ) [١٩]، فتفرقت قواته وانتهت بمقتله مرحلة هامة من مراحل الجهاد المقدس ضد الصليبيين، وكان على وشك أن يستأنف الجهاد من جديد، ولكن شاء الله أن يلقي نهايته على هذه الصورة التي ربما كان أقل منها فداحة لو أنه مات وهو ينازل حصناً للفرنج وليس حصناً بيد بعض المسلمين [٢٠].

وبعد اغتيال عماد الدين زنكي عاد الحلبيون إلى حلب ومعهم ابنه نور الدين محمود فأقاموه أميراً على حلب، على حين عادت قوات الموصل إلى العراق ومعها الابن الثاني لعماد الدين وهو سيف الدين غازي فأقاموه حاكماً على الموصل[٢١]، فما لبث نور الدين محمود أن مكن لنفسه في حلب وأثبت أنه لا يقل كفاءة عن والده، ولا تنقصه الحمية لمواصلة الجهاد كسلفه عماد الدين فأطراه المؤرخون لذلك وشهد له حتى الأعداء منهم بحسن الخلق والهمة وصدق الرغبة في

---

(١٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٩ . ابن القلانسي : ذيل ص ٢٨٤

(18) Cahen:Artukids Encyc. Islam ,Grousset :op. cit. II, p.191

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٩ . ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٣

(٢٠) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ٣٨٤

(٢١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٤ – ٨٥ . Stevenson op. cit. p.154

الجهاد فقال وليم الصوري " كان رجلاً ألمعياً فطناً يخشى ربه.. فحالفه حسن الطالع فتوسع فيما ورثه عن والده" [٢٢] وقال في موضع آخر " وكان نور الدين محارباً لا يعتريه الكلل ولا يناله النصب، شديد الحرص على أن تتوالي انتصاراته بعضها في إثر بعض" وقال في موضع ثالث: " وكان أميراً عادلاً شجاعاً فطناً " فحين ارتقت همة جوسلين الثاني إلى استرداد الرها ودخلها فعلاً عقب اغتيال زنكي، نهض نور الدين محمود وحاصره بها، ثم أنزل به هزيمة قاسية وأجبره على الفرار واقتحم من جديد مدينة الرها[٢٣] ، وأحدث المسلمون فيها هذه المرة كثيراً من التعسف لاسيما ضد الأرمن وطوائف المسيحيين الشرقيين الذين تعاطفوا مع الصليبيين، ولعبوا دوراً هاماً في إعادة المدينة لجوسلين الثاني[٢٤] ، فحلت بالجميع كارثة تفوق كل وصف بل تحول نور الدين إلى أملاك أنطاكية فاستولى على كثير منها وجعل الصليبيين في الشمال يقعون تحت وطأة كابوس جديد اعتباراً من سنة ١١٤٧م[٢٥] .

الحملة الصليبية الثانية :

كان لسقوط الرها أثر عظيم على الفرنج في الشرق وفي الغرب على حد سواء، فأبدى الفرنج انزعاجاً شديداً لهذا الحدث ، الذي يحمل في ثناياه الإنذار بقرب النهاية[٢٦] ، ويعطي إرهاصاً ببدء تداعي

---

(٢٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٢٤٣، ج٤ ص ١٥٩

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١١

(24) Grousset : op. cit. II, p. 195 ,

وليم الصوري : نفس المصدر ج٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(25) Runciman : op. cit. II, pp. 204 - 1

(26) Stevenson : op. cit. p. 158

الكيان الصليبي في المنطقة، فلطالما حرص الفرنج من قبل على تأمين هذه المنطقة والحفاظ عليها من هجمات المسلمين[٢٧]، وبذل رجالهم الأوائل في المملكة الصليبية والإمارات الأخرى كل عون لبقاء هذه الإمارة كدرع حام لهم في بلاد الشام، تتلقف ضربات المسلمين وتكسر موجات هجماتهم وتحيلها إلى حوافز قوية للبقاء والثقة في إمكان التصدي لحركات المقاومة الإسلامية، بسبب موقع المدينة وكبر مساحتها وعظم تحصيناتها الأمر الذي أهلها لتصبح بمثابة خط دفاعي عن الإمارات الأخرى في المملكة[٢٨] من ناحية ومركزاً لتهديد ممتلكات المسلمين شرقاً وجنوباً من ناحية أخرى، مما جعل حلب بالذات معزولة عما حولها تطوقها إمارة الرها من جهة وإمارة أنطاكية من جهة أخرى، والواقع أنه بزوال أمارة الرها أصبح الطريق بين حلب والشرق مأموناً وأضحى عدو حلب في مواجهتها لا خلفها[٢٩].

ولم يكن وقع سقوط الرها قاسياً على فرنج الشام فحسب، بل أحس به العالم المسيحي في أوربا والغرب أيضاً[٣٠]، بل جاء سقوط الرها لطمة شديدة للصليبيين في الغرب، فاعتبروا ما حدث تحد لمشاعرهم وصدمة كبيرة لآمالهم، وتأكدوا أن الأمور لا تجري طبيعية في الشرق، فظهرت حركة تهدف إلى القيام بحملة صليبية جديدة لتعزيز الوجود والاستقرار الصليبي في الشرق وتقوية الكيانات اللاتينية الباقية في مواجهة التحدي الإسلامي[٣١]. ومن المرجح أن فكرة الحملة الصليبية الثانية قد نبتت في بلاط لويس السابع ملك فرنسا سنة

---

(٢٧) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ٣٧٦

(28) Conder : The Latin Kingdom , p. 38

(29) Stevenson : op. cit. p. 153

(٣٠) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٢٦٧

(31) Runciman : op. cit. II, p. 238

١١٤٥م ، وكان هذا الملك معروفاً بورعه وتقواه فأحزنه كثيراً أنباء سقوط الرها وترنح الكيان الصليبي واحتمال تداعيه في الشرق، فأزمع القيام بحملة لتعزيز هذا الكيان ومنع سقوطه على أيدي المسلمين[٣٢] ، على الرغم من معارضة بعض رجال دولته وعدد من نبلائه، الذين لم يتحمسوا لهذا المشروع والذين عارضوا تغيب الملك عن وطنه[٣٣] ، والذين تكفل بهم القديس برنارد مقدم دير كليرفو الذي كان من أعظم المؤمنين بالحج والذي أصبح يبشر بالحركة الجديدة[٣٤] ، إذ خطب في مجمع فيزلاى Vezeley في مارس سنة ١١٤٦م ، فحرك بروعة بيانه وفصاحة لسانه حماسة الحاضرين وقضى على معارضة نبلاء فرنسا وأتباع الملك لويس السابع لمشروع الحملة، ولعب دوراً لا يقل خطورة عن دور البابا أوربان الثاني في كليرمونت قبل نحو نصف قرن من الزمان[٣٥] .

ثم استجاب لهذه الفكرة إمبراطور الغرب كونراد الثالث هوهنشتاوفن في ديسمبر سنة ١١٤٦م وهو الذي وصفه وليم الصوري بأنه أقوى ملوك الأرض وأعظم شأناً، بعد أن استمع لمواعظ القديس برنارد[٣٦] ، في عيد الميلاد من تلك السنة، فقرر الاشتراك في الحملة الصليبية الجديدة، على الرغم مما كان له من مصالح في الشرق تحول دون اشتراكه في تلك الحرب[٣٧] . وهكذا تألفت الحملة من جيشين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب الأوربي ويقودهما

---

(32) Holt :op. cit. p. 43, p.170,Camb. Med. Hist.Vol..5, p.307

(33) Grousset : op. cit. II, pp. 225 - 6

(٣٤) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٣

(35) Runciman : op. cit. II, p. 253

(٣٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٦٨ - ٢٦٩

(37) Williams : Knights of the Crusades , p. 61
Riley - Smith (ed.) : The Crusades , pp. 18 - 19

أكبر عاهلين في العالم الكاثوليكي هما كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا(٣٨)، وقد عرض روجر الثاني ملك صقلية أن يضع سفنه تحت تصرف الحملة لنقل الجنود والمؤن إلى بلاد الشام وتزويد الحملة بما يلزمها من زاد وعتاد عبر البحر بدلاً من استخدامها الطريق البري الطويل، ووعد أيضاً بأن يشترك في الحملة أو ينيب عنه ابنه(٣٩)، ولكن عرضه قوبل بالرفض نظراً للأطماع المعروفة للنورمان في الغرب وفي الشرق على السواء.

جرى الاتفاق بين زعيمي الحملة على أن يسبق الجيش الألماني إلى القسطنطينية على أن يلحق به الفرنسيون، حتى لا يؤدي مسير الجيشين معاً إلى صعوبات في التموين، لاسيما وقد تألف كل منهما من نحو سبعين ألف رجل وكيما يتجنب الملكان أيضاً ما يمكن أن يقع بين جيوشهما من منازعات(٤٠)، ووصل الألمان فعلاً إلى القسطنطينية في سبتمبر سنة ١١٤٧م، ثم وصل بعدهم الفرنسيون في أكتوبر من نفس العام بعد كثير من المآسي التي أحدثها الصليبيون ضد أهالي البلاد التي مروا بها مثلما حدث في الحملة الأولى تماماً، لاسيما من قبل الجيش الفرنسي(٤١).

وعلى الرغم من أن هذه الحملة ماثلت الحملة الأولى في الدعوة لها وفي الطريق الذي سلكته إلى الشرق، إلا أنها اختلفت عن الحملة الأولى في الجموع التي تشكلت منها وفي قياداتها وأهدافها، إذ تشكلت الحملة الأولى من جموع مختلفة من المسيحيين الغربيين الذين انتموا إلى

---

(٣٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٢٢

(39) Grousset : op. cit. II, p. 226

(٤٠) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٢٦٩ - ٢٧١ .
باركر : المرجع السابق ص ٧٥

(41) Runciman : op. cit. II, pp. 260 - 1

دول متعددة في الغرب والذين قادهم قادة عديدون من نبلاء الغرب الأوربي، بينما كانت الحملة الثانية – كما أشرنا – تتألف من جيشين كبيرين لدولتين كبيرتين في الغرب ويقودهما أكبر عاهلين في العالم الكاثوليكي الغربي هما إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا[٤٢]، وبينما خرجت الحملة الأولى في شكل هجرة عظيمة يقودها أمراء محليون، كانت الحملة الثانية تتألف من جيشين نظاميين يقودهما اثنان من كبار ملوك الغرب الأوربي، وليسوا مجرد أمراء محليين[٤٣]، أى أن الملوك في هذه الحملة حلوا محل الفرسان في الحملة الأولى وأنهم في هذه المرة لن يخترقوا بلاداً لم تكن معروفة لهم من قبل، لأنهم سيجدون في بلاد الشام قاعدة صليبية ستصبح في متناول أيديهم وقريبة منهم[٤٤]، فضلاً عن أن الحملة الثانية فاقت الحملة الأولى في مداها وأغراضها، إذ يشير المؤرخون إلى جانب الجيوش التي سارت شرقاً للقتال في بلاد الشام توجهت جيوش أخرى لقتال المسلمين في أسبانيا والبرتغال، فأكد ذلك ما حدث من تطور في فكرة الحرب الصليبية[٤٥]. وهكذا اختلفت الحملة الثانية عن الأولي في مداها وأغراضها والمشتركين فيها وقياداتها.

وترتب على قيادة العاهلين الكبيرين للحملة الثانية نتائج بالغة الأهمية، لأن الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين عرض استعداده للسماح للصليبيين بعبور أراضيه وإمدادهم بالزاد والمؤن اللازمة وأن يبذل لهم المساعدة أثناء اجتيازهم أراضيه، ويمنحهم امتيازات خاصة عند شراء ما يحتاجون إليه بشرط أن يحلفوا له يمين الولاء والتبعية ويتعهدوا بتسليمه كل ما يستولون عليه من الترك من مواقع ومدن

(42) Camb. Med. Hist. Vol. 5 , pp. 374 - 5

(43) Stevenson : op. cit. p. 158

(٤٤) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٤

(45) Runciman : op. cit. II, p. 256

كانت تابعة أصلا لبيزنطة في آسيا الصغرى[٤٦] .

إذ يبدو أن الإمبراطور مانويل كومنين كان يريد أن يحظى بما حظى به جده العظيم ألكسيوس كومنين من شرف من ناحية، وأن يدخل الطمأنينة على قلوب البيزنطيين من ناحية أخرى لأن هذه الحملة الجديدة أثارت خوف البيزنطيين من أن يهاجم الصليبيون القسطنطينية مثلما فعل بوهيموند سنة ١١٠٧م، خاصة وأن طلب النجدة الذي استجاب له الغرب بهذه الحملة صدر عن أمير أنطاكية ريموند دي بواتيه، الذي يمت بصلة القرابة والمصاهرة للملك لويس السابع ملك فرنسا[٤٧]، والذي كان يمكن أن يستغل وصول الحملة ليطرح طاعة بيزنطة ويحتمي في قريبه عاهل فرنسا[٤٨]، غير أنه لم يكن منتظراً أن يرضي كل من إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا بأن يصبحا أتباعاً لإمبراطور بيزنطة، وأن يحلفا له يمين الولاء والإخلاص، وهما من كبار حكام الغرب الأوربي، وليسوا مجرد قادة صغار، كما كان الحال في الحملة الأولى .

ولهذا فقد توترت العلاقات بين الطرفين منذ البداية، فأقدم الإمبراطور البيزنطي على عقد صلح مع سلطان قونيه السلجوقي مسعود بن قلج أرسلان حين تخوف من نوايا الألمان[٤٩]، فازداد سوء الفهم بين الجانبين البيزنطي والصليبي، مما أدي إلى عدم تعاون البيزنطيين مع صليبي الحملة الثانية، فواجه هؤلاء صعوبات جمة في مسيرهم[٥٠]، مقارنة بما حدث من تحالف بين البيزنطيين وقادة الحملة الأولى وهو

---

(46) Ostrogorsky : op. cit. p. 339

(47) Grousset : op. cit. II, pp. 228 - 9

(48) Ostrogorsky : op. cit. pp. 338 - 9

(49) Stevenson : op. cit. p. 159

(٥٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٧٣

التعاون الذي ساعد الصليبيين كثيراً على تحقيق انتصاراتهم خاصة في آسيا الصغري، ولهذا لم يكن متوقعاً للحملة الثانية أن تنجز شيئاً بل إنها تعثرت كثيراً ثم فشلت في النهاية(٥١) .

ونظراً لهذا الجو المشحون بين البيزنطيين والألمان، بادر الإمبراطور كونراد الثالث بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى، ثم شرع في الزحف شرقاً في آسيا الصغرى بعد أن زوده مانويل كومنين بالمرشدين والأدلاء والعارفين بمسالك الإقليم(٥٢)، فما لبث أن وصل إلى نيقيه في منتصف أكتوبر سنة ١١٤٧م، وبدلاً من أن يتخذ الطريق الساحلي لجنوب آسيا ليحتمي بالقلاع والمدن البيزنطية العديدة الواقعة على ذلك الشاطئ، اختار في تسرع أن يشق طريقه في جوف البلاد إلى قونية عبر أراضي السلاجقة(٥٣) .

ولقد أنحى المؤرخ الصليبي وليم الصوري باللائمة على المرشدين البيزنطيين الذين صاحبوا الجيش الألماني، واتهمهم بسوء النية والغدر " ربما مدفوعين فيما فعلوا بأمر مولاهم (مانويل كومنين) أو برشوة رشاهم بها الترك " لأنهم – على حد قوله – " تعمدوا قيادة الكتائب الصليبية عبر طريق غير مألوفة .. أتاحت لعدوهم الفرصة لمهاجمتهم .. مما أدى إلى تغلب الترك عليهم " (٥٤) . وإذا نحينا هذه الاتهامات جانباً وأخذنا بروايات أغلب المؤرخين وجدنا أن الأقرب إلى الحقيقة أن سوء حظ الألمان وتعاليهم وعجرفتهم أحياناً أدت إلى أن اختلفوا مع أولئك المرشدين والأدلاء البيزنطيين فتخلى عنهم هؤلاء مما عرضهم

---

(٥١) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٥

(٥٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٢٧٢ – ٢٧٣

(٥٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٢٥

(٥٤) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٢٣٧ – ٢٧٦

لأسوأ النتائج(٥٥)، خاصة وأنهم ركبوا رأسهم، وأصروا على مواصلة الطريق الداخلي إلى قونية ووصلوا فعلاً إلى نهر باثي Bathys في ٢٥ أكتوبر سنة ١١٤٧م قرب دورليوم قريباً من الموقع الذي شهد انتصار الصليبيين الكبير في الحملة الأولى قبل حوالي نصف قرن من الزمان(٥٦).

فلم يكد الألمان يقتربون من هذا الموقع في ذلك اليوم حتى دهمهم السلاجقة في اليوم التالي (٢٦ أكتوبر سنة ١١٤٧م)، فأعملوا فيهم السيف قتلاً وأسراً(٥٧)، مستغلين خفة حركتهم وسرعة انقضاضهم على الجنود الألمان ثقيلي الحركة المنهكين بفعل الجوع والعطش حتى قال بعض المؤرخين أنها كانت مذبحة أكثر من كونها معركة(٥٨)، ولم ينج كونراد الثالث نفسه إلا بصعوبة بالغة إذ ارتد بفلول جيشه نحو نيقية، وغنم السلاجقة متاعهم وعددهم وكثير من الغنائم(٥٩)، ووصل في النهاية كونراد ومن بقي من جنده إلى نيقية في حالة سيئة بعد أن فقد نحو تسعة أعشار جيشه البالغ سبعين ألف جندي، وفي نيقية التقى بلويس السابع ملك فرنسا قائد الشق الآخر من الحملة الصليبية الثانية(٦٠).

أما الفرنسيون فعلى الرغم من أنهم صدموا - عند وصولهم إلى القسطنطينية - بنبأ عقد الإمبراطور البيزنطي الصلح المنفرد مع سلطان السلاجقة، واعتبروا ذلك خيانة في حق الحركة الصليبية كلها، وفي

---

(55) Grousset : op. cit. II, p. 234,
أنتوني بردج : المرجع السابق ١٥٠ - ١٥١

(56) Runciman : op. cit. II, p. 268

(57) Holt : op. cit. p. 170

(58) Runciman : op. cit. II, p. 268

(٥٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٧٨

(60) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 330

حق الحملة الثانية بصفة خاصة[٦١]، كما أن العلاقات بينهم وبين البيزنطيين لم تكن أحسن حالاً من علاقات الألمان بالبيزنطيين، حتى أن بيزنطة منعت عنهم المؤن والزاد بمجرد عبورهم البسفور إلى آسيا الصغرى واشترطت لاستئناف مدهم بالمؤن والزاد أن يحلف قادة هذا الجيش يمين الولاء والتبعية للإمبراطور، وأن يتعهدوا برد ما ينتزعونه من المدن والأراضي من المسلمين في آسيا إلى الإمبراطورية البيزنطية[٦٢]، على الرغم من كل ذلك إلا أن الملك لويس التاسع أدرك حتماً أهمية التحالف مع بيزنطة والحفاظ ولو شكلياً على علاقات الود مع إمبراطورها ضماناً لتحقيق أهداف الحملة وإنجاز ما قدمت من أجله، ولهذا وافق على أن يحلف الأمراء المشتركون معه في الحملة يمين الولاء والتبعية للإمبراطور، وأن يتعهدوا برد كل ما يفتحونه من مدن وما يستولون عليه من الأراضي الآسيوية من الترك للإمبراطور[٦٣]، أي أن تحصل بيزنطة على كل مدينة أو موضع كان يخضع فيما مضى لسلطان الإمبراطور، وجرى الاتفاق أيضاً على أن يختار الإمبراطور اثنين أو ثلاثة من كبار رجاله ليصحبوا الحملة لإرشادها من ناحية ولتسهيل ما يلزم من تموينها من ناحية أخرى، وفي المقابل اشترط الصليبيون أن لهم الحق في أن يلجأوا إلى السلب والنهب إذا لم يتوافر لهم الزاد والمؤن خلال الطريق[٦٤] .

وفي نيقية علم الملك لويس السابع بما حدث للألمان، فقرر أن يتخذ الطريق الدائري الطويل على امتداد الساحل الغربي لآسيا الصغرى أي الطريق الساحلي بعيداً عن أراضي سلطنة سلاجقة الروم،

---

(٦١) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٦٣٦

(62) Ostrogorsky : op. cit. p. 339

(63) Grousset : op. cit. II, p. 239

(64) Chalandon : Les Comnenes , pp. 301 - 304

ثم توجه للقاء الإمبراطور كونراد الثالث، فرافقه هذا وفلول جيشه حتى إفسوس، وظلا على اتصال بالأسطول البيزنطي، وفي إفسوس قرر كونراد العودة إلى القسطنطينية[٦٥]، بعد أن اشتد به المرض - كما قيل حينئذ - ربما لأن عار الهزيمة وإحساس كونراد بضآلة قيمته وقلة جيشه وتلطيخ كرامته جعلته ينسحب بقواته القليلة عائداً إلى القسطنطينية ليعالج من مرضه البدني والنفسي أيضاً، وربما كانت هذه العودة لما لقيه من صلف الفرنسيين - على حد قول وليم الصوري[٦٦]- ومهما يكن من أمر فقد وعد كونراد أن يعود ويلحق بالصليبيين في فلسطين، في الوقت الذي واصل فيه لويس السابع طريقه إلى مدينة أطاليا Attalia الواقعة على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى، وكانت تابعة لبيزنطة، فوصل إليها في يناير سنة ١١٤٨م بعد اشتباكات غير مؤثرة مع السلاجقة، وفي هذه المدينة أتيح للملك بعض الوقت للاستجمام بعد أن أنهكه المسير كما أتيح له اتخاذ قرار بخطة الزحف إلى بلاد الشام أيتم بطريق البر أم بطريق البحر؟[٦٧] .

وعلى الرغم من صعوبة الحصول على سفن تنقل الجيش الفرنسي إلى ميناء السويدية وأنطاكية، وعدم تعاون البيزنطيين في نقل الحملة، الأمر الذي أجبر شقاً من الجيش الفرنسي على شق طريقه براً إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من الجند في الطريق[٦٨]، على الرغم من كل ذلك إلا أن لويس السابع فضل نقل بقية جيشه بالطريق البحري إلى ميناء السويدية، لبعد هذا الطريق

---

(65) Stevenson : op. cit. p. 159

(٦٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٨١

(67) Runciman : op. cit. II, p. 273

(٦٨) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٢٨٥

البحري عن خطر السلاجقة[٦٩]، فتجمعت بعض السفن التي نقلت الملك وحاشيته وكبار باروناته وبعض فرسانه إلى شمال الشام في مارس سنة ١١٤٨م تاركين بقية الحملة تواجه أقدارها وتحاول اللحاق بهم في بلاد الشام[٧٠]، ثم جرى بعد ذلك نقل هؤلاء على دفعات إلى ميناء السويدية بعد أن تعرضوا لهجمات السلاجقة وعانوا قلة المؤن والزاد وكابدوا من سوء معاملة البيزنطيين، الأمر الذي أدى إلى ازدياد سوء العلاقات بين المسيحيين في بيزنطة وفي الغرب الأوربي[٧١].

إذ تبادل الجانبان التهم وألقي كل فريق المسئولية على الفريق الآخر، فبالغ الصليبيون في نقد البيزنطيين واتهموهم بأنهم لم يقدموا إلا القليل من المؤن مقابل المبالغ الضخمة، ولم يوفروا السفن اللازمة لنقل الصليبيين إلى بلاد الشام، وقصروا في مدهم بالأدلاء والمرشدين وأثاروا المتاعب في وجههم ووضعوا في طريقهم كل العقبات[٧٢]، بل وتحالفوا مع الترك ضدهم واتهم البيزنطيون الصليبيين بأنهم درجوا على السلب والنهب وإحداث الدمار والخراب في أملاك بيزنطة عبر الطريق، وأن الصليبيين لم يلتزموا بالطريق التي حددها لهم الإمبراطور ولم يأخذوا بنصائح البيزنطيين، بل أظهروا الصلف والعناد والتكبر في تعاملهم مع البيزنطيين. وأنهم لم يلتزموا بمحالفة بيزنطة ضد نورمان صقلية[٧٣]. وهكذا اتسعت الهوة بين الجانبين، الأمر الذي ترتب عليه نتائج بالغة الخطورة بالنسبة للحملة الصليبية الثانية من ناحية وللحركة الصليبية ذاتها من ناحية أخرى.

---

(69) Grousset : op. cit. II, p. 243

(70) Ostrogorsky : op. cit. p. 339

(71) Runciman : op. cit. II, pp. 275 - 6

(72) Grousset : op. cit. II, pp. 243 - 4

(73) Ostrogorsky : op. cit. p. 340

لويس السابع في بلاد الشام :

بعد سقوط الرها في أيدي المسلمين سنة ١١٤٤م ، أصبحت إمارة أنطاكية في خوف ووجل من أن يكون الدور عليها فتتعرض لنفس المصير وتسقط في يد نور الدين محمود، خاصة وقد وطد نور الدين محمود مركزه في حلب، وحصن أملاكه على امتداد الحدود مع الصليبيين من الشمال حتى حماه وانتزع ما كان يقع شرقي نهر العاصي من حصون الفرنج[٧٤] ،ولهذا فقد تطلع ريموند دي بواتيه للإفادة من الحملة الثانية لاسترداد أملاكه شرقي نهر العاصي، والقضاء على قوة نور الدين محمود معولاً على ما كان يربطه بالملك الفرنسي من علاقة مصاهرة، إذ أنه عم إليانور زوج الملك[٧٥] ، على حين نظر جوسلين الثاني أمير ما تبقى من إمارة الرها إلى الحملة الصليبية الثانية باعتبارها المنقذ له، والأداة التي ينبغي أن تمكنه من استعادة عاصمة إمارته، لأن الحملة خرجت أصلاً على أثر سقوط الرها، فلا أقل من أن يفيد جوسلين الثاني من هذه الحملة لاسترداد الرها وتأمين حدوده في الشمال[٧٦] ،في الوقت الذي نظر فيه ريموند الثاني أمير طرابلس إلى الحملة نفس النظرة ليفيد منها في استرداد بعض القلاع التي استولى عليها المسلمون. خاصة وقد ربطته بالملك الفرنسي رابطة قوية من جهة أمه الفرنسية[٧٧] . وهكذا كانت إمارات الشمال في أشد الحاجة لمساعدة لويس السابع، بعد أن هدد نور الدين وجودها، وانتزع كثيرا من أملاكها، وأمل كل أمير في الشمال في الإفادة من حملة لويس السابع لتحقيق أغراضه وتأمين وجوده[٧٨] .

---

(74) Runciman : op. cit. II, p. 278

(٧٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٨٨ – ٢٨٩

(76) Cahen : La Syrie du Nurd , p. 381

(77) Grousset : op. cit. II, pp. 246 - 7

(٧٨) وليم الصوري المصدر السابق ج٣ ص ٢٩٢.

انتوني بردج : المرجع السابق ص ١٥٤

ووسط هذه التيارات كلها بعث ملك بيت المقدس - بلدوين الثالث - رسولاً إلى لويس السابع يستحثه على القدوم توا إلى المملكة لاسيما وقد وصل إلى بيت المقدس فعلاً الإمبراطور كونراد الثالث بطريق البحر[٧٩] . وعلى هذا برز اتجاهان في سياسة الصليبيين خلال هذه الحملة: الاتجاه الذي تبنته إمارات الشمال للإفادة من الحملة لمحاربة نور الدين محمود وتقليص نفوذه في الشمال، والآخر الذي أصرت عليه المملكة والذي يرمي إلى استقطاب الملك لويس وشده إلى الجنوب للإفادة من حملته لتدعيم نفوذ المملكة وتحقيق أغراضها في التوسع والامتداد، وأصر كل فريق على سياسته[٨٠] .

ونلحظ هنا اتجاهاً استجد في تاريخ الصليبيين في الشرق، وتحولاً في سياستهم لاسيما من قبل المملكة الصليبية في بيت المقدس، التي أظهرت أنانية واضحة وجشعاً سافراً في هذه الفترة لابد من الإشارة إليه، ذلك أنه بينما حرصت المملكة من قبل وعلى عهود ملوكها الأوائل: بلدوين الأول وبلدوين الثاني وفولك الأنجوي على إضفاء حمايتها على الشمال والقيام بالتزاماتها في الدفاع عنها والتضحية أحياناً بمصالحها[٨١]، إذا بتلك المملكة على عهد ملكها القاصر بلدوين الثالث وأمه الوصية مليسند تسعى للإفادة من الحملة الصليبية الثانية لتحقيق مصالح ذاتية وحرمان إمارات الشمال من حق من حقوقها في الدفاع عن نفسها وتأمين وجودها في الشمال، وهي الإمارات التي كانت أكثر تعرضاً للأخطار وأكثر حاجة إلى الحماية من المملكة في

---

(79) Runciman : op. cit. II, p. 278

(80) Stevenson : op. cit. p. 159

(٨١) وليم الصوري : نفسه ج٢ ص ٣٥٦

فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٤٦، ١٤٩ ، ١٨٨

Albert d'Aix , p. 684, Grousset : op. cit. II, p. 15

ذلك الوقت[٨٢] . وهذا الاتجاه جديد في تاريخ الصليبيين في الشرق، وهو في نفس الوقت تحول خطير في سياسة المملكة الصليبية تجاه الإمارات الأخرى، كان له نتائج بالغة الخطورة على الكيان الصليبي كله، فقد فوجئ الملك لويس السابع بأن المملكة تبغي الإفادة من قوته لتحقيق أغراضها وتنفيذ مخططاتها التوسعية في الجنوب[٨٣] .

وفي نفس الوقت ضايق الملك لويس السابع إلحاح ريموند دي بواتيه وإصراره على الإفادة من الحملة لتنفيذ أغراضه، والضغط عليه بمحاولة الإقناع تارة وعن طريق إليانور ابنة أخيه تارة أخرى[٨٤]، لذلك لم يكد الملك لويس يتلقى طلب المملكة حتى أعلن أنه لن يتجه إلى حلب لقتال نور الدين محمود أو يخضع لضغوط ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية، وإنما سيتجه إلى بيت المقدس، ليحج ويزور المدينة المقدسة، ويقوم بالدفاع عنها، لأنه إنما أتى حاملاً الصليب ليدافع عن مدينة المسيح لا ليغزو حلب أو غيرها من أراضي الشمال، وأنه إنما جاء مقتنعاً بفكرة الحرب المقدسة والحج، وهما يلزمانه بالوفاء بنذره والدفاع عن المدينة المقدسة وتنفيذ سياستها[٨٥] . ويبدو أنه تخوف من الزج بنفسه في مغامرة ضد نور الدين محمود لا يضمن نتائجها، ومن ثم اتجه جنوباً وعرج في طريقه على طرابلس حيث قابله بقربها بطريرق بيت المقدس ومبعوث ملكها إليه الذي استحثه مجدداً على الاتجاه إلى المملكة والوصول إلى بيت المقدس، فتحمس الملك لويس وواصل مسيره حتى وصل فعلاً إلى المدينة المقدسة في منتصف إبريل سنة ١١٤٨م ليلتقي مرة ثانية بالإمبراطور كونراد الثالث[٨٦] .

---

(82) Stevenson : op. cit. p. 159

(٨٣) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٢٩٢

(٨٤) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٢٨٩

(٨٥) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٢٨٩

(86) Runciman : op. cit. II, p. 280

ويشير المؤرخ وليم الصوري إلى أنه من الأسباب التي عجلت برحيل لويس أنه أحس بتآمر ريموند دي بواتيه بعد يأسه من استجابة الملك لطلبه " إذ راح يتآمر ضده جهراً ويحاول إلحاق الضرر به "(٨٧) بمختلف الوسائل بما في ذلك استخدام الملكة – ابنة أخيه – التي اتهمها هذا المؤرخ بعدم الإخلاص لزوجها .فلما اكتشف لويس هذا التآمر، بادر بالرحيل عن أنطاكية، مصطحبا زوجيه قسرا على الرغم من أنها أعلنت أنها إنما تسعى للطلاق منه، واتجه لويس السابع ناحية بيت المقدس(٨٨) .

وهكذا فبدلا من أن تحقق الحملة أهدافها في القضاء على قوة الزنكيين في الشمال أو تستعيد الرها وتؤمن الإمارات الأخرى في أنطاكية وطرابلس، إذا بها تبتعد عن هدفها وتتجه إلى إرضاء القائمين على شئون المملكة الصليبية في بيت المقدس(٨٩) . أما كونراد الثالث فقد نزل في عكا في منتصف إبريل سنة ١١٤٨م قادما من القسطنطينية بطريق البحر، ثم توجه إلى بيت المقدس للوفاء بنذره بالاشتراك في الحرب الصليبية وانتظر مقدم الملك لويس السابع للاتفاق على الخطوة التالية(٩٠) ، ثم ما لبث أن عقد مجلس صليبي كبير في عكا في يونيو سنة ١١٤٨م، لم يحضره ممثلون عن الإمارات الشمالية، بحث فيه المؤتمرون –على حد قول وليم الصورى– "أنسب وقت وأحسن مكان ليزيدوا من رقعة المملكة اتساعا ويضيفوا إلى مجدها مجدا"(٩١) ، فتقرر مهاجمة معين الدين أنر حاكم دمشق، على الرغم من أن هذا الحاكم

---

(٨٧) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٢٩٠

(88) Cahen : op. cit. p. 381, وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٢٩٠

(89) Stevenson : op. cit. p. 159

(90) Runciman : op. cit. II, p. 280

(٩١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٠٧

بالذات أبدى نوايا حسنة تجاه الصليبيين بل قام أكثر من مرة بالتحالف معهم ضد أخوانه المسلمين، أى أنه كان الحليف الوحيد للصليبيين من بين الأمراء المسلمين[٩٢] .

ولقد تناسى المجتمعون أن الحملة الصليبية الثانية إنما جاءت أصلا لاستعادة الرها بل أنهم لا شك أدركوا أن ما تتعرض له الإمارات الشمالية من الخطر والتهديد يحتاج من الاهتمام ما يزيد عن السعى لتحقيق أطماع مملكة بيت المقدس التوسعية، على الرغم مما كانت تتمتع به من هدوء وسلام في ذلك الوقت .ويبدو أن معرفة زعماء الصليبيين بما أصبحت علية مدينة الرها من الخراب جعل أمر استعادتها ضئيل القيمة[٩٣] ، ولذلك طرح المجتمعون أمر استعادة الرها أو مساعدة إمارات الشمال واتجهوا إلى محاصرة دمشق، لأن هذه المدينة هي ومدينة حلب كانتا من المدن التي تطلع الصليبيون للاستيلاء عليهما منذ سنوات طويلة . وفي ٢٤ يونيو قرر الصليبيون وقادة المملكة مهاجمة دمشق[٩٤] ، فزحفت الجيوش الصليبية تحت زعامة لويس السابع وكونراد الثالث وبلدوين الثالث وبلغ عدد الصليبيين نحو خمسين ألف مقاتل، واجتمع هذا الجيش الضخم أولاً في طبرية ثم تحرك إلى بانياس، ثم عسكر على حافة الحدائق التي تحيط بدمشق من جهتها الغربية، على حين أرسل معين الدين أنر يستنجد بالقوى الإسلامية في حلب والموصل والمدن الأخري، فبدأت تتدفق عليه النجدات[٩٥] .

---

(92) Grousset : op. cit. II, p. 255

(٩٣) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٥٦٣

(94) Rily - Smith : op. cit. p. 18

(95) Runciman : op. cit. II, p. 282

مضى الصليبيون في تطوير هجومهم، فقطعوا أشجار الحدائق واتخذوا منها بعض التحصينات وانتشروا في البساتين المحيطة بالمدينة " وهى أشبه ما تكون بغابة كثيفة.. تعمل على حماية المدينة.. لأن الأشجار المزروعة بعضها إلى بعض كانت تجعل من الصعوبة بمكان الاقتراب من دمشق من ذلك الجانب ." (٩٦) لكنهم رغم ذلك اقتربوا من المدينة أكثر وشقوا طريقهم إلى الربوة على نهر بردي، فأصبحوا تحت أسوار دمشق، إلا أن معين الدين أنر أبلي بلاءً حسناً في مقاومتهم " فظهر من شجاعته ما لم يشاهد من غيره" (٩٧) ، وبمساعدة القوات التي بدأت تتدفق على المدينة من أبوابها الشمالية ومن سهل البقاع، شن أنر هجوماً مضاداً رد به الصليبيين عن الأسوار بينما نفذ المجاهدون المسلمون من الفقهاء والزهاد (٩٨) إلي الحدائق والبساتين القريبة التى رابط فيها الفرنج " فقتلوا من ظفروا به وأحضروا رءوسهم لطلب الجوائز "(٩٩) فلما وجد الصليبيون مقاومة شديدة في الجهات الغربية للمدينة وأقلقهم هجوم المسلمين علي معسكراتهم في الحدائق والبساتين قرروا الانتقال إلي الجهة الشرقية لإقامة معسكرهم هناك لكشف حركات المسلمين (١٠٠) ، وإن علل المؤرخ وليم الصوري هذه الخطوة بأنها كانت ثمنا لرشوة قدمت لبعض زعماء الصليبيين "فتذرعوا بذرائع واهية لإخفاء جرمهم فادعوا أن الجانب الآخر من البلد المطل علي الشرق والجنوب خال من الأحراش التى تحميه، كما أنه لا يوجد به نهر أو خندق يمنعهم من الاقتراب من التحصينات " (١٠١) .

---

(٩٦) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٣١٠

(٩٧) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ٥٢

(٩٨) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٩٥

(٩٩) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٩٩، أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٥٢

(100) Runciman : op. cit. II, p. 282

(١٠١) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٣١٥

غير أنه لم يصادفهم التوفيق في هذه الخطوة . لأن الموضع الجديد كان بعيدا عن المياه من ناحية . فضلا عن مواجهته لأشد أجزاء السور مناعة من ناحية أخرى. وعلى حد قول مؤرخ محدث ضاعت منهم آخر فرصة للاستيلاء على دمشق[١٠٢] .

فشل الحملة الصليبية الثانية وانسحاب الصليبيين :

بعد انتقال الصليبيين من الغوطة الغربية إلى الجهة الشرقية من دمشق، زادت متاعبهم وقلت الأقوات لديهم وندر الماء " لأن الموضع الجديد كان بعيدا عن بساتين الفاكهة وعن الماء الوفير فضلاً عن أن ما لديهم من الطعام كان آخذاً في النقصان" [١٠٣] . وظهرت المطامع في تملك دمشق قبل أن تسقط إذ خطط زعماء بيت المقدس أن تكون المدينة بعد سقوطها تابعة للمملكة، على حين اتجه فريق آخر وجهة مختلفة وطمعوا في أن تكون دمشق بعد سقوطها مقر إمارة جديدة طالب بها كونت فلاندرز ، الذي ألح على العاهلين الصليبيين " واحدا بعد الآخر أن يقطعه مدينة دمشق بعد إتمام فتحها" [١٠٤] ، وظهر النفور والكراهية بين الصليبيين الجدد والصليبيين القدامى[١٠٥] ،وتبودلت الاتهامات بينهم. وغدا أمر الحملة ينذر بالفشل الذريع .

ووسط هذه الظروف أظهر معين الدين أنر دبلوماسية ومرونة عظيمة، فعلى حين أرسل إلى كل من نور الدين محمود أمير حلب، وأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجد بهما. وهو يعلم

---

(102) Grousset : op. cit. II, p. 263. العريني الشرق الأوسط ص ٥٦٦

(١٠٣) وليم الصوري نفسه ج٣ ص ٣١٥ - ٣١٦ .

Stevenson : op. cit. p. 162

(١٠٤) وليم الصوري الحروب الصليبية ج٣ ص ٣١٨

(105) Camb Med. Hist Vol 5 p 307

تماماً أنه إذا دخل الزنكيون دمشق فلن يخرجوا منها، خاصة وقد تقدم الأخوان فعلاً ناحية حمص وأرسلا يشترطان ثمناً لنجدتهما أن يضع أنر نواباً لهم بدمشق[١٠٦] ،أرسل أنر في نفس الوقت إلى الصليبيين يخوفهم من تقدم الزنكيين وتملكهم دمشق، لأنه قرر أن يسلم البلد إليهم، إذا لم ينسحب الصليبيون، ويحذرهم أيضاً من أنه إذا سيطر الزنكيون على دمشق فلن يكون للفرنج بقاء ببلاد الشام[١٠٧] ، وزاد من أثر هذه الرسالة أن سيف الدين غازي بعث إلى الصليبيين برسالة مليئة بالتهديد والوعيد وأنه لن يبقي لهم معه مقام ببلاد الشام[١٠٨] .ويبدو أن معين الدين أنر كان متلهفاً على جلاء الصليبيين حتى لا يقع تحت رحمة الزنكيين فعرض عليهم في نفس الوقت أن يسلمهم حصن بانياس مقابل جلائهم عن دمشق وهو عرض مغري– على حد قول مؤرخ محدث آخر –كان لابد للصليبيين أن يقدروه[١٠٩] .

وأمام التصدع الذي بدا في معسكر الصليبيين وظهور روح العداء والبغضاء بينهم، وما بذله أمير أنطاكية من جهد لإفشال الحملة نكاية في الملك لويس السابع ليعود خائباً[١١٠] ،وما أشار إليه بعض المؤرخين من مسئولية الاسبتارية والداوية وبلدوين الثالث عن فشل هذه الحملة، ولكثرة عدد القادة وقلة عدد لجنود، ولقلة الأقوات واشتداد الحرارة في أشهر الصيف وندرة المياه ولتدفق النجدات على معين الدين ونهوض المجاهدين والزهاد والفقهاء لحرب الصليبيين" والمسارعة

---

(١٠٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٩ (تحقيق عبد القادر طليمات)،
أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٥٣

(١٠٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١٣

(١٠٨) أبو شامة : نفس المصدر ج١ ص ٥٣، Grousset : op. cit. II, p. 266.

(١٠٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٣٤

(١١٠) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٣١٩

لاستئصالهم"[١١١] ، لهذا كله قرر لويس السابع وكونراد الثالث الارتداد عن دمشق بعد أربعة أيام من إلقاء الحصار عليها[١١٢] ، فأبحر الإمبراطور الألماني من عكا عائداً إلى أوربا في سبتمبر سنة ١١٤٨م ، وبقي لويس السابع بعده نحو ستة أشهر بعد أن تسلم الصليبيون بانياس حسب وعد أنر لهم أثناء الحصار[١١٣] .

النتائج التي ترتبت على فشل الحملة الصليبية الثانية :

هدفت الحملة الصليبية الثانية إلى الحد من نفوذ المسلمين الذي تعاظم على يد زنكي وولديه واستعادة إمارة الرها، وتثبيت دعائم الإمارات الصليبية، غير أن فشل هذه الحملة أمام دمشق وارتحال الصليبيين في اليوم الخامس من بدء حصارهم للمدينة، أدى إلى عكس النتائج التي قدمت الحملة من أجلها[١١٤] ، فقد فقد الصليبيون عدداً كبيراً من رجالهم، وقدراً كبيراً من عتادهم، وتعرضوا لمهانة شديدة، ولم يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم، بل لم يستطيعوا المضي في الحرب أكثر من أربعة أيام، فجاء ذلك ضربة قاسمة لكرامتهم ولطمة قوية لهم، فتبددت الأسطورة التي شاعت في عصر الحروب الصليبية والتي تجعل من فرسان الغرب قوة لا تقهر، فانتعشت روح المسلمين في العالم الإسلامي وارتفعت معنوياتهم[١١٥] ،وأخذ المسلمون يسخرون من أعظم ملوك الفرنج وأكبر قادتهم الذين عادوا يجرون أذيال الخيبة، وعلى حد قول المؤرخ الصليبي وليم الصوري سخر المسلمون من مجد هؤلاء المنهار وازدروا " من كانت أسماؤهم وحدها

---

(١١١) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٩٩

(112) Stevenson : op. cit. p. 160

(١١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١٣

(114) Holt : The Age of the Crusades . pp. 43 - 4

(115) Grousset : op. cit. II, pp. 270 - 1,Cahen :op. cit. p. 382

تبث الفزع في نفوسهم،.. فلم يعودوا يقيمون وزناً لعساكر المسيحيين ولا يتأخرون عن مهاجمتهم"(١١٦) . وتشجع المسلمون فبدأوا سلسلة من الإغارات التي تهدف إلى استرداد ما فقدوه، ولعل ذلك هو الذي جعل بعض المؤرخين المحدثين يذهب إلى القول بأن فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ الفرنج في الشرق الأدنى(١١٧) .

ومن النتائج التى ترتبت على فشل هذه الحملة أن بلغت العلاقات بين المسيحيين الغربيين والبيزنطيين من السوء ما جعلها وشيكة الانقطاع، بعد أن تبادل الطرفان الاتهامات ووسعوا شقة الخلاف بينهما(١١٨) .ومن نتائجها أيضا أنها بذرت بذور الشك والحقد في نفوس الصليبيين الجدد والقادمين حديثا إلى الشرق وبين اللاتين المقيمين بالشرق منذ الحملة الأولى وخلفائهم، فضلا عما أثارته من نزاع بين قادة وحكام البلدان المسيحية في الغرب، بعد أن ألقى كل طرف مسئولية فشل الحملة على الطرف الآخر، فضلا عما جرى من انقسام وتضارب في الآراء بين قادة الصليبيين من زعماء اللاتين في الشرق الأدنى(١١٩) .

كما أدى فشل الحملة الصليبية الثانية إلى ازدياد نفوذ نور الدين محمود وتعاظم قوته فطمح إلى تصفية أملاك إمارة أنطاكية شرقى نهر العاصى، كما أدى تراجع الحملة عن دمشق وعودة قادتها إلى الغرب الأوربى إلى خلق فرصة مواتية أمام نور الدين محمود لتحقيق

---

(١١٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٢٢

(117) Runciman : op. cit. II, p. 291,

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٣٦

(118) Ostrogorsky : op. cit. p. 340

(119) Stevenson : op. cit. p. 163

أهدافه[١٢٠] . إذ يبدو أن عدم نجاح ريموند دى بواتيه – أمير أنطاكية – في جذب الحملة الثانية لتأمين وجوده في الشمال واسترداد أملاكه شرقى نهر العاصى جعله يتهور ويحاول الاعتماد على نفسه لاستعادة أملاك الإمارة في تلك الجهات، فجمع جنوده وعسكر قرب بحيرة العمق استعدادا للهجوم على حلب[١٢١] ، فكانت هذه هى فرصة نور الدين محمود التى انتظرها بعد فشل الحملة الثانية، إذ مالبث أن نجح في الانقضاض على ريموند إلى الشمال الشرقى من بحيرة العمق حيث أنزل به هزيمة ساحقة سنة ١١٤٩م (٥٤٣هـ) أضافت إلى فشل الحملة فشلا ثانيا لإمارة أنطاكية، ووقع في يد نور الدين عددا من قادة أنطاكية ومقدميهم، وغنم منهم المسلمون غنائم كثيرة[١٢٢] . وازدادت قوة نور الدين محمود واتسعت أملاكه، وخطا خطوة نحو توحيد الجبهة الاسلامية في بلاد الشام بعد وفاة أخيه سيف الدين غازى في نفس العام (١١٤٩م) حين استولى نور الدين على مدينة حمص[١٢٣] من أملاك أخيه الراحل، فأضحى بذلك يواجه إمارة أنطاكية ويتطلع لتصفية أملاكها في الشرق .

ثم مالبث نور الدين محمود أن اتجه على رأس قواته لمحاصرة قلعة إنب شرقى نهر العاصى فأجبر ريموند دى بواتيه على الخروج متسرعا قبل أن تكتمل قواته، فأحاط به نور الدين من كل جانب وأعمل فيه وفي فرسانه السيف فحصدهم حصدا في يونيو سنة ١١٤٩م وقتل ريموند دى بواتيه نفسه في تلك المعركة " فعرف وقطع رأسه وحمل إلى نور الدين فوصل حامله بأحسن صلة "[١٢٤] لأن ريموند كان

---

(120) Grousset : op. cit. II, p. 272

(121) Runciman : op. cit. II, p. 326

(١٢٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٩٢

(١٢٣) ابن الإثير : التاريخ الباهر ص ٩٩ (تحقيق طليمات)

(١٢٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥

من عتاة الفرنج ومن كبار زعمائهم[(١٢٥)] ، " وكان هذا اللعين من أبطال الإفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل والتناهي في الشر"[(١٢٦)] كما " كان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم"[(١٢٧)] .
وذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن ريموند "جاءته ضربة سيف فجندلته صريعا فحز الترك رأسه وذراعه اليمنى وحملوهما وتركوا بقية جثته المشوهة بين جثث القتلى " ، ثم أرسل نور الدين محمود " رأس ريموند وذراعه اليمنى إلى الخليفة العباسى ببغداد" [(١٢٨)] ، فعم الفرح أوساط العالم الاسلامى خاصة وقد لقى مصرعه أيضا في تلك المعركة عدد من كبار قادة الصليبيين منهم رينو أمير مرعش، كما قتل على بن وفا زعيم الباطنية الذى تحالف مع الصليبيين، وكان مرافقا لهم في تلك المعركة[(١٢٩)] .

انتهز نور الدين محمود فرصة الهلع الذى أصاب إمارة أنطاكية، وتقدم يدمر في أملاكها وينتقم من رعاياها حتى وصل إلى المدينة ذاتها، فلم يشأ أن يضيع وقتا أمامها بل بادر بتصفية كل أملاكها شرقى نهر العاصى، فأصبحت أنطاكية في حالة يرثى لها بعد أن فقدت عاهلها ومعظم فرسانها وباتت في وجل شديد " ولم يعد للامارة من أحد يصد

(١٢٥) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٥٨ . ابن العديم : زبدة ج٢ ص ٢٩٩
(١٢٦) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٠٥
(١٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢١
(١٢٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٢٣ - ٣٢٤
(١٢٩) كان نور الدين قد هاجم الباطنية بعد أن " أظهر السنة بحلب وغير البدعة التي كانت للملاحدة فيها وقمع بها الرافضة " فتحالف زعيم الباطنية مع الفرنج وانحاز إليهم على بن وفا في قتال نور الدين في معركة إنب. انظر :
ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٩٩،
أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٥٨

عنها الأخطار التى راحت تهددها " [١٣٠] . وفي الوقت الذى عاشت فيه أنطاكية تلك الكارثة، كانت بقية القوى الاسلامية تحاول الإفادة من هذه الظروف لتصفية ما بقى من إمارة الرها، إذ تقدم مسعود سلطان سلاجقة الروم بقونيه وصهر نور الدين محمود فاستولى على المدن القريبة منه من توابع الرها فدخل ابنه قلج أرسلان مدينة مرعش في سبتمبر سنة ١١٤٩م [١٣١] ، ثم غزا السلاجقة كيسوم في الصيف التالى (١١٥٠م) ، واستولى بعد ذلك على بهسنى ورعبان، وتقدم الأراتقة التركمان من الجزيرة فاستولوا على بعض الحصون الأخرى شمالى سميساط، بل نجحوا في القبض على جوسلين الثانى نفسه وسلموه إلى نور الدين محمود الذى سجنه بحلب بعد سمل عينيه، حيث توفى بعد ذلك بتسع سنوات (١١٥٩م)[١٣٢] .

وهكذا تداعت إمارة الرها، ولم يبق منها سوى الإسم وبعض الحصون القليلة واعتقل أميرها في حلب وفقدت مقومات بقائها، كما قتل أمير أنطاكية وعدد من كبار قادتها وفرسانها . وإذا كان الملك بلدوين الثالث قد سارع بالمسير إلى أنطاكية لتهدئة سكانها ورفع روحهم المعنوية[١٣٣] ، نظرا لأن كونستانس أرملة ريموند والوصية على ابنها بوهيموند الثالث كانت قليلة الخبرة صغيرة السن، لا يمكنها النهوض بأعباء الحكم وحدها على الرغم من قيام البطريرق إيمرى بمساعدتها في ذلك، إلا أن ذلك كله لم يفد الصليبيين في الشمال فظلوا

---

(١٣٠) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٣٢٥

(131) Grousset : op. cit. II, p. 288 , Cahen : op. cit. p. 384

(١٣٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٢ – ١٠٣ .

ابن العديم : زبدة ج٢ ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

Holt : op. cit. p. 53, Runciman : op. cit. II, p. 328

(١٣٣) وليم الصوري : نفس المصدر ج٣ ص ٣٢٥

في خوف وقلق عظيمين[١٣٤] ، واضطرت أرملة جوسلين الثانى ووارثة ما تبقى من إمارة الرها إلى بيع أملاكها للإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين، فصفت بذلك أول إمارة أقامها الصليبيون في الشرق وأنهت عهدها في أطراف العراق[١٣٥] ، إلا أن نور الدين محمود وصهره مسعود سلطان سلاجقة الروم مالبث أن استوليا على ما اشتراه الامبراطور قبل أن يمضى عام على تلك الصفقة[١٣٦] ، وتبخرت إمارة الرها الصليبية واستردها المسلمون، فجاء ذلك بداية النهاية للكيان الصليبى كله ببلاد الشام .

ومن نتائج فشل الحملة الصليبية الثانية أيضا أن أدرك الصليبيون قوة الزنكيين المتعاظمة وحيلولتهم دون التوسع جهة الشمال الشرقى، فتحتم أن يتجه التوسع الصليبى جهة الجنوب الغربى، أى على حساب مصر الفاطمية[١٣٧] ، وهى السياسة التى اتخذت طابعا عمليا واسع النطاق منذ عهد بلدوين الثالث وعمورى الأول في بيت المقدس، أى منذ أن أصبح الملك بلدوين الثالث يافعا ونهض بمسئولياته في المملكة . وكان قادة الحملة الصليبية الثانية قد اجتمعوا فى المملكة، بعد عودتهم الخائبة من حصار دمشق وعقدوا مجلساً" في محاولة جديدة منهم للقيام بأى عمل يرفع من ذكرهم... فاقترح بعضهم محاصرة عسقلان "[١٣٨] ، غير أنها كانت محاولة فاشلة على حد قول المؤرخ وليم الصورى، إذ انفضت الحملة وعاد قادتها إلى الغرب دون تحقيق هذا الهدف، غير أن بلدوين الثالث عاد ففكر في

---

(134) Grousset : op. cit. II,p. 298

(135) Stevenson : op. cit. p. 168

Cahen : op. cit. p. 389

(١٣٦) ابن القلانسي : ذيل ص ٣١٥ .

(137) Holt : op. cit. p. 46

(١٣٨) وليم الصوري ك الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٢٠

هذا المشروع لتصبح عسـقلان نقطـة انطـلاق للصليبيـين في مصـر[١٣٩] ، فحاصرها في أوائل عام ١١٥٣م، فاستسـلمت المدينـة في أغسـطس مـن نفس العام، بعد هجوم عنيـف، وجـاء ذلـك بدايـة مرحلـة جديـدة في الصراع حول مصر بسبب ضعف حكامها الفـاطميين وتهـالك خلافتهـا حتى راحت هذه الخلافة تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثاني عشـر في الوقت الذى تأهب فيه الصليبيـون للاسـتيلاء علـى عسـقلان[١٤٠] ، فكأن سقوط عسقلان في أيدى الصليبيين جاء نتيجـة مـن نتـائج فشـل الحملة الصليبيـة الثانيـة وازديـاد قـوة نـور الديـن محمـود في الشـمال والشمال الشرقى، فكان على المملكة، أن تتجه اتجاهـا جنوبيـا غربيـا ضد مصر، بعد أن حال نور الدين بينها وبـين الاتجـاه شمـالا وشمـالا بشرق[١٤١] .

---

(139) Stevenson : op. cit. p. 171

(١٤٠) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٢٠

(141) Holt : op. cit. p. 46

الفصل الثامن

الجبهة الإسلامية المتحدة

الفصل الثامن
الجبهة الإسلامية المتحدة

اتساع الجبهة الإسلامية المتحدة في بلاد الشام :

من الأمنيات التي عز تحقيقها على عماد الدين زنكي ضم مدينة دمشق إلى الجبهة الإسلامية التي أقامها في أطراف العراق وشمال بلاد الشام، وتضم الموصل وحلب، على الرغم من محاولاته المستمرة للاستيلاء على دمشق دون طائل، وظلت دمشق تحت حكم البيت البوري تكابر وترفض الانصياع للأمر، وتستنجد بالأعداء الصليبيين أحياناً، وتتصدى لكل المحاولات إلى أن يئس زنكي من ضمها[1]، ومضى في مشروعاته وتوج أعماله بإسقاط مدينة الرها سنة ١١٤٤م .

ولم يأل نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي جهداً في محاولة ضم دمشق، غير أن حكام هذه المدينة كانوا لا يزالون في مكابرتهم، يرفضون الانضواء تحت لواء الزنكيين ويفضلون المضي في سياستهم الانفصالية، ولا يتحرجون من طلب المساعدة والنجدة من الصليبيين في بيت المقدس كلما لاحت الأخطار في أفقهم البعيد[2]، وأدرك نور الدين محمود صعوبة الاستيلاء على المدينة عنوة، نظراً لحصانتها من ناحية، ولأن حاكمها الجديد مجير الدين أبق (١١٥٠-١١٥٤م)، الذي ولي الحكم بعد وفاة معين الدين أنر في أواخر سنة ١١٤٩م ، لجأ هو وأعوانه الانفصاليون إلى استدعاء الصليبيين ومحالفتهم. ومضوا في سياستهم الانفصالية [3] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٨٨.

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ١٧٥

(٢) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٦٩ . ابن القلانسي : ذيل ص ٣٠٨.

Grousset : op. cit. II, p. 341

(3) Stevenson : op. cit. 167 , ابن القلانسي : ذيل ص ٣٠٨

وتأكد نور الدين محمود من ذلك حين زحف إليها أكثر من مرة لإجبار حاكمها على تغيير سياسته[٤] ، ومعرفة إلى أى مدى يمكن أن تصمد المدينة ، ولم يرضه حينئذ اعتراف مجير الدين أبق له بشبه سيادة على دمشق حين " بذل الطاعة وأقام له الخطبة على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان والسكة ووقعت الإيمان على ذلك" [٥] ، إذ ازداد نور الدين محمود إصرار على تصفية هذا الحاكم الانفصالي والاستيلاء على دمشق، وعلى الرغم من إدراك نور الدين محمود أهمية ذلك وأهمية دمشق بالنسبة للجبهة الإسلامية المتحدة في بلاد الشام، إلا أنه بعد تجارب مع حاكمها آثر في النهاية التريث وأخذ هذا الحاكم باللين والسياسة ، بدلاً من اللجوء إلى القوة والحرب[٦] ، لاسيما وأنه مال إلى اخذ دمشق دون أن يتكبد ثمناً باهظاً من رجاله أو عتاده فضلاً عن أنه آمن أنه " لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم البعض " لأنه " يدخرهم كيما يبذلوا أنفسهم في مجاهدة المشركين"[٧] ، بالإضافة إلى أنه عول على أخذ المدينة سليمة دون أن يلحق بها تخريب وعن طريق المفاوضات[٨] .

وكان أن نجح نور الدين محمود في كسب ثقة ذلك الأمير بعد مفاوضات تولاها عنه شيركوه، وتولاها عن مجير الدين أبق نجم الدين أيوب ، وعقدت معاهدة أتبعها مجير الدين أبق بزيارة حلب ، فبالغ نور الدين في إكرامه[٩] ، وكان نور الدين قد لجأ إلى بذل العطاء لبعض

---

(4) Stevenson : op. cit. p. 169

(٥) ابن القلانسي : ذيل ص ٣١٧

(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧ (تحقيق طليمات)

(٧) ابن القلانسي : ذيل ص ٣١٥ – ٣١٦ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٨١

(8) Grousset : op. cit. II, p. 345

(٩) ابن القلانسي : ذيل ص ٣١٧

رجال دولة هذا الحاكم وغمرهم بسخائه هم وكثير من جنده فضلاً عما أظهره من العطف والاحسان على الفقراء والضعفاء من أهل المدينة[١٠]، وفي نفس الوقت عمل نور الدين محمود على الإيقاع بهذا الحاكم عن طريق بث الشكوك في نفسه من جهة أعوانه وكبار المؤيدين له في المدينة، فتمت الحيلة ومضى في خطة تصفية أعوانه وأمرائه، فأوقع المدينة في فترة فوضى واضطراب كما عمل نور الدين على التفرقة بين هذا الحاكم وأهل دمشق، وضرب لسكان المدينة مثلاً في حسن السيرة والعدل في الرعية، وقدم أدلة على ذلك، فقد قاتل الصليبيين وجاهدهم[١١] ،وأعلن أنه " لا ينحرف عن جهادهم" وذلك حين اضطر سكان حوران وبعض أعمال دمشق إلى الالتجاء إليه لحمايتهم من جور الصليبيين وهجمات بعض الخارجين ، فكتب نور الدين إلى حكام دمشق يقول لهم " أنه لا يسعني ... أن اقعد عنهم ... مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ على محاربتي وبذل أموال الضعفاء والمساكين لهم، وهذا لا يرضي الله ولا أحد من المسلمين "[١٢] ، فحارب نور الدين محمود الفرنج وفي نفس الوقت ضرب لسكان دمشق مثلاً في العدل في الرعية وحسن رعايتهم إذ أمر جنده بأن يلتزموا في زحفهم في الأعمال الدمشقية ويسلكوا مسلكاً حسناً وسيرة طيبة حتى يواصل أهل دمشق الدعاء له، فأجبرهم على عقد مقارنة بينه وبين حاكمهم وفرق في نفس الوقت بينهم وبين القائمين على أمرهم. والدليل على ذلك أنه حينما هطلت الأمطار وكثرت الثلوج في حوران والبقاع والبرية بعد احتباس وأينع الزرع ورخيت الأحوال ضج الناس بالدعاء له، وقالوا هذا ببركته وحسن

---

(١٠) ابن القلانسي : ذيل ص ٣١٠، حسن حبشي: نور الدين والصليبيون ص ٦٥،
Runciman : op. cit. II, p. 341

(11) Grousset : op. cit. II, p. 341

(١٢) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٧٠ . ابن القلانسي : ذيل ص ٣٠٩

سيرته وعدله في الرعية[١٣] .

وأثمرت سياسة نور الدين فحدثت الهوة بين حاكم المدينة وأهلها، وجرت تصفية أعوان الأمير وأخلص أمرائه، فاستاء من مجير الدين أهل البلد وكرهه الخاص والعام واستشرت الفتن في المدينة، وقلت الأقوات وضربت المدينة في الفوضى وطمع الفرنج فيها فخشي نور الدين أن يملكها الفرنج، بعد أن استولوا في العام السابق على مدينة عسقلان، فلا يبقي حينئذ لأحد من المسلمين معهم بالشام مقام[١٤] ، وعندئذ تقدم نور الدين محمود على رأس قواته إلى دمشق فحاصرها عدة أيام فقام الأحداث وهم حرس المدينة وشرطتها والذين كان نور الدين قد كاتبهم وحثهم على الثورة، فسلم هؤلاء البلد إليه فدخله بالأمان " وتلقاه أهلها بالترحاب واستسلموا له طائعين " على حد قول المؤرخين [١٥]، وذلك في إبريل سنة ١١٥٤م واعتصم أبق بقلعة المدينة، ثم استسلم في النهاية لنور الدين الذي أطلق سراحه وولاه بعض الولايات ومنحه بعض الإقطاعيات قبل أن ينسحب أبق إلى بغداد حيث توفي فيها بعد ذلك بسنوات[١٦]، وانتهت بذلك الأسرة البورية التي استقلت بدمشق فترة اقتربت من النصف قرن من الزمان (١١٠٤-١١٥٤م) بعد أن أصابها الضعف والانهيار وتوالى على حكمها أتابكة ضعاف منذ وفاة تاج الملوك بوري بن طغتكين سنة ١١٣٢م[١٧]،

---

(١٣) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ،

حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٦٣ - ٦٤

(١٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦

(١٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٦٠

(١٦) ابن العديم : زبدة ج٢ ص ٣٠٥ ،أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٩٦

Runciman : op. cit. II, p. 341, Grousset : op. cit. II, p. 365

(17) Groussrt : op. cit. II, p. 362

إذ سلك معين الدين أنر سياسة التحالف مع كل القوى بما فيها الفرنج لحفظ استقلال دمشق وجاراه في ذلك مجير الدين أبق الذي ولي بعده فأكمل انهيار الأسرة البورية ثم زوالها في النهاية، وبدا أن مشروع الجبهة الإسلامية في بلاد الشام يوشك أن يتم على يد نور الدين محمود قرب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي(١٨).

ويميل بعض كبار المؤرخين إلى الاعتقاد بأن استيلاء نور الدين محمود على دمشق يعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية، نظراً لأنه لأول مرة منذ زمن طويل أصبحت هناك دولة إسلامية واحدة تمتد من الرها شمالاً حتى حوران وشرق الأردن جنوباً وعلى امتداد الحد الشرقي للإمارات الصليبية أصبح مركزها دمشق والتي غدت قلب هذه الجبهة ومركزها وعلى حد قول ابن الأثير أصبح للاسلام دعائم في دمشق " وثبت أوتاده فأيقن الكفار بالبوار ووهنوا واستكانوا" (١٩) وصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين(٢٠)، بل إن ذلك كان الرد العملي على استيلاء الصليبيين على مدينة عسقلان قبل ذلك بعام واحد وفاق في أهميته استيلاء الصليبيين على تلك المدينة لأنه من دمشق امتد تيار هذه الجبهة تجاه مصر(٢١)، فإذا كان الصليبيون قد ضمنوا لأنفسهم السيطرة على ساحل بلاد الشام من أقصى الشمال حتى غزة جنوبا بما يعنيه ذلك من تهديد لمصر وتطلع لغزوها، فإن استيلاء نور الدين محمود على دمشق أعاد التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، وجعل داخلية بلاد الشام في قبضة قوة إسلامية واحدة تمتد من الفرات حتى بردي(٢٢). ثم إن

---

(18) Stevenson : op. cit. p. 173, Holt : op. cit. p. 45

(١٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢٠) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٩٧

(21) Holt : op. cit. p. 45

(٢٢) سعيد عاشور الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٦٥

استيلاء نور الدين على دمشق جاء خطوة كبرى نحـو تحقيـق الجبهـة الإسلامية المتحدة في الشرق الأدنى من ناحية وحطم الحاجز الذي كان يفصل قوات حلب عن بيت المقدس من ناحية أخري، فأصبحت هـذه الأخيرة في متناول يد نور الدين وتحت رحمته، ولم يعد يحـول بينـه وبينها حاجز[٢٣]، حتى وصف وليم الصورى استيلاء نـور الديـن علـى دمشق بأنه كان " كارثة لحقت بمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضـع الصليبيين في مواجهة خصم عنيد حل محل رجل كان مسلوب الإرادة" ولم يمض وقت طويل حتى اتسعت الجبهة الإسلامية فشملت المنطقة الممتدة من الفرات إلى النيل والتي كان قيامها بمثابـة الضربـة القاضيـة للصليبيين[٢٤].

وأحدث استيلاء نور الدين محمود على دمشق بهجة وسـروراً في الأوساط الإسلامية وقويت عزائم المسلمين، على الرغم من أن نور الدين عزم على تهدئة الأمور في بلاد الشام فترة لحاجته الماسة لتوطيد سلطته في أملاكـه الـتي اتسـعت كثـيراً في السـنوات الأخـيرة، وللتفـرغ أيضـاً لفتوحاته في الشمال[٢٥] ، إذ استولى بعد ذلك على مدينة بعلبـك وسـير واليها نجم الدين أيوب إلى دمشق ليكون في خدمته ويصبح بقرب أخيه أسد الدين شيركوه[٢٦] ، وفي نفس الوقت وجه بلدوين الثـالث – ملـك بيـت المقـدس – اهتمامـه في تلـك الفـترة للتصـدي لغـارات الأسـطول الفاطمي على سواحل المملكـة[٢٧] ،إلا أن فـترة المهادنـة هـذه لم تطـل أكثر من عام واحـد، فقـد اسـتثار بلدويـن الثـالث نـور الديـن ببعـض

---

(23) Stevenson : op. cit. pp. 173 - 4

(٢٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٦٦٦

(25) Runciman : op. cit. II, p. 342

(٢٦) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٠٠

(27) Stevenson : op. cit. p. 173

الأعمال الاستفزازية التي انحدرت إلى حد اللصوصية ضد الرعاة التركمان في منطقة الأردن وحول بانياس الذين سبق أن حصلوا على موافقة الملك الصليبي على الرعي في تلك المناطق، إلا أنه في تلك السنة " غدر الكفرة الافرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة" [٢٨].

وأدى جشع الصليبيين وطمعهم فيما كان يرعاه هؤلاء الرعاة من قطعان الخيل والماشية والجمال إلى دفع الملك وأمراء الصليبيين إلى الهجوم عليهم في أوائل سنة ١١٥٧م فقتلوا بعضهم وأسروا البعض الآخر واستولوا على كل قطعانهم، ولم يلتزموا بالأمان الذي منح لهؤلاء الرعاة ولا لأبسط مبادئ الشرف[٢٩] ، الأمر الذي عرض الملك الصليبي لنقد المؤرخ وليم الصوري الذي أنكر على الملك نقضه للهدنة ووصف هذا العمل بأنه عمل غير صالح فقال : " ومع ذلك فإن هذا العمل لم يكن عملاً صالحاً ولم يحظ بالثناء من ناحية شعبنا" [٣٠] وإن التمس للملك العذر بأن الذي زين له نقض الهدنة نفر من الأشرار، وأنه فعل ما فعل ليخرج من الضائقة المالية التي كان يعيشها[٣١] .

ولم يكد نور الدين يعلم بذلك حتى تصدى للملك الصليبي فأذاقه الهزيمة المرة في مايو سنة ١١٥٧م ، ثم ما لبث أن حاصر بانياس "وهاجمها بسيل من السهام رمياً موصولاً" ولم يعط حاميها فرصة لالتقاط الأنفاس ليلاً أو نهاراً " حتى بلغ الإنهاك منهم مبلغه " [٣٢]، ثم اقتحمها نور الدين عنوة ودخلها قسراً في مايو من نفس العام ولم ينج منهم إلا القليل " وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب

(٢٨) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٣٧

(29) Grousset : op. cit. II, p. 368

(٣٠) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٤٠٤

(٣١) وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٤٠٣ – ٤٠٤

(٣٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٠٦

وأسير وطريح وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وعدد سلاحهم وكراعهم مالا يحد كثرة "[٣٣] ، على حين هرب بلدوين الثالث نفسه إلى صفد بعد أن أذاقه نور الدين طعم الهزيمة واقتص منه للصوصيته وعدم احترامه العهد وخيانته لمبادئ الشرف[٣٤] .

هذا ويشير المؤرخون إلى أن استيلاء نور الدين على دمشق جاء بداية مرحلة هامة في تاريخ هذه المدينة وتاريخ بلاد الشام بأسرها، فقد أحيى فيها المذهب السني وأقام بها دار العدل، وبلغ من اهتمامه بتطبيق العدالة أن أضفى عليه الخليفة لقب " الملك العادل " وذلك في نفس العام الذي دخل فيه دمشق وأورد المؤرخون كثيراً من دلائل عدله وحرصه على الجلوس بدار العدل أياماً كل أسبوع لسماع شكاية الرعايا خاصة تلك التي تقدم ضد موظفي الإدارة[٣٥] ،فضلاً عما قام به من إنشاء المدارس والخوانق وإقامة المارستان الذي نال شهرة فائقة طوال العصور الوسطي، وعمر استحكامات المدينة واهتم بأمر تحصينها وتحصين مدن وقلاع كثيرة في الجزء الشمالي من مملكته[٣٦] ،وأحدث أثراً عظيماً في تاريخ دمشق وفي تاريخ بلاد الشام بأسرها .

غير أنه لم تكد تمضي إلا شهور قليلة حتى حدث في نفس العام (١١٥٧م) هزات أرضية عنيفة بدأت في أوائل يوليو واستمرت إلى أواخر العام فألحقت أضراراً بالغة بكثير من القلاع والمدن في بلاد الشام في الجانب الإسلامي والصليبي على حد سواء ففي الجانب الإسلامي تأثرت حلب وحمص وحماة وكفر طاب وأفامية وغيرها من المدن والقلاع تأثيراً شديداً[٣٧] ، في الوقت الذي مرض فيه نور الدين محمود

---

(٣٣) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٣٩

(34) Groussrt : op. cit. II, p. 369 - 70

(٣٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٨

(٣٦) ابن العديم : زبدة ج٢ ص ٣٠٦ . أبو شامة الروضتين ج١ ص ١٠٤

(٣٧) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٤٣

مرضاً شديداً أشرف فيه على الهلاك[٣٨] ،فتشجع بلدوين الثالث وضم إليه أمير أنطاكية الجديد رينودي شاتيون (أرناط) ، وهو المغامر الفرنسي الذي وصل في أعقاب حملة لويس السابع وبقي في بلاد الشام بعد رحيل لويس وتزوج من ابنة ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية فآلت إليه الإمارة، وكذلك ضم أمير طرابلس ريموند الثالث فضلاً عن تيبري Thierry كونت فلاندرز ورفاقه من النبلاء وجنده الذين وصلوا إلى عكا قبل هذه الأحداث بقليل، واتفق الجميع على المسير إلى أنطاكية، بل استدعى أيضاً ثوروس الثاني الأرمني أمير قيليقية للمساهمة في الإجهاز على الدولة النورية[٣٩] ، وانتهز الجميع الفرصة فاستولوا على القلاع التي خربتها الزلازل مثل شيزر وحارم وأفامية وغيرها ولكن في شيزر نشب النزاع بين الصليبيين حول إقطاعها لكونت فلاندرز على أن يتبع ملك بيت المقدس ومعارضة رينودي شاتيون (أرناط) الذي أصر على تبعيتها لأنطاكية فعاد الصليبيون إلى بلادهم، في الوقت الذي أبلي فيه نور الدين محمود من مرضه وانتقل إلى دمشق ثم استأنف في مارس سنة ١١٥٨م جهوده ضد الصليبيين[٤٠] .

أرسل نور الدين قائده أسد الدين شيركوه للإغارة على منطقة صيدا، ثم قام بالإغارة على إقليم الجليل جنوبي بانياس، ثم ما لبث أن استرد شيزر في حوض نهر العاصي[٤١] ، وكان لاستيلاء نور الدين على مدينة شيزر أثر مكدر للصليبيين بصفة عامة وبلدوين الثالث بصفة

---

(٣٨) وليم الصوري :المصدر السابق ج٣ ص٤١٧.

ابن القلانسي : ذيل ص ٣٥٠ - ٣٥١، Grousset : op. cit. II, p. 388

(٣٩) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٣١٦ - ٣١٧

Grousset : op. cit. II, p. 381

(٤٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٢ ، Runciman : op. cit. II, p. 344

(٤١) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١١٢ . ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٢

خاصة، إذ جاء زوال الأسرة البورية في دمشق وزوال آل منقذ من شيزر عامل هام في تغيير الأوضاع في بلاد الشام[٤٢] ، فقد لعب الصليبيون دورهم اعتماداً على مقاومة هذه الأسر قيام وحدة في تلك البلاد والاستنجاد بالصليبيين كلما دعت الضرورة إلى ذلك[٤٣] ، كما جاء استيلاء نور الدين على المدينتين المذكورتين علامة على امتداد الجبهة الإسلامية المتحدة وعاملاً ضاغطاً على الصليبيين خاصة وأنهم لم يستطيعوا الإفادة من مرض نور الدين وما حدث من زلازل في بلاد الشام، لهذا فقد اقتنع بلدوين الثالث بضرورة التحالف مع قوة كبرى خارج بلاد الشام[٤٤] ،لحرب نور الدين محمود من ناحية ولإطلاق يده في التدخل في شئون مصر من ناحية أخري لذا استقر رأى الملك الصليبي على محالفة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين ومصاهرته، فسعى إلى الزواج من ابنة أخي الإمبراطور، الأميرة ثيودورا ورحب الإمبراطور بذلك ووصلت العروس فعلاً إلى عكا في خريف سنة ١١٥٨م، ثم انتقلت إلى بيت المقدس حيث " جرى زفافها بعد أيام قلائل على مألوف عادة المملكة وتوجت بالتاج الملكي "[٤٥] .

فلم يكد يمضي على هذا الزواج سوى نحو شهر، حتى خرج الإمبراطور بحملة كبيرة إلى بلاد الشام، على الرغم من أن كثيراً من المؤرخين يؤكد أن خروج الإمبراطور في أكتوبر سنة ١١٥٨ م إنما كان لتأديب الأمير ثوروس الأرمني، الذي استولى على بعض أملاك بيزنطة في قيليقية وحالف أمير أنطاكية الصليبي[٤٦] ، ولتأديب رينو دي

---

(٤٢) محمد الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام ص ٣٧٣ – ٣٧٤

(43) Grousset : op. cit. II, p. 395

(44) Ostrogosky : op. cit. p. 343

(٤٥) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٤٢٨

(46) Ostrogosky : op. cit. , pp. 342 - 3

شاتيون (أرناط) لتحديه سلطة الإمبراطور واتباعه سياسة مناهضة لبيزنطة، إلا أنه يبدو أيضاً أنه قدم لمعاونة بيت المقدس والصليبيين ضد نور الدين محمود في بلاد الشام[٤٧] .

فقد قضى الإمبراطور شهوراً عدة في قيلقية اضطر أرناط خلالها إلى إظهار الخضوع له والتماس العفو منه، فسار إليه هناك في مذلة أثارت استياء المعاصرين واللاحقين[٤٨] واستهجنها المؤرخ الصليبي وليم الصوري، الذي وصف لحظة دخول أرناط على الإمبراطور " حافي القدمين وعليه قميص خشن من الصوف، وجعل حول عنقه حبلا وأمسك بيده ذباب سيفه الذي قدمه للإمبراطور، ثم طرح نفسه أرضاً عند موطئ قدميه معفراً وجهه في التراب فاشمئز الجميع مما فعل وكسف مجد اللاتين" [٤٩] ، كما استقبل الإمبراطور في قيليقية الملك بلدوين الثالث، وجرى الاتفاق هناك في أغلب الظن على قيام هذا الحلف بمهاجمة حلب وإسقاط نور الدين محمود[٥٠] ، وتحرك هذا الحلف فعلاً في ربيع سنة ١١٥٩ م تجاه أنطاكية، فجاء ذلك تهديداً خطيراً لنور الدين محمود الذي حشد قواته واستعد عند نهر العاصي لصد الحملة[٥١] ،بعد أن شرع في مكاتبة ولاة الأعمال والمعاقل ليبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر به منهم " [٥٢] .

---

(47) Stevenson : op. cit. pp. 180 - 1

(48) Grousset : op. cit. II, p. 407

(٤٩) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٣٠ - ٤٣١

(50) Runciman : op. cit. II, p. 350

(٥١) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٢٣

(٥٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٥٤

غير أن الإمبراطور لم يكـن يقصـد في أغلـب الظـن إلا إلى إظهـار قوته أمام الصليبيين، وإذلال رينو دي شاتيون (أرناط) ، فقـد دخـل أنطاكية راكباً حصانه بينمـا كـان أرنـاط يمشـي آخـذاً بلجـام حصـان الإمبراطور في الوقت الذي رفعت فيه أعلام بيزنطة على المدينة، فكـأن الإمبراطور كان يحاول بسط نفوذه على المدينة وإذلال أميرها أرناط(٥٣)، إذ ما لبث الإمبراطور أن اكتفى بالدخول في مفاوضات مع نـور الديـن، ويعلل المؤرخون عدم نشوب الحرب مع نور الدين بما بلـغ الإمـبراطور من حدوث مؤامرات في القسطنطينية، وما جرى من اضطراب في أملاك بيزنطة في أوربا، فضلاً عن حـرص الإمـبراطور علـى الإبقـاء علـى نـور الدين للإفادة منه لكبـح جمـاح الصليبيـين مـن ناحيـة ومحالفتـه ضـد سلاجقة الروم من ناحية أخـرى، فضـلاً عـن حرصـه علـى ألا تلحـق بقواته أية خسائر دون مبرر(٥٤).

لهذا جرت المفاوضات حول إطلاق نور الدين لأسرى الصليبيين الذين بلغـوا عنـده عـدة آلاف مـن بينهـم بعـض القـادة والنبـلاء(٥٥)، وعندما وافق نور الدين على ذلك حقناً للدماء، أوقـف مـانويل الحملـة فوراً ضد حلب، فباءت خطة التحـالف الصليـبي البيـزنطي ضـد نـور الدين بالفشل الذريع وبدأ تفكـير الصليبيـين يتجـه إلى الاعتمـاد علـى أنفسهم وعلى نجدات أوربا في الوقوف في وجه ذلك المجاهد الكبـير في بلاد الشام(٥٦)، غير أن أرناط حاكم أنطاكية ما لبث أن وقـع في قبضـة نور الدين بسـبب جشـعه ولصوصيتـه حـين هـاجم منـاطق المراعـي في الجزيرة للاستيلاء على قطعان الأغنام والمواشي والخيول فأسـره نـائب

(53) Grousset : op. cit. II, pp. 399 - 402

(54) Runciman : op. cit. II, p. 355

(55) Stevenson : op. cit. p. 181

(٥٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٧٧

نور الدين في حلب[٥٧] وجرى سجنه بحلب نحو ستة عشر عاماً (١١٦٠ - ١١٧٦ م) ، وانتقل حكم أنطاكية إلى بوهيموند الثالث على الرغم من رغبة كونستانس في الاستئثار بالنفوذ فيها مرة أخرى خاصة بعد أن تزوج الإمبراطور مانويل كومنين ابنتها ماريا سنة ١١٦٠م[٥٨] لولا أن بادر الملك الصليبي بإقرار الأمور في الإمارة، ثم ما لبث الملك الصليبي بلدوين الثالث نفسه أن توفى في بيت المقدس في فبراير سنة ١١٦٢م، وانتقل حكم المملكة إلى أخيه عموري الأول[٥٩] وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة وفي تاريخ الصليبيين منذ ذلك الوقت .

وهكذا انتهى عهد الملك بلدوين الثالث (١١٤٣ - ١١٦٢ م) الذي يعتبره كثير من المؤرخين من أهم المراحل في تاريخ الصليبيين في الشرق، إذ اكتملت وتطورت في عهده الإمارات الصليبية، وشكل اللاتين حياتهم في الجهات التي نزلوا بها وفق ما تمليه البيئة وأحوال السكان الأصليين، وأصاب التعديل والتغيير التقاليد السياسية والاقتصادية والحربية والدينية للإمارات الصليبية ما جعلها تتواءم مع أحوال الشرق في ذلك الوقت[٦٠] ، وبلغ تطور الإمارات اللاتينية قرب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ما جعل كل إمارة تستقل بأمورها وترتب على ذلك إغفال الروابط الإقطاعية إلى حد كبير حتى لم تصادفنا إلا حالات نادرة اعترف فيها كونتات طرابلس مثلاً بسيادة ملوك بيت المقدس، بل إن هؤلاء لم تعد لهم في كثير من الأحيان

---

(٥٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٣٩،

ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٣١١

(58) Chalandon : Comnenus, II, p. 523,

وليم الصوري : نفس المصدر ج٣ ص ٤٤٣ - ٤٤٤

(59) Stevenson : op. cit. p. 184 - 5

(٦٠) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٦٢٣

المكانة العليا كسادة إقطاعيين[٦١] . أما ما كان يحدثه من تدخل ملوك بيت المقدس في أمور طرابلس أو أنطاكية ، وما كان يجري أحياناً من تدخل أمراء الشمال في شئون بيت المقدس لم تمله إلا رابطة الدم في بعض الأحيان ، وطلب المساعدة في أحيان أخري ، فضلاً عما أحدثه التعرض للخطر المشترك من توحيد قواهم في أحيان ثالثة[٦٢] .

وإذا كان الصليبيون قد اكتشفوا خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي بحكم التجارب التي عاشوها ما كان من تفرق كلمة المسلمين واستطاعة الصليبيين إقامة تحالفات مع بعضهم ،الأمر الذي واكب ما كان جارياً عندهم من استقلال في الإمارات الصليبية ، مما أحدث بعض التوازن بينهم وبين المسلمين[٦٣] ، إلا أن الأمر اختلف في النصف الثاني من ذلك القرن بعد أن مضى المسلمون في تحقيق الوحدة بينهم بفضل ما تهيأ لهم من زعامات تمثلت أول الأمر في عماد الدين زنكي ثم في ابنه نور الدين محمود ثم بعد ذلك في صلاح الدين[٦٤] ، وترتب على ذلك أن اضطر اللاتين لمواجهة الدولة الإسلامية الفتية والوحدة الجديدة ، أن يلتمسوا العون من الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين ، فعرضوا عليه مقابل ذلك من الحقوق والامتيازات ما سبق أن رفضه الصليبيون الأوائل ، وظل الاتصال مستمراً بينهم وبين الإمبراطورية البيزنطية طيلة عشرين عاماً[٦٥] ، فأدى ذلك إلى أن أضاف مانويل إلى دعاوي أسلافه في أنطاكية

---

(61) Baldwin : The Latin States under Baldwin III , p. 528,

العريني : المرجع السابق ص ٦٢٤

(٦٢) العريني : نفسه ص ٦٢٤

(63) Baldwin : op. cit. p. 530

(64) Stevenson : op. cit. p. 196

(٦٥) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٧

طموحات أخرى ينبغي بها مد النفوذ البيزنطي صوب الجنوب والجنوب الغربي[٦٦] ، وهكذا أضافت الجبهة الإسلامية المتحدة أعباء جديدة على كاهل الصليبيين، فضلاً عما أحدثه تطور الإمارات اللاتينية في الشرق من أعباء فجاء ذلك كله خصماً من قوة الصليبيين من ناحية وإضافة إلى رصيد المسلمين من ناحية أخرى .

مصر بين نور الدين محمود وعموري الأول :

خلف عموري الأول Amalric (١١٦٣ - ١١٧٤ م) أخاه بلدوين الثالث في حكم بيت المقدس ، نظراً لأن بلدوين الثالث لم يكن له عقب، وأجمع المؤرخون على امتداح هذا الملك الجديد والإشادة بصفاته، وما امتاز به من المهارة في الشئون السياسية والحربية، فضلاً عن دهائه ومكره ونشاطه وحيويته وشجاعته الفائقة، على الرغم من أنه كان بالغ السمنة، ولم يكن يتعدى السابعة والعشرين من عمره حين اعتلى عرش المملكة[٦٧] ،ويذكر المؤرخ وليم الصوري أن عموري الأول " كان قد تلقى قسطاً كبيراً من التعليم ... وكان يصغي إلى رواية التاريخ إصغاء جيداً ويؤثره على شتى فروع المعرفة " وكان وليم الصوري يطالع له التاريخ، بل أنه ما ألف كتابه الشهير إلا ليقرأه معه، وكان عموري شرهاً للمال يحصل عليه تارة في صورة هدايا وتارة أخرى يتوسل إليه بطرق تخالف العدالة والإنصاف " حتى أن أموال رعاياه كانت أبعد ما تكون عن الأمان، لأنه كان يغتنم الفرصة بين آن وآخر ويتذرع بأتفه الأسباب والذرائع لاغتصاب ممتلكاتهم "[٦٨] .

---

(66) Ostrogorsky : op. cit. p. 343

(٦٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٦ - ١٧

(٦٨) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٨ - ١٩

واعتبر المؤرخون فترة حكم عموري الأول من أهم فترات التاريخ الصليبي في الشرق، لأنها جاءت بداية مرحلة جديدة في عصر الحروب الصليبية، حين بدأت الحروب تتجه جهة الجنوب الغربي تجاه مصر، بعد أن حال نهوض الدولة النورية دون توسع الصليبيين في الاتجاه الشمالي الشرقي وبعد أن أوصدت الوحدة بين حلب وحماه وحمص ودمشق في وجه الفرنج الطريق المؤدي إلى الشمال الشرقي وأجبرهم على الاتجاه في طريق آخر أى تجاه مصر، في الوقت الذي بدت فيه ظروف مصر الفاطمية مشجعة للغزو، بعد أن تهالكت الخلافة الفاطمية وران عليها ضعف واضمحلال(٦٩) ،ويبدو أن عموري أدرك منذ تولي أمر كونتية يافا وعسقلان بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان سنة ١١٥٤م في حياة أخيه، أهمية الاستيلاء على مصر، بل آمن بضرورة أن يسبق المسلمين السنيين بالشام إليها، لأنه إذا سقطت مصر في يد نور الدين جرى تطويق المملكة من الشمال الشرقي ومن الجنوب الغربي، فضلاً عما كان لمصر من نشاط تجارى هام وما كان لها من مواني كبيرة على البحرين المتوسط والأحمر(٧٠) .

ولقد أغري ضعف مصر وتهالك الخلافة الفاطمية فيها خاصة في العقد الأخير من عهدها ،أغرى الصليبيين بمحاولة غزوها والاستيلاء عليها، وزادت هذه الرغبة بعد مقتل الخليفة الفائز سنة ١١٦٠م وهو الخليفة قبل الأخير في عصر هذه الخلافة، فقد ضربت البلاد في الفوضى وعمها الاضطراب ،وتنازع الوزراء فيها وتطلع كل إلى

---

(69) **Runciman** : op. cit. II, p. 365,

Grousset : L'Empire du Levant, p. 231

(70) **Baldwin** : op. cit. p. 550 ,

العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٦٥٥

الاستئثار بالسلطة[٧١] . فقد أشار بعض المؤرخين إلى أن الملك بلدوين الثالث انتهز الفرصة حينئذ وأعد جيش المملكة للزحف على مصر ، وأغار فعلاً على العريش سنة ١١٦١م لولا أن نجح الفاطميون في إثنائه عن عزمه بتعهدهم بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار، وإن لم يجر دفع هذا المبلغ مطلقاً[٧٢] ،وهى الجزية التي تذرع عموري الأول بأن الفاطميين امتنعوا عن دفعها وأنهم نقضوا " الاتفاق المبرم بينهم وبين أخيه (بلدوين الثالث) " [٧٣] للقيام بغزو مصر .

ثم استشرت الفتن في مصر على عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الفواطم في مصر، وازداد تنازع الوزراء على السلطة والنفوذ قفز شاور إلى الوزارة في يناير سنة ١١٦٣م ، فأساء السيرة في الرعية ، فخرج عليه ضرغام الذي نجح في إلحاق الهزيمة بشاور وطرده من البلاد في نفس العام، لكنه سلك طريق البغي أيضاً وارتكب كثير من المظالم، وقتل كثيراً من أمراء مصر " لتخلوا له البلاد من منازع، فضعفت الدولة بهذا السبب " ، فاستاء الناس منه [٧٤] وعم الخوف في الوقت الذي كان الملك الصليبي عموري الأول يفكر في غزو مصر وانتهاز فرصة الفوضى والضعف الذي أمست فيه تلك الخلافة[٧٥] .

احتشد الجيش الصليبي في غزة وعسقلان تحت قيادة عموري

---

(٧١) أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٥ .

وليم الصوري : نفس المصدر السابق ج٣ ص ٣٩٩ – ٤٠٠

(72) Wiet : L'Egypte Arabe, p.291,Runciman:op. cit. II, p.367

(٧٣) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٢٥

(٧٤) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٣٠ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٣٨ ، ص ٣٤٦ .

Grousset : Hist. des Croisades II, pp. 447 - 8

(٧٥) وليم الصوري : نفسه ج٤ ص ٢٥ . Wiet : op. cit. p. 292

الأول ، ثم اجتاز الصليبيون العريش دون مقاومة ، ودخلوا مصر لأول مرة في سبتمبر سنة ١١٦٣م ، وتقدم عموري على رأس قواته حتى ألتقى بجيش فاطمي يقوده ضرغام على أطراف محافظة الشرقية ، فحلت الهزيمة بضرغام وتراجع للتحصن في بلبيس[٧٦] ، حيث تابعه الصليبيون وألقوا الحصار على بلبيس، فعزت عليهم ولم يستطيعوا اقتحامها، على حين عمد المصريين إلى قطع الجسور وهدم بعض السدود، فأغرقت المياه الأراضي، فضلاً عن أن الوقت كان وقت الفيضان الذي غمر الأراضي، مما يتعذر معه مواصلة الزحف، فاضطر الملك عموري إلى الارتداد ومغادرة البلاد[٧٧] وأن كان قد وقف في تلك الحملة السريعة على أحوال مصر ومبلغ ضعفها وسهولة الإستيلاء عليها مع عظم ثرائها وغناها، ولكنه بهذا العمل الجرئ أثار مخاوف نور الدين محمود الذي لاشك أدرك خطورة تطلع الصليبيين لامتلاك مصر بالنسبة للصراع القائم معهم في بلاد الشام، فلجأ حتى قبل قيام عمورى بحملته هذه إلى مهاجمة أملاك الصليبيين في أنطاكية وطرابلس، بل وفي فلسطين ذاتها لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر وشد انتباههم إلى أملاكهم في بلاد الشام[٧٨] .

ويؤكد بعض المؤرخين أن عموري الأول أدرك في حملته الأولى هذه عدم كفاءة جند مصر من السودانيين والأرمن، وانخفاض روحهم المعنوية، كما تأكد تماماً من ندرة الحصون والاستحكامات في أقاليم مصر ، فضلاً عن عجز قادتها عن حشد كل محاربيها بما كان بينهم

---

(٧٦) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص٢٥ . Stevenson :op. cit. p.186

(٧٧) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٢٦. Wiet : op. cit. p. 292

(٧٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٤

ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ – ١١٧ . ص ١٢٤ – ١٢٥

ابن العديم :زبدة الحلب ج٢ ص٣١٢-٣١٣. Grousset : op. cit. II, p. 449

من تباين في الميول والأهواء والعقيدة وغير ذلـك، فـازداد إصـراره علـى الاستيلاء على مصر، ويؤكد هذا رسالته إلى الملـك لويـس السـابع ملـك فرنسا، الذي طلب فيها العون لتحقيق هذا الهدف[٧٩] .

على أن شاور كان قـد لجـأ إلى نـور الديـن محمـود في الشـام في أغسطس سنة ١١٦٣م وأخذ يطمعه في مصـر، والتمـس أن يبعـث معـه جيشاً يعيده إلى منصب الوزارة، وتعهد له إذا أعاده إلى مكانته في مصر أن يدفع له ثلث دخل مصـر، وأن يصبـح نائبـه في مصـر يعمـل وفـق إرادته، فضلاً عن أنه سيتكفل بدفع نفقات الحملة[٨٠] . وعلـى الرغـم من تردد نور الدين محمود في إرسال جيش مع شاور لخطـورة الأوضـاع في بلاد الشام، ولأنه كان يخشى على جنده من مخاطر الطريق لتوسـط الفرنج بينه وبين الديـار المصريـة، ومـا يمكـن أن يلحـق بجيشـه مـن هجمات فرنج الكرك والشوبك بالذات أثنـاء الزحـف[٨١] ، فضـلاً عـن أنه لم يكن يثق كثيراً في شاور أو يطمئـن إلى انـه سـيفي بوعـده حـين يستقر له الأمر في مصر، بعد أن استقر في ذهنه أن وزراء مصر وخلفاءها هم المسئولون عن هذا التسابق بينه وبين الصليبيـين للتدخـل في شـئون مصر وعما كان يجري فيها من حروب داخلية [٨٢] على الرغم من كـل ذلك إلا أن نور الدين فيما يبدو أراد أن يسبق الصليبيين في الاسـتحواذ على مصر، أو على الأقل أن يحول بينهم وبين الاستيلاء عليها، فضلاً عن أنه لم يشأ أن تفوته تلك الفرصـة للاسـتيلاء علـى مصـر للتعجيـل بالقضاء على الخلافة الشيعية فيها [٨٣] . ولهذا اسـتجاب نـور الديـن

---

(79) Cahen : op. cit. pp. 406-7 ,Wiet : op. cit. pp. 219- 2

(٨٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢٠ ،أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٣٠

(٨١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٨، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢١

(٨٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ – ٧٩

(83) Wiet : op. cit. p. 293. باركر : الحروب الصليبية ص ٧٩

لشاور "واستمالته إليه وعوده وطمع في أن يستحوذ على مملكة مصر لنفسه"[٨٤]، فأرسل حملة مع شاور سنة ١١٦٤م بقيادة أسد الدين شيركوه ورفقته ابن أخيه صلاح الدين، وكان حينئذ في السابعة والعشرين من عمره.

ويشير المؤرخون إلى أن شيركوه هو الذي بدد مخاوف نور الدين "إذ كان عنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي معه بمخافة" [٨٥]، فقد كان أكبر أمراء نور الدين وأشجعهم وقال عنه وليم الصوري أنه "ارتفع بموهبته حتى بلغ مرتبة الأمراء، لأنه كان صبوراً على تحمل الآلام والشدائد والجوع والظمأ تحملاً غير مألوف" [٨٦] . ولهذا لم يكد ضرغام يعلم بأخبار الحملة التي يجري إعدادها في دمشق لمساندة شاور، حتى انزعج كثيراً لأنه لم يكن يثق في قدرة جيشه على التصدي لقوات نور الدين، ومن ثم سارع بالاستنجاد بالصليبيين وتعهد لهم بأن تصبح مصر تابعة لهم، إذا هم ساعدوه وأخرجوه من محنته، فضلاً عن أنه تعهد بدفع الجزية التي كان قد جري الاتفاق عليها مع الملك بلدوين الثالث ودفع ما يقرره الملك عموري من مبالغ أخري، كما أعلن استعداده لتقديم رهائن للملك ضماناً لتنفيذه هذا الاتفاق وضماناً لخضوعه[٨٧] .

جرى ذلك في الوقت الذي كان فيه شيركوه يقطع الطريق مجدا نحو مصر، متخذاً طريقاً يمر إلى الشرق من حصني الكرك والشوبك ليصل إلى أيلة ومنها يصل إلى أسوار القاهرة[٨٨] ، فوصل فعلا إلى

---

(٨٤) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٢٦

(٨٥) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٣٠ . ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢١

(٨٦) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٢٧

(87) Grousset : op. cit. II, p. 454

(٨٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٨

أسوار القاهرة في مايو سنة ١١٦٤م ، بينما لجأ نور الدين محمود إلى شن الهجوم على أطراف مملكة بيت المقدس الصليبية ليشد اهتمام الفرنج إلى الشمال ويشغلهم عن أمر مصر ويلهيهم عن التعرض لجيش شيركوه[٨٩] ، وأثناء ذلك تغلب شيركوه على جيش أرسله ضرغام عند تل بسطا ثم كانت المعركة الفاصلة تحت أسوار القاهرة التي تخلى فيها الجيش والشعب في مصر عن ضرغام، فحلت به الهزيمة ولقي مصرعه أثناء محاولته الهرب وذلك في أغسطس سنة ١١٦٤م ، ولم ينهض الصليبيون لمساعدته، إذ شغلتهم إغارات نور الدين على ممتلكاتهم[٩٠] ،ثم ما لبث أن أقيم شاور في الوزارة.

على أن شاور سرعان ما تناسى وعوده لنور الدين محمود بمجرد عودته للوزارة، وعاد إلى سيرته السيئة في مصر " وحكّم السيف في رقاب أصحاب ضرغام وأقاربه وحواشيه "[٩١] ، ورفض أيضاً أن يدفع المال المتفق عليه لشيركوه، وطلب منه الخروج من مصر، فامتنع شيركوه عن مغادرة مصر، وقام باحتلال بلبيس والشرقية واتخذ بلبيس مقراً لقيادته، وعندئذ لجأ شاور إلى خطة سلفه ضرغام، فأرسل يستنجد بالصليبيين وزود رسله إلى عموري بصلاحيات عقد اتفاق مع الملك الصليبي[٩٢] ، ووعدهم بدفع مبلغ كبير من المال . ويعلل المؤرخون هذا الانقلاب الكبير في سياسة شاور، بأنه لاشك أدرك أنه إنما ارتكب خيانة في حق الخليفة الفاطمي الشيعي المذهب بالتماسه المساعدة من نور الدين محمود السني المذهب ليعيده إلى كرسي الوزارة، وأن هذا الأمير السني لا يسعده بقاء الخليفة الشيعي في مصر، وللبقاء

---

(٨٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢١

(90) Wiet : op. cit. p. 244

(٩١) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ٢٨

(٩٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٢٩

في منصب الوزارة كان على شاور أن يناوئ الأمير السني حفاظاً على منصبه من ناحية وعلى خليفته الشيعي من ناحية أخرى[٩٣].

ومهما يكن من أمر فقد سارع عموري بتلبية طلب شاور وزحف على رأس جيشه إلى مصر للمرة الثانية، واتجه إلى فاقوس في الشرقية، مما دفع شيركوه في التحصن في بلبيس وتقوية وضعه فيها، في الوقت الذي تقدم فيه شاور على رأس جيشه واشترك مع عموري في حصار شيركوه في بلبيس لمدة ثلاثة شهور[٩٤] (أغسطس - أكتوبر سنة ١١٦٤م) . وعندما بلغ نور الدين محمود هذا الخبر لجأ إلى تشديد ضرباته ضد أملاك الصليبيين هناك، ونجح نور الدين فعلاً في إلحاق هزيمة ساحقة بقوات الصليبيين في سهل أرتاح في أغسطس سنة ١١٦٤م وقتل منهم عدة آلاف وأسر عدداً كبيراً أيضاً وعلى رأسهم كل الأمراء الصليبيين الذين اشتركوا في تلك المعركة منهم بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس وجوسلين الثالث دي كورتناي، وهيو الثالث لوزنيان وكولمان حاكم قيليقية، وتقدم نور الدين ففتح حارم[٩٥] ،وارسل إلى شيركوه - في مصر - ما استولى عليه من أعلام الصليبيين فنشرها شيركوه على أسوار بلبيس، فعرف الصليبيون ما حل بممتلكاتهم ببلاد الشام الأمر الذي اقلق عموري كثيراً، وجعله يتلهف على إنهاء ذلك الوضع في مصر، فتم الاتفاق على أن يخرج كل من شيركوه وعموري من مصر، على أن يقوم شاور بدفع مبلغ لشيركوه قبل انسحابه[٩٦] .

---

(93) Runciman : op. cit. II, p. 368,

ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٩

(٩٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٧ ،وليم الصوري :نفسه ج٤ ص٢٩

(95) Grousset : op. cit. II, p. 461, Runciman :op. cit. II, p. 369

(٩٦) ابن الثير : التاريخ الباهر ص ١٢١ - ١٢٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤١

أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٦٧

ولما عاد الملك عموري من مصر في نوفمبر سنة ١١٦٤م ، وجد الأمور خطيرة في بلاد الشام، بعد أن ساق نور الدين الأسرى الصليبيين إلى حلب وفيهم كبار أمراء الصليبيين، وتقدم فاستولى على حارم – كما سبق وأن أشرنا – فأنهى تهديد الفرنج لحلب وهدد هو أنطاكية(٩٧) . وكان يمكنه أن يستولي على أنطاكية ذاتها لأن استيلاءه على حارم فتح أمامه الطريق لغزو أنطاكية(٩٨) ،لولا حرصه على عدم استثارة الإمبراطور البيزنطي الذي كانت أنطاكية تحت حمايته، فضلاً عن أنه أدرك عدم أهمية أنطاكية في تلك المرحلة لما أصبحت تعانيه من ضعف وتقلص في المساحة والنفوذ ولأسر أميرها، وكان بقاؤها على تلك الصورة أفضل بكثير من أن ينهض الإمبراطور البيزنطي للاستيلاء عليها فتصبح جزءً من إمبراطورية كبيرة(٩٩) ،ولعل في هذا السبب أيضاً يكمن موافقة نور الدين على إطلاق سراح بوهيموند الثالث أمير أنطاكية في العام التالي (صيف سنة ١١٦٥م) ،بعد الحصول على فدية كبيرة(١٠٠)، ثم أغراه ضعف مملكة بيت المقدس وغياب عموري على الزحف جنوباً حيث استولى على بانياس وبعض المناطق في شرق الأردن والسواد، وألزم الفرنج بأداء جزية سنوية عن إمارة الجليل(١٠١) .

وكان أن تجدد الصراع من جديد حول مصر في عام ١١٦٧م،

---

(97) Stevenson : op. cit. p. 189

(98) Baldwin : op. cit. p. 551

(99) Grousset : op. cit. II, pp. 465 - 6 ,
Runciman : op. cit. II, p. 370

(١٠٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٣٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٣٢١

(١٠١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٣٢١.
وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٣٤ – ٣٨

بين نور الدين والصليبيين إذ يبدو أن شيركوه لم ينس مصر منذ أن غادرها في المرة الأولى، ورأى عظم ثرائها ومبلغ غناها وضعفها في نفس الوقت مع أهميتها الحربية في الصراع الدائر مع الصليبيين " فكان يحدث نفسه بقصدها حريصاً على الدخول إليها والتشوق إلى ملكها"[١٠٢] وربما كان يتطلع إلى أن يكون نائباً عن نور الدين بها بعد فتحها، فضلاً عن أنه لم ينس غدر شاور به وعدم وفائه بما وعد به[١٠٣]، وكان شيركوه قد غادر مصر " وهو في غاية القهر"[١٠٤] على حد قول المؤرخين، ولهذا كان يتلهف على العودة إليها، على حين كان نور الدين يخشى أن يسبقه الصليبيون إلى الاستيلاء عليها ويكون ثراؤها مصدراً لقوتهم وغلبتهم في بلاد الشام، فضلاً عن تشجيع الخليفة، العباسي لكل مشروع يهدف إلى إسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية وحثه نور الدين على القيام بهذا المشروع[١٠٥]، يضاف إلى كل ذلك استنجاد الخليفة الفاطمي نفسه بنور الدين من تعسف شاور وظلمه واستبداده بعد مغادرة كل من شيركوه وعموري مصر سنة ١١٦٤م وطيلة عامين سفك شاور خلالها كثيراً من الدماء، وصادر كثيراً من الأموال والممتلكات وأظهر كل تعسف وجور[١٠٦]، لهذا بادر نور الدين بإرسال شيركوه إلى مصر في يناير سنة ١١٦٧م للمرة الثانية وفي صحبته أيضاً صلاح الدين فاستنجد شاور بالصليبيين.

وما كاد عموري يتلقى رسالة شاور، حتى بادر بالزحف إلى مصر

---

(١٠٢) ابو شامة : الروضتين ج١ ص ١٤٢ ، ص ١٦٧

(١٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤٨

(١٠٤) أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٨

(١٠٥) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٣٩

Grousset : op. cit. II, pp. 478 - 9

(١٠٦) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٦٧ .

Wiet : op. cit. p. 395

على رأس جيشه للمرة الثالثة، حتى يحول بين جيش نور الدين وبين الاستيلاء عليها من ناحية وطمعاً فيها ورغبة في تملكها من ناحية أخرى، فحشد الملك كل ما استطاع حشده من الفرسان، وأسرع بالخروج لصد شيركوه، وظل يتقدم في الصحراء دون أن يجد خصمه، فبادر بقص أثره[١٠٧] من غزه إلى العريش ثم عبر الصحراء الشرقية إلى بلبيس، وكان شيركوه قد سار إلى مصر على رأس قواته بعد أن زود بما يلزمه من مؤن لأيام طويلة وبكميات وفيرة من الماء وضعها في القرب والروايا، وسلك الطريق " الذي سلكه بنو إسرائيل حين دخلوا أرض الميعاد "[١٠٨] فمضى في طريقه حتى بلغ الدلتا، ولكنه لم يبادر بمهاجمة القاهرة، بعد أن تأكد أن الصليبيين سائرين في أثره ليجتمعوا بالقوات المصرية، فلم يكن أمامه إلا أن يسير نحو الجنوب حتى بلغ إطفيح على بعد نحو سبعين كيلومتراً جنوبي القاهرة، فعبر النيل وعسكر على الضفة الغربية للنيل[١٠٩] ،في الوقت الذي التقى فيه شاور بالصليبيين عند بلبيس وساروا جميعاً في أثر شيركوه إلى أن عسكروا على الضفة الشرقية للنيل، على حين كان شيركوه لا يزال يعسكر على الضفة الغربية عند الجيزة التي قضى بها نحو خمسين يوما[١١٠] ، وأثناء ذلك حرص الصليبيون على عقد معاهدة مع شاور تعهد بموجبها أن يؤدي لهم مبلغ أربعمائة ألف دينار يؤدي نصفها مقدماً والباقي يؤديه في موعد لاحق، بشرط أن يتعهد عموري بالبقاء في

(١٠٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٤٠

(١٠٨) وليم الصوري : نفسه ج٤ ص ٤٠ ، Grousset : op. cit. II, p. 479

(١٠٩) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٤٢

(١١٠) أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٨ ، Runciman : op. cit. II, p. 313

مصر حتى يتم طرد شيركوه من مصر أو يجري تدمير جيشه فيها، وهكذا قبض عموري الثمن من شاور نصفه مقدماً، كما وافق الخليفة الفاطمي على الاتفاقية وصدق عليها(١١١) .

بدأ الصليبيون والفاطميون، بعد توقيع الاتفاقية، يعبرون النيل عند جزيرة الروضة للقاء شيركوه، فأحس هذا بحرج موقفه، بعد أن تبين له تفوق جيش الفرنج والفاطميين، فانسحب إلى الصعيد وفي أثره عموري وشاور(١١٢) ، بعد أن خلفا حامية كبيرة لحماية القاهرة خشية أن يهاجمها شيركوه، وهنالك جنوب الأشمونين بمحافظة المنيا بمصر الوسطى دارت معركة البابين في مارس سنة ١١٦٧م واشترك فيها صلاح الدين، وعلى الرغم من تفوق جيوش عموري وشاور على جيش شيركوه في العدد، إلا أن الصليبيين وحليفهم شاور هزموا في تلك المعركة بل كاد عموري نفسه يقع في الأسر، ولقى عدد كبير من فرسان الفرنج مصرعهم، واضطر عموري وشاور إلى التراجع ناحية القاهرة بمن تبقى معهم من الجند لينحازوا إلى الحامية التي خلفوها هناك فعسكروا بقرب الفسطاط(١١٣) .وإن حاول المؤرخ وليم الصوري تصوير هذه المعركة على أنها غير حاسمة، وأنه بينما انتصر شيركوه في بعض المواضع، انتصر الحلفاء في مواضع أخرى، ولم يتبين لكل فريق حجم ما حققه من نصر، غير أن هذه الرواية غير دقيقة والدليل على ذلك مسارعة عموري وشاور بالانسحاب تجاه القاهرة خوفاً من أن يسبقهم شيركوه إليها وقول وليم الصوري نفسه أن جند شاور كانوا " لا جدوى منهم .. وكانوا يشكلون عبئاً ثقيلاً " على الفرنج (١١٤) .

---

(١١١) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٤٥ - ٤٦،

(112) Grousset :op. cit. II, p.488,Runciman :op. cit. II, p. 373

(١١٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٢ - ١٣٣ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٠ - ١٥١

(١١٤) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٦٢

لم يتقدم شيركوه لاحتلال القاهرة، ولم يجر الإفادة من هذا الانتصار الذي حققه شيركوه على الرغم من أن المؤرخين يؤكدون نه لو ساق عموري وشاور وقواتهما المنهزمة لاستولى على القاهرة في سهولة، وانما فضل شيركوه أن يتجه شمالاً على الضفة الغربية للنيل إلى الفيوم ثم يتجه غرباً لاحتلال الإسكندرية لأن معظم أهلها كانوا سنيين ولأن الإسكندرية ظلت موطن المعارضة للحكومة الفاطمية في السنوات الأخيرة من عصر الخلافة الفاطمية[١١٥] ،وفتحت الإسكندرية أبوابها لشيركوه وتلقاه أهلها طائعين، فدخلها شيركوه وولى عليها ابن أخيه صلاح الدين[١١٦] ،لكنه خشي أن يحصره الصليبيون فيها فترك ابن أخيه صلاح الدين نائباً عنه فيها ومعه نحو ألف جندي، على الرغم من أنه لم يكن " في داخل الإسكندرية مخزون من الحبوب أو مواد الطعام ومرجع ذلك اعتماد المدينة كلياً على ما تجلبه إليها السفن من صعيد مصر "[١١٧] ، وسار شيركوه على رأس الجزء الأكبر من جيشه إلى الصعيد مرة أخرى، فاستولى عليه وأخذ يجمع أمواله وخراجه[١١٨].

وفي نفس الوقت تقدم الصليبيون نحو الإسكندرية والقوا الحصار عليها، بعد أن وافتهم بعض الإمدادات من فلسطين، وأرسل الفرنج الاسطول ليتم حصار المدينة ويمنع ما يرد إليها من المؤن والزاد، فعانت المدينة الضيق والجوع خاصة وقد امتد حصارها نحو ثلاثة أشهر[١١٩] ، فساءت أحوالها وقلت الأقوات فيها لانقطاع التجارة وقلة

---

(115) Wiet : op. cit. p. 296, ابو شامة : الروضتين ج١ ص ١٦٨

(١١٦) أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٩،
Grousset : op. cit. II, p. 493

(١١٧) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٦٦

(١١٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٩

(١١٩) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ٧٠ - ٧١

الجند للدفاع عنها، فاضطر صلاح الدين إلى الاستنجاد بعمه شيركوه والتمس منه العودة، فبدأ هذا العودة من قوص[١٢٠] ، وفي الطريق أدرك شيركوه صعوبة الاستيلاء على مصر مع وجود الصليبيين وتحالفهم مع الفاطميين، لهذا أرسل إلى الصليبيين يطلب عقد الصلح، ولم يكن عموري اقل منه رغبة في الصلح [١٢١] ، فتم الاتفاق بينهما مثل المرة السابقة على جلاء الطرفين عنها وتبادل الأسرى، وكذلك بقاء شاور في منصب الوزارة، ولعل ذلك ما يطمئن الصليبيين على أن مصر لن تقع في يد نور الدين، كما اتفق على أن يحمل شاور إلى شيركوه مبلغ خمسين الف دينار تعويضاً عما تكبده شيركوه في تلك الحملة[١٢٢] ، وهكذا ترك شاور لينعم بمصر من جديد . ويبدو أن عموري وافق على هذا الصلح لما تكبده من خسائر بشرية من ناحية ولما أتاه من أخبار قيام نور الدين محمود بمهاجمة أملاك الصليبيين في بلاد الشام وسوء أحوال الفرنج عموماً هناك من ناحية أخرى [١٢٣] لهذا بادر بعقد الصلح والجلاء عن مصر لاسيما وأنه فاز بمبلغ كبير من المال دفعه الفاطميون مقابل الحماية الصليبية على مصر، بل إنه ترك في مصر قوة من الفرسان تحمي أبواب القاهرة[١٢٤] على رأسها هيو صاحب يبنه لتكون أبواب القاهرة " بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم " [١٢٥] كما اتفق على أن يبقي في القاهرة مندوباً عن عموري ليشارك في شئون الحكم ويباشر أمر الحماية الصليبية عليها، " ويكون

---

(١٢٠) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٦٩

(121) Baldwin : op. cit. p. 553, Grousset : op. cit. II, p. 496

وليم الصوري : نفسه ج٤ ص ٧٤ – ٧٥

(١٢٢) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٤٣

(123) Bldwin : op. cit. p. 553

(124) Holt : op. cit. p. 48

(١٢٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٤

للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار " وجماعة من مشاهير فرسانهم يتولون أمر الحماية فيها[١٢٦] .

عاد عموري الأول إلى فلسطين، بعد أن عرّج على القاهرة ليرتب أمر الحماية على مصر وينظم الحامية التي ستحمي أبواب القاهرة، فوصل إلى عسقلان في أغسطس سنة ١١٦٧م ، وفي أوائل الشهر التالي (سبتمبر) وصل شيركوه إلى دمشق ، وانتهت هذه الجولة بين قوات نور الدين وبين عموري الأول[١٢٧] ، غير أن عموري الأول لم يعدل بهذه العودة عن فكرة الاستيلاء على مصر، لكنه أدرك حينئذ أنه لن يحقق هذا الأمل دون الاستعانة بقوة خارجية[١٢٨] ، ففكر في تقوية الروابط مع بيزنطة، فالتمس الزواج من أميرة بيزنطة لاسيما وقد انفصل عن زوجته أجنس سنة ١١٦٥م وأراد تكرار تجربة أخيه بلدوين الثالث الذي تزوج من ثيودورا ابنة أخي الإمبراطور مانويل كومنين سنة ١١٥٨م[١٢٩] ؛ وقد استجاب الإمبراطور البيزنطي هذه المرة أيضاً وارسل رفقة سفارة عموري من لدنه وصلت مدينة صور في نفس الوقت الذي وصل فيه عموري عائداً من مصر وصحبتها الأميرة ماريا ابنة حنا كومنين وتم الزواج فعلاً في صور في أغسطس سنة ١١٦٧م[١٣٠] .

---

(١٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٢ .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٩

(١٢٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٧٩ .

Grousset : op. cit. II, p. 503

(128) Stevenson : op. cit. pp. 191 - 3

(١٢٩) وليم الصوري : المصدر السابق ج٣ ص ٤٢٨

Ostrogorsky : op. cit. p. 343

(١٣٠) وليم الصوري : نفسه ج٤ ص ٩٥ - ٩٦

Runciman : op. cit. II, p. 377

وتبع ذلك إبرام اتفاق بين الإمبراطور البيزنطي وعموري الأول، ووضع خطة لإرسال حملة مشتركة للاستيلاء على مصر، وانضم المؤرخ وليم الصوري إلى رسل الملك عموري إلى القسطنطينية بأمر الملك لعرض ما اتفق عليه على الإمبراطور والتصديق على المعاهدة، فتم ذلك وتم الاتفاق على أن يكون للإمبراطور جزء من مصر بعد الاستيلاء عليها، فضلاً عن اقتسام الغنائم مع الفرنج وخضوع أنطاكية لسلطانه[١٣١] .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق فقد بادر الملك عموري بالمسير إلى مصر دون انتظار حلفائه البيزنطيين للانفراد بالاستيلاء على مصر ونقض الاتفاق مع شاور . ويعلل المؤرخ وليم الصوري هذا التصرف بأن الملك بلغه أن شاور " دأب على أن يبعث في السر بالكتب إلى نور الدين ملتمساً منه المساعدة، وادعى أن اتفاقية السلام التي عقدت معنا تمت على كره منه، وأنه راغب في الانسحاب من الاتفاق الذي أبرمه مع الملك عموري" [١٣٢] . فأسخط هذا الملك وملأه غيظاً فجمع فرسانه وزحف إلى مصر على جناح السرعة .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أدى وجود الحامية الصليبية في مصر والمندوب الصليبي الذي يشارك في شئون الحكم إلى الإساءة إلى الشعور الإسلامي وحرك كوامن الغضب ضد سياسة التحالف مع الصليبيين والحماية الصليبية، هذا فضلاً عن أن الجزية التي قبل شاور أن يدفعها لعموري وقدرها مائة ألف دينار قد أثقلت كاهل الميزانية المصرية في الوقت الذي ضعفت فيه الخلافة الفاطمية ونضبت مواردها[١٣٣] ، ولهذا سارع شاور بإحداث انقلاب جديد في سياسته الخارجية واتصل بنور الدين محمود وطلب المساعدة للتخلص من

---

(١٣١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٠٠ .
Grousset : op. cit. II, p. 508

(١٣٢) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ١٠٢

(١٣٣) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٧٠

الحماية الصليبية ومن قوة الصليبية التي اخـذت تسيئ معاملة النـاس "وحكموا على المسلمين حكماً جائراً فنـال المسلمين منهـم أذى شـديد وجور عظيم وقهر زائد "[١٣٤] .

ولم يخـف أمـر تـودد شـاور إلى نـور الديـن ومشـروع المحالفـة الجديد بين حكام مصر والشام على الصليبيين وما ذاع حينئذ مـن أمـر زواج ابن شاور من أخت صلاح الديـن، فضلاً عـن امتنـاع مصر عـن تأدية الجزية، في الوقت الذي تعالت فيه بعـض الأصـوات في المملكـة الصليبيـة بضـرورة لإخضـاع مصـر والاسـتيلاء عليهـا، وعـدم الاكتفـاء بسياسـة الحمايــة عليهـا وخاصــة مــن قبــل جماعــة الإسـبتارية ومقدمهم[١٣٥] . الذين أثقلت الديون كواهلهم فاشترطوا أن ينالوا بلبيس وما حولها من الأراضي عقـب الاسـتيلاء علـى مصـر[١٣٦] . يضـاف إلى ذلك رغبة الملك عموري وبارونات المملكة في الانفـراد بتملـك مصـر دون اشتراك البيزنطيين[١٣٧] . لذلك كله زحـف عموري على رأس جيشه في أكتوبر سنة ١١٦٨م للمرة الرابعة، فوصل إلى بلبيـس في أوائـل نوفمـبر من نفس السنة، وفي هذه المرة أغلقـت بلبيـس أبوابهـا دونـه وقاتلتـه، فاضطر إلى حصارها ودخولهـا عنـوة حيـث أنـزل بهـا مذبحـة بشـرية رهيبة وقتل من أهلها خلقاً عظيماً[١٣٨] ، وخرب معالمها وأحـرق معظـم دورهـا، الأمـر الـذي ترتبـت عليـه نتـائج بالغـة الأهميـة وارهـص

(١٣٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٧

(135) Holt : op. cit. p. 48

(١٣٦) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٠٣

(137) Baldwin : op. cit. p. 555, Grousset :op. cit. II, p. 517

(١٣٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٥٠

أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٧٠ ،

وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٠٤، Wiet : op. cit. p. 297

بتغير خطير في سياسة مصر تجاه الصليبيين في تلك المرحلة فقد أثار ما تعرض له أهل بلبيس من القتل والأسر والتعذيب الخوف في نفوس المصريين وحملهم على كراهية الفرنج والإصرار على التصدي لهم[(١٣٩)].

اتخذ عموري من بلبيس قاعدة له فشحنها بالرجال والعتاد، ثم تقدم إلى القاهرة وعسكر جنوبي الفسطاط وأعد أدوات الحصار وآلات الاقتحام، الأمر الذي أقلق شاور كثيراً وجعله يوقن أن ليس بوسعه الدفاع عن القاهرة والفسطاط في وقت واحد، ولهذا أبقى شاور على القاهرة وأمر بإحراق الفسطاط حتى لا يستفيد منها الصليبيون، بعد أن أمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فظلت النيران مشتعلة بها أربعة وخمسين يوماً[(١٤٠)]، فاضطر عموري إلى الانتقال قرب القاهرة.

وكان الخليفة الفاطمي في هذه المرة قد اتصل بنور الدين محمود ووعده بثلث بلاد مصر إذا هو أنقذه من الصليبيين وكان ذلك بمشورة الكامل بن شاور وأرسل المصريون أيضاً إلى شيركوه يستحثونه على سرعة الوصول إليهم[(١٤١)]، والواقع أن نور الدين لم يكن بحاجة إلى ترغيب فقد عزم في هذه المرة على أن يحسم الأوضاع فيها، بعد أن تأكد من تلاعب شاور به وبالصليبيين ولخوفه من أن ينجح الصليبيون هذه المرة في الاستيلاء على مصر نهائياً فيصبح من الصعوبة بمكان إجلاؤهم عنها. ولهذا أرسل شيركوه وصلاح الدين على رأس جيش كبير إلى مصر في أواخر سنة ١١٦٨م على الرغم مما أبداه صلاح الدين هذه المرة من رغبة في عدم الخروج ولكن نور الدين أمره بمرافقة عمه

---

(١٣٩) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٢٤

Runciman : op. cit. II, P. 381

(١٤٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٣٥٠ ،

أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ١٧٠

(١٤١) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ١٥٤

شيركوه وأرغمه على ذلك[١٤٢] .

وفي هذه الأثناء عاد شاور من جديد إلى سياسته فلوح لعموري بمبلغ كبير من المال نظير جلائه عن مصر، وبادر بدفع مائة ألف دينار مقدماً، ويتهم المؤرخ وليم الصوري شاور بأنه قصد بذلك المماطلة وتباطأ في دفع ما اتفق عليه من الأموال رغبة منه في تعطيل عموري حتى يلحق به شيركوه وجيوش نور الدين[١٤٣] ،ولذلك اتجه عموري بجيشه إلى سرياقوس وهناك سمع بقرب وصول جيش نور الدين وعلى رأسه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين .

وضع عموري خطته على أساس مباغتة قوات شيركوه في الشرقية أثناء تقدمها إلى القاهرة والقضاء على تلك القوات وهي متعبة، إلا أن شيركوه كان قد اجتاز برزخ السويس واخترق الصحراء الشرقية مباشرة إلى القاهرة فاستقبله الأهالي استقبالاً حافلاً باعتباره المدافع عن الإسلام وناصره والتفت حوله القوات الفاطمية، فساء موقف عموري وخشي أن يهاجمه شيركوه ويثب عليه المصريون[١٤٤]، وافتقد عموري هذه المرة حليفه شاور الذي سهل له المرات السابقة أمر البقاء في مصر، لذلك عاد عموري إلى بلبيس فجمع قواته وقرر في يناير سنة ١١٦٩م مغادرة البلاد عائداً إلى فلسطين[١٤٥]، واستدعى الخليفة العاضد شيركوه وخلع عليه خلعة الوزارة، وجرى اغتيال شاور هو وولده الكامل في يناير سنة ١١٦٩م ،ودخل شيركوه القاهرة[١٤٦]، ولكنه لم

(١٤٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٩ (تحقيق د. جمال الدين الشيال – ط الأولى ١٩٦٤)

(١٤٣) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١١٠ – ١١١

(144) Runciman : op. cit. II, p. 382

(١٤٥) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١١١

(146) Wiet : op. cit. p. 298

يلبث أن توفي بعد نحو شهرين وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ مصر وتاريخ الجبهة الإسلامية المتحدة والعريضة[١٤٧] .

امتداد الجبهة الإسلامية إلى مصر وبداية عصر صلاح الدين :

أصبحت مصر إذن جزءاً من الدولة النورية الفتية، التي غدت تمتد من الفرات إلى النيل، وتم إرساء دعائم الجبهة الإسلامية المتحدة في تلك المنطقة العريضة التي شملت أطراف العراق وبلاد الشام، وامتدت إلى مصر أى أن هذه الجبهة المتحدة امتدت من الرها في أقصى شمال العراق وعبر بلاد الشام إلى حوران جنوبي دمشق[١٤٨] ثم إلى مصر في النهاية لتكتمل بذلك هذه الجبهة لأول مرة في عصر الحروب الصليبية، خاصة بعد أن نجح نور الدين محمود في ضم الموصل في يناير سنة ١١٧١م بعد وفاة أخيه قطب الدين مودود[١٤٩] . وتحولت مصر في ذلك الوقت إلى قلعة للنضال ضد الصليبيين ومركز للجهاد ضدهم[١٥٠] ،فإذا كانت الخلافة الفاطمية المتهالكة لم تستطع أن تمنع الصليبيين عن التهام بلاد الشام وفلسطين نظراً لضعفها وتهالكها، فقد أصبحت مصر الآن في أيدي أخرى قوية، عازمة على استرداد ما فقده المسلمون خلال ضعفهم وسباتهم الطويل وبمجرد ظهور هذه الإفاقة العظيمة في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي على أثر نهوض صلاح الدين يوسف بن أيوب بعبء الجهاد في هذه الجولة الجديدة بعد إتمام الجبهة الإسلامية المتحدة[١٥١] .

---

(١٤٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤١. Stevenson : op. cit. p. 194

(١٤٨) أبو شامة : الروضتين ج١ ص٩٧. ابن الأثير :التاريخ الباهر ص١٠٧-١٠٨

(١٤٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٩٠

(١٥٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٠٥

(151) Holt : op. cit. p. 75

وصلاح الدين كردي الأصل، ولد بقلعة تكريت سنة ١١٣٨م (٥٣٢هـ) ، ودخل أبوه نجم الدين أيوب في خدمة عماد الدين زنكي أتابك الموصل، فأقطعه بعلبك سنة ١١٣٩م ، كما اتصل عمه أسد الدين شيركوه بزنكي ثم بولده نور الدين محمود[١٥٢] ،وقضى صلاح الدين فترة طفولته وصباه بمدينة بعلبك وبها تلقى تعليمه، فدرس العلوم الإسلامية: القرآن والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب والتاريخ فضلاً عن الفروسية وركوب الخيل والصيد وفنون الحرب وغير ذلك مما كان يمارسه أبناء الطبقة الحاكمة[١٥٣] ،ثم لحق صلاح الدين بعمه شيركوه في حلب في خدمة نور الدين محمود، ثم ولي قيادة جيش دمشق ونال رعاية نور الدين محمود، فكان لا يفارقه في سفر ولاحضر، لما توافر له من الصفات الطيبة، فقد اشتهر صلاح الدين بالمروءة والحلم والصبر ومتانة الخلق وصدق الرغبة في الجهاد ما جعله موضع احترام المسلمين، كما أدى طلاقه وجهه وحبه للعفو وعدم تعصبه مع شجاعته وبسالته[١٥٤] إلى جعله أيضاً موضع احترام الصليبيين، فقد وصفه المؤرخ وليم الصوري بأنه كان " شديد الذكاء بطلاً مغواراً ومعطاء إلى أقصى حدود العطاء " [١٥٥] ،وحين تطورت الأحداث في مصر على النحو الذي قدمناه، لم يجد نور الدين من يقوم بقيادة جيشه إلى مصر أفضل من شيركوه وابن أخيه صلاح الدين .

---

(١٥٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٦٥ ،
أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٢٩ – ١٣٠

(١٥٣) العريني : مصر في عصر الأيوبيين ص ٢٤

(١٥٤) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٣–٣٤
(تحقيق د. الشيال ط١)

(١٥٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١١٤

وعقب وفاة شيركوه تولى صلاح الدين الوزارة من قبل الخليفة الفاطمي العاضد سنة ١١٦٨م، ولم يكن قد تجاوز الثانية والثلاثين من عمره[١٥٦]، فارتفع بولايته شأن الأكراد في العالم الإسلامي خاصة وقد اشتهرت الأسرة الأيوبية الكردية بمتانة الخلق وخصب الفكر والنشاط والفتوة وقوة البأس والشدة ما جعلها موضع تقدير المسلمين في كل الأنحاء ،وما أدى في النهاية إلى تغيير أحوال الشرق الأدنى كله[١٥٧]، فما لبث صلاح الدين أن أظهر كفاءة ومقدرة عظيمة في مصر، فسيطر سيطرة تامة على الجند النورية، وقضى على قوة الجند السودان في مصر، وخطا خطوات واسعة نحو إقرار الأوضاع في مصر، معتمداً في ذلك على القوة التي أمده بها نور الدين وعلى رأسها توران شاه بن أيوب أخي صلاح الدين[١٥٨]، ثم قضى على قوة الأرمن وكان منهم حرس الخليفة، فأشعل صلاح الدين النار في ثكناتهم وشردهم، وقضى على أعداد كبيرة منهم حتى لا ينضم هؤلاء إلى بقية المتآمرين فيصطدم صلاح الدين بمقاومة داخلية في القاهرة من طوائف الجيش الفاطمي وحرس الخلافة، ومن رجال الإدارة الفاطمية[١٥٩] . وتحول صلاح الدين إلى كبار الإقطاعيين فتخلص منهم وأحل محلهم جماعة من رجاله، وتم كل ذلك باعتبار صلاح الدين نائباً عن نور الدين في مصر، وفي ظل عطف نور الدين وتأييده في هذا الدور المبكر من حياة صلاح الدين، فلم يشأ صلاح الدين أن يخرج عن طاعة نور الدين حينئذ لحاجته الماسة لمساعدته من ناحية ولأن الفرنج لا يزالوا يأملون في

---

(156) Stevenson : op. cit. p. 195

(157) Grousset : op. cit. II, p. 536

(١٥٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٧٤
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٥٥

(159) Wiet : op. cit. pp. 299 - 300

العودة إليها من ناحية أخري[١٦٠] .

وفعلاً لم تكد أقدام صلاح الدين تثبت في مصر وتتم الوحدة بين مصر والشام، حتى قلق الصليبيون كثيراً وأيقنوا أنهم وقعوا بين شقي الرحي، بعد أن حاصرتهم القوات الإسلامية من الشمال ومن الجنوب[١٦١] حتى قال المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن خضوع مصر للترك " كان ضربة أليمة وجهت إلينا وأن موقفنا أصبح من الناحية العملية أسوأ مما كان " فقد " أصبحت جميع الأراضي التي حولنا تخضع للعدو وشرعت الممالك المجاورة لنا تتأهب للقضاء علينا ومحونا من الوجود" [١٦٢] ، فضلاً عما قام به صلاح الدين حينذاك من انتزاع السيطرة على البحر من الفرنج، بفضل الأسطول المصري الذي اتخذ قواعده في الإسكندرية ودمياط وموانى مصر الشمالية[١٦٣] ،أو كما قال وليم الصوري " لم يعد البحر كما كان من قبل معبراً آمناً " ، عندئذ لجأ عموري الأول إلى الاستنجاد بالغرب الأوربي " وجميع كبار رجال الغرب " وطلب المساعدة وتقديم المعونة لمسيحي الشرق وإثارة حرب صليبية جديدة، إلا أن صرخته لم تلق الاستجابة ولم يحرز توفيقاً أو يحقق شيئاً من النجاح في هذا الأمر[١٦٤] ،فاتجه إلى الإمبراطور مانويل كومنين الذي تحمس لتنفيذ الاتفاقية التي كانت قد عقدت بينه وبين الصليبيين في سبتمبر سنة ١١٦٨م لغزو مصر. والتي لم يلتزم بها عموري حين حاول الانفراد بتملك مصر دون بيزنطة [١٦٥].

---

(160) Runciman op. cit. II, p. 386,Grousset:op. cit. II, p.539

(١٦١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٣

(١٦٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١١٣ – ١١٥

(163) Grousset : op. cit. II, pp. 539 - 40

(١٦٤) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١١٦

(165) Baldwin : op. cit. pp. 556 - 7, Stevenson :op. cit. p. 196

اتجه الأسطول البيزنطي فعلاً إلى عكا في صيف سنة ١١٦٩م ، حاملاً عتاداً حربياً بما يكفي لجعل تفوق الصليبيين في البحر أمراً ميسوراً ، فضلاً عن أنه أنزل بعكا جانباً من الجيش البيزنطي ليرافق الجيش الصليبي في زحفه براً إلى مصر[١٦٦] ،ثم اتجه الأسطول صوب دمياط قبل أيام من زحف الصليبيين براً في أكتوبر من نفس العام، وكان عموري قد تأخر في الخروج ومباغتة صلاح الدين وإحداث المفاجأة، وكان تأخره بسبب حرصه على اتخاذ تدابير من شأنها تأمين مملكته من هجمات نور الدين، فاستغرق ذلك شهوراً أفقدت الحملة عامل المباغتة وأعطت لصلاح الدين فرصة التفكير في وجهة الحملة[١٦٧] ، ثم تحرك الصليبيون وبرفقتهم شطر من الجيش البيزنطي من عسقلان إلى الفرما ثم إلى دمياط حيث عسكروا بالقرب منها في أواخر أكتوبر سنة ١١٦٩م على حين لم يستطع الأسطول البيزنطي دخول الميناء بسبب السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء[١٦٨] ، وعلى الرغم من ذلك فقد اضطرب صلاح الدين لاتجاه الحملة نحو دمياط وكان قد توقع وصولها عبر الشرقية ، فقام بتحصين بلبيس وشحنها بالعساكر بينما عزز حاميات القاهرة والإسكندرية ، ولم يتوقع أن يتجه الصليبيون إلى دمياط لاتخاذها قاعدة لهم[١٦٩] ، فلما وصلت الحملة إلى دمياط أرسل يستنجد بنور الدين الذي أمده بالجيوش العظيمة في إثر بعضها ، على حين كان تقي الدين عمر – ابن أخي صلاح الدين – وكذلك شهاب الدين خاله قد نجحا في دخول دمياط قبل حصارها ، فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات

---

(166) Chalandon : Comnenes II, p. 540

(167) Grousset : op. cit. II, p. 543, Stevenson : op. cit. p. 196

(١٦٨) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٢٠

(169) Wiet op. cit. p. 301

والنجدات إليها وأمدها بالذخائر والسلاح والمؤن لتصمد المدينة أمام هجوم الصليبيين، فقاومت دمياط وصمدت خمسين يوماً(١٧٠) .

وفي والوقت الذي طال فيه حصار الصليبيين لدمياط، وبرزت المقاومة الباسلة لأهلها ضد سفن البيزنطيين، حتى نزل بالأسطول وآلات الحصار خسائر فادحة لما ابتدعه رجال دمياط من خطط ووسائل " لم يكن بالظن أنهم قادرون علي ابتداع مثلها " على حد قول المؤرخ الصليبي وليم الصوري(١٧١) ،فضلاً عما أخذ يعانيه رجال الأسطول البيزنطي من قلة المؤن والزاد حتى عضدهم الجوع، بينما استمر هطول الأمطار بشكل متواصل واضطرب الجو كثيراً، وتشكك البيزنطيون في الصليبيين والعكس بالعكس(١٧٢) ، في الوقت الذي لجأ فيه نور الدين إلى تشديد ضرباته على أملاك الصليبيين في الشام لإثارة قلقهم ومحاولة تخفيف الحصار على دمياط، بينما جرى كل ذلك كان صلاح الدين يقوى يوماً بعد يوم، ويزداد ثباته وترتفع معنويات رجال دمياط وأهلها، الأمر الذي اضطر معه الصليبيون إلى رفع الحصار عن المدينة وعادوا إلى عسقلان خائبين(١٧٣) ،على حين انسحبت السفن البيزنطية من أمام دمياط، وشاء سوء حظها أن تشتد عليها الرياح ويصادفها جو غير ملائم في وقت ضعف فيه جنودها وبحارتها من شدة الجوع وقلة الزاد، فغرقت أعداد كبيرة منها وتقاذفت الأمواج جثث بحارتها

---

(١٧٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٣ – ١٤٤ ،

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٣ (تحقيق الشيال)

(١٧١) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٢٢

(١٧٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج٢ ص ١٧٩ – ١٨٣

Runciman : op. op. cit. II, p. 387 - 8

(١٧٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٤،

Grousset · op. cit. II, pp. 545 - 50

والقت بها على الشواطئ المصرية، وانتهت الحملة البيزنطية بالفشل الذريع وثبتت أقدام صلاح الدين في مصر[١٧٤] ، بل أمده نور الدين بفرقة من جيشه في أبريل سنة ١١٧٠م تحت إمرة نجم الدين أيوب -والد صلاح الدين-[١٧٥] فازدادت قوة صلاح الدين واستقرت له الأمور في مصر كنائب لنور الدين ووزير للخليفة الفاطمي العاضد .

ثم حدث أن تدعمت الجبهة الإسلامية باستيلاء نور الدين على الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين مودود في سبتمبر سنة ١١٧٠م -كما سبق أن أشرنا- فأصبحت دولته تمتد من العراق إلى الشام إلى مصر، وتربط بين الموصل وحلب ودمشق والقاهرة برباط وثيق، مما انذر بالقضاء على الصليبيين في بلاد الشام[١٧٦] ،فأصبحت سلطة نور الدين تمتد منذ أوائل سنة ١١٧١م من أقصى العراق شمالاً إلى نيل مصر والنوبة جنوباً، وتدعمت الجبهة الإسلامية المتحدة فأصبح مستقبل الكيان الصليبي في بلاد الشام في كف القدر[١٧٧] .

وكان لابد وأن تواكب الوحدة الدينية والمذهبية هذه الوحدة السياسة التي أمست فيها الجبهة الإسلامية المتحدة، بمعنى أن يسود مذهب واحد بدلاً من سيادة المذهب السنى في بلاد الشام وأطراف العراق واستمرار سيادة المذهب الشيعي في مصر . ويبدو أن نور الدين كان قد طلب من صلاح الدين إزالة الخلافة الشيعية من مصر وإعادة المذهب السني[١٧٨] ،لأن نور الدين كان سنياً متعصباً وعلى صلة وثيقة

---

(١٧٤) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٢٧.

Stevenson : op. cit. p. 196

(١٧٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٤ (تحقيق د. الشيال ط ١)

(١٧٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧١٧

(177) Grousset : op. cit. II, p. 558 , Stevenson : op. cit. p.196

(١٧٨) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٨٤.
Holt : op. cit. p. 50

بالخليفة العباسي راعي المذهب السني، ولم يقتنع كثيراً بالمبررات التي ساقها صلاح الدين، وجلها حول خشيته من ثورة المصريين لتمسكهم بالمذهب الشيعي، فقد كان صلاح الدين أيضاً سنياً شافعياً نشط منذ البداية في تدعيم المذهب السني في البلاد وأحل قضاة الشافعية مل قضاة الشيعية[١٧٩]، ولكنه في الواقع تردد في بداية الأمر في إزالة الخلافة الفاطمية ذاتها تجنباً لأى رد فعل يمكن أن يحدث في مصر في ذلك الدور المبكر من حياته، فضلاً عن أنه فيما يبدو فضل أن تبقي الخلافة الفاطمية الورقة الأخيرة في يده إذا ساءت العلاقة بينه وبين سيده نور الدين مع علمه بأن تلك الخلافة كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتهالكت بما لا يمكنها من أن تسبب له أى متاعب أو لسلطانه[١٨٠].

غير أنه اضطر أمام إلحاح نور الدين إلى إزالة الخلافة الفاطمية، وإحلال اسم الخليفة العباسي محل الخليفة الفاطمي، وإلى إحداث ذلك الانقلاب في سبتمبر ١١٧١م (٥٦٧ هـ) وإعادة المذهب السني إلى مصر[١٨١]، وكان الخليفة العاضد الفاطمي مريضاً في ذلك الوقت وما لبث أن توفي بعد إعلان هذا التحول بثلاثة أيام دون أن يعلم به، وانتهت بذلك الخلافة الفاطمية بعد نحو قرنين من الزمان في مصر، وبعد قرنين واثنتين وسبعين سنة من بدء قيامها في شمال افريقية[١٨٢]، وعادت للعالم الإسلامي وحدته المذهبية وهو حدث فريد وتحول هائل جاء خطوة إلى الأمام في قصة الجهاد ضد الصليبيين.

---

(١٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٩٨ .

أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٥٨

(١٨٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٥٦ . Runciman :op. cit.II, p.394

(١٨١) ابو شامة : الروضتين ج١ ص ١٩٦ . Holt : op. cit. p. 51

(182) Wiet : op. cit. p. 302, Grousset : op. cit. II, pp. 586 - 9

وعلى أثر إزالة الخلافة الفاطمية من مصر استجد موقف جديد هو تحديد العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين، وما درج عليه المؤرخون من تسميتها بالوحشة بين نور الدين وصلاح الدين[١٨٣]، إذ يشير المؤرخون المحدثون إلى أن إزالة الخلافة الفاطمية وإحداث التغيير في مصر أفاد صلاح الدين ما لم يفده نور الدين، على الرغم من أن نور الدين هو الذي ألح لإحداث هذا التغيير، فقد غدا صلاح الدين على قدم المساواة مع نور الدين أمام الخليفة العباسي، بعد أن أصبح سلطان مصر الفعلي[١٨٤]، وكان صلاح الدين قبل ذلك يستمد سلطانه من كونه وزيراً للخليفة الفاطمي ونائباً لنور الدين في مصر، فلما زالت الخلافة الفاطمية كان عليه أن يقتنع بأنه أصبح مجرد نائب لنور الدين في البلاد وعليه أن يتحمل في أى وقت قرار عزله وإحلال آخر محله وهو أمر لن يرضي به صلاح الدين، بعد أن وطد نفوذه في مصر وأمل في استمرار حكمها، ومن هنا ثارت الرغبة في نفسه للخروج على سيده والاستقلال بمصر وهو أمر أفاد منه صلاح الدين فعلاً ولم يفد نور الدين[١٨٥].

ولابد وأن ما قام به صلاح الدين من إرسال رسول إلى بغداد يحمل البشارة بإقامة الخطبة العباسية بمصر، قد أسهم في إحداث بداية جفوة بينه وبين نور الدين، خاصة وقد بعث بصحبة هذا الرسول جانباً مما وقع في يديه من قصر الخلافة الفاطمي من تحف ونفائس وذخائر ما وزع جزء منها على الأمراء ورجال الدولة، واختص الخليفة بالجانب الأعظم منها فزاد ذلك في مكانة صلاح الدين[١٨٦]، وبدأت

---

(١٨٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٨

(184) Stevenson : op. cit. p. 197, Wiet : op. cit. p. 302

(١٨٥) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٧٢٥

(١٨٦) ابو المحاسن : بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٢ .

أبو شامة : الروضتين ج١ ص ١٩٤

مظاهر الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين وحدث ما ينبئ بسوءالعلاقات بين الرجلين، على الرغم من أن صلاح الدين بعث إلى نور الدين هو الآخر ببعض كنوز الفاطميين وأموالهم، تعبيراً على استمرار ولائه له، ولكن ذلك لم يمح شعور نور الدين ببعض القلق جهة صلاح الدين[١٨٧]، ولكن الأمور ما لبثت أن عادت إلى حالتها، وإن كان نور الدين قد فكر قبل وفاته في الوصول إلى مصر، وعزل صلاح الدين[١٨٨].

وكان مسلك صلاح الدين تجاه سيده نور الدين في الفترة المتقدمة من حكمه في مصر مثار مناقشة وموضع تفسيرات كثيرة من قبل المؤرخين القدامى منهم والمحدثين، لأن صلاح الدين حرص خلال تلك الفترة على ألا يجتمع بنور الدين[١٨٩]، وتجنب لقاءه خلال منازلات مع الفرنج في فلسطين وهجمات لصلاح الدين على الشوبك في سبتمبر سنة ١١٧١م بأمر نور الدين الذي كان قد طلب منه القيام بهذا الهجوم[١٩٠]، فكان ذلك سبباً في تأويلات مختلفة ذهب إليها المؤرخون، منهم من ذهب إلى القول بأن سبب ذلك أن صلاح الدين نزع خلال تلك الفترة إلى تأسيس دولة أيوبية سنية بمصر تكون مركزاً لتوجيه العمليات الحربية ضد الصليبيين، ولذلك لم يتحمس كثيراً لمنازلة الفرنج أو يحرص كثيرا على مواصلة هذه الهجمات لحين أن تفرغ مصر من مشاكلها الداخلية، وتستعد لما يفكر فيه صلاح الدين في الوقت الذي اعتبر فيه نور الدين بلاد الشام المركز الرئيسي والمسرح الأساسي الذي ينبغي أن تجري عليه وتوجه منه العمليات العسكرية

---

(١٨٧) المقريزي : السلوك ج١ ص ٤٧ – ٤٩

(١٨٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٢٢٣، ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٦١

(189) Stevenson : op. cit. 197

(١٩٠) ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٠٣. Runciman op. cit. II,p. 390

ضد الصليبيين ومنازلتهم، ولم تكن مصر في نظر نور الدين إلا مصدراً للدخل لسد نفقات هذا النزال[١٩١] ، ولهذا لم يحرص صلاح الدين – في رأى هذا الفريق من المؤرخين – كثيراً في تلك الفترة المتقدمة على الاجتماع مع سيده نور الدين لنزال الصليبيين، بل تجنب لقاءه قبل أن تتهيأ له الفرصة لتنفيذ ما يفكر فيه[١٩٢] .

ومنهم من ذهب إلى رأى آخر – لا نوافقهم عليه – لاسيما وأن على رأسهم ابن الأثير المعروف بكراهيته لصلاح الدين واتصاله بالزنكيين، إذ قال هؤلاء بأن صلاح الدين حرص على عدم نزال الصليبيين حينئذ أو الاجتماع بسيده نور الدين لحربهم، لأنه كان يواصل سياسة الفاطميين الهادفة إلى الإبقاء على الكيان الصليبي في فلسطين ليكون حاجزاً بينه وبين نور الدين وحكام الشام المسلمين[١٩٣] ، لأن صلاح الدين – في رأى ابن الأثير – كان يعتقد أن نور الدين متى أزال الفرنج من طريقه " أخذ البلاد منه فكان يحتمي بهم منه، ولا يؤثر استئصالهم، بينما كان نور الدين لا يري إلا الجد في غزوهم بجهده وطاقته" [١٩٤] .

ومهما يكن من أمر فقد أجمع المؤرخون على أن صلاح الدين كان حينئذ يدخر قوته وجهده لأمرين : الأمر الأول هو إقامة بيت أيوبي سني في مصر أو في النوبة أو اليمن اللتين أرسل أخاه توران شاه إليهما لفتحهما تحسباً إذا لاحقه نور الدين في مصر يستطيع هو وأسرته اللجوء إلى إحداهما[١٩٥] ، والأمر الثاني هو تقوية دولته بالاستعداد

---

(١٩١) العريني : مصر في عصر الأيوبيين ص ٣٩،
الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٧٢٨

(١٩٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٢

(193) Grousset : op. cit. II, p. 590

(١٩٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦١

(١٩٥) المقريزي : السلوك ج١ ص ٥٢

الجاد لمجابهة قوى الصليبيين بعد الفراغ من مشاكل مصر الداخلية، ولذلك أجمع المؤرخون على أن قوة صلاح الدين في مصر صارت منذ سنة ١١٧١م تضارع إن لم تتفوق على قوة نور الدين، ولعل ذلك هو الذي اقلق نور الدين وجعله يفكر جدياً في المسير إلى مصر لعزل صلاح الدين عنها، ولكن الموت لم يمهله فوافاه الأجل في مايو سنة ١١٧٤ قبل أن يحقق غرضه(١٩٦) .

ولذلك مضى صلاح الدين في توطيد سلطانه في مصر والتقرب إلى أهلها فكفل لهم الأمن والسكينة، وألغي كثيراً من الضرائب الجائرة على أهل مصر والقاهرة، وشجع التجارة الداخلية والخارجية وسمح للتجار القدوم والخروج فأصبح لكل تاجر الحرية في المجيء أو الرحيل عنها " لا يسأل عما أورده وأصدره ولا يستوقف في طريقه" (١٩٧) ،وفتح اليمن وجعله امتدادا لجبهته في مصر وبعدا استراتيجياً لدولته. ولبي طلب نور الدين في سنة ١١٧٣م بمنازلة حصني الشوبك والكرك لعظم ضررهما على المسلمين فيما بين مصر والشام والجزيرة العربية(١٩٨) .

وعلى الرغم من كل ذلك لم يتخل أنصار المذهب الشيعي ورجال الدولة الفاطمية البائدة عن ثأرهم. فأشعل بقايا الشيعة ثورة ترمي إلى الخلاص من صلاح الدين، وإعادة الخلافة الفاطمية والمذهب الشيعي إلى مصر(١٩٩) . فاتصلوا بالباطنية في بلاد الشام وبالصليبيين في بيت المقدس وبوليم الثاني النورماني ملك صقلية. ليقوم الصليبيون وحلفاؤهم بغزو مصر برا وبحرا في الوقت الذي يشعل فيه الثوار الفتنة داخلي

---

(١٩٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٣.

وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٥٩

(١٩٧) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٠٥

(١٩٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٥ .Holt : op. cit. p. 51

(١٩٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٢٣٤

والثورة ضد صلاح الدين، وكان زعيم الشيعة في مصر ورأس هذه المؤامرة الشاعر عمارة اليمني ولفيف من أتباع الخلافة الفاطمية الزائلة[٢٠٠] .

وفي الوقت الذي استعد فيه وليم الثاني لإرسال نحو ٦٠٠ سفينة تحمل نحو ثلاثين ألف رجل للمشاركة في غزو مصر، واستعد الملك عموري الأول لقيادة الحملة براً إلى مصر، انكشفت المؤامرة في مصر، ووقف صلاح الدين على تفصيلاتها، فما لبث أن نكل بالمتآمرين وصلب زعماءهم[٢٠١] ،على حين توفى الملك عموري في بيت المقدس في يوليو سنة ١١٧٤[٢٠٢] ، بعد أن علم بانكشاف المؤامرة، وفي جو من خيبة الأمل واليأس في إمكان زحزحة صلاح الدين من مصر، إلا أن أسطول النورمان ما لبث أن وصل في يوليو سنة ١١٧٤م ، بعد فشل المؤامرة ووفاة عموري[٢٠٣] فلم يشأ أن يعود أدراجه خاوياً وفضل مهاجمة الإسكندرية، غير أن المقاومة الباسلة التي أبدتها حامية المدينة وأهلها، فضلاً عن وصول صلاح الدين بجيشه قد قلب خطو النورمان رأساً على عقب، فتعرضوا للهزيمة، وأحرقت بعض سفنهم، وهرب الباقي منهم عائدين إلى صقلية دون أن يحققوا هدفهم[٢٠٤] .

---

(٢٠٠) المقريزي : السلوك ج١ ص ٥٣ ،أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٢١٩
Runciman : op. cit. II, 397, Wiet : op. cit. p. 311

(٢٠١) ابن واصل :مفرج الكروب ج١ ص ٢٤٧. Grousset : op. cit. II, p. 595

(٢٠٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٦٠ - ١٦١

(٢٠٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٨- ٤٩ (تحقيق د. الشيال ط١)

(٢٠٤) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٣٥ ، Wiet : op. cit. p. 311

الفصل التاسع

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية

الفصل التاسع
صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية

جاءت وفاة عموري الأول في يوليو سنة ١١٧٤ م ضربة شديدة للصليبيين في بلاد الشام نظراً لما كان له من خبرة طويلة في محاربة المسلمين ولأهميته في والوصاية على الإمارات الأخرى في بلاد الشام، ولحاجة الصليبيين إلى جهوده في تلك الفترة الحرجة عقب وفاة نور الدين وبزوغ نجم صلاح الدين[١] ،واعتلى عرش المملكة، بعده ابنه بلدوين الرابع (١١٧٤ – ١١٨٥م) ، وكان مريضاً بالجذام ونال رعاية والده الذي عهد إلى المؤرخ وليم الصوري بتعليمه وتأديبه والإشراف عليه، فأنجز وليم الصوري هذه المهمة في حماسة ودأب، خاصة بعد أن لمس في هذا الطفل ذكاءه وشدة ميله لسماع التاريخ[٢] ،واعتلى بلدوين الرابع العرش وهو في الثالثة عشر من عمره، مما جعله يسلم أمور المملكة في البداية إلى أحد الأمراء وهو ميلون دي بلانسي، الذي كرهه أمراء وبارونات المملكة لكبريائه وغطرسته ومعاملته السيئة لهم، في الوقت الذي تقدم فيه ريموند الثالث أمير طرابلس يطالب بالوصاية على الملك بحكم قرابته ومكانته في ذلك الوقت[٣] .

وبدأت مرحلة من التنافس والصراع بين رجال المملكة وكبار الأمراء الصليبيين في بلاد الشام، فما لبث ميلون دي بلانسي أن لقي حتفه غيلة في عكا،ووافق الملك بلدوين الرابع وبارونات المملكة على

---

(1) Stevenson : op. cit. p. 205 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٥٥

(٢) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ١٧٤ – ١٧٥

(3) Grousset : op. cit. II, p. 609, Holt . op. cit. p. 53

وصاية ريموند كونت طرابلس على شئون المملكة[٤] ،كل ذلك جرى في الوقت الذي شرع فيه صلاح الدين في القيام بدوره في محاربة الصليبيين، بعد أن استقرت له الأمور في مصر، وبعد وفاة نور الدين محمود ومن بعده عموري الأول بعد شهور قليلة[٥] ،فجاء ذلك فرصة لصلاح الدين ليكتب أعظم صفحة في قصة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين .

وكانت أمور الشام قد اضطربت عقب وفاة نور الدين، نظراً لصغر سن ابنه الملك الصالح إسماعيل الذي لم يكن قد تجاوز الحادية عشر من عمره، فتنازع أمراء نور الدين على السلطة وعلى الوصاية على الملك الصغير[٦] ،ابن المقدم في دمشق وابن الداية في حلب ونهض سيف الدين غازي وهو ابن أخ لنور الدين بالاستقلال بالموصل وضم إليها نصيبين وبعض المدن في أطراف العراق والجزيرة حتى الرها، وأنذرت الأمور في شمال العراق وفي بلاد الشام بشر مستطير[٧] ،خاصة وقد لجأ عموري الأول - قبل وفاته - إلى مهاجمة حصن بانياس مستفيداً من حالة الفوضى التي ضربت فيها الدولة النورية، وألقى الحصار عليها، فعرض عليه ابن المقدم مبلغاً كبيرا من المال وإطلاق سراح الصليبيين في دمشق[٨] ،وعقد محالفة مع الصليبيين ضد صلاح الدين، ولوّح له أيضاً باستدعاء صلاح الدين من مصر وسيف الدين غازي من الموصل، وعندئذ اضطر عموري إلى الانسحاب عن بانياس[٩] .

---

(٤) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ١٧٧ - ١٨١

(5) Runciman : op. cit. II, p. 399, أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٢٨

(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٢

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٩

(٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٦٠

(٩) أبو شامة :الروضتين ج١ ص ٢٣٠ - ٢٣٢.ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ص٧

وفي غمرة تنازع أمراء نور الديـن وتنافسـهم علـى السـلطة أرسـل صـلاح الديـن رسـله إلى دمشـق معلنـاً حقـه في الوصايـة علـى الصـالح إسماعيل وأملاك نـور الديـن، بعـد أن تطـورت الأمـور في بـلاد الشـام وانتقل الصالح إسمـاعيل إلى حلـب بوصفهـا القـاعدة الرئيسـية للدولـة النورية في صيف سنة ١١٧٤م ،واستبد بأموره سعد بن كمشـتكين[١٠]، بعد أن اعتقل ابن الداية وانفرد بالوصاية على الملك الصغـير، وعندئـذ أرسل ابن المقدم من دمشق رسالة إلى صلاح الدين يدعـوه فيهـا لتسـليم دمشق[١١] ، وعلى الرغم من ذلك لم يسـرع صـلاح الديـن بالذهـاب إلى دمشق لانشغاله حينئذ بالتصدي لأسطول وليم الثـاني ملـك صقليـة إلى الإسكندرية في أواخـر يوليـو سـنة ١١٧٤م - كمـا سـبق وأن أشـرنا - وبعض الفتن الداخلية مـن ناحيـة أخـري، فضـلاً عـن رغبتـه في عـدم التسرع حتى يتأكد من موالاة بعض المـدن الشـامية لـه، ويتـأكد أيضـاً بنفسه من أن طريقه إلى بلاد الشام صار مأمونـاً، بعـد زيارتـه إلى إيلـه للوقوف على ما أمر بتحصينه من المواقع وعمارتها[١٢] .

والواقـع لم يكـن صـلاح الديـن في حاجـة إلى دعـوة للذهـاب إلى دمشق، إذ أنـه أدرك ضعـف أمـراء الشـام وقصـور همتهـم عـن القيـام بمتطلبات الجهاد ضد الصليبيين ،في ظل تنافسـهم وتنـاحرهم. وأدرك أيضاً أحقيته في الوصايـة علـى الدولـة النوريـة، قبـل أن يعصـف بهـا الصليبيون، ولهذا خرج إلى الشام في أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤[١٣] ،بعد أن استخلف على مصر أخاه العـادل، وفي نيتـه الحفـاظ علـى الوحـدة الإسلامية في مواجهة الصليبيين وإعادة الجبهة الإسلامية إلى ما كـانت

---

(١٠) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٣٤. Holt : op. cit. p. 54

(١١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٧٦ . Runciman :op. cit. II, p.404

(12) Wiet : op. cit. p. 313

(١٣) أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٣٦

عليه زمن نور الدين، فما لبث أن دخل دمشق ورحب به أهلها وتسلم قلعتها واستولى على ما كان بها من أموال وعين أخاه طفتكين حاكماً عليها[١٤] .

ثم بادر صلاح الدين بإبطال ما استحدث بعد نور الدين من ضرائب ومكوس، فاستمال بذلك قلوب أهل دمشق الذين رحبوا به نكاية في أهل حلب وتعبيراً عن استيائهم من انتقال الصالح إسماعيل إلى حلب، وقد أعلن صلاح الدين أنه ما قدم إلا لحماية الأمير الصغير[١٥] ، ووضع حد لتنافس الأمراء من حوله، وليس لغرض شخصي أو طلباً لجاه أو طمعاً في الدنيا، وإنما خوفاً من أن يغتنم الفرنج فرصة اختلاف أمراء الشام[١٦] ،ولذلك سارع صلاح الدين بإقرار الخطبة للصالح إسماعيل في بلاده كلها، وسك النقود باسمه، واتخذ صلاح الدين من ذلك كله ستار لغرضه الأساسي، وهو إرساء دعائم الوحدة من جديد وإعادة الجبهة الإسلامية إلى سابق قوتها ليبدأ الجهاد ضد الصليبيين[١٧] ،وأحس بذلك المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي أشار إلى أنه " كلما ازدادت قوة صلاح الدين اشتدت عداوته وخصومته لنا، فأثار ذلك الخوف والرعب فينا، لأن أي زيادة في قوته وسلطته تحمل الخطر الكبير على المملكة"[١٨] .

ولم تلبث الإمدادات أن أتت من مصر، فقام صلاح الدين بالاستيلاء على حمص ثم على حماة وشيزر في نفس العام (ديسمبر ١١٧٤م) ،ثم أشرف على حلب وتقدم لمحاصرتها، غير أنه لم يجد

---

(١٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ٥٨

(15) Grousset : op. cit. II, p. 621

(١٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٠ (تحقيق د. الشيال ط١)

(17) Stevenson : op. cit. p. 206

(١٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٨٤

استجابة كبيرة من أمرائه وقادته الذين ربما اعتقدوا أن صلاح الدين يحاول اغتصاب حق الصبي في إرث نور الدين في الوقت الذي صمدت فيه حلب وقاومت الحصار(١٩) واستعان الأمراء فيها بالباطنية والصليبيين، وقدم بعض الباطنية إلى معسكر صلاح الدين وحاولوا الفتك به غيلة، ولكن أمرهم انكشف ونجا صلاح الدين من شرهم(٢٠)، فلجأ الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس والوصي على مملكة بيت المقدس يستنجدون به، ولم يتردد هذا في محاولة الظهور بمظهر حامي الملك الصالح إسماعيل والحيلولة بين صلاح الدين وتوحيد الجبهة من جديد(٢١)، والحيلولة دون نجاح صلاح الدين، فقام من جانبه بمهاجمة حمص التابعة لصلاح الدين في فبراير سنة ١١٧٥م، فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب(٢٢) فنجح ريموند في تحقيق غرضه، ولذلك رد حكام حلب الجميل للصليبيين بإطلاق سراح بعض الأسري من سجون حلب ومنهم رينو دي شاتيون (أرناط)(٢٣)، لكن صلاح الدين عاد بعد انصراف ريموند فاستولى على بعلبك فامتد سلطانه حتي حماه شمالاً، وإن ظلت حلب تقاوم وتعارض الانضواء تحت لوائه(٢٤).

بادر الزنكيون في الموصل وحلب بالاتحاد لطرد صلاح الدين من الشام واستعادة دمشق، ودارت معركة هامة عند قرون حماه في إبريل سنة ١١٧٥م ،انتصر فيها صلاح الدين على قوى الزنكيين

---

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٣، Wiet : op. cit. p. 311

(٢٠) ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٢٣٩

(٢١) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٨٤

(٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤

(23) Runciman : op. cit. II, p. 408, Holt : op. cit. p. 53

(٢٤) أبو شامة :الروضتين ج١ ص ٢٣٩،وليم الصوري :نفس المصدر ج٤ ص١٩١

مجتمعه[٢٥]، وحاصر حلب وأزال من الخطبة اسم الصالح إسماعيل وتلقب بلقب ملك مصر والشام وان لقبه المؤرخون المعاصرون بلقب سلطان[٢٦]، وترتب على انتصار صلاح الدين أن ازداد خوف سيف الدين غازي أمير الموصل فحشد من جديد عساكره وتوجه إلى حلب فاجتمع معه الحلبيون واتجه الجميع لملاقاة صلاح الدين، الذي التمس الإمدادات من مصر وبعد وصولها في فبراير سنة ١١٧٦م[٢٧]، جرت محاولة الزنكيين الأخيرة لطرد صلاح الدين من الشام، إلا أن صلاح الدين نجح في إلحاق هزيمة ثانية بهم على الطريق بين حلب وحماة عند تل السلطان، وفي هذه المرة شدد الحصار على حلب واستولى على القرى المحيطة بها[٢٨]، لكنه عاد فأرجأ الاستيلاء عليها لوقت آخر لأنه آثر أن يثأر لنفسه من الباطنية الذين حاولوا اغتياله أكثر من مرة آخرها أمام حصن إعزاز فاتجه صلاح الدين إلى حصنهم وأعمل فيهم القتل والأسر، وخرب بعض ديارهم وأجبرهم على التعهد بعدم العودة للتآمر والاغتيال[٢٩]، كما أرجأ الاستيلاء على حلب لأن الصليبيين في بيت المقدس بقيادة الملك بلدوين الرابع جددوا هجماتهم ضد ممتلكاته فآثر صلاح الدين العودة إلى مصر في نهاية سنة ١١٧٦م[٣٠].

---

(٢٥) المقريزي : السلوك ج١ ص ٥٩

(26) Grousset : op. cit. II, p. 626, Wiet : op. cit. p. 335 - 6

(٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٦ - ٣٧

Stevenson : op. cit. p. 211

Holt : op. cit. p. 55

(٢٨) ابن راشد : النوادر السلطانية ص ٥١ .

(29) Grousset : op. cit.II, p. 603,Runciman :op. cit. II, p. 410

(٣٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٩٣ - ١٩٦.

المقريزي : السلوك ج١ ص ٦٣

ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار الفترة الأولى من حياة صلاح الدين السياسية والواقعة فيما بين سنتي ١١٧١ ، ١١٧٨م فترة إقامة الحكم وإرساء دعائم الدولة ومنازلة الزنكيين ومحاولة استخلاص أملاك نور الدين وإعادة الجبهة الإسلامية المتحدة إلى سابق عهدها، انصرف فيها صلاح الدين إلى محاولة تحقيق ذلك، وإن لم يغفل فيها أمر الصليبيين تماماً، وإنما كانت منازلته لهم في إطار الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه في تلك الفترة[٣١] ، ولذلك لم يعبأ صلاح الدين كثيراً بمحاولات الصليبيين وهجماتهم على إقليم دمشق في وسط الشام أو محاولتهم الهجوم في شمال الشام لمنعه من تحقيق أهدافه التي بثت الخوف والهلع في نفوسهم[٣٢] .

ولهذا كانت عودة صلاح الدين إلى مصر في نهاية سنة ١١٧٦م تهدف إلى تقوية دفاعات مصر وتحصيناتها، لأنه أحس أن ثمة جهود صليبية تحاول أن تستقطب من جديد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين إلى مشروع حملة مشتركة على مصر وتوقع صلاح الدين هجوماً صليبياً جديداً على مصر[٣٣] ،لذلك شرع في بناء قلعة الجبل على جبل المقطم وحرص على توفير المياه بها فحفر بئراً عميقاً يضمن بها الحصول على الماء، وكان قد أمر ببناء السور الدائر حول مصر والقاهرة والقلعة ليصل طرفه الشمالي إلى ساحل النيل بينما يبلغ طرفه الآخر موضه القلعة وتولى بهاء الدين قراقوش بناء القلعة، كما شيد جنوب الفسطاط سوراً جديداً يبدأ من ساحل النيل حتى القلعة[٣٤] ،واهتم

---

(31) Runciman : op. cit. II, pp. 405 - 6 ,
Stevenson : op. cit. p. 213 - 14

(٣٢) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ١٨٤

(33) Camb. Med. Hist. Vol. 4,p. 377
Wiet : op. cit. p. 355

(٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٥٤.

صلاح الدين أيضاً بإعادة تقوية وتعمير الأسطول البحري، وزار الإسكندرية وتفقد تحصيناتها واهتم بعمارتها وحاميتها تحسباً لأى هجوم(٣٥) .

وفي الوقت الذي اضطربت فيه أحوال المملكة الصليبية واشتد المرض بالملك بلدوين الرابع وانتهت وصاية ريموند الثالث على الملك سنة ١١٧٧م، لبلوغ الملك سن الرشد(١٦ سنة) بعد وصاية امتدت ثلاث سنوات(٣٦) وصل فيليب كونت فلاندرز قادماً من الغرب في عدد كبير من جنده، وأمل الصليبيون الكثير منه لقرابته من الملك، وعرض عليه بلدوين تقلد المسئولية وحكومة المملكة وإدارتها والمشاركة في الحملة الصليبية البيزنطية على مصر(٣٧) ،إلا أن هذا رفض وانتهى مشروع هذه الحملة بالفشل، وإن وافق فيليب في النهاية على مهاجمة المسلمين في الشمال عند أطراف إمارة طرابلس وأنطاكية بعد إلحاح شديد(٣٨) .

ولما هاجم الصليبيون حماه وحاولوا الاستيلاء على حارم أرسل صلاح الدين جيشاً من مصر قاصداً مهاجمة الساحل الفلسطيني ليرغم الفرنج على التخلي عن مهاجمة حماه وحارم، إلا أن بلدوين الرابع نهض فيمن بقي لديه من جند لصد قوات صلاح الدين واستطاع أن يباغت بعض فرق صلاح الدين عند تل الرملة أو تل الصافية في نوفمبر سنة١١٧٧م ويحقق بعض الانتصار عليها(٣٩) ، لكن الصليبيين فشلوا

---

(٣٥) المقريزي : السلوك ج١ ص ٦٣ .

(36) Grousset : op. cit. II, pp. 633 - 4
Runciman : op. cit. II, p. 411,

(37) Runciman : op. cit. II, p. 415, Stevenson :op. cit. p. 216

(٣٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٢٠٠ – ٢٠٢، ص ٢١٠ – ٢١٣

(٣٩) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ٢١٩

في تحقيق أى تقدم واضطروا للرحيل والعودة إلى بيت المقدس[٤٠] ، وإذا كان هذا النصر قد رفع روح الصليبيين المعنوية لبعض الوقت، إلا أن صلاح الدين لم يعره كبير اهتمام ،لأنه عاد إلى الشام في ربيع سنة ١١٧٨م ليبدأ مرحلة هامة في قصة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[٤١].

استطاع صلاح الدين أن ينزل هزيمة قاسية بالملك بلدوين وبعض كبار الأمراء معه بالقرب من بانياس في أبريل سنة ١١٧٩م، ولم ينج الملك نفسه من الموت إلى بصعوبة كبيرة، بعد أن أصيب إصابات خطيرة[٤٢] ، وأكد صلاح الدين هذا النصر في يونيو من نفس العام في موقعة مرج العيون، فقتل وأسر كثير من الصليبيين ونجا الملك الصليبي في هذه المرة أيضاً بصعوبة بالغة[٤٣] ،ثم اتجه صلاح الدين بعد انتصاره في مرج العيون إلى حصن كان الداوية قد أرغموا بلدوين الرابع على بنائه قرب بانياس سنة ١١٧٨م ، عرف بحصن بيت الأحزان[٤٤] ، والذي كان خطراً كبيراً على المسلمين لأنه مكن الصليبيين من قطع طرق القوافل الإسلامية ، كما شيد الصليبيون حصنا آخر في العام التالي على جبل هونين يتحكم في منابع الأردن وسهوله العليا في مواجهة بانياس، فمثل هذان الحصنان خطاً دفاعياً قوياً عن المملكة من جهة

---

(٤٠) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٣ . Stevenson:op. cit. pp.216-7

(41) Wiet : op. cit. p. 317

(٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٧٢ – ٧٣

وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٢٣١

(٤٣) أبو شامة :الروضتين ج٢ ص١٠ –١١. Runciman :op. cit.II, p.420

(٤٤) لوقوعه قرب بيت يعقوب الذي يعتقد الناس أن يعقوب كان ينفرد فيه للبكاء على يوسف، ويقع هذا الحصن على الطريق بين صفد وطبرية .

انظر : أبو شامة: الروضتين ج٢ ص ١١ – ١٢

دمشق[٤٥]، فنجح صلاح الدين في فتح حصن بيت الأحزان وغنم ما فيه وأسر نحو سبعمائة من حاميته وخرب الحصن حتى سواه بالأرض، وأشعل فيه النيران، وصارت حاميته بين قتيل وأسير بعد أن " صيره أنقاضاً" ثم " ردم بأنقاضه آبار الماء به"[٤٦] .

كما أغار صلاح الدين على صور وصيدا وبيروت وهاجم أسطوله مدينة عكا، الأمر الذي دفع بلدوين الرابع لطلب الهدنة من صلاح الدين، ورأى صلاح الدين في هذه الهدنة فترة راحة ريثما يتم له تنفيذ بقية مشروعاته في توحيد الجبهة الإسلامية وضم مدينة حلب والموصل إلى ملكه خاصة بعد أن اضطربت الأمور فيهما، فعقدت الهدنة في مايو سنة ١١٨٠م[٤٧]، فأتاحت هذه الهدنة لصلاح الدين فرصة الالتفات من جديد للجبهة الإسلامية، ومحاولة ضم حلب والموصل[٤٨] ، فشغلت هذه المسالة حيزاً هاماً في فكر صلاح الدين فيما بين سنتي ١١٨٠م و ١١٨٥م ، واحتلت موضعاً هاماً أيضاً في سجل هذا المجاهد الكبير في تلك الفترة .

وفي نفس الوقت كانت أمور الصليبيين ببلاد الشام تسوء يوماً بعد يوم، فقد أخذت صحة الملك بلدوين الرابع تسوء في سرعة عن تصريف أمور المملكة وتفاقم ظهور أعراض الجذام عليه يوماً بعد يوم[٤٩]، فازداد نفوذ امه الملكة أجنس كورتناي، التي اهتمت بالبحث عن وريث للملكة ووصى عليها خلال فترة مرض الملك، فاختارت سنة ١١٨٠م

---

(45) King : Knights Hospitallers , p. 132

(٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٨٢ – ٨٣. المقريزي :السلوك ج١ص٦٧

(٤٧) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٢٥٤ – ٢٥٥

(48) Grousset : op. cit. II, p. 680

(٤٩) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٢٥٣

جاى لوزجنان للزواج من سيبلا الأخت الكبرى للملك[٥٠]، وهو زواج أفضى في الحقيقة إلى وقوع منازعات عديدة[٥١]، واضطر الملك للموافقة على هذا الزوج، على الرغم من تأكده من أنه ليس نابهاً ولا يؤمل كثيراً من وراء مصاهرته، وربما اضطر الملك إلى ذلك لخوفه من أطماع ريموند كونت طرابلس وبوهيموند الثالث كونت أنطاكية وتشككه في نياتهما[٥٢].

على حين ساءت سيرة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، واضطربت أحوال الإمارة على عهده وفسدت أخلاقه وتردى في الرذيلة حتى أصدر ضده الأساقفة قرار الحرمان، إلا أن ذلك لم يوقف أمير أنطاكية عن سلوكه، بل أمعن في عناده وأمر بنفي عدد من كبار النبلاء من المدينة، فلجأ هؤلاء المنفيون إلى روبين أمير الأرمن وملك قليقية[٥٣]، وتطورت الأمور في أنطاكية إلى الأسوأ، حتى وقع بوهيموند في النهاية أسيراً في يد الأرمن، بعد أن عرض أنطاكية لحرب أهلية، الأمر الذي اضعف الصليبيين كثيراً في بلاد الشام في وقت فقدوا فيه حليفاً قوياً هو الإمبراطور مانويل كومنين الذي توفي سنة ١١٨٠م والذى كانوا يلجأون إليه وقت الملمات، وبدأت سياسة بيزنطة بعده في التغير على عهد الإمبراطور ألكسيوس كومنين الثاني ومن جاء بعده[٥٤].

---

(50) Runciman : op. cit. II, p. 423

(٥١) باركر : الحروب الصليبية ص ٨١

(٥٢) وليم الصوري : نفسه ج٤ ص ٢٥٣ – ٢٥٤

(٥٣) وليم الصوري : نفسه ج٤ ص ٢٦٧– ٢٦٨ .

Grousset : op. cit. II, p. 684

Rey : Hist. des Princes d'Antioch, II, p. 379

(54) Baldwin : The Decline and fall of Jerusalem, p. 595

Ostrogorsky : op. cit. p. 350, Stevenson : op. cit. p. 224

جرت الأحداث بعد ذلك في اتجاه جديد وخطير مما أنذر الصليبيين بسوء العاقبة، فقد أطلق سراح رينو دي شاتيون الذي عرفه العرب باسم أرناط – كما سبق وأن أشرنا – وكان قد بقي في أسر المسلمين سنين طويلة قضاها في سجن قلعة حلب ثم أطلق الحلبيون سراحه سنة ١١٧٦م (٥٥) تقرباً للصليبيين والتماساً لمحالفتهم للوقوف في وجه صلاح الدين، وكان رينو دي شاتيون هذا قد تزوج ابنة ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية الأسبق فآلت إليه إمارة أنطاكية غير أنه أثار المشاكل مع المسلمين بحكم تهوره واندفاعه وكراهيته للمسلمين فوقع في يد نور الدين وسجن بقلعة حلب نحو ستة عشر عاماً، وانتقل الحكم في أنطاكية إلى بوهيموند الثالث(٥٦)، ولما خرج أرناط من سجنه تزوج وارثة صاحب إقطاع الأردن وحصني الشوبك والكرك إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت لفلسطين سنة ١١٧٧م، الأمر الذي أتاح له من جديد القيام بدور خطير في الحروب الصليبية لأنه شرع في شن الغارات المخربة في البحر الأحمر(٥٧)، في الوقت الذي لم يكن حماسه الصليبي وتهوره قد فتر بعد، فتسبب بذلك التهور في جلب الأخطار على المملكة الصليبية في بيت المقدس(٥٨)، لاسيما وأن امتلاكه لحصني الكرك والشوبك اللذين آلا إليه عن طريق تلك الزيجه كانا لا يتحكمان فقط في طريق حجاج المسلمين إلى الحرمين الشريفين بل أيضاً في الطريق البري الرئيسي بين شطري دولة صلاح الدين في مصر والشام(٥٩)،

---

(٥٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ١٩٦

(56) Chalandon : Comnenus II, p. 523,

وليم الصوري : نفسه ج٣ ص ٤٤٣ – ٤٤٤

(٥٧) باركر : الحروب الصليبية ص ٨٢

(58) Grousset : op. cit. II, pp. 701 - 2

(٥٩) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٦٩، Wiet :op. cit. pp.318 -19

فتحول أرناط منذ ذلك الوقت إلى قاطع طريق وإلى اللصوصية وتعرض للقوافل الإسلامية التي تجتاز الطريق من مصر إلى دمشق وبالعكس وتمر قريباً من إمارته[٦٠] .

وحدث في صيف سنة ١١٨١ أن نقض أرناط شروط الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وعزم على إفراغ حصيلة هائلة من الكراهية للمسلمين . والعودة إلى سياسة الاندفاع والتهور التي أدخلته من قبل السجن بحلب، فخرج على رأس قوة من رجاله فأوغل في صحراء العرب حتي تيماء في منتصف المسافة تقريباً بين الاردن والمدينة المنورة[٦١] ،وفي نيته أن يهاجم المدينة المنورة ذاتها لضرب المسلمين في أقدس بقعة لديهم والاستيلاء على الأماكن المقدسة الإسلامية[٦٢] ، غير أن نائب صلاح الدين بدمشق أسرع على رأس العساكر الدمشقية بغزو الأردن ومهاجمة الكرك وأخذ يخرب وينهب في تلك الجهات، مما دفع أرناط إلى أن يعجل بالعودة إلى إمارته للدفاع عنها ولكنه نهب في طريق عودته قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلب منها ثروة عظيمة[٦٣] .

ولقد أحدثت هذه الإغارة رد فعل عنيف في الأوساط الإسلامية، وأفزعت المسلمين عامة، وغضب صلاح الدين وأرسل إلى ملك بيت المقدس يلومه على ما حدث ويوضح له حجم الاستياء الذي عم الأوساط الإسلامية من جراء هذا السلوك والهمجية، ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين، ويطلب منه أن يأمر أرناط برد ما سلبه من المسلمين

---

(٦٠) باركر : المرجع السابق ص ٨٢

(٦١) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٣

(٦٢) ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص ١٠٤

(63) Runciman : op. cit. II, p. 431,
Grousset : op. cit. II, pp. 701 - 2

ويجبره على الانصياع والالتزام بأبسط مبادئ الشرف[٦٤]، وعلى الرغم من أن تهور أرناط قد عكر صفو السلام مع المسلمين في وقت كانت المملكة في أشد الحاجة إلى السلام، إلا أن بلدوين الرابع عجز عن كبح جماح تابعه أرناط، وفشل في إجباره على الانصياع لأمر الملك وتهدئة الأمور مع المسلمين، وجاء ذلك - في رأي كبار المؤرخين المحدثين - تطوراً جديداً في المملكة الصليبية ودليلاً على تفسخ النظم الإقطاعية وازدياد ضعف ملوك بيت المقدس أمام أفصالهم الإقطاعيين[٦٥] إذ طغى سلطان البارونات على سلطان الملك، واختفى التوازن بين سلطة الملك والمحكمة العليا وتداعت الإدارة الحكومية في المملكة وأصابها الخلل والاضطراب[٦٦] وترتب على ذلك أن أطلق صلاح الدين كل ما في حوزته من قوة احتجزها زمناً طويلاً[٦٧].

فحينما أرسل بلدوين إلى أرناط يطلب منه الإسراع برد ما نهبه من أموال المسلمين وإطلاق سراح أسرهم احتراماً للهدنة المعقودة مع صلاح الدين. رفض هذا رفضاً باتاً ومضى في غيه فاعتبر ذلك بمثابة إعلان الحرب على صلاح الدين[٦٨]، الذي خرج من مصر في مايو سنة ١١٨٢م لآخر مرة، لأنه ظل بعدها في بلاد الشام ولم يعد إلى مصر إلى أن توفي، واتجه صلاح الدين إلى إيله على خليج العقبة، ومنها اتجه إلى دمشق، فدخلها في يونيو، دون أن يحفل بجموع الصليبيين التي خرجت تحت قيادة بلدوين لتحول بينه وبين الوصول إلى

---

(64) **Runciman** : op. cit. II, p. 431

(65) **Grousset** : op. cit. II, p. 703

(66) **Baldwin** : op. cit. p. 591

(٦٧) باركر : الحروب الصليبية ص ٨٢

(٦٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٢٨٣.

Wiet : op. cit. p. 318-19

دمشق[٦٩] .

وعلى الرغم من الإغارات التي شنها صلاح الدين على الصليبيين سنة ١١٨٢م في طبرية وبيسان في يوليو من ذلك العام، ونجاحه في الاستيلاء على بيسان وإلحاق الهزيمة بجموع الصليبيين على الطريق إلي الناصرة وبالقرب من حصن كوكب[٧٠] ،وهجومه على عكا براً بينما كان أسطوله يهاجمها بحراً ليفصل بين إمارتي أنطاكية وطرابلس في الشمال، وبين المملكة الصليبية في الجنوب وتفكيره في مهاجمة بيروت، على الرغم من كل ذلك إلا أن صلاح الدين لم يكن يقصد بهذه الإغارات حسم النزاع مع الصليبيين وشن حرب فاصلة معهم في هذه المرحلة، لأنه حتماً أدرك أن هذه الحرب لم يحن وقتها بعد، وأنه ينبغي الاحتفاظ بقواته سليمة ادخاراً لها لمعركة كبيرة آتية لا محاله، ولهذا عاد إلى دمشق بعد هذه الإغارات[٧١] ،وبعد الاستيلاء أيضاً على حصن الشقيف أرنون وحصن حبيس جلدك، فضلاً عمن أسرهم من الفرنج في هذه الهجمات واتخاذ المسلمين الحصن الأخير مركز مراقبة على الفرنج، بالإضافة إلى ما أحدثه صلاح الدين في المملكة الصليبية من ذعر وخوف[٧٢] .

ذلك أن صلاح الدين كان لا يزال يفكر في مشروع إتمام الوحدة الإسلامية وإرساء دعائم الجبهة الإسلامية المتحدة، فما لبث أن أوقف هجماته على الصليبيين التي بدأها سنة ١١٨٢م والتي نعتبرها رد فعل لما قام به أرناط من استفزاز سنة ١١٨١م ونجدها عقاباً للملك لعجزه عن كبح جماح تابعه أرناط، لأن صلاح الدين ما لبث أن التفت

---

(٦٩) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٢٨،وليم الصوري :المصدر السابق ج٤ ص٢٨٤

(٧٠) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ٢٨٩ - ٢٩٠

(٧١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١١٨، أبو شامة :الروضتين ج٢ ص٢٩

(٧٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٢٨٦

للجبهة الإسلامية يوليها بعض جهده خاصة بعد أن دخل أمراء الجزيرة في طاعته ودانت له آمد[٧٣] ،واستولى على بعض معاقل حلب الأمامية مثل تل خالد وعينتاب[٧٤] ،ثم اتجه إلى شمال الشام وألقي الحصار على حلب، فسارع أميرها الزنكي عماد الدين زنكي (الثاني) إلى طلب الأمان والخروج منها إلى إقطاع يقطعه إياه صلاح الدين، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى طلبه، ومنحه إقطاع سنجار والخابور ونصيبين والرقة وسروج واشترط عليه إرسال الجند للجهاد كلما طلب منه ذلك لأن العساكر النورية مجاهدون أشداء امتازوا بالفروسية وأدوا خدمات جليلة للإسلام[٧٥] ،ودخل صلاح الدين حلب في يونيو سنة ١١٨٣م وأسند حكمها لابنه الظاهر غازي[٧٦] .

وكان صلاح الدين قد حاول أثناء هجماته على حلب الاستيلاء على الموصل سنة ١١٨٣م وفيها الأخ الزنكي الآخر عز الدين مسعود[٧٧]، إلا أن محاولته أمام الموصل لم تنجح لمبادرة الأمير الزنكي بالاتصال بالصليبيين ومحالفته لهم، حتى نهض بلدوين الرابع لمهاجمة الجهات الواقعة جنوب دمشق لإرغام صلاح الدين على سحب جيوشه من الشمال[٧٨] ،وفعلاً عاد صلاح الدين إلى بلاد الشام وواصل حصار حلب حتى دخلها - كما رأينا - بل إنه استولى أيضاً على حارم- بعد دخوله حلب بشهر واحد، ثم قام بمحاولة أخرى ضد

---

(73) Holt : op. cit. p. 55

(٧٤) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٤٢ .ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٣٩

(٧٥) ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص١٤١-١٤٢.

أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٤٢- ٤٣

(٧٦) المقريزي : السلوك ج١ ص ٨١ . Cahen : op. cit. p. 421

(77) Holt : op. cit. p. 55

(٧٨) وليم الصوري : المصدر السابق ج٤ ص ٣٠١

الموصل سنة ١١٨٥م لم يكتب لها النجاح أيضاً وظلت الموصل تكابر وتقاوم الدخول في الوحدة الإسلامية في هذه المرة أيضاً(٧٩) .

وبدخول صلاح الدين حلب سنة ١١٨٣م غدا أقوى حاكم معاصر في الشرق الأدني على حد قول المؤرخين اللاتين أنفسهم خاصة المؤرخ الصليبي وليم الصوري(٨٠) ،وأصبحت الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد تحت زعامته من جبال طوروس شمالاً حتى بلاد النوبة جنوباً وأمدته موارد مصر الضخمة وتمركزه في دمشق وحلب بقوة عظيمة جعلته قادراً على إنزال ضربة فاصمة بالكيان الصليبي(٨١) ،إذ لم يحرص صلاح الدين على امتلاك حلب إلا لكي يستطيع تحقيق أغراضه ، وكان رد صلاح الدين آخر الأمر هو الجهاد الديني ضد الصليبيين وبذلك كان لابد وأن تنشب حرب دينية جديدة لتجتاح المملكة الصليبية(٨٢) .

معركة حطين واسترداد صلاح الدين لبيت المقدس :

ساءت أحوال مملكة بيت المقدس كثيراً وتدهورت صحة الملك بلدوين الرابع ، حتى عجز عن الحركة في فراشه ، الأمر الذي أدى إلى تفويضه الوصاية على المملكة سنة ١١٨٣م إلى صهره جاى لوزجنان ، الذي اشتهر بضعف الشخصية وعدم الحكمة في تصريف الأمور(٨٣) ، في الوقت الذي شرع فيه صلاح الدين في مهاجمة المملكة وأخذ يستولي على المواقع والقلاع الصليبية الواحد تلو الآخر ويحرق ويدمر ويقتل ويأسر في الصليبيين توطئة للمعركه الفاصلة(٨٤) .

---

(٧٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٤-٥٧ (نشر الشيال)، Holt: op. cit p. 56
(٨٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٣٠٤ - ٣١٥
(٨١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٨٠، Stevenson : op. cit. p. 230
(٨٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٨٢ - ٨٣
(٨٣) وليم الصوري : نفس المصدر ج٤ ص ٣١٨-٣١٩
(٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٤٨.
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦١-٦٣

فقد هاجم أطراف المملكة الصليبية بجيشه الكبير، فانساب في سهل الأردن وتقدم نحو بيسان فأخلاها الصليبيون قبل وصوله، فاستولى عليها صلاح الدين وغنم كل ما خلفه الصليبيون فيها، وأحرق ما لم يستطع أخذه على حد قول المؤرخين المسلمين[٨٥]، بعد فرار حاميتها والمدافعين عنها " تاركين وراءهم كل ما يملكون " وعائدين إلى طبرية[٨٦]، في الوقت الذي كان لا يزال فيه الصليبيون تحت قيادة جاى لوزجنان قابعين عند نبع الصفورية ولما تقدموا وعبروا الجبال القريبة من الناصرة، وجدوا أنفسهم قريبين من جيش صلاح الدين وقبالته، فاضطروا إلى إقامة معسكرهم قرب موارد المياه دون أن يجرؤا على التقدم لملاقاة جيش صلاح الدين[٨٧].

على حين كان صلاح الدين قد قسّم جيشه إلى جماعات "انطلقت تمشط الإقليم وتدمر كل ما تصادفه تدميراً" على حد قول المؤرخ وليم الصوري[٨٨]، ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق في أكتوبر سنة ١١٨٣م، بعد أن خرّب كثيراً من حصون الصليبيين وعدداً من قراهم وقتل وأسر أعداداً كبيرة منهم[٨٩]، جري كل ذلك والأمير أرناط ماض في غيه يرتكب بحماقته المعروفة الأخطاء التي تسببت في جلب الكارثة على الصليبيين، فلازال يعمل على تحقيق سيادة الفرنج على البحرالأحمر وطعن الإسلام في قلبه بغزو الحرمين الشريفين، فضلاً عن مهاجمة القوافل الإسلامية وجموع الحجاج وهم في طريقهم إلى الأراضي

---

(٨٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٢ – ٦٣

(٨٦) وليم الصوري : المصدر نفسه ج٤ ص ٣٢٠

(٨٧) ابن شداد : المصدر السابق ص ٦٣. Runciman : op. cit. II, p. 439

(٨٨) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٣٢١

(٨٩) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٥٠. المقريزي : السلوك ج١ ص ٨١

المقدسة الإسلامية ولتحقيق هدفه بمهاجمة الحرمين الشريفين استولى على ميناء إيلة ،الذي كان صلاح الدين قد استرده سنة ١١٧٧م[٩٠]، وكون اسطولاً بحرياً سيطر به على مدخل خليج العقبة، ومنه بدأ يهاجم المواني المصرية الصغيرة على ساحل البحر الأحمر مثل عيذاب، وخلال تلك الهجمات أكد أرناط أنه اتخذ اللصوصية والقرصنة أسلوبه ومنهاجه وبعد كل البعد عن مبادئ الفروسية الحقة، واستحق التسمية التي لصقت به إلى نهاية عصر الحروب الصليبية وهي " الفارس اللص " [٩١] .

فقد استولى أرناط – في ميناء عيذاب – على مركب كانت مخصصة لسفر الحجاج وضرب أعناق عدد كبير من حجاج قافلة إسلامية فيما بين قوص وعيذاب ،وقطع طرق التجارة وأفسد في السواحل ونهب المواني الصغيرة على سواحل البحر الأحمر، واستولى على بضائع وسلع كانت قادمة من عدن والهند، وأحدث هو ورفاقه "حوادث لم يسمع الإسلام بمثلها"[٩٢]، إذ لم يعهد المسلمون "بهذا البحر فرنجياً لا تاجراً ولا محارباً"[٩٣]، ثم أخذ يهاجم ساحل الحجاز فأشعل الحرائق في السفن في الحوراء وينبع وهما من مواني المدينة المنورة[٩٤]، ثم أوغل في البحر الأحمر حتى رابغ من مواني مكة المكرمة، وأغرق سفينة مليئة بالحجاج، كانت في طريقها إلى جدة، وكان هو ورفاقه عازمون على مهاجمة المدينة المنورة وإخراج رفاة الرسول من ضريحه الطاهر والتمثيل به " ولم يكن بينهم وبين المدينة

---

(90) Runciman : op. cit. II, p. 436

(٩١) سعيد عاشور :الحركة الصليبية ج٢ ص٧٩٧، Grousset: op. cit. II,776

(٩٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٧٩

(٩٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٥٩ (سنة ٥٧٨ هـ) ط. التجارية

(٩٤) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٣٧

أكثر من مسيرة يوم "(٩٥) ،فأفزع بهذه الإغارات سكان الحجاز وأساء إلى مشاعر المسلمين في كافة الأنحاء .

وما أن سمع الملك العادل – أخي صلاح الدين – أخبار هذه الحملة ، حتى سارع بإعداد أسطول قوى في خليج السويس والبحر الأحمر وشحنها بالرجال واتجه الأسطول تحت قيادة حسام الدين لؤلؤ إلى إيلة ، فظفر بالمراكب الصليبية فأحرقها وأسر من فيها ، ثم تعقب بقية السفن الصليبية عند عيذاب وأخذ يطاردها حتى شواطئ الحجاز حتى لحق بها(٩٦) ،فأطلق من بها من أسرى المسلمين من الحجاج والتجار، ودمر بعض هذه السفن واستولى على بعضها الآخر، ولجأ بعض الصليبيين إلى الاعتصام بالشعاب المرجانية ، فقاتلهم القائد الإسلامي ، وقتل كثيرين منهم، كما لجأ البعض الآخر إلى البر والاعتصام بالجبال ، فطاردهم المسلمون وقتلوا بعضهم ووقع الباقون أسرى في أيديهم(٩٧) ،فأرسل بعضهم إلى منى لينحروا أمام جموع حجاج المسلمين عقاباً لهم على جرمهم وجرأتهم على التفكير في انتهاك حرمة البقاع المقدسة الإسلامية ، وعاد ببقية الأسرى إلى مصر، فأمر صلاح الدين بضرب رقابهم ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بتدنيس الأماكن الطاهرة(٩٨) . أما أرناط نفسه فقد أقسم صلاح الدين على أن يقتله بيده " ونذر دمه " لفعلته النكراء(٩٩) .

---

(٩٥) المقريزي : السلوك ج١ ص ٧٩ .ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص ١٣٠

(٩٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٢٨ – ١٣٢ .
Grousset : op. cit. II, pp. 732 - 4
Stevenson : op. cit. p. 228 - 9

(٩٧) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٣٧.
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 323

(٩٨) المقريزي : السلوك ج١ ص ٧٩.
Runciman :op. cit. II,pp. 436-7

(٩٩) أبو شامة :الروضتين ج٢ص ٧٥.

واذا كان صلاح الدين قد حاول في أواخر سنة ١١٨٣م الاستيلاء على حصن الكرك لشدة ضرره على المسلمين وكرر المحاولة في سنة ١١٨٤م ،فضلاً عن إغاراته على بعض جهات فلسطين ومدن وقرى المملكة الصليبية ،كما نشط أسطوله في البحر في هذه الفترة أيضاً، فظفر بسفينة تحمل ثلاثمائة من الفرنج، ومعهم السلاح والأموال كانت مرسلة لمساعدة صليبي الشرق فاستولى عليها[١٠٠] ،إلا أن هذه الإغارات لم تؤدي إلى نتيجة حاسمة في الصراع مع الصليبيين حينئذ وإن أدت إلى اتخاذ هؤلاء سياسة الدفاع أمام هجمات صلاح الدين ولكن صلاح الدين أفاد منها كثيراً كما يشير المؤرخون لأنه أشرك في هذه الإغارات لأول مرة جيوشاً من كافة أنحاء دولته من مصر ومن دمشق وحلب وآمد وديار بكر والجزيرة وحصن كيفا، فتهيأت لهذه الفرق الفرصة للقيام بأعمال هجومية مشتركة[١٠١] .

ويشير المؤرخون الحديثون إلى أن صلاح الدين شرع قبل إعلان الحرب الكبيرة على الصليبيين في اتخاذ عدة خطوات أكدت أنه كان يعد دولته لهذه الحرب الفاصلة ويحشد كل طاقاتها للنضال ضد هؤلاء الفرنج، فقد سلك سياسة متوازنة بين العنصرين الرئيسيين اللذين يشكلان عصب جيشه وهما العنصر الكردي والعنصر التركي، فاستطاع أن يحول دون وقوع التنافس أو التخاصم بينهما بفضل حرصه على إرضائهما عند توزيع الاقطاعات والأموال وأن اختص أفراد أسرته بحكم الأقاليم والمدن الهامة وجعل لنوابه وولاته سلطة تكاد تكون مطلقة[١٠٢] ،ولكن أمرهم بأن يلتزموا بالعدالة في حكم الرعية، ويعدوا جيوشهم للجهاد عندما يطلب منهم ذلك ويسهموا في نفقات الجهاد.

---

(١٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٣٩ – ١٤٠

(101) Gibb : The Rise of Saladin, p. 582,

العريني : الشرق الأوسط ص ٨١١

(١٠٢) العريني : نفس المرجع ص ٨١٢

أما الخطوة الثانية فهي إعـادة توزيـع الإقطاعـات وحكـم المـدن الهامة والأقاليم بين أفراد أسرته ذاتها، فجعل مصر مـن نصيب ابنـه العزيز عثمان وسحب منها ابن أخيه تقي الدين عمر ومنحه إقطاعـات متفرقة في الشام[١٠٣] ،كما عهد بحلب لابنه الآخر الملك الظـاهر غـازي وأخرج منها أخاه العادل ومنحه إقطاعا في شمـال العـراق والجزيـرة يشمل الرها وحران وميافارفن وغيرها[١٠٤] .

أما الخطوة الثالثة فهي استخدامه لأساليب الدبلوماسية، وكـل مـا يـؤدي إلى عـزل الفرنـج في الشـام، فبـذل جهـوداً لجـذب التجـار الإيطاليين إلى مصر مسـتغلاً مـا يحـدث دائمـاً مـن تنـافس بـين المـدن الإيطاليـة التجاريـة جنـوا وبـيزا والبندقيـة[١٠٥] ،فـأنعش مـوارده الاقتصادية من ناحية وأضعف تجارة الصليبيين من ناحية أخـرى، إذ عقد مع البيازنة معاهدات قدموا بموجبهـا المسـاعدات لقوات مصـر في مناسبات متعددة " وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتالـه وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده"[١٠٦] ،بالإضافة إلى حرصـه علـى التفـاهم مـع الإمبراطوريـة البيزنطيـة خاصـة بعـد وفـاة الإمبراطور مانويل كومنين سنة ١١٨٠م ،إذ شرع خلفاؤه في التفاهم مـع صلاح الدين وإعادة العلاقات الودية معه، فعقدت معاهدة بين الطرفين سـنة ١١٨١م ، فكلمـا سـاءت العلاقـات بـين اللاتـين والبـيزنطيين تحسنت العلاقات بين صلاح الدين والبيزنطيين، والدليل على تحسـن

---

(١٠٣) شملت حماه ومنبج ومعرة النعمان وكفر طاب وغيرها .
انظر المقريزي: السلوك ج١ ص ٩١ – ٩٢
(١٠٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٧٨ – ١٨٤ .
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١
(١٠٥) العريني : الشرق الأوسط ص ٨١٣ . Gibb : op. cit. p. 584
(١٠٦) أبو شامة الروضتين ج١ ص ٢٤٣

تلك العلاقات مع صلاح الدين أن سمح البيزنطيون لصلاح الدين بعمارة مسجد القسطنطينية، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي فيه[١٠٧]، كما قام بعقد معاهدة مع أمير الموصل سنة ١١٨٦م لتصفية العلاقات بينهما توطئة للقيام بهجومه الكبير ضد الصليبيين في إطار سياسته الرامية لاستخدام الدبلوماسية لإعداد جيوشه ودولته للحرب الكبيرة مع الصليبيين[١٠٨].

وفي نفس الوقت كانت أحوال مملكة بيت المقدس تسوء يوماً بعد يوم في أواخر عهد ملكها المريض بلدوين الرابع، الذي اضطر تحت ضغط بارونات المملكة إلى تنحية زوج أخته جاي لوزجنان عن الوصاية على المملكة وتوج ابن هذه الأخت من زوجها الأول ويدعى بلدوين (الخامس) ملكاً في مارس سنة ١١٨٥م ،وكان طفلاً صغيراً لم يتجاوز السادسة من عمره فعهد بالوصاية عليه إلى ريموند الثالث كونت طرابلس[١٠٩]، فانقسمت المملكة الصليبية بين مؤيد لهذه الخطوة ومعارض لها، وبين مؤيد لجاي لوزجنان ومعارض له، وبين مفضل لوصاية ريموند ومعارض لها، وتساءل البعض : أية جدوى تعود على المملكة من رفع صبي إلى العرش ؟ وأية فائدة ترجى من ذلك للصالح العام؟ فقد أصبح هناك ملكان عاجزين تماماً أحدهما طريح الفراش يعاني المرض والآخر طفل غض الحداثة، فأى فائدة ترجى من الاثنين معاً؟[١١٠].

---

(107) Grousset : op. cit. II, pp. 748- 751,
Runciman : op. cit. II, p. 429

(١٠٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٨٨،
Stevenson : op. cit. p. 239

(109) Baldwin : op. cit. p. 600,
Runciman : op. cit. II, pp. 439 - 43

(١١٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٤ ص ٣٣١

لهذا أضحت المملكة على حافة حرب أهلية في أشد الأوقات حرجاً، إلا أن ريموند سارع باتخاذ خطوات كفلت الهدوء فترة من الزمن، فقد عقد هدنة مع المسلمين وحرص على تهدئة الأمور مع صلاح الدين، وكانت المملكة تؤمل المساعدة العسكرية من الغرب[١١١] للتصدي لصلاح الدين إلا أن ملوك وحكام الغرب الأوربي شغلوا بأمورهم عن ذلك، واكتفى ملك إنجلترا بإرسال مبلغ من المال ظفر به الفرسان الرهبان دون وعود بمساعدة عسكرية[١١٢]، ثم توفى الملك بلدوين الرابع في نفس العام(١١٨٥م)، ولحق به الطفل الصغير بلدوين الخامس في أغسطس سنة ١١٨٦م بعد عدة شهور من تتويجه، فتعرضت المملكة لأزمة جديدة وتآمر عدد من البارونات للتخلص من وصاية ريموند، بل وتوجوا سيبل وزوجها جاي لوزجنان[١١٣]، وانصاع بقية البارونات لهذا وأقروا بالأمر الواقع، بينما انسحب ريموند مغاضباً دون أن يعترف بجاى ملكاً واتجه إلى طبرية معتبراً نفسه أحق بالتاج، فعاقبه جاي بانتزاع بيروت من إقطاعاته، لأنه حازها باعتباره وصياً على المملكة، بل طالبه بتقديم حساباته بالأموال التي أنفقها أثناء وصايته على المملكة، فأدى ذلك كله إلى ارتماء ريموند في أحضان صلاح الدين، إذ بادر ريموند بطلب المساعدة من صلاح الدين ضد الملك جاى[١١٤] وحذا حذوه بوهيموند الثالث أمير أنطاكية الذي سارع

---

(١١١) وليم الصوري : نفسه ج٤ ص ٣٤٦

(112) Runciman : op. cit. II, pp. 444-5,
Baldwin : op. cit. p. 604

(113) Grousset : op. cit. p. 767

(١١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٨٤ – ١٨٥ ،
المقريزي : السلوك ج١ ص ٩٢، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٤-٧٥
Runciman : op. cit. II, p. 451

بتجديد الهدنة بينه وبين صلاح الدين " فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم "[١١٥] وجاء ذلك الانشقاق في صفوف الصليبيين عظيم الفائدة بالنسبة لصلاح الدين[١١٦] .

عاد أرناط إلى تعكير الصفو بين الصليبيين والمسلمين ونقض الهدنة المعقودة بين الصليبيين وصلاح الدين، حين هاجم قافلة كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق في أوائل سنة ١١٨٧م وتحمل ثروة طائلة ويحرسها جماعة من الأجناد، كانوا يجتازون بالقرب من حصن الشوبك، فغدر بهم وسلب أموالهم ودوابهم وسلاحهم وقتل الجند منهم وحمل التجار والباقين أسرى إلى قلعته في الكرك[١١٧] ، إذ لم يكن هذا اللص يطيق صبراً على عدم ممارسة السلب والنهب، إذ استولى على ما كانت تحمله تلك القافلة من ثروة، ورفض أن يرد ما أخذه أو يطلق سراح الأسرى، بل تجرأ ورد على صلاح الدين قائلاً : " قولوا لمحمد يخلصهم " [١١٨] ، فأرسل صلاح الدين إلى الملك جاي لوزجنان ليلزم أرناط برد ما سلبه ويطلق سراح الأسرى، إلا أن هذا أيضاً استخف بمليكه جاي ورفض الانصياع لأمره. فانتقضت الهدنة القائمة بين مملكة بيت المقدس وصلاح الدين، وأنذر ذلك بسوء العاقبة للصليبيين والكيان الصليبي كله ببلاد الشام[١١٩] .

---

(١١٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٤ (ط. التجارية)

(١١٦) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٩٦،

Grousset : op. cit. II, p. 778

(١١٧) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٥.

ابن الإثير : الكامل ج٩ ص ١٧٤ (سنة ٥٨٢ هـ)

(١١٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٩٤

(119) Baldwin : op. cit. p. 606, Runciman : op. cit. II, p. 450

وهكذا اختار أرناط وقتاً عصيباً لاستثارة صلاح الدين، الذي لم يكن أمامه إلا أن يلجأ إلى السلاح، والذي بلغ من شدة غيظه أن أقسم على أن ينتقم من أرناط نفسه بل إنه " أعطي الله عهداً لأن ظفر به ليستبيح دمه " ونذر صلاح الدين نذراً " أن يقتله إن ظفر به "[١٢٠]، وبدأ صلاح الدين في تعبئة قوى المسلمين البشرية والمادية استعداداً لخوض معركة كبري، وكتب إلى جميع البلاد يستنفر للجهاد، فأرسل إلى مصر وإلى الموصل وإلى الجزيرة وإربل وسائر بلاد الشام يستنفر الناس للجهاد ويحثهم عليه[١٢١] ،فاستقبل في دمشق العساكر من سائر الجهات وبدأ في تعبئتها .

وعندما اكتملت استعداداته غادر دمشق في ١٤ مارس سنة ١١٨٧م على راس جيش كبير وتوجه إلى بصري في الجنوب ثم إلى الكرك لمهاجمة أرناط فخرّب ودمر وقطع الأشجار بقربها وفعل نفس الشئ بالشوبك[١٢٢] ،وتلقى العسكر المصري قرب الكرك، وفي نفس الوقت كان الأفضل ابن صلاح الدين يعسكر إلى الشمال الغربي من حوران لاستقبال الجند من كافة الأنحاء منهم العرب والترك والأكراد، فأغارت هذه القوات على أعمال طبرية واصطدمت بالداوية والاسبتارية قرب صفورية، فأحرز المسلمون النصر في مايو سنة ١١٨٧م، وأعمل المسلمون القتل فيهم، فلقي كثير منهم مصرعهم وفيهم مقدم الاسبتارية، بينما هرب مقدم الداوية، ووقع كثير منهم في أسر المسلمين، فكانت هذه الوقعة مقدمة الفتوح وفاتحة النصر الأكبر - على حد قول المؤرخين المعاصرين -[١٢٣] على حين أفاق الصليبيون

---

(١٢٠) ابن الأثير :الكامل ج٩ ص١٧٤(ط. التجارية)، أبو شامة :الروضتين ج٢ ص ٧٥

(١٢١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٥ (ط. التجارية)

(١٢٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٩٣، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٥

(١٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٨٧ ،ابن الأثير :الكامل ج٩ ص ١٧٨

وعاد زعماؤهم إلى رشدهم، فدخل ريموند الثالث أمير طرابلس في طاعة الملك جاي لوزجنان[١٢٤]، ونقض الهدنة مع صلاح الدين وأعلن استعداده للإسهام في إنقاذ المملكة الصليبية، فاجتمعت كلمة الصليبيين بعد فرقتهم[١٢٥]، وتجمعت الجيوش الصليبية كلها عند صفورية قرب عكا ومعها صليب الصلبوت في الوقت الذي اكتملت فيه قوات صلاح الدين، فبلغت نحو عشرين ألف جندي بأسلحتهم وعتادهم وألف الرماة فئة هامة من هذا الجيش، ولما بلغ صلاح الدين نبأ نقض ريموند الهدنة ودخوله في طاعة الملك جاي، رحل صلاح الدين على رأس جيشه إلى طبرية، وهي من أملاك ريموند فاقتحم المدينة، واستولى عليها في ٢ يوليو سنة ١١٨٧م ،إلا أن قلعتها عزت عليه واحتمت بها زوجة ريموند، فأشعل المسلمون الحرائق في المدينة وامتدت الأيدي بالنهب إلى ما فيها[١٢٦] .

عقد الصليبيون مجلساً للحرب في عكا، وأصدر الملك قراراً عاجلاً بالتعبئة العامة لكل الرجال القادرين على حمل السلاح، وحشد الاسبتارية والداوية معظم فرسانهم، ولم يخلفوا في قلاعهم إلا عدداً ضئيلاً، وبذل الداوية ما سبق أن اختصوا به من الأموال التي أرسلها ملك إنجلترا هنري الثاني، للإنفاق منها والاستعداد للقتال ضد

---

(١٢٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٠٤ .

Grousset : op. cit. II, p. 786 ,

Runciman : op. cit. II, p. 454 ,Baldwin :op. cit. p. 608

(١٢٥) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٦ .

أبن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٦

(١٢٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٦ (نشر الشيال) .

ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٨٨ .

ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٧ (ط. التجارية) ،Gibb : op. cit. p. 585.

المسلمين[١٢٧] ،وبلغ عدد جيش الصليبيين نحو عشرين ألف مقاتل، على الرغم من أن طرابلس وأنطاكية لم تسهما إلا بعدد قليل من الجند، لخوفهما من هجمات المسلمين في الشمال وعلى الرغم أيضاً من أن المصادر الإسلامية بالغت كثيراً في أعداد جيش الصليبيين، فذهب بعض المؤرخين المعاصرين إلى أنها بلغت بين ثلاث وعشرين ألف وستين ألف مقاتل[١٢٨] ،وتجمعت هذه القوات كلها في صفورية قرب عكا .

كان أمام الصليبيين أحد أمرين : أن ينتظروا ويتمهلوا ليتجنبوا الاشتباك في معركة فاصلة مع صلاح الدين، على أمل أن ينفض الجيش الإسلامي دون حرب كما حدث سنة ١١٨٣م ،والآخر أن يشتبكوا في معركة حاسمة مع صلاح الدين، لأنهم لا يضمنون استمرار هذا الحشد مع انكشاف كثير من مدنهم وقلاعهم في فلسطين وفي إمارات الشمال، لغياب كثير من جندها وحامياتها وانضمامهم لهذا الحشد[١٢٩] .

أما صلاح الدين فعلى الرغم من أنه كان يأمل الدخول في معركة كبيرة مع الصليبيين تحسم الوضع في هذه المنطقة، إلا أنه لم يبادر بالزحف إليهم، وإنما خطط لجذبهم إليه، وإجبارهم على المسير إليه قرب طبرية في أشهر الصيف مع اشتداد الحرارة وندرة المياه في الطريق وما يمكن أن يحل بهم من تعب، بينما يكون هو قد ادخر قوته وجهده للقائهم[١٣٠] ،وتجلت عظمة صلاح الدين وذكاءه العسكري

---

(127) Baldwin : op. cit. p. 609, Grousset : op. cit. II, p. 787

(١٢٨) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص١٨٩، أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٧٦-٨٢

(129) Stevenson : op. cit. pp. 244 - 5,
Baldwin: op. cit. p. 455
Runciman :op. cit.II, p.456

(١٣٠) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٦،

حين نجحت خطته في جذب الصليبيين إليه، ويبدو أن هجوم صلاح الدين على طبرية كان جزءاً من خطته لإجبارهم على المسير إليه، فقد قرر الصليبيون المسير إليه عند طبرية[١٣١] ،على الرغم من معارضة ريموند الثالث لخطورة هذا الزحف بسبب وعورة الطريق وقلة الماء في تلك الأرض القاحلة وحرارة الجو في شهر يوليو في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين ورجاله ينتظرون عند طبرية وقرب المياه الوفيرة ومنعمين بالظل الوارف مدخرين قواهم لساعة الفصل، وما لبث صلاح الدين أن تقدم نحو قرية حطين حيث المراعي الخصبة والماء الوفير[١٣٢] فأقام معسكره بالاقحوانه قريباً من تل له قمتان عرف بقرون حطين وهو الموضع الذي دارت فيه المعركة التي اشتهرت في التاريخ بمعركة حطين[١٣٣] في موضع اختاره صلاح الدين بنفسه ليكون مسرحاً للحرب مع الصليبيين[١٣٤] ،وقبل وصول الصليبيين بيوم أى في يوم ٢ يوليو سنة ١١٨٧م (١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ) نشط صلاح الدين في تنفيذ خطته الرامية إلى الحيلولة بين الصليبيين وبين الوصول إلى موارد المياه في بحيرة طبرية، فتحرك على رأس بعض فرقه للسيطرة على الأرض المرتفعة الواقعة أسفل حافة التل بقرب طبرية ليغلق الطريق المباشر إلى المدينة من ناحية ويتحكم في الدروب المؤدية إلى ماء بحيرة طبرية من ناحية أخرى[١٣٥] .

---

(131) Grousser :op. cit. p.793-5,Lana- pool: Saladin, p. 205

(١٣٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٦ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٨٩

(133) Lane- poole : Saladin, p. 204, Baldwin : op. cit. p. 610

(134) Stevenson : op. cit. p. 245

(135) Runciman : op. cit. II, p 456

وصل الصليبيون مساء يوم ٣ يوليو سنة ١١٨٧م إلى سفح جبل طبرية المشرف على سهل حطين، وفي مقدمتهم ريموند وباليان وفي القلب الملك جاي بينما سار أرناط والداوية والاسبتارية في المؤخرة، وكانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك واشتد العطش بالرجال والدواب[١٣٦] ،إثر طريق طويل على التلال الجرداء وجو حار وركود في الهواء وهجمات الرماة المسلمين عليهم طوال الطريق[١٣٧] ،على حين وجدوا أن المسلمين قد حالوا بينهم وبين مياه بحيرة طبرية، فتعالت أصوات بعضهم بضرورة فتح الطريق إلى البحيرة بالقوة لإرواء عطشهم[١٣٨] ،إلا أن الملك أشفق على رجاله وقد وجدهم منهكين لا يستطيعون القتال، وفضل لهم المبيت فوق تلك الهضبة حتى صباح اليوم التالي (٤يوليو) لأنه ليس بوسعهم الرجوع[١٣٩] ،فكانت ليلة ٣ يوليو اختباراً عنيفاً قضاها الصليبيون يكابدون العطش والنصب، وانحطت روحهم المعنوية وسط صيحات المسلمين الذين راحوا يكبرون ويهللون طوال الليل[١٤٠] ، فضلاً عن أن المسلمين أشعلوا النار في الأعشاب والأشواك التي تكسوا الهضبة، فحملت الرياح النار والدخان إلى الصليبيين فزادت في متعابهم، واجتمع عليهم على حد قول ابن الأثير : " العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال "[١٤١] .

---

(١٣٦) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٧ (ط. التجارية).

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٢

(١٣٧) أبو شامة :الروضتين ج٢ ص ٧٧. ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص١٨٩

(138) Grousset : op. cit. II, pp. 793-5

Stevenson : op. cit. p. 246

(١٣٩) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٧

(١٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٨٩.

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٦

(١٤١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٨ (ط. التجارية)

وفي الصباح يوم ٤ يوليو سنة ١١٨٧م وجد الصليبيون أنفسهم وقد أحاط بهم المسلمون من كل جانب تحت ستار الظلام إحاطة تامة، ثم بدأ هجوم المسلمين عليهم وهم عطشى متهالكين واشتد القتال، وأدرك المسلمون – في نفس الوقت – أنه لا ثالث أمامهم إما النصر أو الشهادة[١٤٢]، فاستماتوا في القتال وشددوا هجماتهم، فلم يصمد الصليبيون أمامهم كثيراً " فأخذتهم سهام المسلمين وكثرت فيهم الجراح" [١٤٣] ووسط تلك الشدة التي عاناها الصليبيون أدرك ريموند الثالث أمير طرابلس أن الكارثة قد حلت بالصليبيين، فبادر بالهرب مع رجاله، وفتح له المسلمون طريقاً للخروج[١٤٤]، وإن اعتقد بعض المؤرخين أن ريموند حاول أن يكسر الحلقة التي طوق بها المسلمون قوات الفرنج فحمل على جناح المسلمين الذي كان يقوده تقي الدين عمر – ابن اخي صلاح الدين – فأفسح له هذا المجال، فلما نفذ منها لم يستطع العودة فارتحل إلى طرابلس، وتبعه في الخروج بعض قادة الصليبيين[١٤٥].

ثم ما لبث المسلمون أن استأنفوا التضييق على الفرنج، وظلوا يطاردونهم من أسفل والفرنج يتراجعون أمامهم نحو أعلى التل وقد تحلق حولهم المسلمون وأحاطوا بهم إحاطة الدائرة بقطرها، وخلال ذلك سقط أسقف عكا قتيلاً ووقع صليب الصلبوت من يديه فاستولى عليه المسلمون " فكان أخذه منهم من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالبوار" وعندئذ أيقن الصليبيون بالهلاك[١٤٦]، وأصبحوا كقطيع

---

(١٤٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٦،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢
(١٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٩٠
(144) Stevenson : op. cit. p. 246
(145) Groussrt : op. cit. II, p. 797, أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٧٧
(١٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٩٠-١٩١
ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٨ (ط التجارية)

الأغنام المساق إلى الذبح(١٤٧) ،ثم قام المسلمون آخر الأمر بهجوم شامل أنهوا به المعركة وأخذوا يقتلون ويأسرون فيهم حتى لم يبق مع ملك بيت المقدس وحوله سوى مائة وخمسين فارساً من قادة الصليبيين وأمهر فرسانهم، فأسرهم المسلمون جميعاً وكانوا في شدة الخوف والإنهاك وكان من بينهم الملك جاي لوزجنان نفسه وأرناط ومقدم الداوية وصاحب تبنين ووليم مونتفرات وعموري لوزجنان شقيق الملك وهيو صاحب جبيل وبعض أكابر الصليبيين، غير جموع الأسري(١٤٨) .
والواقع أنه لم ينج من هذه المعركة من محاربي الصليبيين إلا عدد قليل من أولئك الذين كانوا في المقدمة مع ريموند وبعض جنود المؤخرة مع باليان ورينو صاحب صيدا، بينما هلك الباقون(١٤٩) ،فمن لم يلق مصرعه وقع في الأسر وأسر من الداوية من نجا من القتل ومقدمهم ومعظم فرسان الاسبتارية وسيق عامة الأسرى إلى دمشق، بينما لقي بقية الأسرى معاملة طيبة من صلاح الدين الذي عامل الملك جاي معاملة كريمة، لكنه قتل أرناط وفاء لنذره بعد أن عدد عليه جرائمه وذكره بذنوبه وغدره رغم العهود والمواثيق(١٥٠) ،ثم أمر صلاح الدين برعاية بقية الأسرى من أمراء الصليبيين وكبار رجالهم، لكن عامة الأسرى بيعوا في أسواق الرقيق، حتى كان المسلمون يسوقون ثلاثين أو أربعين أسيراً في حبل واحد للبيع(١٥١) ،وبلغ ثمن الأسير في دمشق ثلاثة دنانير، ولم يزد ثمن أسرة بكاملها من رجل وامرأة وثلاثة بنين عن ثمانين ديناراً ،وباع رجل من المسلمين أسيره بنعل كان محتاجاً

---

(147) Stevenson : op. cit. p. 247

(148) Baldwin : op. cit. p. 613

(149) Ibid. p. 613

(150) Holt : op. cit. p. 57, Stevenson : op. cit. p. 247

(١٥١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٧

إليه ودل ذلك على كثرة الأسرى[١٥٢] .

ولقد جاءت موقعة حطين كارثة كبرى للصليبيين، لأنها أفنت زهرة شبابهم وأضاعت هيبتهم إلى الأبد، وسقط جيش المملكة بين قتلى وأسرى " فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن شاهد الأسري قال ما هناك قتيل " [١٥٣] ،وأصبحت بلاد الشام لأول مرة منذ قيام الحروب الصليبية تحت رحمة عاهل مسلم .

تداعى المملكة الصليبية واسترداد بيت المقدس:

أخذ صلاح الدين بعد حطين يسترد البلاد والمدن والحصون الصليبية واحدة تلو الأخرى لأنه لم يبق بهذه المدن والحصون من الحاميات ما يجعلها تقاوم المسلمين، بعد أن حشد الصليبيون كل فرسانهم تقريبا، ونحو عشرين ألف من الرجالة في حطين[١٥٤]، فلم تكن حطين مجرد معركة بل كانت خاتمة استعمار[١٥٥]، وأظهر صلاح الدين برغم انتصاراته روح التسامح والعطف وتمسك بمبادىء الأخلاق الأمر الذى أطراه المؤرخون في الشرق وفي الغرب وأقروا به وأكدوه[١٥٦]، وأصبحت بيت المقدس بعد الكارثة في حالة يرثى لها، إذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان، وخلت من المدافعين عنها، غير

---

(١٥٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٢ . ص ٧٨ .

Runciman : op. cit. II, p. 460

(١٥٣) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٧٨ - ٧٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٩٣

(154) Grousset : op. cit. II, p. 799

(١٥٥) العريني : الشرق الأوسط ص ٨٤٣

(156) Stevenson : op. cit. p. 248,

Runciman : op. cit. II, p. 460

أن فارسا كان صلاح الدين قد أطلق سراحه يدعى باليان الثانى دى إبلين، وصل إليها بعد إطلاق سراحه وبعد أن تعهد لصلاح الدين أنه لن يبقى بها سوى ليلة واحدة ويرحل مع أسرته، إلا أنه تناسى وعوده وبقى بها وراح ينظم أمر الدفاع عنها، فحشد فلول الفرسان وأبناء الفرسان ممن هم فوق سن الخامسة عشر، فضلا عن الصناع والتجار القادرين على القتال، وبذل جهدا مضنيا لحفظ المدينة والدفاع عنها[١٥٧] ، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أنه لم يكن كافيا لإنقاذ المدينة من مصيرها المحتوم وذلك لنقص الفرسان المدربين والمحاربين الأشداء، فأصبحت بيت المقدس غنيمة سهلة أمام صلاح الدين[١٥٨] .

في اليوم التالى مباشرة لحطين استسلمت قلعة طبرية لصلاح الدين، وتوقع الصليبيون أن يتجه صلاح الدين بعدها إلى بيت المقدس وقد خلت من المدافعين عنها وانهارت روح سكانها المعنوية وأيقنوا بالهلاك، إلا أن صلاح الدين لم يتجه إليها بعد الفراغ من طبرية، لأنه توقع أن تتساقط المدن والحصون الداخلية ولا تبدى إلا مقاومة ضئيلة باهتة بعد سقوط الموانى والمدن الساحلية، ومن ثم اتجه بكل ثقله إلى الموانى الهامة[١٥٩] ، خاصة عكا التى أزمع أن يتخذها قاعدة للعمليات الحربية . ويبدو أن صلاح الدين كان يهدف إلى حرمان الصليبيين من أهم موانيهم البحرية التى تصلهم بالغرب من ناحية، وتحقيق الاتصال بقاعدته الأساسية في مصر والربط بين شقى دولته في مصر والشام من ناحية أخرى[١٦٠] . وكان صلاح الدين متأكدا من ضعف حامية عكا وعجزها عن مدافعته وانهيار روح الصليبيين المعنوية

---

(157) Lane poole :Saladin p. 296, ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص ٢١٢

(158) Holt : op. cit. p. 56

(159) Baldwin : op. cit. p. 615

(160) Stevenson : op. cit. p. 249

في المدينة، ولهذا لم تكد قوات صلاح الدين تقترب من المدينة حتى طلب أميرها جوسلين الثالث دى كورتناى الأمان لها ولسكانها مقابل تسليم المدينة[١٦١] ، فدخلها صلاح الدين في يوم ١٠ يوليو سنة ١١٨٧م وغنم المسلمون منها غنائم وفيرة من الذهب والجوهر والأموال والثياب والسلاح والمؤن والأمتعة والتحف الشيء الكثير[١٦٢] ، نظرا لأن عكا كانت مدينة تجارية من الطراز الأول، وكانت الميناء الأول للمملكة تقصدها الأساطيل التجارية من كل الأنحاء، ولذلك حرص صلاح الدين أن تظل لهذه المدينة مكانتها التجارية المرموقة بتواصل النشاط التجاري في بلاد الشام بالحفاظ على العناصر النشطة والجاليات التجارية في المدينة[١٦٣] .

صار صلاح الدين ينتقل من نصر إلى نصر في الفترة الواقعة بين شهري يوليو وأكتوبر سنة ١١٨٧م، وكان لعبقريته أثر كبير فيما أحرزه من نصر، إذ استولى في تلك الفترة على الناصرة وصفورية والفولة في داخلية البلاد فضلا عن كثير من القلاع والمعاقل الصليبية مثل سبسطية ونابلس، بينما استولت فرق أخرى على بعض الموانى والمدن الساحلية مثل قيسارية وحيفا وأرسوف[١٦٤] من البلاد المجاورة لعكا. ويبدو أن مسلك صلاح الدين المعتدل تجاه أهل عكا وعطفه وتسامحه قد سهل له الاستيلاء على كثير من المدن والقلاع، بعد أن اطمأن الصليبيون إلى قلب صلاح الدين الكبير وتعففه عن سفك الدماء

---

(161) Runciman :op. II, p.461, ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٩

(١٦٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٨٥-٨٧.
ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٩ (ط التجارية)

(163) Grousset : op. cit. II, p. 803 ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٧٩

(١٦٤) ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص٢٠٦، أبو شامة :الروضتين ج٢ ص ٨٨
المقريزي : السلوك ج١ ص ٩٥ .ابن الأثير :الكامل ج٩ ص ١٧٩- ١٨٠

وتسامحه الجم[١٦٥] .

فقد استسلمت صرفند وصيدا دون مقاومة في أواخر يوليو سنة ١١٨٧م، ثم جاء دور بيروت أكثر مدن الساحل الشامي مناعة وحصانة ، ولم يكن فيها سوى بعض التجار وبعض الصناع الذين ليس لهم دراية بالقتال أو خبرة حربية ، ولذلك استسلمت في ٦ أغسطس من نفس العام، ثم اتجه صلاح الدين إلى جبيل ، وكان صاحبها في أسر صلاح الدين منذ موقعة حطين وهو من أسرة أمبرياكو الجنوية ، فعرض على صلاح الدين إطلاق سراحه مقابل تسليمه جبيل فرضى السلطان بذلك وتسلم جبيل فعلا وأطلق سراحه[١٦٦] ، على الرغم من أن ذلك أنكره المؤرخ ابن الأثير على صلاح الدين وقال إن هذا الرجل كان من أشد أعداء المسلمين لأنه كان " من أعيان الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر " فجاء إطلاق سراحه فرصة له لمواصلة عدائه وحقده على المسلمين في غير هوادة خاصة في منطقة الساحل الشامي [١٦٧]، "وكان إطلاق سراحه من الأسباب الموهنة للمسلمين "[١٦٨] ، وفي آخر أغسطس ١١٨٧م لم يعد بيد الصليبيين جنوبى طرابلس سوى مدينة صور وعسقلان وغزة وبعض القلاع والحصون المتناثرة قليلة العدد، فضلا عن بيت المقدس ذاتها[١٦٩] .

أما بالنسبة لمدينة صور فينبغى أن نشير إلى قضية هامة في الصراع الدائر في ذلك الوقت بين صلاح الدين والصليبيين، وذلك أن

(١٦٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨١٤

(١٦٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٠ (نشر الشيال)

(167) Grousset : op. cit. II, pp. 806 - 7

(١٦٨) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٠ – ١٨١

(169) Runciman : op. cit. II, p. 462 ,
Stevenson : op. cit. pp. 250 - 1

صلاح الدين دفعه تسامحه وعلو خلقه إلى ترك سكان المدن التى استولى عليها أحرارا لهم حق البقاء فى مدنهم أو الاتجاه إلى أى مكان يشاءون، وكان أن فضل معظمهم الخروج من مدنهم وقلاعهم وقصد مدينة صور[١٧٠] ، فتجمع فى تلك المدينة شراذم الصليبيين وحطام مملكة بيت المقدس، فصار كل من استأمن من الصليبيين يمضى إلى صور وما استولى صلاح الدين على بلد بالأمان إلا صار أهله فى حفظ السلطان حتى يبلغوا صور[١٧١] ، فضلا عمن نزح إليها من اللاجئين ممن هربوا من معركة حطين[١٧٢] من المحاربين وعامة الناس فاستعصت المدينة على الفتح أو الاقتحام، فتعرض صلاح الدين بسبب ذلك للوم بعض المؤرخين خاصة ابن الأثير الذى حمّل صلاح الدين خطأ هذا العمل، وأرجع المقاومة التى أبداها الصليبيون بعد ذلك لما سلكه صلاح الدين معهم من اعتدال وما أظهره تجاههم من رحمة[١٧٣].

وما لبث صلاح الدين فعلا أن أدرك نتائج هذه السياسة المعتدلة، وربما أحس بخطأ هذه المعاملة التى بلغت حد افتداء بعض أسراهم من ماله الخاص، وذلك حين امتنعت المدينة عليه وأظهرت مقاومة عنيفة، حتى اضطر إلى تركها بعد أن اجتمع فيها " كل افرنجى بقى فى الساحل "[١٧٤] فانصرف صلاح الدين عنها مؤقتا ليعود إليها فيما بعد فأعطى بذلك فرصة للمؤرخ ابن الأثير ليحمل عليه ويحمله نتائج سياسته واعتداله تجاه أعدائه الصليبيين .

---

(١٧٠) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٠ (ط التجارية)

(١٧١) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٩١

(172) Baldwin : op. cit. p. 617

(١٧٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٢

(١٧٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٠

أما مدينة عسقلان التى اتخذها الصليبيون مركزا لتهديد مصر وقطع المواصلات بينها وبين الشام، فيشير المؤرخون المعاصرون إلى أن صلاح الدين اعتبرها أهم من غيرها من المدن لأنها " على طريق الديار المصرية، فإذا أخذت أمنت الطرق واتصلت القوافل "[١٧٥] ، وأشار ابن الأثير إلى أنها وبيت المقدس كانتا أهم عنده لأنهما على طريق مصر وكان صلاح الدين يحب أن " تتصل الولايات ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها "[١٧٦] ، غير أن حامية عسقلان قاومت ورفضت في البداية التسليم وساعدها على ذلك شدة تحصين المدينة ومناعتها، إلا أنها آثرت في النهاية الاستسلام بشروط وذلك في سبتمبر سنة ١١٨٧م[١٧٧] ، فضلا عن استسلام غزة والبطرون وبيت جبرين والرملة والداروم وبيت لحم وكل المدن والقلاع الواقعة جنوب بحيرة طبرية ما عدا الكرك والشوبك وبعض القلاع القليلة .

وبعد أن فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان وما حولها من البلاد، ووصل الأسطول المصرى إلى مياه الساحل الشامى، توجه صلاح الدين إلى مدينة بيت المقدس، فاجتمعت إليه العسكر الذين سبق أن تفرقوا في مدن الساحل للاغارة والحصول على الغنائم[١٧٨] ، فأزمع السلطان فتح المدينة " لما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم "[١٧٩] ، وقبل أن يلجأ إلى القوة في أخذها عرض على حاميتها الاستسلام بالشروط التى استسلمت بها المدن الأخرى، أى أن يؤمن

---

(١٧٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٠٩

(١٧٦) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨١

(177) Grousset : op. cit. II, p. 808,
Stevenson : op. cit. pp. 251 - 2

(١٧٨) ابن شداد :النوادر السلطانية ص ٨١، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٢

(١٧٩) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨١

الفرنج على أرواحهم وعلى ممتلكاتهم، غير أن هؤلاء رفضوا[١٨٠]، وكان باليان – صاحب الرملة – الذى سمح له صلاح الدين بدخول المدينة لاصطحاب أسرته واشترط عليه عدم البقاء فيها سوى ليلة واحدة، قد بقى فيها وأخذ ينظم الدفاع عنها ونسى وعوده لصلاح الدين[١٨١] ، واستفاد ممن لجأ إلى المدينة من اللاجئين والقادمين من أهل البلاد المجاورة المستسلمة لصلاح الدين، وحشد جيشاً للدفاع عن المدينة من أولئك اللاجئين، على الرغم من أنه لم يكن يصلح منهم للقتال إلا عدد قليل، كما حاول الحصول على ما تحتاجه المدينة من المؤن والزاد، واستولى على ما في خزائن المدينة من الأموال للصرف منها على الدفاع، وتوزيع الأسلحة على القادرين على حمل السلاح[١٨٢] ، وعلى الرغم من ذلك كان صلاح الدين لا يزال يأمل في أن تستسلم المدينة حتى لا يضطر إلى تخريبها، مع ما كانت تمثله من مكانة بالنسبة للمسيحيين والمسلمين على حد سواء[١٨٣] .

ولما رفض أهلها الاستسلام صمم صلاح الدين على أن يأخذها بحد السيف، وراح يطوف بالمدينة ليختار الجانب الذى يهاجمها منه، حتى استقر رأيه على الهجوم عليها من الناحية الشمالية، فبدأ بمهاجمتها واستمرت مقاومة السكان ستة أيام كان الصليبيون خلالها " مجمعين على حفظ البلد والذب عنه .. مظهرين العزم على المناضلة دونه "[١٨٤] ، إلا أن صلاح الدين شق طريقه في ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م عنوة إلى أسوار المدينة وشرع المسلمون في نقب سورها لمحاولة

(180) Grousset : op. cit. II, p. 809

(181) Lane- poole :op. cit. p.295,Runciman :op. cit.II, p.463

(182) Runciman : op. cit. II, p. 464

(183) Baldwin : op. cit. p. 616, Grousset : op. cit. II, p. 810

(١٨٤) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٢

النفاذ إلى المدينة[١٨٥] ، " فلما ظهرت لهم أمارات نصرة الحق ..وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ .. استأمنوا وأخلدوا إلى طلب الأمان "[١٨٦] ، وعرضوا على صلاح الدين الاستسلام، ولكنه رفض هذه المرة لأنه كان قد عزم على أخذها بالقوة وبحد السيف وعندئذ يفعل بأهلها ما فعله الصليبيون بأهلها من المسلمين قبل ذلك بإحدى وتسعين سنة " وجزاء السيئة بمثلها "، ولكن أمام إلحاح باليان ولما اشتهر به صلاح الدين من الرحمه والسمو وحب العفو لم يسعه إلا أن يعتبر أهل المدينة أسارى، على أن تكون فدية الرجل عشرة دنانير وخمسة للمرأة وواحد للطفل[١٨٧] ، كما وافق على أن يؤدى باليان مبلغا إجماليا قدره ثلاثون ألف دينار عن الفقراء والمعدمين من أهلها وكانوا نحو سبعة آلاف[١٨٨] ، ومن الشروط أيضا أن يؤدى كل فرد فديته في ظرف أربعين يوما، فإن عجز عن ذلك خلال هذه المدة صار مملوكا وجاز عليه الرق[١٨٩] .

ودخل صلاح الدين بيت المقدس يوم ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م الموافق ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣ هـ أى في ذكرى ليلة الإسراء والمعراج، فاحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية واستولى صلاح الدين على قلعة المدينة، وحافظ على عهده لأهلها[١٩٠] ، بل أظهر تسامحا جما مع فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن الوفاء بدفع الفدية فكان يدفعها من ماله الخاص. فقد التمس بطريرق بيت المقدس منه إطلاق سراح

---

(١٨٥) المقريزي : السلوك ج١ ص ٩٦ ، Stevenson : op. cit. p. 252

(١٨٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨١

(١٨٧) ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ٩٥، Lane -poole: Saladin p. 229

(١٨٨) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٣

(١٨٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٢، Stevenson : op. cit. p. 254

(١٩٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢١٨ — ٢٢٠

خمسمائة من فقراء المسيحيين فاستجاب صلاح الدين لطلبه، واستوهبه الملك العادل جماعة من فقراء المسيحيين فوهبهم له وكانوا نحو ألف فأطلق الملك العادل سراحهم(١٩١) ، ولعل ما أثار دهشة المسلمين حينئذ رؤيتهم لبطريرق بيت المقدس – هرقل – وهو يغادر المدينة حاملا معه كل أموال وتحف الكنائس والبيع دون أن يحفل هو ومن معه من رجال الكنيسة بفقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية، ولم يظهروا اهتماما إلا بمصالحهم، وتوجهوا إلى مدينة صور ومعهم كنوز بيت المقدس وتحفها وسمح له صلاح الدين بمغادرة المدينة ولم يطالبه إلا بفديته وقدرها عشرة دنانير(١٩٢) .

واتضح الفارق بين مسلك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧م ومسلك الصليبيين عندما دخلوها سنة ١٠٩٩م، فقد أظهر المسلمون الظافرون روح التسامح والاستقامة والعفو والتزموا بحسن معاملة الصليبيين(١٩٣) ، وعلى حين أحدث الصليبيون مذبحة بشرية رهيبة في المدينة حين دخلوها وخاضوا في دماء المسلمين إلى ركب الخيل كما اعترف بذلك المؤرخون اللاتين أنفسهم(١٩٤) وقتلوا ونهبوا وسفكوا دماء الأبرياء. لم تتعرض دار من دور المدينة للنهب ولم يلحق بأحد من سكانها أى أذى أو ضرر عند دخول المسلمين(١٩٥)، بل إن صلاح الدين نهر من تجرأ من رجاله ونادى بهدم كنيسة القيامة، ومعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين من قبل ،بل

---

(١٩١) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٩٥ Grousset : op. cit. II, p. 815

(١٩٢) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٤. ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص ٢١٦

(١٩٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٤. Stevenson : op. cit. p. 254

(١٩٤) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١١٨ (ترجمة د. حسن حبشي) Albert d'Aix , p. 485

(195) Lane - poole:op. cit. p. 230, Holt: op. cit. pp. 57 - 8

وألزم رجاله باحترام الأماكن المقدسة وإظهار روح التسامح مع كل فئات الصليبيين[١٩٦]، شهد بذلك المؤرخون المعاصرون واللاحقون في الشرق وفي الغرب على حد سواء، فأخذت جماعات من الجند تطوف بأمر صلاح الدين بالطرقات، وعند أبواب المدينة لمنع أى اعتداء على المسيحيين[١٩٧]، وهذا هو الفارق بين حضارة الإسلام والشرق وهمجية وتدنى الغرب واللاتين، وبين تسامح الإسلام وسمو المسلمين وبين تعسف الغرب وتخلف اللاتين .

بعد ذلك شرع صلاح الدين في تصفية الوجود الصليبي، فتحول إلى الهجوم على إمارتى طرابلس وأنطاكية في الشمال، خاصة بعد أن توفى ريموند الثالث - كونت طرابلس - الذى نجح في الفرار من حطين ثم ما لبث أن توفى بعد قليل ووكل أمر إمارته إلى أمير أنطاكية من سلالة النورمان، ولم يحفل صلاح الدين بذلك بل جد في تصفية الوجود الصليبى في المدن والقلاع الصليبية، فاستولى على قلعة هونين وحصن تبنين، وبعض حصون الداوية والاسبتارية ففتح صفد من قلاع الداوية وحصن كوكب من قلاع الاسبتارية في العامين التاليين لحطين[١٩٨]، واستولى على بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس وعلى جبلة من أملاك إمارة أنطاكية وذلك في يوليو سنة ١١٨٨م ثم على اللاذقية أكبر موانى إمارة أنطاكية في نفس الشهر كما استولى على بعض الحصون التابعة للامارتين في الشمال، ولم يبق للإمارتين سوى

---

(١٩٦) ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ٩٥ - ٩٦ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٣٠

(197) Runciman:op. cit. II, p.466,Grousset :op. cit. II, p.813

(١٩٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤٧.

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٣-٨٤ .

Stevenson : op. cit. p.256

المدينتين ذاتهما : أنطاكية وطرابلس فضلا عن مدينة أنطرسوس وحصنى المرقب والأكراد(١٩٩) ، ثم ما لبث صلاح الدين أن استولى في أواخر سنة ١١٨٨م وأوائل سنة ١١٨٩م على حصنى الكرك والشوبك، فلم يبق للصليبيين في فلسطين من الحصون والقلاع القوية سوى القليل بل تحطمت مملكة بيت المقدس وفقدت قوتها ولم يبق منها سوى مدينة صور(٢٠٠) .

وكان من حسن حظ الصليبيين أن وصل إلى عكا زعيم صليبى من الغرب الأوربى هو كونراد دى مونتفرات في صيف سنة ١١٨٧م، فوجد المدينة قد سقطت في أيدى المسلمين، فتحول إلى صور وسمح له المسلمون بذلك دون مضايقة، فلعب هذا الرجل دورا بارزا في حماية صور(٢٠١) والدفاع عن الصليبيين في بلاد الشام حتى وصول الحملة الصليبية الثالثة، فقد كان قائدا ماهرا ومحاربا شديد البأس مع صرامة وشدة أفادت الصليبيين حينئذ وجمعت شتاتهم، فارتفعت روحهم المعنوية وواصلوا المقاومة في صور بعد أن كانوا قد تهيأوا للتسليم لصلاح الدين، ولذلك انصرف صلاح الدين عن صور لشدة تحصينها واصرار كونراد على المقاومة فيها(٢٠٢) واتجه كما سبق أن أشرنا إلى بيت المقدس .

استغل كونراد انصراف صلاح الدين إلى بيت المقدس في زيادة تحصين صور، وحفر حولها خندقا من البحر إلى البحر أغرقه بالمياه فصارت المدينة كالجزيرة وسط الماء، فازدادت حصانتها واستمرت في

---

(١٩٩) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٧ – ١٨٨ ،
ابن شداد : نفسه ص ٨٦ – ٨٧

(200) Holt : op. cit. p. 58 ,Runciman : op. cit. II, p. 471

(201) Stevenson : op. cit. p. 251

(٢٠٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٤

مقاومتها، فضلا عما أجراه من إعادة بناء أجزاء من سورها وترميم ما تهدم منه وكلف أسطوله بحراستها وحشد به رماة مهرة يقذفون كل من دنا منها من هذه الجهة(٢٠٣) ، فلما عاد صلاح الدين في أواخر سنة ١١٨٧م لحصارها برا واستخدم عشر سفن في حصارها بحرا، أستعصت عليه المدينة من جديد، ثم ما لبثت سفن الصليبيين أن فاجأت سفنه ونجحت في أسر خمس سفن منها فأمر صلاح الدين بسحب الخمس الباقية إلى بيروت(٢٠٤) ، ثم اضطر في النهاية إلى رفع الحصار عن صور في أوائل عام ١١٨٨م، فكان ذلك أول إخفاق صادفه صلاح الدين منذ حطين وطمع الفرنج بعد أن أمنوا اتصال المدينة بالغرب الأوربي، ورحل صلاح الدين إلى عكا في ينـاير سنة ١١٨٨م خاصة وقد دخل الشتاء وكثرت الأمطار واحتاج جنده إلى فترة راحة وهدوء(٢٠٥) .

---

(203) Lane poole: Saladin, p. 239

(٢٠٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤٤-٢٤٥،

أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١١٩

(٢٠٥) ابن شداد :النوادر السلطانية ص ٨٤،ابن الأثير :الكامل ج٩ ص ١٨٦-١٨٧

Runciman : op. cit. II, p. 472

الفصل العاشر

الحملة الصليبية الثالثة

الفصل العاشر

الحملة الصليبية الثالثة

أدت الهزيمة التي لقيها الصليبيون في حطين، ثم سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين إلى ردود فعل عنيفة في الغرب الأوربي، الذي أدرك زعماؤه أن الأمور لا تسير سيراً طبيعياً في الشرق، كما أيقنوا آخر الأمر ما ينتظر الصليبيين في بلاد الشام من مستقبل مظلم[١]، فبدأت الدعوة لحملة صليبية جديدة لمؤازرة صليبي الشرق، فارتفعت روح اللاتين المعنوية، وانتعشت آمالهم من جديد، وترقبوا بلهفة وصول هذه الحملة[٢]، بعد أن أنفذت السفارات من صور إلى أوربا وتكرر طلب المساعدة من البابوية وزعماء الغرب لمساندة الصليبيين في الشرق، وجرى إثارة حمية الغرب لقتال المسلمين واشتعال حماسة زعمائه بتذكيرهم بكارثة سقوط بيت المقدس[٣].

وكان وليم الثاني ملك صقلية النورماني أول من استجاب لتلك الدعوة، إذ أرسل أسطولاً يحمل بضعة مئات من الفرسان إلى طرابلس، فساعد هذا الأسطول في منع صلاح الدين من الاستلاء على طرابلس[٤]، غير أن جهود هذا الأسطول وقائده انتهت بوفاة وليم الثاني سنة ١١٨٩م واندلاع الاضطرابات في صقلية في السنوات القليلة التالية، فلم تشارك صقلية في الحملة الصليبية الجديدة بأكثر من هذه السفن التي أرسلت سنة ١١٨٨م[٥]، وهي التي أسهمت في حماية الساحل الشامي

---

(1) Camb. Med. Hist. Vol. 5 , p. 310

(2) Baldwin : op. cit. p. 620-1

(3) Stevenson : op. cit. p. 260, ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٠١ (ط. التجارية)

(4) Runciman : op. cit. III, p. 9

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٤٣

وحراسة ما كان باقياً في أيدي الصليبيين في ذلك الوقت من المواني .

وتبنت البابوية الدعوة للحملة الجديدة، واتصل البابا كليمنت الثالث بالإمبراطور فردريك بربروسا (الأول) ، على حين بدأت الاتصالات أيضاً بملكي فرنسا وإنجلترا، على الرغم من سوء العلاقات بين البلدين، واندلاع الحروب بينهما على عهد هنري الثاني ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا[٦]، غير أن هنري الثاني ما لبث أن توفي في يوليو سنة ١١٨٨م، وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد، فأصبح أمر اشتراك العاهلين في الحملة الصليبية ممكناً، وفعلاً أبحر كل من ملك فرنسا وملك إنجلترا إلى الشرق في صيف سنة ١١٩٠م وعرجا على جزيرة صقلية في طريقهما إلى بلاد الشام[٧] .

حملة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا :

على الرغم من أن الإمبراطور فريدريك بربروسا -إمبراطور ألمانيا لم تكن له صلات قوية بصليبي الشرق، ولم تكن للألمان سوى جالية قليلة العدد، ولم يتلق دعوة مباشرة من صليبي الشام للقدوم إلى الشرق، إلا أنه تحمس للمشاركة في الحملة الصليبية الجديدة، خاصة بعد فراغه من مشاكله في ألمانيا وتوطيد نفوذه في الغرب، وتوثيق علاقته بنورمان صقلية، وهدوء العلاقات بينه وبين البابوية[٨]، وعلى الرغم من أن الإمبراطور كان شيخاً كبيراً، إلا أنه كان أسرع في العمل من عاهلي إنجلترا وفرنسا، فزحف في مايو سنة ١١٨٩م على رأس جيش كبير بلغ نحو مائة ألف محارب على حد قول المؤرخين، وسلك

---

(6) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 302

(7) Runciman : op. cit. III, pp. 7 - 9

(8) Runciman : op. cit. III, p 10

الطريق البري عبر المجر إلى القسطنطينية[٩]، بعد أن كتب إلى الحكام الذين سوف يجتاز بلادهم مثل ملك المجر وإمبراطور بيزنطة وسلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغري، يطلب تسهيل مروره إلى الشرق، وإذا كان هذا الإمبراطور قد تلقي من ملك المجر وسلطان السلاجقة الرد والوعد ببذل المساعدة له ولجيشه[١٠]، إلا أن هذا الإمبراطور تعرض لعداء الإمبراطور البيزنطي اسحق الثاني أنجيلوس(١١٨٥-١١٩٥م) بسبب تحالف الألمان مع نورمان صقلية من ناحية[١١]، وبسبب سياسة الإمبراطورية البيزنطية في التحالف مع صلاح الدين من ناحية أخري، وهى السياسة التي أثمرت في الفترة السابقة والتي كانت موجهة ضد سلاجقة الروم في آسيا الصغري[١٢]، ولتعهد صلاح الدين بوضع الأماكن المقدسة في بيت المقدس تحت إشراف رجال الدين الأرثوذكس، بعد القضاء على الحكم الصليبي الكاثوليكي بها[١٣]، ولهذا حلت المصالحة بين بيزنطة وصلاح الدين محل الكراهية فكان الإمبراطور البيزنطي اسحق الثاني أنجليوس هو الذي اتصل بصلاح الدين وأطلعه على تحركات الألمان[١٤]، فضلاً عن أن صلاح الدين كان يقف على أخبارهم من التجار الإيطاليين في الاسكندرية ومن الثغور المغربية .

وأمام العداء الذي أحسه الإمبراطور فردريك بربروسا من

---

(9) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 411

(10) Runciman : op. cit. III, p. 11

(11) Ostrogorsky : op. cit. p. 360

(١٢) ابن الأثير: الكامل ج٩ ص ٢٠٧ (ط. التجارية) ،

Grousset : op. cit. III, p. 10

(١٣) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ ،

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٢٣

(١٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ١٠٤، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٥١

البـيزنطيين، عجــل بـالعبور إلى آسـيا الصغـري في مـارس سـنة ١١٩٠م[١٥]، ولكنه تعرض لهجمات الترك فضلاً عـن صعوبـة الطريـق وقلة الزاد وندرة المياه، ولكنه استطاع أن يدخـل قونيـة، وطلـب قلـج أرسلان الثاني الأمان وعقدت اتفاقية بينهما تعهـد فيهـا قلـج أرسـلان بتأمين طرق الألمان إلى بلاد الشام وإرسال الأدلاء معهـم لإرشـادهم[١٦]، وربما وجد قلج أرسلان في هذا الإمبراطور حليفاً قويـاً ضـد البـيزنطيين وصلاح الدين فرحب بمصادقتهم وإرشادهم إلى الطريق، فاجتاز الجيش الألماني جبال طوروس تجاه الحـدود الأرمينيـة، فاسـتقبله ليـو الثـاني الأرمني استقبالاً طيباً، وأمد الألمان بالمؤن والزاد وأظهر لهـم الطاعـة في طرسوس[١٧].

ولقد أحدث تقدم الألمان في هذا الجيش الكبير فزعـاً وهلعاً بـين المسلمين على حين قلق صلاح الدين لهـذه الأخبـار، فبـدأ في اسـتنفار الناس للجهـاد، وأرسل إلى أمـراء الموصـل وكردسـتان والجزيـرة وأنفـذ المؤرخ القاضي ابن شداد إلى بغداد لإخطار الخليفة العباسي لإثارة همته ليبذل المساعدة ويدعو المسلمين إلى الجهـاد[١٨]، وبـدأ في إخـلاء بعـض القلاع والحصون وهدم بعضها الآخر، فأخلي المسـلمون حصـن بغـراس شمال الاسكندرونة على الرغم من أهميتـه البالغـة لتحكمـه في الطريـق المؤدي إلى شمال الشام كما بدأ في هدم بعض المراكز التي خشي احتلال الصليبيين لها، فهدم سور طبرية ودمر يافا وأرسوف وقيسـارية وسـور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت[١٩].

---

(15) Grousset : op. cit. III, p. 13

(١٦) ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص ٣٢٢، ابن شداد :النوادر السلطانية ص١٢٣

(17) Cahen : La Syrie du Nord, p. 431, ابن الأثير :الكامل ج٩ ص٢٠٧

(١٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٥، أبن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٠٨

(١٩) أبو شامة :الروضتين ج٢ ص ١٥٧، Grousset : op. cit. III, p. 16

ووسط أنباء تقدم الألمان وهلع المسلمين واضطراب حكـامهم وقلـق صلاح الدين، إذا بالموقف يتغير تغيراً كاملاً وتتبدل الأمور تماماً لـيزاح هذا الكابوس عن صدور المسلمين ويتبدد القلق من نفس صـلاح الديـن، ففي يوليو سـنة ١١٩٠م حينمـا هبـط الألمـان سـهل سـلوقية واسـتعدوا لاجتياز نهر السالف في قيليقية[٢٠]، سار الإمبراطور فردريك بربروسا في مقدمة جيشه وحاول أن يعبر ذلك النهـر سـابحاً، إلا أنـه لم يسـتطع مقاومة التيار وكان شيخاً كبيراً فغرق وهـو في طريقـه مـن طرسـوس إلى أذنه وأنطاكية[٢١]، فجاء غرقه ضربة قاصمة لأتباعه ولسائر الصليبيـين الذين ترقبوا وصول الألمان لاسترداد ما استولى عليه صلاح الديـن، فقـد أحدث وفاة الإمبراطور الألماني هرجاً بين الألمان، وأفلت زمام الجيـش الكبير من ابن الإمبراطور الراحل – أمير سوابيا – وعجز عن السيطرة على الجند، فتفرق الألمان، فعاد بعضهم إلى الغرب الأوربي[٢٢]، واتجه بعضهم إلى أنطاكية وتفشت الأمراض بينهم فمات كثير منهـم بسـبب الأوبئة وتعرض الباقون لهجمات المسلمين بين أنطاكية وعكا فقد كـانوا " ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة"[٢٣] فوقع كثير منهم في أسر المسلمين " فبيعوا في الأسواق بالثمن البخـس " وعلى هذه الصورة انتهت الحملة الألمانية نهاية تعسة وكانوا قد أحدثوا هلعاً كبيراً في نفوس المسلمين عندما تقدموا نحو الشام[٢٤].

---

(20) Stevenson : op. cit. p. 264, Runciman : op. cit. III, p. 15

(21) Grousset : op. cit. III, pp.16-17, ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص٢٠٧

(22) Stevenson : op. cit. p. 265

(٢٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٢٧، ابن الأثير : الكامل ص ٢٠٧

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٢٣، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٥٦

سقوط عكا في أيدي الصليبيين :

لم يفتأ المؤرخ ابن الأثير يعدد على صلاح الدين أخطاءه، وينحي عليه باللائمة لإفراطه في التسامح مع خصومه ومبالغته في التساهل في الوقت الذي كان عليه ألا "يترك الحزم إن ساعدته الأقدار، فلئن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً الحزم، وأعذر له عند الناس" [٢٥] ولكن فات هذا المؤرخ أن شخصية صلاح الدين كانت شخصية فريدة في عصره، لا يمكن إخضاعها لمقاييس ذلك العصر، أو الحكم عليها وفقاً لما ساد فيه من اتجاهات، فقد غلبت على هذا الرجل صفة الشهامة والمروءة والوفاء بالعهد وحب العفو والتعفف عن سفك الدماء[٢٦]، على حين أظهر خصومه عكس هذه الصفات في تعاملهم معه، فقابلوا علو الخلق بالهمجية، وردوا على الشهامة والسمو بالانحطاط، ولم يكن أسلوبهم في التعامل معه سوى الخديعة والغدر والخيانة ونكث العهود[٢٧]، فتعرض صلاح الدين بسبب مروءته لكثير من المتاعب التي كان يمكن تجنبها لو لم يتحل بهذه الصفات النبيلة .

ذلك أنه كان قد افرج عن جاي لوزجنان – ملك مملكة بيت المقدس الزائلة – في يوليو سنة ١١٨٨م كما أفرج عن عشرة من أعيان أسرى الصليبيين وكبار أتباع الملك، ليكونوا رفقاء له منهم شقيقه عموري لوزجنان ومقدم الداوية والماركيز مونتفرات الكبير والد كونراد الذي لحق بابنه في مدينة صور[٢٨]، وكل ما وعد به جاي هو ألا يعود إلى حرب المسلمين وألا يشهر سلاحاً ضد صلاح الدين وأن " يكون

---

(٢٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٧

(٢٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٨ – ٣٤

(٢٧) ابن شداد : نفس المصدر ص ٩٨ . Grousset : op. cit. III, p. 18

(28) Runciman : op. cit, III, p. 19

غلامه ومملوكه وطليقه أبدا "[٢٩] وأن يبرح في بلاد الشام تـوا عـائدا إلى الغرب الأوربي .غير أن هذا الرجل ما لبث أن نكث عهده – كما هـي عادة الصليبيين دائمـاً – وتحلـل مـن وعـده لصـلاح الديـن، وشـرع في استرداد سلطانه على الفرنج وظل نحو سنة يجمع أنصاره ويضـم إليـه من قدم من الغرب الأوربي من اللاتين ثم نزح إلى صور مؤمـلاً أن تعقد له زعامة الصليبيين من جديد ليتخذ من صـور قـاعدة لمعـاودة الحـرب ضد صلاح الدين[٣٠] .

غير أن متـولي أمـر صـور – كونـراد دي مونتفرات – رفـض أن يسمح للملك بدخول المدينة ورد عليه بأن صور لم تعد مدينة جاي بـل قال له " إنني نائب للملوك الذين وراء البحر وما أذنـوا لي في تسـليمها إليك "[٣١]، فقضى جاي بضعة أشهر خارج أبواب صـور، ثـم فكـر في غزو عكا التي كانت ثاني مدن المملكة وأهـم موانيهـا السـاحلية والـتي غدت حينئذ بأيدي المسلمين، وشجعه على ذلك وصول أسطول بـيزي يتكون من نحو خمسين سفينة في إبريل سنة ١١٨٩م ،بعد عقد الصلح بين بيزا والبندقية بوساطة البابا[٣٢]، فاستفاد من ذلك جاي ونجـح في جمع جيش من فرسان الصليبيين المشردين قرب طرابلس، كما أفاد من بقايا حملة النورمان التي أرسلها الملك وليم الثاني ملك صقلية[٣٣]، ثـم تقدم على رأس هذا الجيش تجاه عكا في أغسطس سنة ١١٨٩م ملتزمـاً طريق الساحل، بينما سارت السفن في البحر علـى مقربـة منـه تحمـل السلاح والعدد والذخائر[٣٤] .

---

(٢٩) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ص٢٨٣–٢٨٤، ابن شداد: النوادر السلطانية ص٩٨

(30) Grousset : op. cit. III, p. 20

(٣١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٨. أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٤٠

(32) Camb. Med. Hist. : Vol. 5 , p. 227

(33) Lane - poole: Saladin p. 254

(34) Grousset : op. cit. III, p. 20, ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٠١

ويشير المؤرخون إلى أن صلاح الدين كان بوسعة الهجوم على الصليبيين وهم في طريقهم إلى عكا ومنعهم من الاتجاه جنوبا وحصرهم عند الممرات أو في المواضع الخطرة، إلا أنه كان مشغولا حينئذ بمحاولة فتح حصن الشقيف أرنون[٣٥]، وأسهم رينو الذى كان أميرا في صيدا والذى كان أسيرا لدى صلاح الدين في تعطيل صلاح الدين بمكره وخداعه وتظاهره بالإسلام ووعوده بسعيه في تسليم الحصن في أغسطس سنة ١١٨٩م وأفاد من طيبة صلاح الدين وتسامحه ووفائه بالعهد فعطله نحو ثلاثة شهور بينما كان يوعز لحامية الحصن بالصمود والقتال ولهذا حينما بدأ صلاح الدين في التحرك تجاه عكا وصل بعد أن كان الصليبيون قد احتلوا مواقعهم فعلا قربها بيومين وذلك في أواخر نفس الشهر، فعسكر على مقربة من الصليبيين على بعض التلال المحيطة[٣٦].

ويبدو أن صلاح الدين رأى أنه لم يبق للمسلمين إلى عكا طريق فأحاط المسلمون بالصليبيين بقربها[٣٧]، لأنه لم يتوافر لصلاح الدين من الجند ما يكفى للقيام بهجوم شامل على الصليبيين، فأخذ صلاح الدين ينتظر قدوم الإمدادات من الشرق، وفعلا بدأت تصل الإمدادات من الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ومن حران والرها[٣٨] وفى نفس الوقت وصلت طلائع الحملة الصليبية الثالثة في البحر مما قلب خطط صلاح الدين رأسا على عقب وجعله يتريث قليلا في تنفيذ خططه فقد توافدت أساطيل البيازنة والجنوية والبنادقة، فضلا عن سفن أخرى من غرب أوربا تحمل آلافا من الصليبيين[٣٩] من

---

(٣٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٠٣

(٣٦) ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٤٣

(37) Lane- pool:Saladin pp. 259-60,Runciman:op. cit. III,p. 24

(٣٨) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٠٢

(39) Heyd :Hist.des Commerce, p.312,Lane-pool :op. cit.p.254

الفرنسـيين والفلمنكيـين والدانمركيـين والفريزيـن والألمـان مـن جهـة البحر قدرهم بعض المؤرخـين بنحـو عشـرين ألـف محـارب وصلـوا في سبتمبر سنة ١١٨٩م وغدا لسفنهم أهميـة كبـيرة في حصـار عكـا، كمـا تناسـى كونـراد دى مونتفرات خصومتـه مـع جـاى لوزجنـان وأزمـع الحضور على رأس قواته من صور للمشاركة في الاستيلاء على عكا[٤٠].

بدأ صلاح الدين هجومـه الكاسـح علـى الصليبيـين في منتصـف سبتمبر سنة ١١٨٩م، حين نشط في فتح طريـق إلى عكـا ليسـتطيع مـد المدينـة بـالمؤن والـزاد ويحشـد فيهـا الجنـد ويسـتبدل بعـض رجـال حاميتها، وبعد قتال عنيف نجح المسلمون في فتح الطريق إلى عكـا[٤١]، فأدخل صلاح الدين إلى المدينة من أراد من الرجال وما شاء من الذخائر والأمـوال والسـلاح، ولحـق بـالصليبيين خسـائر فادحـة يـوم ١٥، ١٦ سبتمبر سنة ١١٨٩م[٤٢]، وفي أواخر سـبتمبر نفسـه وصـل كونـراد إلى عكا قادما من صور فتشجع الصليبيون وهاجموا القوات الإسـلامية، إلا أن صلاح الدين أنزل بهم هزيمة سـاحقة جديـدة في أكتوبـر مـن نفـس العـام[٤٣]، حتـى امتـلأت الأرض بجثـث القتلـى وجيفهـم وأدى تعفـن الجثث ونتن ريحها ووخامة المكـان إلا إجبـاره علـى الانتقـال إلى تـل الخروبة بعيدا عن عكا فأفاد الصليبيـون مـن ذلـك وأحكمـوا حصـارهم على عكا واكملوا حفر خندق حول معسكرهم من البحر إلى البحر، كمـا نجحوا في إنزال أدوات الحصار من سفنهم فانقطع طريـق المسـلمين إلى عكا من جديد[٤٤].

---

(40) Runciman : op. cit. III, p. 22

(٤١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٠٦

(٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٢٩٢–٢٩٣، أبو شامة: الروضتين ج٢ ص١٤١

(43) Grousset : op. cit. III, pp. 24- 5, ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٠٣

(٤٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٢–١١٤.

Lane-pook:op cit. pp. 265-6

وأمضى صلاح الدين الشتاء وجانبا من ربيع سنة ١١٩٠م بالخروبة، ولم يعد الاتصال بينه وبين حامية عكا كما كان من قبل ، فلجأ إلى إرسال تعليماته إلى الحامية بواسطة السباحين في البحر وعن طريق الحمام الزاجل أى على أجنحة الطير بالشفرة المصطلح عليها(٤٥)، حتى وصلت قافلة ضخمة من السفن من مصر في ديسمبر سنة ١١٨٩م استطاعت أن تعيد الاتصال بالمدينة ونجحت في إمداد الحامية بالمؤن والزاد لتصمد للحصار بعد أن حالت السفن الجنوية بين المسلمين وبين عكا(٤٦) .وطال الحصار ولجأ صلاح الدين إلى الاستنجاد بكافة القوى الإسلامية في المشرق والمغرب فجاءته العساكر من مختلف البلاد القريبة من دمشق ومن حمص ومن حماة(٤٧)، فضلا عمن جاء من البلدان البعيدة بقصد الجهاد، وبفضل مساعي المؤرخ ابن شداد، فاجتمع لديه صاحب دارا وصاحب سينجار وبعض أمراء الجزيرة، وصاحب الموصل وصاحب إربل وحضر مبعوث الخليفة العباسي ببغداد ومعه بعض الأسلحة وآلات الحرب(٤٨) .

واشتدت وطأة الحصار على المدينة بينما كانت الحرب تسير ببطء أمامها، فلم تبدأ الحرب فعليا إلا في أواخر إبريل سنة ١١٩٠م حين بدأ الصليبيون في مهاجمة أسوار المدينة ومحاولة اقتحامها ولكن محاولاتهم باءت بالفشل(٤٩)، غير أن المدينة ظلت تعاني من شدة الحصار في الشهور الثلاثة التالية ولم تعد كمية المؤن والزاد التي

---

(٤٥) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ص ١٩٢ :

عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٥٨

(46) Wiet : op. cit. p. 327, ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٠٥

(47) Stevenson : op. cit. p. 263

(٤٨) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٠٤، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٥

(49) Grousset : op. cit. III, p. 34

يهربها صلاح الدين إلى المدينة تكفى لسد حاجتها على حين كان موقف الصليبيين أمامها يزداد قوة في كل يوم، فقد لحقت بهم فلول حملة الإمبراطور فردريك بربروسا بقيادة ابنه دوق سوابيا(٥٠) فشدت أزر الصليبيين، على حين وصل في أواخر يوليو سنة ١١٩٠م بعض النبلاء البرجنديين والفرنسيين من أشهرهم هنرى كونت شامبانيا، الذى عرفه المؤرخون المسلمون باسم الكندهرى(٥١)، على رأس إمدادات بلغت نحو عشر آلاف محارب ومعه أدوات الحصار فازداد تضييق الصليبيين على المدينة .

بدأ الصليبيون هجوما كبيرا على المدينة في سبتمبر سنة ١١٩٠م، إلا أن المدينة صمدت هذه المرة أيضا واستبسلت في الدفاع، ونجحت الحامية في إحراق ما نصبه هنرى كونت شمبانيا من أدوات الحصار(٥٢)، خاصة وقد فترت همة بعضهم في تلك الآونة بسبب خلافاتهم الشخصية حول عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة الملكة سبيلا زوجة جاى لوزجنان وتتويج أختها ايزابيل التى جرى تزويجها من كونراد دى مونتفرات ليصبحا ملكين للمملكة الصليبية مع معارضة جاى الأمر الذى تسبب في إحداث انشقاق خطير في صفوف الصليبيين أمام عكا(٥٣) .

حدث بعد ذلك أمران في الجانب الإسلامي كان لهما أثر كبير في تطور الأحداث عند عكا، ذلك أن صلاح الدين أذن لأمراء الشرق مضطرا بالعودة إلى بلادهم لطول المقام والضجر وعدم اتصال

---

(50) Stevenson : op. cit. p. 265

(٥١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٣١

(52) Runciman : op. cit. III, p. 29,

ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٣٤-٣٣٥

(53) Grousset : op. cit. III, pp. 41 - 4, Lane-pool:op. cit. p.276

الحرب[٥٤]، الأمر الثانى أن استغل صلاح الدين فترة الشتاء وانسحاب سفن الصليبيين إلى صور في استبدال حامية عكا بحامية أخرى، وكان من في المدينة قد خبروا القتال ومارسوا الحرب وعرفوا أسلوب الصليبيين، فلما خرجوا وحل محلهم أمراء جدد كانوا من ناحية أقل عددا ممن خرجوا ومن ناحية أخرى أقل خبرة في قتال الصليبيين، وتم إحلال الحامية الجديدة في المدينة في فبراير سنة ١١٩١م فاعتبر بعض المؤرخين ما حدث إذاناً بسقوط المدينة وخطوة أضعفتها في مواجهة الصليبيين ستؤدى حتما إلى سقوطها[٥٥]، فضلا عن أن السفن التى أرسلت لإمداد المدينة بالمؤن تعرضت للعواصف الشديدة فغرق معظمها ولم يصل إلى المدينة إلا قليل[٥٦] .

وكان الشق الأكبر من الحملة الصليبية الثالثة تحت قيادة ملكي إنجلترا وفرنسا قد أبحر من الغرب الأوربي في صيف سنة ١١٩٠م، ونزل العاهلان بصقلية وأغراهم دفئ الشتاء بها لقضاء عدة أشهر[٥٧]، غير أن ما وقع بين العاهلين من نزاع في صقلية جعل فيليب أوغسطس يقرر الإبحار إلى بلاد الشام، وإن تحسنت العلاقات بينهما قبل رحيل العاهل الفرنسى[٥٨] في مارس سنة ١١٩١م الذى وصل على رأس جموعه إلى مدينة صور في أواخر نفس الشهر فلقى استقبالا حافلا من ابن عمه كونراد دى مونتفرات، ومنها اتجه إلى عكا فوصلها في ٢٠ إبريل سنة ١١٩١م[٥٩]، في صحبة كونراد، فأحدث مجيئه ابتهاجا في

---

(٥٤) ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٠، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٤٤

(٥٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٠، أبو شامة : الروضتين : ج٢ ص ١٨١

(٥٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٤٠

(57) Grousset : op. cit. III, p. 45

(58) Runciman : op. cit. III, p. 40

(59) Stevenson : op. cit. p. 267

نفوس الصليبيين، بينما قلق المسلمون كثيرا لتعاقب الأحداث على تلك الصورة[٦٠]، في وقت كان فيه المعسكر الإسلامي يعانى الشدة بسبب رحيل بعض زعماء المسلمين ممن استنجد بهم صلاح الدين - كما سبق أن أشرنا - وضجر فيه الجند وسئموا الحرب المتصلة ودب اليأس في نفوس رجال الحامية الجديدة[٦١] ويبدو أن فيليب أوغسطس كان يتعجل العمل ضد مدينة عكا لرغبته في العودة إلى بلاده من ناحية وليسبق بإنجازاته الملك ريتشارد قلب الأسد، الذى عرج في طريقه على جزيرة قبرص فاستولى عليها من ناحية أخرى[٦٢]، ويبدو أن الذى حمل ريتشارد على الاستيلاء على الجزيرة اقتناعه بأهميتها الحربية في الدفاع عن كل ساحل الشام من جهة و من جهة أخرى اقتناعه بخطورة تحالف حاكمها اسحق كومنين مع صلاح الدين[٦٣]، على الرغم من أن هذا أخر ريتشارد عن الإبحار إلى بلاد الشام في الوقت الذى نشط فيه الصليبيون بقيادة فيليب أوغسطس في الهجوم على المدينة وأخذوا في قذفها بالقذائف ليل نهار وإعمال آلات الحصار في أسوارها، بينما منع رماتهم رجال الحامية من اتخاذ أماكنهم على الأسوار وشرع فريق من الصليبيين في نقب الأسوار بعد أن ردموا الخندق وأقاموا أبراجا يقذفون المدينة منها[٦٤]

وعلى الرغم من تأثر أسوار المدينة من استمرار قذف الصليبيين ومحاولات نقبهم الأسوار إلا أن صلاح الدين استمر في قتالهم وكبس

---

(٦٠) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٣

(٦١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٣٣٢-٣٣٣، المقريزي : السلوك ج١ ص ١٠٥

(62) Runciman : op. cit. III, p.50, Lane-poole: Saladin pp.285-6

(63) Runciman : op. cit. III, p. 44

(٦٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥٨.

ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص ٣٥٠-٣٥١

خنادقهم وواصل الهجوم عليهم[٦٥]، ووسط هذه النوبة العاتية من الهجوم وصل الملك ريتشارد إلى صور في ٦ يونيو سنة ١١٩١م، فمنعه نائب كونراد من دخولها فأبحر إلى عكا فوصلها في ٨ يونيو، فازداد الصليبيون قوة وارتفعت روحهم المعنوية[٦٦]. وبدأت حامية المدينة توقن بالهلاك " وبلى المسلمون منه بالداهية التي لا مثيل لها "[٦٧] إذ كان - كما قال المؤرخون - صاحب رأى في الحرب " وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة "[٦٨] على الرغم مما ظهر بينه وبين ملك فرنسا من ضغائن وحزازات ومساندة فيليب وتأييده لكونراد وانحياز ريتشارد لجاى لوزجنان من ناحية ووقوع كل منهما فريسة المرض والحمى من ناحية أخرى[٦٩] .

ظل الصليبيون يهاجمون المدينة حتى أوائل يوليو سنة ١١٩١م والحامية صامدة مستبسلة في الدفاع، برغم كل ما أحاط بها، ولجأ صلاح الدين إلى الهجوم على الصليبيين لتخفيف ضغطهم على المدينة خاصة بعد أن وصلت الجيوش والإمدادات من سنجار ومن مصر ومن الموصل ومن شيزر ومن حمص وتل باشر[٧٠] في الوقت الذى حدث فيه خلاف جديد بين زعماء الصليبيين أمام عكا واشتد حنق جاى لوزجنان على كونراد دى مونتفرات، وانحاز الملك ريتشارد قلب الأسد لجانب جاى الأمر الذى أغضب كونراد كثيرا وجعله يقرر الرحيل إلى صور[٧١]، على حين اشتد المرض بالملك ريتشارد وأشرف على الهلاك،

---

(٦٥) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٤ . ابن شداد ص ١٦٠

(66) Grousset : op. cit. III, p. 50 .

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٣

(٦٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٦١

(69) Stevenson : op. cit. p. 267

(٧٠) أبو شامة :الروضتين ج٢ ص١٨٩ ،ابن شداد :النوادر السلطانية ص١٦٣-١٦٤

(71) Runciman : op. cit. III, p. 49

ومع ذلك لجأ إلى الحيلة وإضاعة الوقت ليمكن الصليبيين من اقتحام عكا، فبدأ بمراسلة صلاح الدين، وطلب الاجتماع به، وعلى الرغم من أن صلاح الدين أدرك هدفه فأوقف المحادثات[٧٢]، إلا أنه أظهر نبلا وشهامة – كعادته – حين استجاب لما طلبه ريتشارد أثناء مرضه من فاكهة وثلج، وكان كريما في تعامله مع أعدائه الصليبيين حتى شفى ريتشارد[٧٣]، وفى نفس الوقت كان الملك فيليب قد جرح أثناء القتال واحتاج إلى بعض الوقت قبل أن يستعيد نشاطه، إلا أن ذلك لم يغير في الأوضاع شيئا .

اشتد هجوم الصليبيين على المدينة في يومي ٢، ٣ يوليو سنة ١١٩١م، فمازالوا يضربونها بالمنجنيقات حتى ضعفت أسوارها وتخلخت وأنهكت حاميتها وتوزعت بين المقاومة على الأسوار وضد من في الخنادق فضلا عمن كان في السفن[٧٤]، لذا كتب رجال الحامية وعلى رأسهم المشطوب وقراقوش يوم ٤ يوليو إلى صلاح الدين يخبرونه عن عزمهم على تسليم المدينة بعد أن نال منهم العجز غايته، وفى الوقت الذى لم تؤد فيه الهجمات التى شنها صلاح الدين على الصليبيين وطوافه على العساكر يحثهم على الجهاد ومناداته "ياللاسلام" وعيناه تذرفان الدموع ومشاركة أخيه الملك العادل في الهجوم على مواقع الصليبيين وخنادقهم، لم يؤد كل ذلك إلى انقاذ المدينة[٧٥]، بعد أن ساءت الاحوال فيها كثيرا .

فقد تمكن الصليبيون من نقب السور وأحدثوا به ثغرة كبيرة وإن لم يستطيعوا مواصلة الدخول منها، لأن من جازف بالدخول لقى

---

(٧٢) ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص٣٥٥،ابن شداد :النوادر السلطانية ص ١٦٥

(٧٣) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٦

(٧٤) ابن شداد :النوادر السلطانية ص١٦٦،ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص ٣٥٥

(٧٥) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٦. Stevenson : op. cit. p. 268

مصرعه على يد رجال الحامية " فقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا منهم ستة أنفس من كبارهم "[٧٦]، لكن أمام إصرار الصليبيين على الاقتحام اضطر رجال الحامية إلى طلب الأمان مقابل تسليم المدينة، وفى البداية رفض الملك فيليب أوغسطس هذا العرض يوم ٤ يوليو، فأغلظ المشطوب له القول قائلا: " إنا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل الواحد منا حتى يقتل خمسين نفسا من كبارکم"[٧٧]، وعاد المشطوب فبنى سورا من داخل الثغرة التى أحدثها الصليبيون، وحشد مقاتلين خلفها، ولهذا جرى قتال يوم ١١ يوليو وكان آخر مجهود بذلته حامية المدينة[٧٨]، قبل سقوطها إذ ما لبث أن عقدت الاتفاقية بين الطرفين، وإن لم تحظ برضاء صلاح الدين، ونصت الاتفاقية على السماح لحامية المدينة بالخروج، مقابل مائتى ألف دينار وتحرير عدد كبير من أسرى الصليبيين، تضاربت الروايات بشأنه وتراوحت التقديرات ما بين ألف وخمسمائة وألفين وخمسمائة أسير ورد صليب الصلبوت الذى كان المسلمون قد استولوا عليه في حطين[٧٩].

ودخل الصليبيون عكا في منتصف يوليو سنة ١١٩١م، بعد حصار دام قرابة عامين، ولم يلتزموا بما قطعوه على أنفسهم بل غدروا كعادتهم ونقضوا شروط الصلح فقد بيت ريتشارد قلب الأسد الغدر بأهل عكا وحاميتها، بعد أن دفع صلاح الدين ما استقر عليه فنكث

---

(٧٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٦٨.

ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٥٧

(٧٧) ابن شداد : نفس المصدر ص ١٦٨

(٧٨) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٨

(79) Stevenson:op. cit. pp. 269-70, Lane-poole:Saladin , p.302

ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٤

ريتشارد بعهده، وأجرى مذبحـة بين الأسرى تراوح عـدد مـن لقـى مصرعه فيها ما بين ألفين وستمائة أسير وثلاثة آلاف أسير، ولم يبقـوا إلا على القليل من الأمراء والمقدمين ومن كان قويا ليفيدوا منـه في بنـاء ما أزمعوا بنـاءه مـن العمـائر(٨٠)، علـى أن هـذا الانتقـام الـذى تجـاوز الحدود لم يؤد إلا إلى مزيد من سفك الدماء، فلم يبق صلاح الدين بعـد هذه المذبحة على من يقع في يده من أسرى الصليبيين(٨١) .

وعند ذلك لم يشأ الملك فيليب أوغسطس أن يبقى طويلا في بـلاد الشام فاعتذر بمرضه وأبحر عائدا إلى بلاده في أغسطس من نفـس العـام وترك زميله ريتشارد قلـب الأسـد ينهـض ببقيـة المهـام سـواء لتصفيـة الخلاف بين الصليبيين أنفسهم وهو الخلاف الذى احتدم بـين كونـراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان عن أحقية كل منهما في المملكة الصليبية أو تصفيـة الموقـف مـع صـلاح الديــن(٨٢) . ويشــير المؤرخــون إلى أن استسلام عكـا كـان أمـرا محتمـا نظـرا لمـا كـان مـن تفـوق الصليبيـين العددى، إذ توالت عليهم الإمدادات من البحر من كل الأمم فيمـا وراء البحر واشترك في الحملة الصليبية الثالثة الأمراء من معظم بلاد أوربـا، كما تكفلت المدن الإيطالية بنقل الجند والمعدات وفـرض الحصـار علـى المدينـة والتصـدى للأسـاطيل الإسـلامية ، هـذا فضـلا عمـا اسـتخدمه الصليبيون من أدوات الحصار وتفننهم في الهجوم على المدينة إذ قـاتلوا "مرة بالابرجة وأخرى بالمنجنيقـات وتـارة بالدبابـات وتـارة بالكبـاش وآونة باللوالب ويوما بالنقب وليلا بالسرايات وطورا بطم الخنادق وآنـا بنصب السـلالم ودفعـة بـالزحوف بـالليل وبالنهـار وأحيانـا في البحـر بالمراكب"(٨٣) .

---

(٨٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٧٤. ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٥

(81) Stevenson : op. cit. p. 273

(82) Runciman : op. cit. III, p. 52

(٨٣) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٥

وعلى الرغم مما حدث فلم تكن عكا سوى بلدة سقطت "مما فتحه الله استعادها أعداء صلاح الدين، فإن ذهبت مدينة فما ذهب الدين" – على حد قول أبى شامة – إذ لازال صلاح الدين لا يبرح مكانه مؤملا أن يخرج الصليبيون إليه لينال منهم ويذيقهم ما أذاقه لجموع حطين[٨٤].

ريتشارد قلب الأسد وزعامة الحملة الصليبية الثالثة:

ترتب على عودة ملك فرنسا إلى بلاده أن غدا ريتشارد قلب الأسد زعيما للحملة الصليبية الثالثة، وقائدا أعلى لها والرجل المناط به تحسين أوضاع الصليبيين واستمرار التصدى لصلاح الدين .وعلى الرغم مما اتصف به هذا الرجل من الشجاعة[٨٥]، إلا أنها كانت شجاعة أقرب إلى التهور فضلا عن حمق وقصر نظر وميل للخيانة والغدر والتجرد من الإنسانية ما كان يضارع تصرفات رينو دى شاتيون (أرناط) في سلوكه مع المسلمين[٨٦]، فقد أقدم على فعله شنيعة تعرض بسببها للوم المؤرخين ودلت على همجية وضيق أفق، فقد ساق أسرى عكا من المسلمين وكانوا نحو ثلاثة آلاف مسلم إلى أحد التلال وأمر بقتلهم جميعا[٨٧]، متعللا حينا بتباطىء المسلمين في تسليم صليب الصلبوت وتبادل الأسرى وفقا لشروط تسليم عكا وحينا آخر بأنه انتقم لمن قتل في حطين من الاسبتارية والداوية ولكن الحقيقة أنه أراد التخلص من هذا العدد قبل المضى في السير إلى عسقلان[٨٨].

---

(٨٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٧٤

(٨٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥٧

(86) Grousset : op. cit. III, pp. 60 - 61

(٨٧) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٩

(٨٨) ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٧٤-١٧٥ . Stevenson:op. cit. p.273

ولم يكن هذا العمل على شيء من الشهامة أو المروءة أو الالتزام بأبسط قواعد الحرب، لأن هؤلاء لم يقعوا في الأسر نتيجة هجوم أو اقتحام، بل انهم استسلموا وفقا لشروط جرى الاتفاق عليها ولذلك كان لهذا العمل أثر خطير على المسلمين وعلى الصليبيين على حد سواء فقد أثار روح الغضب والرغبة في الانتقام عند المسلمين في الوقت الذى كان فيه الصليبيون في حاجة إلى تهدئة الأمور مع المسلمين في تلك الظروف الحرجة من تاريخهم عقب معركة حطين(٨٩)، ومع ذلك فقد رفض صلاح الدين أن يرد على وحشية ريتشارد وعلى المذبحة التى قام بها، وأبى صلاح الدين أن يقتل من كان في حوزته من أسرى الصليبيين وكانوا أكثر عددا(٩٠)، ودلل على أصالته وتسامحه وتعففه عن سفك الدماء، بل إنه ضرب المثل الأعلى في الترفع والسمو والتحلى بخلق الإسلام والتمسك بتعاليمه، حين لم يستجب لرغبات الثأر ولم يسمع للأصوات التى تعالت بضرورة الانتقام، ولم يزل ماثلا في الأذهان ما فعله عقب انتصاره في حطين من السماح للصليبيين بمغادرة المدن التى استولى عليها معززين مكرمين في حراسة جنوده إلى أى مكان يشاءون(٩١)، وما فعله أيضا أثناء حصار الصليبيين لعكا حينما اشتد المرض بريتشارد وطلب فاكهة وثلجا من جبال لبنان إذ بادر صلاح الدين بإرسالها إليه ضاربا المثل الأعلى في المروءة والشهامة والسخاء(٩٢)، وشتان بين ما فعله صلاح الدين وما ارتكبه ريتشارد من الهمجية والوحشية والتعصب.

ولقد أقفل ريتشارد بفعلته هذه باب المفاوضات مع صلاح الدين

---

(89) Stevenson : op. cit. p. 274

(90) Grousset : op. cit. III, p. 62

(٩١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٨٠ (ط التجارية)

(٩٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٥٥

وباتت الحرب وشيكة الحدوث، بل إن صلاح الدين قرر إعادة الأسرى الصليبيين الذين كان قد جئ بهم لمبادلتهم مع أسرى عكا، وكذلك إعادة صليب الصلبوت إلى مكانه " فإنه لا مصاب عندهم أعظم من استيلاء المسلمين عليه "[٩٣]، بل أزمع صلاح الدين قتل كل من يقع في يده من الصليبيين في الحروب التالية دون أن تأخذه بهم شفقة أو رحمة فقد جئ له " باثنين من الفرنج قد تخطفهم اليزك من العدو فأمر (صلاح الدين) بضرب رقابهما "[٩٤]، وأقسم " أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا "[٩٥].

ثم بدأ ريتشارد في الزحف بحذاء شاطئ فلسطين لاسترداد المنطقة من عكا حتى عسقلان وذلك في أواخر أغسطس سنة ١١٩١م، فإذا استطاع أن يتخذ له قاعدة حصينة على الساحل فسوف يتوجه بعد ذلك إلى بيت المقدس ولهذا فقد سار بحذاء الساحل بحيث يكون البحر عن يمينه يكفل له الحماية ويضمن له مساعدة الأسطول من ناحية وكذلك يمده بالمؤن من ناحية أخرى[٩٦]، غير أنه ما لبث أن تعرض لهجمات المسلمين، فضلا عن صعوبة الانتقال بسبب شدة الحرارة وقلة المؤن وخراب البلاد التى مر بها[٩٧]، ولهذا فقد استغرق سير ريتشارد من عكا إلى يافا سبعة عشر يوما نظرا لشدة الحرارة واشتداد تعب الجند وهجمات المسلمين، ثم وصل الجيش الصليبي إلى حيفا بعد مشقة، ثم واصل مسيره إلى قيسارية[٩٨]، والمسلمون

---

(٩٣) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٨٩ - ١٩٠

(٩٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٧٧

(٩٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٥ (ط التجارية)

(96) Lane - poole : Saladin , p. 308, Groussrt : op. cit. III, p.63

(٩٧) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٠ . Stevenson : op. cit. III, p265

(98) Grousset : op. cit. III, p. 65

يسايرونهم ويتخطفون من قدروا عليه منهم فيقتلونه، فلما اقتربوا من قيسارية لاحقهم المسلمون واشتدوا في قتالهم وأنزلوا بهم خسائر جسيمة[٩٩].

وكان صلاح الدين قد دمر استحكامات حيفا وقيسارية وأرسوف ويافا ليحرم الصليبيين من الاستفادة من أماكن الراحة ومن المؤن والزاد ويجعلهم دائما نهبا لنشاب المسلمين[١٠٠]، فاستولى ريتشارد على قيسارية في نهاية أغسطس سنة ١١٩١م فوجدها مخربة تماما، فواصل المسير إلى أرسوف في أول سبتمبر من نفس العام وسط هجمات المسلمين ومضايقاتهم حتى تعرض ريتشارد نفسه لجراح أصابته في جانبه الأيسر على يد أحد فرسان المسلمين، وقتل المسلمون عددا كبيرا من الصليبيين وأهلكوا عددا كبيرا من خيولهم[١٠١].

غير أن صلاح الدين عزم على أن يدخل مع الصليبيين في معركة فاصلة، فتقدم في أوائل سبتمبر لاختيار مكان يصلح للقتال، فاختار في ٤ سبتمبر سنة ١١٩١م موضعا شمال أرسوف تأكد أنه يتسع للمناورة وحركة الفرسان من ناحية فضلا من اختفائه وراء بعض الغابات من ناحية أخرى، ويبعد عن البحر بنحو ميلين[١٠٢]، وعلى الرغم من حرص ريتشارد على تنظيم جيشه وترتيب أقسامه قبل الدخول في المعركة، إلا أنه – كما يشير المؤرخون – طلب الدخول في مفاوضات مع صلاح الدين قبل نشوب المعركة وطلب لقاء ممثل صلاح الدين الذى قبل التفاوض كسبا للوقت حتى تتكامل قواته وتصل القوات التى

---

(٩٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٧٨

(100) Stevenson : op. cit. p. 276

(101) Lane-poole : op. cit. pp. 310 -311 ,

ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٨٠

(١٠٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٨٩

طلبها من التركمان[١٠٣]، فأنفذ أخاه العادل للقاء ريتشارد، إلا أن هذا اشترط عودة كل البلاد التي استردها صلاح الدين من مملكة بيت المقدس، إذ " قال الانكتار: القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا وتنصرفوا إلى بلادكم "[١٠٤] وعند ذلك " أخشن له (العادل) الجواب " ولم يبق إلا أن يجرى القتال .

لهذا نظم ريتشارد جيشه وحرص على ألا يتسرع في الهجوم على المسلمين إلا بعد أن تكتمل كل الاستعدادات وبعد أن ينفذ صبر المسلمين ويحل بهم التعب ويزداد اقترابهم من الجيش الصليبى[١٠٥].ثم ما لبث أن اشتبك الطرفان في معركة كبيرة عند أرسوف في ٧ سبتمبر سنة ١٩٩١م وأحاطت قوات المسلمين بجيش ريتشارد وأوشكت أن تنزل به هزيمة كبيرة كما حدث في حطين، إلا أن ريتشارد ثبت في الميدان وجمع إليه فرسانه وجنوده، ثم بادر الاسبتارية بالهجوم على المسلمين فاخترقوا الصفوف وتبعهم بقية الجيش الصليبي في هجوم شامل وفى وقت واحد فأحدثوا بعض الخسائر بين المسلمين والتجأ بعض المنهزمين من الميسرة والميمنة إلى القلب وفيه صلاح الدين، فأحدثوا فيه بعض الخلل، فلجأ المسلمون إلى الدخول إلى الغابة للاحتماء بالأشجار فاعتقد الفرنج أنها خدعة فلم يتابعوهم[١٠٦]، وعلى هذه الصورة حلت الهزيمة على المسلمين في هذه المعركة واضطر صلاح الدين إلى الارتداد فكان النصر النهائى في أرسوف للصليبيين .

ولقد ترتب على وقعة أرسوف نتائج بالغة الأهمية، إذ أنها أحدثت شرخا عظيما في الجانب الاسلامى، واحزنت كثيرا صلاح

---

(103) Grousset : op. cit. III , p. 66

(١٠٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٨٢

(105) Runciman : op. cit. III , p. 56

(١٠٦) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٥ . ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩١

الدين حتى قال ابن شداد " وكان في قلبه من الواقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى والناس بين جريح الجسد وجريح القلب "[١٠٧]، على الرغم من أنه لم يلق مصرعه من المسلمين إلا عدد ضئيل، ولم يكن بين القتلى - أحد من الفرسان المشهورين، إلا أن هذا الانتصار رفع روح الصليبيين المعنوية فباتوا يأملون في استرداد بيت المقدس، كما كانت هذه الواقعة سببا في شهرة ريتشارد قلب الأسد ومهارته في قيادة الجيش وحرصه على تحقيق النصر، فضلا عن أن هذه المعركة كانت آخر محاولة قام بها المسلمون لتدمير جيش ريتشارد والإجهاز على الحملة الصليبية الثالثة[١٠٨]، واعتبر بعض المؤرخين هذه الواقعة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية إذ أخذ تيار الحرب يتحول في صالح الصليبيين لمدة تقرب من ستين سنة بعد ذلك إلى سنة ١٢٥٠م بعد أن كان في صالح المسلمين منذ سنة ١١٧٠م[١٠٩].

استقر رأى صلاح الدين على توجيه اهتمامه للدفاع عن بيت المقدس، وتقوية استحكاماتها، ولهذا قرر تخريب عسقلان لأنها كانت هى الأخرى مقصد ريتشارد، على الرغم من أنها كانت الميناء الهام الوحيد بين يافا والحدود المصرية والمدينة الوحيدة الحصينة على الساحل بعد تدمير قيسارية " خشية أن يستولى عليها الفرنج... فيأخذوا بها القدس الشريف ويقطعوا بها طريق مصرالمحروسة "[١١٠]، فأسرع إليها صلاح الدين وخربها وهدم أبراجها حتى لا يفيد منها الصليبيون وأخلاها من أهلها[١١١]. فتوجه فريق من

---

(١٠٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٨٥

(108) Runciman : op. cit. III , p. 57

(١٠٩) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٧٦

(١١٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٨٧

(١١١) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩١-١٩٢

سكانها إلى مصر وسار فريق أخر إلى بلاد الشام وقال ابن الأثير " وملك فيها من الأموال والذخائر...ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع"(١١٢)، فقد علم صلاح الدين " عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيما بها وتجافى الناس عن الدخول في عسقلان " وكذلك ادخارا للقوة " في عسكر الإسلام لحفظ القدس المحروس "(١١٣)، وفعلا حين "سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها"(١١٤) .

ثم سارع صلاح الدين بالذهاب إلى بيت المقدس للدفاع عنها، لأنه تأكد أنها كانت الهدف الرئيسي للصليبيين فخرب في طريقه إليها تحصينات الرملة واللد حتى لا يفيد منها ريتشارد خلال زحفه إلى بيت المقدس(١١٥)، فتفقد صلاح الدين تحصينات بيت المقدس وعمارتها وكذلك اهتم بحمايتها وحشد فيها الرجال والعدد، كما اهتم بمؤنتها وإمداداتها، ولازال يأمر بترميم وإصلاح ما تهدم أو خرب من أسوارها وتحصيناتها(١١٦)، وفى نفس الوقت سار ريتشارد بعد معركة أرسوف إلى يافا فبلغها في ١٠ سبتمبر سنة ١١٩١م، فوجدها مخربة أيضا ويبدو أنه كان مصرا على عدم المضى إلى بيت المقدس وداخلية البلاد ما لم يكن لديه قاعدة قوية على الساحل حتى لا يقطع عليه صلاح الدين طريق الاتصال بالبحر والأسطول. ولهذا فقد قرر ريتشارد تعمير يافا(١١٧)، قبل المضى إلى عسقلان. وأصم أذنيه

---

(١١٢) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٦ ، Grousset : op. cit. III , p. 72

(١١٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٨٦

(١١٤) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢١٦

(١١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٣٧٠-٣٧١،
Grousset : op. cit. II ,pp.72-3

(١١٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٨٩

(117) Runciman : op. cit. III , p. 58

عما قدم له من نصائح لمداهمة المسلمين في عسقلان خلال انشغالهم بتخريبها للاستيلاء عليها، لكن ريتشارد قرر المضى في تعمير يافا[١١٨]، فضيع بذلك فرصة ثمينة للانقضاض على المسلمين عقب هزيمتهم في أرسوف، وأعطى صلاح الدين فرصة لتخريب عسقلان من ناحية والعناية بتقوية بيت المقدس من ناحية أخرى[١١٩] .

ثم زحف ريتشارد في نهاية أكتوبر سنة ١١٩١م من يافا تجاه بيت المقدس فوجد صلاح الدين قد خرب الرملة وما حولها فاحتل الرملة في سهولة وتقدم حتى صار بقرب بيت المقدس غير أنه ما لبث أن عاد إلى الرملة، فقد تأكد أن صلاح الدين قد أعد عدته للدفاع عن المدينة وحصنها تحصينا قويا[١٢٠]، في الوقت الذى زخف فيه الشتاء ببرده وأمطاره وبدأت قبائل البدو تهاجم معسكر الصليبيين وتقض مضاجعهم، كما يبدو أن ثمة محادثات قد بدأت بين ريتشارد وصلاح الدين[١٢١]، فقد كان ريتشارد يؤمل في الصلح مع صلاح الدين وعدم مواصلة الحرب حتى يتسنى له العودة إلى بلاده في الربيع التالى وخشى أن يستغرق حصار بيت المقدس زمنا طويلا كما حدث عند عكا مع ما يسببه ذلك من انقسام في جيشه[١٢٢]، وتناقص في حيوية جنوده ولهذا عول على المفاوضات لإنهاء هذه الحرب في الوقت الذى حرص فيه صلاح الدين على أن تطول هذه المفاوضات لكسب الوقت حتى يتم الاستعداد لملاقاة الفرنج من ناحية ولتهيئة الفرصة لحدوث الانقسام بين الصليبيين من ناحية أخرى[١٢٣]، ولهذا أوصى أخاه العادل

---

(١١٨) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٢

(119) Grousset : op. cit. III , pp. 72 - 3

(١٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٣٧٥ ،أبو شامة :الروضتين ج٢ ص١٩٦

(121) Stevenson : op. cit. p. 277

(١٢٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص١٩٠

(123) Stevenson . op. cit. p. 178

- الذى برع في الدبلوماسية — على أن يطيل هذه المفاوضات وخاصة وقد لاحظ ما كان يبديه ريتشارد من المودة للملك العادل وما جرى بين الرجلين من صداقة(١٢٤)، فاستمرت المقابلات والرسائل متبادلة بين الجانبين حتى ٨ أكتوبر سنة ١١٩١م(١٢٥).

غير أن هذه المفاوضات لم تصل إلى نتيجة بسبب تعنت الصليبيين ورغبتهم في استرداد بيت المقدس وإعادة حدود مملكتها إلى ما كانت عليه سنة ١١٨٥م أى عند وفاة الملك بلدوين الرابع(١٢٦)، ويبدو أن ريتشارد كان هو الأخر يحاول أن يطيل المفاوضات مكرا منه وخديعة على حد قول المؤرخ ابن الأثير(١٢٧)، حتى تتهيأ له الفرصة للسير إلى بيت المقدس من ناحية وتعمير عسقلان من ناحية أخرى، فقد انصرف أثناء ذلك لإعادة تعمير عسقلان وإصلاح أسوارها وترميمها في أوائل سنة ١١٩٢م(١٢٨).

وأثناء ذلك تفاقم الصراع بين كل من كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان على عرش المملكة، فقد أصر كونراد منذ زواجه من إيزابيل وريثة المملكة على أن يفوز بتاج بيت المقدس وشجعه على ذلك ما لقيه من تأييد الفرنسيين وبارونات المملكة الذين لم يغفروا لجاى لوزجنان ما حل بهم من هزيمة في حطين وما تلاها من انهيار مملكة بيت المقدس وضياع المدينة المقدسة نفسها(١٢٩). على حين مال ريتشارد تجاه جاى لوزجنان وتوثقت علاقته بجاى لاعتبارات سياسة تتعلق

---

(124) Grousset : op. cit. III , p. 85

(125) Lane-poole : Saladin , p. 327

(126) Grousset : op. cit. III , p. 83 , أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٩٣

(١٢٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢١٧

(128) Runciman : op. cit. III , p.62

(129) Grousset : op. cit. III , p.87

بممتلكاته في أقطانيا وكره كثيرا كونراد الذى انسحب إلى صور وبدأ في التقرب من صلاح الدين[١٣٠]، ورفض الإسهام في تعميرعسقلان، إلا أن الأمر حل من تلقاء نفسه حين وجد كونراد قتيلا في صور في إبريل سنة ١١٩٢م، إذ قتله اثنان من الباطنية، اختلفت الآراء حول الدافع والسبب في ذلك أو المحرض على هذا القتل، وأشارت يد الاتهام إلى ريتشارد كمحرض لهذا الاغتيال[١٣١]، وجرى اختيار هنرى دى شامبنى ليتزوج أرملة كونراد وريثة المملكة ويعتلى عرش المملكة بإصرار من بارونات المملكة وعلى غير رغبة من الملك ريتشارد الذى لم يجد بديلا إلا أن يمنح جاى عرش جزيرة قبرص تعويضا له عن ضياع عرش مملكة بيت المقدس منه وتسليم جاى حكم الجزيرة فعلا في أكتوبر سنة ١١٩٢م[١٣٢]، فأتيح لجاى لوزجنان أن يقيم دولة وأسرة حاكمة في جزيرة قبرص، ظلت قائمة إلى مستهل الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى، وانتهت بذلك صفحة مثيرة في الصراع بين الصليبيين أنفسهم على السلطة في المملكة الصليبية[١٣٣].

لم تجر أحداث هامة بين المسلمين والصليبيين في ربيع سنة ١١٩٢م وخلال تعمير عسقلان باستثناء استيلاء ريتشارد على قلعة الداروم ومحاولاته الهجوم على خطوط مواصلات صلاح الدين إلى مصر[١٣٤]، بل شغل الصليبيون بخلافاتهم الداخلية والصراع حول عرش المملكة – كما سبق أن أشرنا – وانضم إلى جانبى الصراع كل من

---

(١٣٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ص١٩٠ .

Stevenson : op. cit. p. 281

(١٣١) ابن الأثير :الكامل ج٩ ص٢١٩ . Grousset : op. cit. III , pp.91-3.

(132) Runciman : op. cit. III , p. 67

(133) Holt : op. cit. p. 59 , Stevenson : op. cit. p. 281

(١٣٤) ابن شداد :النوادر السلطانية ص٢١٠ . Grousset :op. cit. III , p.86

الجنوية والبيازنة حين انحاز كل إلى طرف من أطراف الصراع[١٣٥]، ثم انتهى الأمر بمقتل كونراد وفوز هنرى دى شامبنى بعرش المملكة، ومن ثم أزمع ريتشارد على قصد بيت المقدس للاستيلاء عليها خاصة بعد أن تعثرت المفاوضات مع صلاح الدين[١٣٦] .

وفى صيف سنة ١١٩٢م اتجه ريتشارد نحو بيت المقدس بقصد الاستيلاء عليها، فاستولى في طريقه على بعض القلاع، ولكن هجمات المسلمين لم تمكنهم من التقدم في أمان على حين كان صلاح الدين قد استعد للدفاع عن المدينة وأفسد ما حولها من مياه حتى لا يفيد منها الصليبيون[١٣٧]، ويبدو أن ريتشارد أراد أن يعجل بالاستيلاء على المدينة لإنهاء الوضع والعودة إلى بلاده لما كان يصله من أخبار مقلقة على عرشه هناك[١٣٨]، ولرغبته في عدم ترك الفرصة لصلاح الدين لإكمال استعداده وحشد كل جنده، لا سيما وقد بلغته أنباء تأخر وصول الجند من الشمال بسبب بعض الاضطرابات في دولة صلاح الدين، وأكد ذلك المؤرخ ابن الأثير الذى أشار إلى تمرد ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بعد وفاة والده وشقه عصا الطاعة على صلاح الدين في بلاد الجزيرة وبعض أملاك والده في بلاد الشام. وإن عاد هذا إلى حدود الطاعة وسويت المشكلة بجهود العادل[١٣٩] .

وعندما عسكر ريتشارد بالقرب من المدينة، وعلى بعد يسير من جهتها الشمالية الغربية، تعرض لكثير من المتاعب بسبب نقص المؤن وقلة الماء على حين نجحت بعض الفرق الإسلامية في قطع خطوط

---

(135) Runciman : op. cit. III , p. 63

(136) Lane-poole :Salahdin , p.338 , Stevenson :op. cit. p.281

(١٣٧) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٩٨

(138) Stevenson :op. cit. p.281 ,Runciman :op. cit. III, p.63-4

(١٣٩) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٢٠

مواصلاته، واستولت على بعض قوافل المؤن والزاد التى كانت في طريقها إلى الصليبيين قادمة من يافا[١٤٠]، ولكن ريتشارد نجح هو الآخر في مباغتة قافلة كانت في طريقها من مصر إلى صلاح الدين حيث أسر بعض رجالها فأحزن ذلك المسلمين كثيرا وكبر على صلاح الدين[١٤١] .

وعلى الرغم من ذلك لم يجرؤ ريتشارد على مهاجمة صلاح الدين في بيت المقدس أو الاقتراب منها وحصارها، فأقام في بيت النوبة نحو شهرين من ١١ يونيو سنة ١١٩٢م، ووصلت طلائع قواته إلى قلونية إلى الشمال الغربى من بيت المقدس بنحو ثمان كيلومترات[١٤٢]، مقتنعا بأن بيت المقدس مدينة لا يمكن حصرها أو اقتحامها طالما كان صلاح الدين حيا " وكلمة المسلمين مجتمعه " على حد قول ابن الأثير[١٤٣]، وأنه لا يستطيع تحمل مغامرة حصار بيت المقدس ومهاجمتها لأنه إذا فشل في اقتحامها فإنه يعرض الحملة للفشل الذريع[١٤٤]، على الرغم من أن المعسكر الإسلامي كان يعانى حينئذ كثيرا من الشدائد، وقد بدأت الانقسامات تطفو على السطح بين الأتراك والأكراد وبين المنادين بضرورة تغيير الخطط العسكرية والخروج من بيت المقدس حتى لا يقعوا فريسة للجيش الصليبي ويحاصروا داخلها وربما جرى عليهم ماجرى على أهل عكا[١٤٥]، وبين المصر ين على البقاء فيها والتصدى للصليبيين إذا تجرؤا وفرضوا الحصار عليهم وحاولوا اقتحامها .

---

(١٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٣٨٢-٣٨٣ ،

Grousset : op. cit. III , pp.100-1

(١٤١) المقريزى : السلوك ج١ ص١٠٩، ابن شداد: النوادر السلطانية ص٢١٤-٢١٥

أبو شامة : الروضتين ج٢ ص١٩٧ , (142) Grousset : op. cit. III , p.99

(١٤٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢١٧ (ط التجارية)

(144) Stevenson : op. cit. p.282

(١٤٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص٢١٦-٢١٧ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص٣٨٧

بينما كان كل ذلك يجرى إذا بالأمور تتبدل ويقع الانقسام بين الصليبيين أنفسهم بين مؤيد لحصار بيت المقدس ومحاولة اقتحامها وبين معارض لذلك بسبب فساد الآبار والمياه خارج المدينة وخوفا من أن يطول الحصار ويتكبد الصليبيون الخسائر، وانتهى الأمر بأن ارتد الصليبيون إلى الرملة في أواخر يوليو سنة ١١٩٢م، وطلبوا من صلاح الدين الدخول في مفاوضات لعقد الصلح(١٤٦)، إذ يبدو أن ريتشارد كان يتعجل عقد الصلح بسبب رغبته في العودة إلى بلاده لما بلغه من أنباء سيئة عن الأحوال هناك، فضلا عن أنه أدرك صعوبة اقتحام بيت المقدس، وقد كرس صلاح الدين جهده للدفاع عنها(١٤٧) - كما سبق أن أشرنا .

وكان ارتداد ريتشارد بارقة أمل جديدة أمام المسلمين الذين ارتفعت روحهم المعنوية، وانتعشت آمالهم من جديد. ورفضوا الدخول في مفاوضات على أساس الشروط السابقة(١٤٨). لكن المفاوضات تعثرت بسبب الاختلاف بين الجانبين حول وضع مدينة عسقلان، فاتجه ريتشارد شمالا بقصد الاستيلاء على بيروت من المسلمين لما لها من ميناء كبير ولحرمان المسلمين من المنفذ الوحيد الباقى لهم على الساحل بين اللاذقية وحدود مصر، وشاع أن ريتشارد سيبحر منها عائدا إلى الغرب الأوربى(١٤٩)، فانتهز صلاح الدين الفرصة وقام بمهاجمة يافا فألقى الحصار عليها، ثم ما لبث أن اقتحمها عنوة في أواخر يوليو سنة ١١٩٢م، وإن استعصت عليه قلعتها التى ظلت حاميتها صامدة في

---

(146) Grousset : op. cit. III , pp.108-9 ,
Stevenson : op. cit. p.283

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢١٧

(١٤٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص٢١٨

(149) Runciman : op. cit. III , p. 69

حفظها " وظهر من العدو من الشدة والحماية والذب والمنعة ما أضعف قلوب الناس "[١٥٠]، ثم ما لبث ريتشارد أن أسرع بالعودة إلى يافا على رأس قواته في أول أغسطس سنة ١١٩٢م وصحبته جماعة من الجنوية والبيازنة، واستطاع أن يباغت المسلمين عندها بعد أن أتاه المدد من عكا " فأخرج من بيافا من المسلمين "[١٥١] إذ يقول ابن شداد " فحملوا على المسلمين فاندحروا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء "[١٥٢] وجرت هذه المعركة في ٥ أغسطس سنة ١١٩٢م .ولم تكن شجاعة ريتشارد وإقدامه السبب الوحيد في هذا النصر. بل إنه أفاد أيضا من سخط بعض جنود صلاح الدين وتذمرهم لعدم حصولهم على جانب من المغانم التى حازها المسلمون من يافا. ولما اندلع من نزاع بين الترك والأكراد[١٥٣]، ولهذا فقد بادر صلاح الدين بالانسحاب إلى الرملة.

صلح الرملة سبتمبر سنة ١١٩٢م:

على أن ريتشارد ما لبث أن مرض في يافا مرضا شديدا، وطلب من صلاح الدين أن يبعث إليه ببعض الفاكهة والثلج " ورسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج. وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوج، فكان السلطان يمده بذلك "[١٥٤] إذ كان صلاح الدين شهما كريما فأبت عليه شهامته أن يتوانى في مده بما طلب. بل قيل إنه بعث إليه بطبيبه الخاص ليعالجه وإن صحت هذه الرواية الأخيرة يكون صلاح الدين قد ضرب المثل الأعلى في السمو وسبق بذلك عصره بكثير وتخطى حدود ما كان متعارفا عليه في ذلك الزمن .

(١٥٠) ابن شداد : المصدر السابق ص٢٢٣

(١٥١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٢١

(١٥٢) ابن شداد : نفسه ص٢٢٧

(153) Grousset op cit III . p.115

(١٥٤) ابن شداد النوادر السلطانية ص٢٣١

ونظرا لهذه الروح الطيبة التى أظهرها صلاح الدين تجاه خصمه[١٥٥]، فضلا عن الأنباء التى كانت تترى بسوء أحوال مملكة ريتشارد، الأمر الذى جعله يفكر جديا في العودة إلى بلاده، مال ريتشارد إلى عقد الصلح مع صلاح الدين وإنهاء هذه المشكلة[١٥٦]، لا سيما وأن مسألة اقتحام بيت المقدس كانت تبدو مع كل يوم أمرا مستحيلا مع إصرار صلاح الدين على الدفاع عنها، فاذا كان ريتشارد قد حقق بعض الانتصارات البسيطة على المسلمين فإنها لم تكن بالانتصارات التى يترتب عليها تغييرات كبيرة في أوضاع المنطقة أو أوضاع بلاد الشام بصفة عامة أو يمكن أن تسهم في حل هذه المشكلة[١٥٧]، ولهذا مال ريتشارد إلى عقد الصلح وإنهاء هذه المشكلة بالطرق الودية، على حين مال صلاح الدين أيضا إلى عقد هذا الصلح لإحساسه بما حل بالناس من الضجر والتعب وما علاهم من الديون[١٥٨].

وكان صلاح الدين قد تمسك في المفاوضات السابقة التى فشلت بضرورة استرداد عسقلان وما والاها من الموانى تجاه مصر مثل غزة والداروم، حتى لا يهدد الصليبيون مصر، وتمسك ريتشارد في المرة السابقة بعدم إعادتها للمسلمين، بل اشترط استرداد كل ما كان لمملكة بيت المقدس قبل موقعة حطين[١٥٩]، لكن ريتشارد لم يشأ هذه المرة أن يتمسك بما سبق أن رفضه صلاح الدين من قبل، فتجاوز

---

(155) Grousset : op. cit. III , p.110

(١٥٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٣٩٩

(١٥٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٨٩٧

(١٥٨) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٢١ ، Stevenson :op. cit. III , P.286

(١٥٩) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٣. Grousset : op. cit. III, p. 83

ريتشارد عن هذا الشرط ووافق على إعادة هذة الموانى للمسلمين[١٦٠]، كما تخلى هذه المرة أيضا عن المطالبة بملكية بيت المقدس والتمس بدلا من ذلك أن تكون له حماية الأماكن المقدسة وأن يكون للمسيحيين حق الحج دون مطالبتهم بأية ضرائب مقابل ذلك، وأن يكون لهم أيضا حرية العبادة والزيارة، فوافق صلاح الدين على ذلك[١٦١]، فتم عقد صلح الرملة في سبتمبر سنة ١١٩٢م على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وتكون عسقلان للمسلمين وإن أصر ريتشارد علي تخريبها[١٦٢]، وتكون الرملة واللد مناصفة بين الصليبيين والمسلمين[١٦٣]، ويكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضرائب مقابل ذلك ويكون أمر هذا الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر[١٦٤] .

وصدق على هذه الوثيقة من الجانب الصليبى هنرى دى شامبنى وصاحب تبنين وباليان صاحب طبرية ومن الجانب الإسلامي الملك العادل أخى صلاح الدين والأفضل والظاهر ولداه، وذلك في يومي ٢، ٣ سبتمبر سنة ١١٩٢م[١٦٥]، وجاء ذلك الصلح خاتمة الحرب الطويلة بين الجانبين، ولهذا فرح به المسلمون والصليبيون على حد سواء، بعد أن ملوا جميعا تلك الحرب، وتعرضوا خلالها لكثير من الويلات، فغشى الناس من الطائفتين من الفرح والسرور " مالا يعلمه إلا الله"[١٦٦]، بعد أن أصبح طريق الحج مفتوحا أمام المسلمين، والطريق

---

(١٦٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٣٢

(١٦١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٩١

(162) Stevenson : op. cit. p. 286, ابن شداد : المصدر السابق ص ٢٣٥

(163) Grousset : op. cit. III, p. 122

(١٦٤) أبو شامة :الروضتين ج٢ص ٢٠٣. ابن واصل :مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٥

(١٦٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٣٥

(١٦٦) ابن شداد : المصدر السابق ص ٢٣٥

إلى بيت المقدس صار مفتوحا أيضا أمام المسيحيين، ولم يعد ثمة ما يعكر الصفو[١٦٧]، فتقدم إلى بيت المقدس جموع من الصليبيين للحج بعد أن حصلوا على إذن من السلطان ونزعوا سلاحهم، أنفذ معهم صلاح الدين من يحفظهم أثناء المسير[١٦٨]. واستجاب صلاح الدين لمطالب بعض رجال الدين من الصليبيين، فقام بتعيين بعض رجال الدين الكاثوليك في الأماكن المقدسة بجانب رجال الدين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة[١٦٩]، وبدأ طريق الحج يفتح أمام المسيحيين وعادت الحياة طبيعية إلى فلسطين .

انتهت بذلك الحملة الصليبية الثالثة وعاد ريتشارد إلى بلاده في أكتوبر سنة ١١٩٢م بعد عقد الصلح[١٧٠]، والواقع إنه لم يقدم إلى الشرق والأراضى المقدسة بعد هذه الحملة ما يضارعها في عدد من شارك فيها من الأمراء، فقد اتحدت أوربا الغربية كلها وأسهمت في هذا المجهود الكبير، غير أن ما حصلت عليه من النتائج كان ضئيلا[١٧١]، فباستثناء ما قامت به الحملة من تقديم العون السريع لصليبى الشام، واسترداد موانى الساحل للمملكة الصليبية مثل عكا وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا فضلا عن صور التى كانت في أيديهم، وكذلك منع صلاح الدين من أن يجنى ثمار انتصاراته في حطين ببقاء ريتشارد في الشرق سنتي ١١٩١، ١١٩٢م باستثناء ذلك، تعتبر هذه الحملة من الوجهة العملية فاشلة[١٧٢]، لأنها لم تستطع أن تحقق

---

(١٦٧) المقريزي : السلوك ج١ ص ١١٠

(168) Runciman : op. cit. III, p. 73, أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ١٩٤

(169) Lane - poole : Sladin , pp. 262 - 3

(170) Grousset : op. cit. III, p. 119

(١٧١) العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ١٠١٣

(١٧٢) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٠٢

أهدافها في استرداد الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين(١٧٣)، واستعادة المملكة بحدودها القديمة وطرد المسلمين من البلاد والقلاع التى احتلوها بعد حطين .

فقد أضحت مملكة بيت المقدس تمثل شريطا صغيرا على ساحل البحر يمتد من يافا إلى صور نحو تسعين ميلا فقط، ولم يتجاوز عرضه عشرة أميال، وفقدت المملكة الكثير من سماتها وتقلصت حدودها(١٧٤)، حتى يمكن تسميتها بمملكة عكا الصليبية، على الرغم من حرصها على ربط نفسها بالتسمية القديمة، وعلى الرغم من أنها فقدت سمات الدولة المنظمة وما اشتهرت به المملكة في عهدها الأول(١٧٥)، وعلى الرغم أيضا من أن أمراء هذه المملكة اتخذوا ألقاب الملوك وتعلقوا بالآمال العريضة(١٧٦)، إلا أنها صارت في واقع الأمر مملكة بحرية بعد أن فقدت داخلية البلاد واقتصر نفوذها على الجهات الساحلية، وإن أفادها ذلك إلى حد ما، لأنها صارت بمأمن من الغارات المفاجئة من الداخل، كما أفادت من حماية القوى البحرية الغربية التى ارتادت أساطيلها البحر المتوسط، وتسابق إلى مساعدتها أساطيل جنوة وبيزا والبندقية(١٧٧)، فصارت أكثر ارتباطا بالغرب الأوربى، وأكثر اعتمادا على أساطيل المدن التجارية الإيطالية التى أملت في أن تصبح المدن الساحلية الصليبية محطات تجارية لها(١٧٨)، ولهذا فقد عاشت المملكة الجديدة نحو قرن آخر من الزمان، ويشير المؤرخون إلى أن ملكها

---

(173) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 311

(174) Runciman : op. cit. III, p. 76

(175) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 312

(176) Grousset : op. cit. III, p. 124

(177) Ibid. p. 124

(178) Heyd : op. cit. I. pp. 350 - 9

الجديد هنرى دى شامبنى سار على المبادىء التى سبق أن وضعها البيت البولونى بيت بلدوين الأول وبلدوين الثانى وفولك الانجوى وعمورى الأول(١٧٩) .

وفاة صلاح الدين وتقسيم الدولة الأيوبية بين ورثته:

على الرغم مما جرى من أحداث في الشرق وما أسفرت عنه الحملة الصليبية الثالثة، فلازال صلاح الدين، بعد أن انتهت الحرب يحكم البلاد الممتدة من أقصى شمال العراق إلى حدود مصر الغربية وليبيا، بل سعى إلى صداقته ومحالفته الأمراء المجاورون مثل ملك الكرج وحاكم أرمينيا وسلطان قونية السلجوقى والامبراطور البيزنطى(١٨٠)، بل إن حرص ريتشارد قبل سفره وخلال المفاوضات لعقد الصلح جعله يعرض استعداد الملك الصليبى مساندة صلاح الدين والمسير بجنوده لمعاضدته إذا طلب صلاح الدين ذلك، ولو كانت الحرب في بلاد الروم أو في كردستان أو العراق(١٨١) .

ويشير المؤرخون إلى أن الأمل راود صلاح الدين في توسيع ملكه وفى مشروعات حربية جديدة - بعد انتهاء أحداث الحملة الصليبية الثالثة - على أن هذا التفكير لم يخرج إلى حيز الوجود إذ لم يشأ صلاح الدين أن ينقض شروط الهدنة مع الصليبيين من ناحية وأراد أن يهىء الفرصة لعساكره ليأخذوا راحة من ناحية أخرى، فأذن لجنده بالعودة إلى بلادهم(١٨٢)، وأعلن عزمه على أداء فريضة الحج وشغل نفسه في الأيام التالية بتعمير بيت المقدس وإعادة تشييد أسوارها

---

(179) Grousset : op. cit. III, p. 125

(180) Lane - poole : Saladin , p. 360

(١٨١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢٨

(١٨٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٠٥

وتحصينها[١٨٣]، لكنه ما لبث أن عدل عن المسير إلى الحج وأرجأ ذلك إلى العام التالي، وقرر المسير إلى دمشق التي غاب عنها نحو أربع سنوات، بعد أن تفقد البلاد التي استردها من الصليبيين وأمر بعمارة ما تهدم منها[١٨٤].

قضى صلاح الدين شهوراً قليلة في دمشق بعد وصوله إليها، لكنه ما لبث أن مرض فيها في أواخر فبراير سنة ١١٩٣م، ولم يطل مرضه سوى إثنى عشر يوما أسلم بعدها الروح في ٤ مارس سنة ١١٩٣م[١٨٥] فكان " يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى " يقول ابن شداد فقد "علمت من نفسي ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس" فقد "شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء عن أن ينظر إلى غيره"[١٨٦] رحل صلاح الدين تاركا دولة واسعة الأطراف وفراغا عظيما لم يكن أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته باستطاعته أن يملأه، وران على البلاد وعلى العالم الاسلامى كله حزن شديد لوفاة هذا المجاهد الكبير، وعم الناس ألم شديد لوفاة هذا العاهل العظيم "وما رأيت ملكا حزن الناس لموته لأنه كان محبوبا"[١٨٧].

حتى المؤرخون الأوربيون أظهروا الأسف على وفاة صلاح الدين وترحموا عليه وأقروا بما كان يتحلى به من سجايا وصفات حميدة، فضلا عن عدله وتسامحه وعطفه على الضعفاء وعزوفه عن سفك الدماء، فقد اشتد تأثره مرة لامرأة من الفرنج افتقدت ابنتها فدمعت

---

(١٨٣) ابن واصل مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٧ – ٤٠٨

(١٨٤) ابن شداد : نفس المصدر السابق ص٢٣٧، Stevenson :op. cit. p.287

(١٨٥) أبو شامة الروضتين ج٢ ص ٢١٣ . Lane poole : op. cit. p. 366

(١٨٦) ابن شداد النوادر السلطانية ص ٢٤٦ – ٢٤٧

(١٨٧) عبد اللطيف البغدادي كتاب الافادة والاعتبار ص ١٠ –١١

عيناه تأثرا لها وحركته مروءته للبحث عن تلك الابنة المفقودة فاشتراها من الذى أسرها وردها على أمها[١٨٨]، فاعترف المؤرخون الأوربيون بتسامحه وعدله وأقروا بأنه كان أعظم شخصية ظهرت في عصر الحروب الصليبية[١٨٩] .

ولقد جاءت وفاة صلاح الدين خسارة كبيرة للجبهة الإسلامية المتحدة، التى أجهد نفسه في إقامتها وتقويتها، وأرهص خلو المسرح من هذه الشخصية الفريدة بحدوث المنازعات بين أفراد البيت الأيوبي لتقسيم التركة في الوقت الذى نهض فيه ملك المملكة الصليبية في عكا بتوحيد قوى الصليبيين في أنطاكية وأرمينيا وقبرص وعكا[١٩٠]، وكان أن حصل الملك الأفضل نور الدين – وهو اكبر أبناء صلاح الدين – على دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وبعض المدن الأخرى، وكان والده قد أوصى له بالسلطنة " واستحضر القضاة وعمل نسخة من يمين مختصرة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته"[١٩١]، فصار بذلك صاحب السلطة العليا في الدولة كلها[١٩٢] .

على حين احتفظ الابن الثانى – وهو العزيز عثمان – بمصر، ولكنه كان يتطلع أيضا إلى بلاد الشام، فانتهز فرصة كراهية الناس لأخيه وفرار مستشاريه إلى مصر يستنجدون به ضد الأفضل، فخرج في صيف سنة ١١٩٤م، وشرع في محاصرة دمشق الأمر الذى أرغم الأفضل على الاستنجاد بعمه الملك العادل[١٩٣]، الذى لم يتوان عن

---

(١٨٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٣

(189) Runciman : op. cit. III, pp. 77 - 8

(190) Stevenson : op. cit. p. 290

(١٩١) ابن شداد : المصدر السابق ص ٢٤٤

(١٩٢) ابن الأثير: الكامل ج٩ ص ٢٢٦ – ٢٢٧ (ط التجارية)

(١٩٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢١

الحضور، حيث اجتمع مع ابن أخيه العزيز عثمان واستطاع أن يقنعه بالعودة إلى مصر، حتى لا يتسبب في خراب البلاد وبث الفرقة في البيت الأيوبي، في الوقت الذى كان فيه الفرنج يرقبون الأوضاع ويتحفزون لانتهاز الفرصة[١٩٤]، وكان ذلك بحضور عدد من أمراء البيت الأيوبى منهم الظاهر غازى صاحب حلب وكذلك أمير حماة وصاحب حمص وأمير بعلبك من الأمراء الأيوبيين[١٩٥]، غير أن هذه الأحداث أعقبتها تسوية جديدة انتزع فيها بيت المقدس وما جاورها من الأفضل وأعطيت للعزيز عثمان، في حين فاز الظاهر غازى بجبلة واللاذقية لتضاف إلى أملاكه[١٩٦].

وأخذ الابن الثالث لصلاح الدين وهو الظاهر غازى حلب وجميع أعمالها وشمال الشام[١٩٧] في البداية ثم أضيفت إلى أملاكه جبلة واللاذقية في التسوية الجديدة - كما سبق أن أشرنا - وأما الملك العادل سيف الدين أبو بكر - أخو صلاح الدين - وأقوى رجل في البيت الأيوبى، فكان قد نال من هذه التركة إقطاعا ثانويا قوامه الكرك والأردن والجزيرة وديار بكر وكلها لا تتناسب مع أهميته التى ستزداد وضوحا بمرور الأيام[١٩٨] ، كما وزعت الاقطاعات الثانوية على بقية أبناء واخوة صلاح الدين.

وعندما اندلع الصراع من جديد بين الإخوة - أبناء صلاح الدين- في بلاد الشام سنة ١١٩٦م وزج العزيز عثمان، صاحب مصر بنفسه في هذا الصراع مرة ثانية، كان العادل يخطط للفوز بدمشق

---

(١٩٤) أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٢١

(١٩٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج٣ ص٢١، Runciman :op. cit. III, p. 80

(١٩٦) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٢٧

(١٩٧) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ص ٣٥٨ - ٣٥٩

(١٩٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩

وأواسط بلاد الشام، فاتفق مع العزيز على غزو الأفضل بدمشق معا، واستطاعا فعلا دخولها في يسر وسهولة في يوليو من نفس العام[١٩٩]، لسوء سيرة الأفضل فيها، وعندئذ حل الملك العادل محل الأفضل في حكمها، وغدا له أواسط بلاد الشام، على حين قنع العزيز عثمان من الغنيمة بلقب السلطنة وظلت بيده مصر وبيت المقدس، ونفى الأفضل إلى مدينة صرخد في حوران ليقيم بها، وصار الملك العادل أقوى رجل في البيت الأيوبى[٢٠٠] .

ثم انتهز الملك العادل فرصة الاضطراب الذى أصاب الصليبيين، وقام بمهاجمة مدينة يافا واستولى عليها سنة ١١٩٧م[٢٠١]، غير أن الصليبيين الذين وحدوا بين مملكة قبرس والمملكة الصليبية في عكا بعد وفاة هنرى دى شامبنى في سبتمبر سنة ١١٩٧م، استطاعوا أن يستولوا على بيروت من أيدى المسلمين في نفس العام[٢٠٢]، بعد أن جرى تزويج ايزابيل للمرة الرابعة من عمورى لوزجنان ملك قبرس فتوحد تاج قبرس وتاج المملكة الصليبية ومكن ذلك الصليبيين من احكام سيطرتهم على ساحل بلاد الشام فيما بين طرابلس وعكا[٢٠٣]، لكن ما لبث أن عقد صلح بين الملك العادل والصليبيين في يوليو سنة ١١٩٨م كان أمده ثلاث سنوات تفرغ خلالها الملك العادل لمحاولة توحيد الدولة الأيوبية من جديد .

ولقد نجح الملك العادل فعلا في توحيد الدولة الأيوبية بعد أن توفى الملك العزيز عثمان بمصر في أواخر سنة ١١٩٨م. وكان ابنه

---

(١٩٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٦١

(٢٠٠) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٣١، Runciman : op. cit. III. p. 81

(٢٠١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٧٥

(٢٠٢) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٣٨

(203) Grousset : op. cit. III. p. 157

صغيرا لم يتجاوز العاشرة من عمره، فسار الملك العادل إلى مصر واستولى عليها في فبراير سنة ١٢٠٠م، على الرغم من محاولة الإخوة أبناء صلاح الدين منعه عنها[٢٠٤]، وأصبح الملك العادل سلطان مصر وأواسط بلاد الشام اعتبارا من فبراير سنة ١٢٠٠م وغدا بيده مصر وبيت المقدس ودمشق فضلا عن أملاكه في الجزيرة في حين قبع كل من الملك الظاهر غازى في حلب وأعطى الافضل اقطاع سميساط فقط[٢٠٥]، وأصبح الاخوان تابعين لعمهما الملك العادل وبهذا تم إعادة توحيد الجبهة الإسلامية وبعثها من جديد على يد الملك العادل سيف الدين أبى بكر .

---

(٢٠٤) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٤٩

(٢٠٥) المقريزي : السلوك ج١ ص ١٥٩

الفصل الحادي عشر

الحملة الصليبية الرابعة

الفصل الحادي عشر
الحملة الصليبية الرابعة

قبل أن نعرض لهذه الحملة الصليبية، يجب أن نسرع إلى القول بأن هذه الحملة كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية، بل إنها كانت - على حد ما ذهب إليه أحد المؤرخين المحدثين - " نذيرا بفشل الحركة الصليبية بأكملها "[١]، فإذا كان الهدف من الحملات السابقة هو الوصول إلى بلاد الشام ومحاربة المسلمين للهيمنة على الأراضي المقدسة بفلسطين وربطها بالغرب الأوربي وإعلاء شأن المسيحية بالشرق[٢]، فإن هذه الحملة قد خرجت على كل هذه الأهداف، ولم تلتزم بشيء من فلسفة الحركة الصليبية أو مخططها، بل أساءت إلى الحركة الصليبية كفكرة ومبدأ والتزام، وأيدت رأى القائلين بأن الحركة الصليبية لم تكن في جوهرها حربا دينية[٣]، بل لعبت أسباب أخرى كثيرة في إخراجها إلى حيز الوجود وتوجيه هذه الحركة وجهة خاصة، وأهمها الأسباب الاقتصادية والمصالح التجارية التي تجلت في هذه الحملة بالذات فجعلتها تنحرف عن مسارها وتتجه وجهة أخرى وتسعى إلى تحقيق هدف آخر جديد[٤].

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٤٠.

Grousset : op. cit. III, P. 175

(2) Michaud : Hist. de Croisades, I, pp. 92 - 4

(٣) جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية ص ١٨٩

(4) Vasiliev : op. cit. 2 , pp. 468 - 9,

Ostrogorsky : op. cit. pp. 367 - 9

أى أن هذه الحملة أخرجتها المطامع الشخصية والمصالح الخاصة عن طريقها المرسوم، ولم تصبح أكثر من هجوم وضيع على مدينة عريقة، على حد قول مؤرخ آخر محدث[٥]، ومنذ ذلك الوقت وعلى مدى نحو ستين سنة تالية وربما أكثر جرى تغير في روح الحروب الصليبية وروح المغامرة اللاتينية، والروح الحماسية من أجل الدين وهى التي اعتمدت عليها الحركة الصليبية[٦].

ولقد تضافرت عوامل مختلفة لجعل هذه الحملة تنحرف عن مسارها وتتجه وجهة جديدة، فقد اعتلى كرسى البابوية سنة ١١٩٨م رجل من أعظم بابوات العصور الوسطى، هو البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م)، الذى جد في منح البابوية أسمى مكانة، ورفع مقامها عليا وفرض نفوذها على أنحاء العالم المسيحي شرقا وغربا[٧]، كما تطلع هذا البابا إلى اغتصاب بيت المقدس مرة أخرى من المسلمين، وإزالة آثار حروب صلاح الدين في بلاد الشام وفلسطين، ولهذا فقد بادر هذا البابا بمجرد تنصيبه بالدعوة للحملة الصليبية الرابعة[٨].

فاستجاب لهذه الدعوة عدد من بارونات الغرب الأوربى من الفرنسيين والفلمنكيين ومعهم أتباعهم من الفرسان والمحاربين منهم ثيبوت **Thibout** كونت شامبنى وبلدوين التاسع كونت فلاندرز وبصحبته أخيه هنرى، ولويس كونت بلوا، وبونيفيس دى مونتفرات، وغيرهم من الأمراء[٩]، من فرنسا ومن الأراضي المنخفضة وإن كان

---

(٥) عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب ص ٧٠
(ترجمة فيليب صابر ومراجعة أحمد خاكي)

(6) Stevenson : op. cit. p. 290

(7) Runciman : op. cit. III, p. 107

(٨) عاشور : نفس المرجع السابق ج٢ ص ٩٢٩

(٩) روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ص٣٦(ترجمة د.حسن حبشي)

أغلبهم فرنسيين خاصة من شامبنى وبرجنديا وبقية أنحاء فرنسا، وتولى قيادة الحملة ثيبوت كونت شامبنى لفترة[١٠].

ولم يشترك في هذه الحملة أحد من الملوك أو الأباطرة بسبب انشغال ملك فرنسا فيليب أوغسطس وملك إنجلترا يوحنا الثانى بمشاكلهما الداخلية من ناحية والصراع الذى اندلع بينهما من ناحية أخرى، فضلا عن انشغال إمبراطور ألمانيا بالنزاع حول العرش الألماني ورغبته في إقرار الأمور في ألمانيا وقهر منافسيه[١١]. ولهذا فقد شابهت هذه الحملة، الحملة الأولى من حيث عدم اشتراك ملك أو إمبراطور فيها، وإنما نهض بذلك لفيف من الأمراء، ولهذا كان متوقعا لها أن تحرز نجاحا مثلما أحرزت الحملة الأولى، نظرا لأن الحملات التى قادها الملوك والأباطرة لم تحقق نجاحا، ولم توفق في تحقيق أهداف الصليبيين[١٢].

غير أن هذه الحملة خيبت آمال الصليبيين في الشرق وفي الغرب على حد سواء، لأنها اتجهت وجهة مختلفة تماما لما يتوقعه الناس، وجهة لم تكن واردة على أذهان الصليبيين، فأضافت هذه الحملة إلى فشل الحملتين السابقتين، وأسهمت في إضعاف روح الحروب الصليبية وخذلت معظم الصليبيين[١٣]. فقد رأى فريق النبلاء المشتركين في هذه الحملة والمتحمسين لتحقيق أهدافها، ضرورة الاتجاه مباشرة إلى بلاد

---

(10) Villehardouin : La Conqueste de Constantinople par les Barons Francias associez aux Venitians L'AN 1204. (Enq. trans. by Marzials, London 1965), pp. 2 - 3

Runciman :op. cit. III,p.110 ,اسمت غنيم :الحملة الصليبية الرابعة ص٦٠

(11) Fliche : Hist. de l'Eglise, pp. 46 - 50

(12) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 311

(13) Stevenson : op. cit. p. 290

الشام للاستيلاء على بيت المقدس من أيدى المسلمين وتحقيق ما عجزت الحملة الثالثة عن تحقيقه، وتحمس بعض هؤلاء الأمراء للإبحار توا إلى عكا[١٤]، إلا أن فريقا آخر من الأمراء والقادة رأى أنه من الأوفق توجيه الضربة إلى مصر، باعتبارها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين[١٥] والبلد الذى اضطلع بالعبء الأكبر في الجهاد الإسلامي والتصدى للصليبيين، والبلد الذى أمد الأيوبيين بأهم مواردهم البشرية والمادية لمحاربة الصليبيين[١٦]، فإذا فرغوا من مصر فإنهم يكونون قد ضمنوا الاستيلاء على بيت المقدس وأمنوا الجبهة الجنوبية لفلسطين، فإذا تحولوا إلى بيت المقدس فسوف تدين لهم إما بقليل من الجهد الحربى أو بطريق المساومة، ولهذا استقر رأى الصليبيين على توجيه هذه الحملة إلى مصر[١٧].

وكان على الصليبيين أن يدبروا أمر نقلهم إلى مصر والسفن التى يمكن أن تنهض بهذه المهمة فاتجهوا إلى البندقية ودوقها حينئذ إنريكو داندولو Enerico Dandolo [١٨]، وعقدوا معها اتفاقا يقضى بنقلهم إلى الشواطىء المصرية على أن يدفعوا لها مبلغ خمسة وثمانين ألف مارك مقابل هذا النقل إلى مصر، وأخذوا فعلا يحتشدون في البندقية في صيف ١٢٠٢م[١٩]، ولم تكن البندقية تهتم حينئذ سوى بمصالحها الاقتصادية والمادية مع علمها بعجز الصليبيين عن دفع

---

(١٤) عزيز سوريال عطية: المرجع السابق ص ٧٠.
Runciman : op. cit. III, p. 113

(١٥) روبرت كلاري : المصدر السابق ص ٣٩

(16) Grousset : op. cit. III, p. 171

(١٧) كلاري : المصدر السابق نفسه ص ٣٩، Grousset : op. cit. III, p. 171

(18) Stevenson : op. cit. p. 296

(19) Runciman : op. cit. III, P. 114

المبلغ المتفق عليه خاصة وقد تبين لها في نهاية الأمر أن الصليبيين لازالوا مدينين لها بنحو خمسين ألف مارك لم يستطيعوا سدادها[٢٠]، ولهذا حاولت أن تحصل على باقى ثمن نقل هذه الجموع إلى مصر، فاقترحت عليهم أن يقوموا بمساعدتها في الهجوم على مدينة زارا، التى كانت قبلا تابعة للبندقية ثم انتزعها منهم ملك هنغاريا[٢١]، والتى تقع على الشاطىء الآخر من البحر الأدرياتى، فإذا تم الاستيلاء عليها يجرى تسليمها للبنادقة ليكون ذلك هو الجزء الباقى من ثمن نقلهم إلى مصر[٢٢].

ولم يجد الصليبيون في ذلك غضاضة، طالما أنهم سوف يحققون في النهاية غرضهم بالوصول إلى الشواطىء المصرية، فضلا عن أن دوق البندقية داندولو أقنعهم بأنهم لن يستطيعوا الذهاب إلى الأراضى المقدسة خلال فصل الشتاء، وأنهم وحدهم المسئولون عن هذا التأخير، " لقد صرنا الآن في فصل الشتاء ولا نستطيع ركوب البحر، وليس في قدرة أحد أن يلومني على ذلك، فقد كنت أحب أن أركبكم إياه منذ فترة لولاكم أنتم "[٢٣]، بالاضافة إلى إقناعه إياهم بأن الاستيلاء على زارا سيوفر لهم الكثير من المؤن والزاد التى يحتاجون إليها خلال رحلتهم إلى الشرق " لأن زارا مدينة جميلة جدا وحافلة بكل ما هو طيب "[٢٤]، ولهذا نجح داندولو في إقناعهم بمشروعه فنهضوا معه لمهاجمة المدينة المقصودة في نوفمبر سنة ١٢٠٢م، على الرغم من أنها كانت بلدا مسيحيا، مما يوضح بداية انحراف الحملة عن هدفها

---

(٢٠) روبرت كلاري : فتح القسطنطينية ص ٤٤

(٢١) اسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ص ٦٩

(22) Vasiliev : op. cit. 2, p. 454, Ostrogorsky: op. cit. p. 368

(٢٣) كلاري : المصدر السابق ص ٤٦

(٢٤) كلاري : نفس المصدر السابق ص ٤٦

الحقيقي وبداية تغير في الفكر الصليبي وتباعد عن أهداف الصليبيين[٢٥] ، الأمر الذى استاء له البابا كثيرا ، وجعله يصدر قرار الحرمان على البنادقة ، باعتبارهم المسئولين عن انحراف هذه الحملة عن هدفها ومهاجمتها بلدا مسيحيا آمنا[٢٦] . غير أن ذلك لم يكن له تأثير كبير على اتجاه البنادقة والصليبيين ، فقد جرى نهب المدينة بعد اقتحامها ، واتفق الطرفان على اقتسام الغنيمة وبعدها بدأ الصليبيون يتعجلون البنادقة للابحار إلى مصر[٢٧] .

غير أن الأمور مالبثت أن تبدلت ، وجرت أحداث كان لها ضلع في استمرار انحراف هذه الحملة عن مسارها ومقصدها مرة أخرى[٢٨] ، فقد نشبت ثورة في القسطنطينية أطاحت بالامبراطور اسحق الثانى أنجيلوس ، وألجأت ابنه ألكسيوس إلى الهرب إلى الغرب الأوربى طلبا للمساعدة من البابا ومن جموع الصليبيين ومن زوج أخته فيليب السوابى ملك ألمانيا الذى كان متزوجا من أيرين ابنة اسحق أنجيلوس ، والذى كان يحاول جاهدا أن يتبع نفس السياسة التى كان يتبعها الامبراطور هنرى السادس والذى أظهر رغبة في معاونة صهره الأمير ألكسيوس[٢٩] ، لاستعادة العرش من عمه الذى لم يكتف باغتصاب عرش والد هذا الأمير وانما أمر أيضا بسمل عينيه[٣٠] .

وفي سبيل الحصول على المساعدة تعهد ألكسيوس للبابا أنه لو استرد عرش والده فسوف يخضع الكنيسة الشرقية لسلطة البابوية ،

---

(25) Ostogorsky : op. cit. p. 367 - 9

(26) Bréhier : L' Eglise et l'Orient , pp. 156 - 7

(27) Runciman : op. cit. III, p. 115

(28) Stevenson : op. cit. p. 296

(29) Ostrogorsky : op. cit. p. 369

(30) Runciman : op. cit. p. 112

لتأكده من أن هذا كان دائما حلم البابوية وأملها في زعامة الكنيستين الشرقية والغربية معا، وإخضاع العالم المسيحى كله شرقا وغربا لزعامتها الدينية(٣١) ، ومن ناحية أخرى أغرى الصليبيين بمساعدتهم في حملتهم على مصر، إذا نجحوا في إعادة عرش والده بأن يدفع لهم مائتى ألف مارك ويمون أسطولهم لمدة عام على نفقته الخاصة، وأنه سوف يرافقهم على رأس قوات مكونة من نحو عشرة آلاف رجل وينفق عليهم من ماله الخاص(٣٢) ، كما وعد البنادقة بدفع مبالغ مالية كبيرة لهم .

ولم تتردد البابوية في قبول هذا العرض، على حين وجدت البندقية في هذا العرض فرصة لتحقيق مكاسب كثيرة لها وفوائد متعددة(٣٣) ، فضلا عن إخراجها من مأزق كبير كانت دائمة التفكير في الخلاص منه منذ موافقتها على نقل الصليبيين إلى مصر . أما فيما يتعلق بالفوائد التى يمكن أن تجنيها البندقية من هذا المشروع، فقد رأت البندقية أن غزو القسطنطينية فرصة لتحصيل مكاسب مادية جديدة في تلك البقعة الهامة والامبراطورية الكبيرة التى فاز بالامتيازات التجارية فيها، أعداؤهم الجنوية(٣٤) والتى مالت كثيرا إلى حرمانهم من هذه الامتيازات ومنحتها لمنافسيهم الجنوية منذ عهد الامبراطور حنا الثانى كومنين. بل إن هذه المعاناة استمرت حتى الفترة الأخيرة. فتغلب نفوذ المدن الايطالية الأخرى في القسطنطينية خاصة جنوة وبيزا

---

(31) Bréhier : Le Croisade , p. 155

(٣٢) روبرت كلاري . فتح القسطنطينية ص ٦٧.

(33) Vasiliev : op. cit. 2, p. 452 - 3

(34) Bréhier: Vie et Mort de Byzance. p 366.

عاشور الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٣٣

على عهد الامبراطورين مانويل كومنين وألكسيوس الثالث[٣٥] ، فلا أقل من انتهاز الفرصة للثأر من الامبراطورية التى حرمتهم مرارا من الامتيازات، واضطرتهم أحيانا للحرب لضمان مصالحهم الاقتصادية ومكاسبهم التجارية، التى كانت الهدف الرئيسى لهم والذى تتبلور حولها سياساتهم[٣٦] .

أما فيما يتعلق بالمأزق الذى وجدت البندقية نفسها فيه منذ موافقتها على نقل الصليبيين إلى مصر، ذلك أنها كانت على علاقة طيبة بالملك العادل الأيوبى، الذى عقدت معه اتفاقية سنة ١٢٠٢م أى في نفس الوقت تقريبا الذى كانت تساوم فيه الصليبيين على أجر نقلهم إلى مصر، تعهدت في تلك الاتفاقية بعدم مساعدة أى مشروع صليبى بهدف الاضرار بمصر[٣٧] ، وفازت مقابل ذلك بامتيازات تجارية كثيرة وجرى تخفيض الضرائب والمكوس التى كان البنادقة مضطرين لدفعها للسلطات المصرية، وسمح لهم الملك العادل بإقامة فندق آخر جديد في الاسكندرية، فحققت البندقية من وراء ذلك مكاسب عظيمة[٣٨] ، ولهذا فقد وجدت البندقية نفسها في مأزق حين وافقت على نقل الصليبيين إلى مصر، إذ لم تكن على استعداد بعد ذلك كله لمعادات الملك العادل الأيوبى بحمل الصليبيين إلى مصر بعد أن أصبح لها مصالح اقتصادية واسعة في مصر. وبعد أن جنى البنادقة في مصر كثيرا من الأرباح والفوائد ولهذا لم يكن ثمة مطلب ليلقى الترحيب من دوج البندقية أكثر من هذا المطلب على حد قول أحد المؤرخين المحدثين[٣٩]

---

(٣٥) اسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ص ٦٣ – ٦٤

(36) Camb. Med. Hist. Vol. 5, 329, Vasiliev: op. cit. 2, p. 458

(37) Wiet : L'Egypte Arabe , p. 343

(38) Heyd : op. cit. I, pp. 403 - 4

(39) Ostrogorsky : op. cit. p. 369

ولهذا خطب دوج البندقية في رعاياه قائلا " أيها السادة لقد تهيأت لنا خير حجة للذهاب إلى القسطنطينية وهي وجود وريثها الشرعى معنا"[٤٠] .

هذا من جهة البندقية أما من جهة الصليبيين فإنهم لم ينسوا قط موقف بيزنطة من الحملة الصليبية الأولى، ومن الحملات التى تليها، بل أنهم حمّلوا الامبراطورية البيزنطية نتائج فشل تلك الحملات في تحقيق أهدافها، وما لاقاه الصليبيون من متاعب في طريقهم إلى بلاد الشام، فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما حدث من اتهام بيزنطة بأنها كانت وراء كل عقبة صادفت الجيوش الصليبية في طريقها إلى الشرق[٤١] . وما كان من نفور بين الكنيستين الغربية والشرقية، ورغبة البابا أنوسنت الثالث المحمومة في تحقيق وحدة الكنيسة وسيادة البابوية العالمية، وإخضاع العالم المسيحى كله شرقا وغربا لنفوذه، تأكدنا في النهاية أن فكرة اتجاه الصليبيين نحو القسطنطينية بدلا من اتجاهها نحو مصر قد قوبلت بترحيب من البابوية ومن البنادقة ومن الصليبيين ومن الرأى العام في الغرب الأوربى أيضا، ولم يكن ثمة ما يمنع الصليبيين والبنادقة من الاتجاه توا إلى القسطنطينية[٤٢] .

استيلاء اللاتين على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م:

كان الجو مهيأ إذن لانحراف الحملة الصليبية الرابعة عن أهدافها الأساسية مرة أخرى. فبعد أن قضى الصليبيون والبنادقة الشتاء في زارا، بدأوا في ربيع سنة ١٢٠٣م التحرك إلى جزيرة كورفو ثم وصل إليهم الأمير ألكسيوس أنجيلوس لمصاحبتهم إلى القسطنطينية،

(٤٠) روبرت كلاري فتح القسطنطينية ص ٦٧

(41) Runcima op. cit. III. p 116

(42) Camb Med Hist. Vol 5 p 411

فغادروا الجزيرة في ٤ مايو سنة ١٢٠٣م، إلى جزيرة أندروس ثم إلى أبيدوس، ثم وصلوا في النهاية إلى مشارف القسطنطينية في يونيو سنة ١٢٠٣م، ثم فرضوا الحصار البحرى على القسطنطينية في أواخر نفس الشهر[٤٣] . وهكذا فبدلا من أن تتجه الحملة إلى مصر أو حتى إلى بلاد الشام، إذا بها تتجه إلى القسطنطينية .

وبعد محادثات ومفاوضات قليلة مع ممثل الإمبراطور مغتصب العرش البيزنطى لم تسفر عن شيء، اضطر الصليبيون إلى الهجوم على المدينة، فقطعوا السلسلة الحديدية الضخمة، التى تمنع دخول السفن إلى الميناء[٤٤] ، والتى ثبت أحد طرفيها في داخل المدينة والطرف الآخر عند برج غلاطية المنيع[٤٥] ، فأصبحوا داخل الميناء، ومن ثم شرعوا في مهاجمة المدينة برا وبحرا في وقت واحد، فاشتبكوا في منتصف يوليو سنة ١٢٠٣م في معركة ضارية مع حامية المدينة اسفرت عن استيلاء الصليبيين على كثير من أبراج المدينة[٤٦] ، ثم أدرك الامبراطور المغتصب بعد معارك أخرى عدم جدوى المقاومة فهرب ليلا مع عدد من أتباعه حاملا الكنوز الامبراطورية والتاج الامبراطورى المرصع بالجواهر[٤٧] .

عندئذ سارع سكان المدينة إلى إخراج الإمبراطور السابق إسحق الثانى أنجيلوس من سجنه وأجلسوه على العرش، فبادر بالمصادقة على الاتفاقية التى عقدها ابنه ألكسيوس مع الصليبيين رغم إجحافها،

---

(43) Villehardouin : op. cit. pp. 29 - 33,

اسمت غنيم : المرجع السابق ص ٨٢

(44) Runciman : op. cit. III, p. 118

(٤٥) روبرت كلاري : فتح القسطنطينية ص ٨١

(٤٦) اسمت غنيم نفسه ص ٩١ – ٩٢

(47) Ostrogorsky : op. cit. p. 369

فسمح الصليبيون لابنه ألكسيوس بالدخول إلى المدينة[٤٨] ، ثم ما لبث أن جرى تتويج الأمير ألكسيوس في أول أغسطس سنة ١٢٠٣م في كنيسة أيا صوفيا إمبراطور مشاركا لوالده في الحكم، باسم ألكسيوس الرابع[٤٩] ، وكان أول عمل قام به أن اجتمع مع زعماء الصليبيين والبنادقة وطلب منهم مهلة إلى شهر مارس سنة ١٢٠٤م لتدبير ما اتفق عليه من مبالغ والتزامات لمنحه فرصة ليوفى بما وعد به، فوافق الصليبيون على ذلك[٥٠] .

غير أنه جرت خلال هذه الفترة الممنوحة ما أساء إلى العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين، فقد اندلعت بعض المشاحنات بين سكان القسطنطينية البيزنطيين وبين اللاتين المقيمين بها، واندلعت الحرائق في بعض جهات المدينة، الأمر الذى جعل الامبراطور الجديد ألكسيوس الرابع يغير معاملته للاتين بل بدأ يجافيهم، فرد الصليبيون على ذلك بطلب الاسراع في تسديد ما عليه من التزامات لهم، وهددوه بأنهم سيحصلون على حقوقهم بالقوة " وسيستولون على جزء من ممتلكاته يفى بأجرهم "[٥١] ، فأضاف هذا إلى سوء العلاقات بين الجانبين، فاستقر رأى الامبراطور على أن يغلظ لهم في القول، فبعث إليهم يخبرهم بأنه " لن يدفع لهم شيئا أكثر مما دفعه ... وأنه لا يخاف منهم ... بل أمرهم بالرحيل والجلاء عن أرضه "[٥٢] ، وشرع في تقوية وسائل الدفاع عن عاصمته وزاد رجاله في ارتفاع أسوارها وأبراجها

---

(٤٨) روبرت كلاري : نفس المصدر ص ٩١

(49) Runciman : op. cit. III, p. 119

(50) Villehardouin : op. cit. pp. 45 - 50 ,

اسمت غنيم : نفس المرجع ص ٩٣

(٥١) روبرت كلاري : المصدر السابق ص ٩٨

(٥٢) روبرت كلاري : نفسه ص ٩٨. Ostrogorsky : op. cit. pp. 369-70

أكثر مما كانت عليه "حتى لم يعودوا يخافون من سلالم سفن البنادقة"، بل إنهم أشعلوا النيران في بعض سفن راسية في الميناء اتضح أنها سفينة تجارية تابعة لبيزا، ولم يصب الأسطول اللاتينى بسوء[٥٣].

وخلال هذه الأحداث نجح الصليبيون في دفع أحد الطامعين في العرش للقبض على الامبراطور ألكسيوس الرابع ووالده إسحق الثاني، وجرى التخلص منهما وتنصيب هذا الطامع إمبراطوراً في القسطنطينية[٥٤]، ثم عقد الصليبيون والبنادقة مجلسا في أواخر مارس سنة ١٢٠٤م اتفقوا خلاله على الالتجاء إلى القوة، بعد أن تبين لهم صعوبة تحصيل حقوقهم التى اتفقوا مع الامبراطور السابق على تحصيلها، كما اتفقوا على أنه في حالة سقوط المدينة يقسم كل ما يحصلون عليه مناصفة بين طرفى الغزو، كما جرى الاتفاق على أمور أخرى تخص حكم المدينة[٥٥].

وأخيرا نجح الصليبيون والبنادقة في اقتحام القسطنطينية في ١٢ ابريل سنة ١٢٠٤م في يسر وسهولة نظرا لما سبق هذا الاقتحام من أحداث أدت إلى ضعف واضمحلال المدينة واضطراب أمورها، الأمر الذى سهل للصليبيين والبنادقة اقتحامها[٥٦]، وما أن دخل الصليبيون القسطنطينية حتى اندفعوا في جنون يذرعون شوارعها وطرقاتها يقتلون من صادفهم من النساء والأطفال والرجال، حتى غدا من الصعوبة بمكان حصر عدد من لقى حتفه في هذه المذبحة المروعة التى استمرت لثلاثة أيام[٥٧]، ثم بادروا بنهب جميع ما فيها من

---

(53) Villehardouin : op. cit. p. 54, اسمت غنيم : المرجع السابق ص ٩٦

(54) Runciman : op. cit. III, P. 121,Ostrogorsky:op. cit. p.370

(٥٥) إسمت غنيم : نفسه ص ٩٦

(٥٦) عزيز سوريال عطية :" المرجع السابق ص ٧١.

Ostrogorsky : op. cit. p. 370

(57) Vasiliev : op. cit. 2, p. 461

تحف وكنوز وكل ما له قيمة مادية أو فنية أو أثرية من تحف القصور والكنائس والدور التى ورثها البيزنطيون عن اليونان القدماء، سرقوا بعضها وأتلفوا بعضها الآخر أو دمروه[٥٨] ، فكتب فيللهاردوين شاهد العيان الفرنسى المعاصر قائلا " لم يحدث مثل هذا النهب والسرقة في أية مدينة منذ بدء الخليقة "[٥٩] .

فقد أفرغ الصليبيون حصيلة هائلة من الكراهية والبغضاء لبيزنطة ربما اختزنوها منذ أجيال طويلة، فأخرجهم ذلك عن طورهم وعما كان مألوفا في مثل هذه الحالات[٦٠] ، فقد أشعلوا الحرائق في بعض أحياء المدينة فاحترقت كثير من منازلها ودورها وقصورها وحتى كنائسها وأديرتها لم تنج من هذا التدمير، فقد احترقت أو لوثت ولطخت بسخام النيران والحرائق، بعد أن أفرغت من كنوزها[٦١] ، واقتحم الغزاة كنيسة أيا صوفيا وهم سكارى فمزقوا ستائرها وبسطها وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الأيقونات الفنية النادرة، وسرقوا المخطوطات القديمة، والغريب أن الصليبيين باعوا بعض هذه المنهوبات البيزنطية للمسلمين في بلاد الشام ومصر[٦٢] ، من ذلك مخطوطات أرسطو وديموثينوس بأرخص الأسعار، فضلا عما قام به جنود الصليب علانية من اغتصاب النساء والبنات حتى الراهبات العذارى[٦٣] ، فقال نقتاس خونياتس مخاطبا القسطنطينية: " يا قرة

---

(58) Runciman : op. cit. III, p. 123

(٥٩) عزيز سوريال عطية : نفسه ص ٧١

(60) Vasiliev : op. cit. 2, p. 461

(61) The city of Byzantium, Annals of Niketas Choniates, p. 586 (trans. by Harry J. Magoulias) , p. 322

(٦٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٥٢ ، عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٣٦

(٦٣) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧١

عين المدن جميعا .. يا محط أنظار العالم ... يا قائدة الايمان وحامية التعليم، يا مقر كل شيء حسن، لقد شربت كأس غضب الإله حتى الثمالة "[٦٤] . وذكر نقتاس خونياتس هذا أيضا أن المسلمين كانوا أكثر رحمة على المسيحيين حين استولوا على بيت المقدس وأكثر عطفا من أولئك الذين ادعو أنهم جنود المسيح حين دخلوا القسطنطينية، معنى ذلك أنه كان يتمنى لو أن القسطنطينية سقطت في أيدى المسلمين بدلا من سقوطها في أيدى هؤلاء البرابرة المتعسفين[٦٥] .

غير أن النزاع مالبث أن دب بين الصليبيين من جهة والبنادقة من جهة أخرى، بعد أن فرغ الطرفان من النهب والسلب والقتل والعبث بدور العبادة والأديرة، إذ كان على الغزاة أن يختاروا إمبراطورا يجلس على عرش القسطنطينية وبطريرقا يرأس كنيستها[٦٦] ، وكانوا قد اتفقوا تحت أسوار المدينة في مارس سنة ١٢٠٤م على أن يقيموا نظاما سياسيا جديدا في القسطنطينية بعد القضاء على من كان يجلس على عرشها[٦٧] . وفي جو من الكراهية والتباغض بين عنصرى الغزو الصليبيين والبنادقة بدأ التنافس على منصب الامبراطور يشتد بين الماركيز بونيفيس دى مونتفرات وبين الكونت بلدوين التاسع كونت فلاندرز، وأخيرا فاز الأخير بهذا المنصب بسبب ميل دوق البندقية إلى جانبه لضعف شخصيته وسهولة التأثير عليه، ولأنه كان يعامل داندولو باحترام شديد وبطريقة كما لو كان والده، فضلا عن صغر سنه وقلة خبرته إذ كان في الثانية والثلاثين من عمره[٦٨] ، هذا كله من

---

(64) Nikrtas Choniates: op. cit. pp. 576- 8, trans. p. 317

(65) Ibid. p. 585, trans. p. 322

(66) Runciman : op. cit. III, p. 124

(67) Ostrogorsky : op. cit. p. 375

(68) Niketas Choniates : op. cit. p. 597, trans. p. 328

ناحية، ومن ناحية أخرى لأن بونيفيس دى مونتفرات كان صديقا قديما لجنوة[٦٩]، ولهذا جرى اختيار بلدوين التاسع امبراطوراً في ٩ مايو سنة ١٢٠٤م، ثم جرى تتويجه بعد أيام في كنيسة أيا صوفيا، بينما اختير رجل دين من البنادقة لمنصب البطريرك كما كانت تنص الاتفاقية إذ كانوا قد أجمعوا " على أنه إذا وقع الاختيار على أحد من الفرنسيين ليكون امبراطورا، كان البطريرك من البنادقة "[٧٠]، فاعتلى توماس موردسيني بطريرقا كاثوليكيا على كنيسة القسطنطينية لأول مرة في التاريخ[٧١].

وهكذا قدر لهذه المدينة العريقة والحصن المنيع الذى ظل يحمل لواء المسيحية أكثر من تسعة قرون، ويحول بين المسلمين وبين النفاذ إلى أوربا، أن تتجرع مرارة الهزيمة والقهر والاحتلال الغربى البغيض، فضلا عن تسلط الكاثوليك على الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، بعد أن تغلب على بيزنطة حفنة من المغامرين وطالبى المنافع المادية والمكاسب الاقتصادية وغير ذلك من الأمور الدنيوية[٧٢].

وكان قد جرى الاتفاق بين الغزاة على أن يؤول ربع المدينة لمن يصبح إمبراطورا، ملكا خالصا له لا يشاركه فيه أحد. أما الثلاثة أرباع الباقية فتقسم نصفين أحدهما للبنادقة والآخر للصليبيين، وأن يعتبر كل شيء إقطاعا من الامبراطور[٧٣]، فإذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد باينت غرب أوربا بالنسبة لاتباع النظام الاقطاعى بشكله الذى عرفه الغرب الأوربى في العصور الوسطى . فإن الدور قد جاء

---

(٦٩) اسمت غنيم : المرجع السابق ص ١٠٢

(٧٠) روبرت كلاري : فتح القسطنطينية ص ١٠٩

(71) Vasiliev :op. cit. 2, p.462,Runciman :op. cit.III, pp.124-5

(72) Runciman : op. cit. III, p. 123

(٧٣) روبرت كلاري : المصدر السابق ص ١٠٩

عليها لتذوق أشلاء بيزنطة طعم هذا النظام[٧٤] ، فقد تحول بقية زعماء الحملة الصليبية إلى أفصال إقطاعيين للامبراطور بلدوين التاسع ، وفاز كل منهم بقطعة من البلاد ، وأصبح إقطاع الامبراطور أكبر وأهم اقطاع في البلاد ، واقتسم الأمراء الآخرون الفائض من الأراضي[٧٥] ، وإن استأثر كبار القادة بالجانب الأعظم من هذه الاقطاعات دون صغار الصليبيين " فكان النصيب الأكبر من الأرض لأكثرهم ثروة وأعزهم مكانة وأكثرهم أتباعا في الجيش "[٧٦] .

على حين فازت البندقية بحى تجارى كبير في العاصمة ، واستولت على كثير من الجزائر القريبة من الشاطىء ، فضلا عن بعض المراكز الساحلية في شبه جزيرة المورة ومساحة كبيرة من الأرض شمال خليج كورنثة ، كما ضمت بعد ذلك جزيرة كريت بطريق الشراء[٧٧] . وكان هذا هو نصيب الأسد في أكبر السرقات التى عرفها التاريخ ، وعلى الرغم من غضب البابا الشديد لانحراف الصليبيين عن مهاجمة المسلمين إلى هذا الهجوم على المسيحيين إلا أنه كان مضطرا لأن يغض الطرف عن ذلك ، خاصة حين أرغم اليونانيون على التجنس بالجنسية الغربية ، فهدأ هذا من غضب البابا[٧٨] . وتحولت بذلك الامبراطورية البيزنطية إلى دولة إقطاعية كبيرة تعرضت لجميع مساوىء النظام الاقطاعى المعروفة في غرب أوربا خاصة المنازعات بين الأمراء والاحقاد المستمرة بين الأفصال وأمرائهم[٧٩] ، فضلا عن روح العداء التى تفجرت

---

(74) Brehier: Vie et Mort de Byzance, pp. 370-2
Vasiliev : op cit. 2, p. 468

(75) Runciman : op. cit. III, pp. 125- 6

(٧٦) روبرت كلاري : نفس المصدر ص ١٤٧

(77) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 339

(٧٨) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧٢

(٧٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٣٧

بين العناصر التى تألفت منها الحملة أى بين الألمان والفرنسيين واللمبارديين والفلمنكيين وبين هؤلاء وبين البنادقة[٨٠] .

ووسط كل ذلك لم يتفهم الصليبيون الحضارة البيزنطية العريقة ، في الوقت الذى احتقر فيه البيزنطيون أولئك الغزاة من البرابرة الغربيين ، ولهذا نشأت بعض المقاومة البيزنطية[٨١] ، وأقيمت عدة ملكيات وإمارات اتخذت الطابع القومى في جبال ألبانيا وابيروس وتراقيا والمورة وآسيا الصغرى[٨٢] ، واستمرت الأوضاع على ذلك من حلول امبراطورية لاتينية في القسطنطينية محل الامبراطورية البيزنطية ، أكثر من نصف قرن من الزمان ، أى إلى أن تمكن ميخائيل الثامن البيزنطى من الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٢٦١م وأنهى عهد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وأعاد الامبراطورية البيزنطية إلى سابق عهدها[٨٣] .

واذا قيمنا الحملة الصليبية الرابعة وحاولنا أن نحصى ما ترتب عليها من نتائج فإننا نجد تلك النتائج متعاظمة ومتداخلة أحيانا ، فلم يكن بوسع أحد بعد ذلك أن يتشدق بأن الحروب الصليبية أشعلتها البواعث الدينية البحته والرغبة في نصرة المسيح وحمل لوائه إلى الشرق[٨٤] ، فقد ثبت في هذه الحملة بالذات أن المصالح الاقتصادية والمكاسب التجارية تحتل المركز الأول في تفكير الغربيين ، وأن الغرض الصليبى والكنيسة وبيت المقدس ليست سوى شعارات لن يؤدى رفعها

---

(80) Camb. Med. Hist. Vol. 4, p. 423

(81) Ostrogorsky : op. cit. p. 379

(82) Vasiliev : op. cit. 2, p. 468

(83) Ibid. pp. 536 - 7

(٨٤) جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية ص ١٨٩

إلى منفعة أو مكاسب[٨٥] ، كما يؤدى الجرى وراءها إلى تحقيق ما كان الغرب يصيبو إليه .

كما ترتب على قيام إمبراطورية لاتينية في القسطنطينية والبلقان نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للكيان الصليبى في بلاد الشام، لأن هذه الامبراطورية اللاتينية أخذت تجذب كثيرا من المغامرين الغربيين الذين فكروا في الرحيل إلى الشرق، والذين أدركوا بعد وصولهم إلى القسطنطينية أن الحياة فيها أكثر أمنا وأقل تعرضا للأخطار من السفر إلى بلاد الشام أو مواصلة الرحيل إلى فلسطين، حيث الحروب بين الصليبيين والمسلمين والصراع الدائر هناك بين الفرنج والأيوبيين[٨٦] ، بل الأكثر من ذلك خطورة أن هذه الامبراطورية اللاتينية بدأت تجذب اللاتين المقيمين في بلاد الشام ذاتها الذين بدأوا يتسللون إليها لينعموا بالهدوء فيها بعيدا عن الصراع مع المسلمين، حتى لو اضطروا إلى ترك ممتلكاتهم وأراضيهم هناك، فقد كان لديهم الأمل في تعويضها في إقطاعات بيزنطة الثرية[٨٧] .

هذا فضلا عن أن الحملة الصليبية الرابعة أضافت إلى العداء والكراهية بين أتباع الكنيستين الشرقية والغربية، وقوضت كيان الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، وأقامت محلها كنيسة كاثوليكية، فعمقت بذلك أحقاد البيزنطيين وأضافت إلى كرههم للغرب والكنيسة الكاثوليكية الغربية، وباعدت بين العالمين اللاتينى واليونانى[٨٨] .

---

(85) Ostrogorsky : op. cit. pp. 376 - 9,

(86) King : The Knights Hospitallers, p. 176,

عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٩٤٠

(87) Grousset : op. cit. III, p. 175

(88) Runciman : op. cit. III, pp. 128 - 9

وإذا أضفنا إلى ذلك أن انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن أهدافها واستيلائها على القسطنطينية قد ترتب عليه حرمان صليبى الشام من معاونة إخوانهم اللاتين في وقت كانوا أشد ما يكونون حاجة إلى هذه المساعدة عقب انهيار المملكة الصليبية في بيت المقدس وتصفية معظم أملاكها منذ موقعة حطين، أدركنا أن انحراف هذه الحملة عن مسارها ترتبت عليه نتائج بالغة الخطورة على الكيان الصليبى كله في بلاد الشام، وعلى فكرة الحركة الصليبية ذاتها[٨٩] ، ولهذا فقد أضعفت هذه الحملة مركز الصليبيين في بلاد الشام وتسببت في إحساسهم بالنقص والعوز وحرمتهم من وصول المقاتلين الذين كانوا بمثابة تجديد لدماء هذه الكيانات الصليبية في بلاد الشام وركائز لاستمرار المقاومة الصليبية ضد المسلمين المتحفزين دائما لتصفية هذه الكيانات[٩٠] .

وهكذا كان تأثير هذه الحملة تأثيرا شديدا على الكيان الصليبى ببلاد الشام، وأدى إلى إضعاف مركز الصليبيين في الشرق، فبدلا من أن تتجه الحملة إلى مساعدة الفرنج بالشام وتسترد بيت المقدس من أيدى المسلمين، إذا بها تصبح أداة لتقويض الكيان الصليبى ذاته وسببا في إلحاق الضرر بالصليبيين في تلك البلاد .

---

(89) Stevenson : op. cit. p. 290

(90) Grousset : op. cit. III , p. 175

الفصل الثاني عشر

الحملة الصليبية الخامسة على مصر



الفصل الثاني عشر

الحملة الصليبية الخامسة على مصر

توفي الملك عموري الثاني لوزجنان،الذي كان يحكم مملكتي قبرص وعكا في إبريل سنة ١٢٠٥م ، فأدى ذلك إلى انفصال بين المملكتين[١] ، إذ آلت مملكة قبرص إلى هيو الأول بن عموري، بينما آلت مملكة بيت المقدس في عكا إلى ماري الوريثة الشرعية لهذه المملكة، وهي ابنة الملكة إيزابيل من زوجها الثاني كونراد دي مونتفرات[٢] ، وكانت ماري في الرابعة عشر من عمرها، ولهذا وضعت المملكة تحت وصاية حاكم بيروت حنا دي إبلين (١٢٠٥ - ١٢١٠م) حتى تصل ماري إلى سن الرشد . ولما بلغت ماري سن الرشد بعد سنوات قليلة سنة ١٢٥٨م [٣] ، كان لابد من تزويجها من رجل يمكنه الدفاع عن مصالح الصليبيين في الشام وحماية كيانهم هناك، بعد أن يصير له بمقتضي هذا الزواج عرش مملكة بيت المقدس في عكا[٤] .

ونظراً لما حدث من تنافس بين الأمراء الصليبيين في بالشام على الزواج من ماري، خاصة حين أبدي الوصي على الملكة - حنا دي إبلين - رغبته في الزواج من الأميرة الشابة[٥] ،ونافسه في ذلك أمراء آخرون، فقد رأى الصليبيون الرجوع إلى ملك فرنسا فيليب أوغسطس ليتولي هو اختيار الزوج المناسب لها، ولم يتردد الملك فيليب في اختيار زوج الأميرة ماري ، ورشح لهذه المهمة جان دي برين [٦]

---

(1) Stevenson : op. cit. p. 297

(2) King : op. cit. p. 176

(3) Runciman : op, cit. III, p. 132

(4) Ibid. p. 182

(5) Runciman : op. cit. III, p. 132

(6) King : op. cit. p. 182

John of Brienne ،الذي كان كهلاً في الستين من عمره، ولكنه كان يتمتع ببعض الصفات اللازمة لزعامة الصليبيين بالشام من ناحية، وله الخبرة والكفاية ما يمكنه من التصدي للمسلمين وحماية الكيان الصليبي في بلاد الشام من ناحية أخري[٧] . ووصل جان فعلاً إلى بلاد الشام سنة ١٢١٠م فتزوج من عروسه الشابة، وتوج ملكاً على المملكة الصليبية في كتدرائية صور في أوائل أكتوبر من نفس العام، عل الرغم من الفارق الكبير في السن بينه وبين عروسه التي لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها بعد[٨] ،غير أن حماسة ملك فرنسا لترشيحه وموافقة البابا أنوسنت الثالث على ذلك منحته هذه الفرصة بل أمده الإثنان بمبلغ من المال يعينه على اتمام هذا الزواج قدره أربعين ألف جنيه من الفضة[٩] .

وخلال السنوات التي سبقت وصول جان دي برين إلى بلاد الشام، جرت اشتباكات بين الصليبيين والمسلمين ومنازلات، ولم يخل الأمر من معارك، وإن لم يكن لها كبير أهمية أو تسبب في ميل الميزان الحرب لصالح طرف دون طرف[١٠] ، بل على عكس ذلك حرص الصليبيون على عدم الدخول في حرب كبيرة مع المسلمين، ربما انتظاراً لوصول الحملة الصليبية الرابعة لتكون النتائج مضمونة في الحرب مع المسلمين، على حين حرص الملك العادل الأيوبي وبقية الأمراء الأيوبيين في حماة وفي حمص وفي غيرها من بلاد الشام والذين صدموا بأخبار الحملة الصليبية الرابعة التي قيل أن أهدافها هو مصر أو بلاد الشام[١١] ، حرصوا على عدم الدخول في معارك كبيرة أو حروب فاصلة

---

(7) Camb. Med. Hist. Vol, 5, p. 314

(8) King : op. cit. p. 182

(9) Runciman : op. cit. III, p. 133

(١٠) ابن واصل :مفرج الكروب ج٣ ص ١٤٤ -١٤٦.ابن الأثير :الكامل ج٩ ص ٢٦٥

(11) Runciman : op. cit. III, p. 128

مع الصليبيين، وربما رغبة في عدم جذب نظر الغرب الأوربي ورجال الحملة الرابعة التي اعتقد المسلمون أنهم ماضون إلى بلاد الشام أو مصر بعد الفراغ من أمر القسطنطينية[١٢] .

فلما مرت السنوات وتأكد بقاء الصليبيين بالقسطنطينية، بدأت المعارك والحروب تشتد بين جانبي الصراع في بلاد الشام، وتناوب الطرفان الانتصار براً وبحراً، وإن مال الطرفان في النهاية إلى عقد الصلح، فتم الصلح بينهما في خريف سنة ١٢٠٤م[١٣] ،وظلت سياسة الملك العادل تجاه الصليبيين بالشام تتسم في السنوات التالية بوجه عام بطابع التسامح والبعد عن التعنت[١٤] ، لأن العادل لم يمل إلى الدخول في نزاعات أو صراعات مؤثرة مع الصليبيين حتى مقدم جان دي برين إلى بلاد الشام سنة ١١١٠م .

جان دي برين في بلاد الشام :

بدأ جان دي برين عهده كملك للمملكة الصليبية في عكا بتجديد الهدنة مع المسلمين والتي أمدها قد انتهى سنة ١٢١٠م[١٥] ،فجرى الاتفاق مع الملك العادل على أن تجدد الهدنة لمدة ست سنوات بدءاً من يوليو سنة ١٢١٠م وحتى سنة ١٢١٧م ،بعد موافقة حنا دي إبلين حاكم بيروت والاسبتارية وبعض الطوائف الأخري، ربما لأن جان دي برين توقع قيام المسلمين بأعمال حربية خطيرة ضد المملكة، في عكا، خاصة من قبل أمير دمشق الأيوبي الملك المعظم بن العادل[١٦] ، واعتقد جان دي برين بأن الأيوبيين يخططون للقيام بأعمال حربية ضد

(12) Grousset : op. cit. III, p. 181

(13) King : op. cit. pp. 175 - 6, ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٩٥٠

(١٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٥٠

(15) Stevenson : op. cit. p. 297

(١٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٦٩ — ٧٠ ،ابن واصل: مفرج الكروب ج٣ ص٢١٥

المملكة، بعد أن هدم الملك العادل حصن كوكب من أعمال الأردن وبنى بالقرب منه حصناً آخر على جبل الطور " وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح "[١٧] مما أثار القلق في نفوس الصليبيين وجعلهم يجددون الهدنة لفترة أخري .

وفي نفس الوقت بادر جان دي برين بإرسال الرسل إلى روما يطلب إعداد حملة جديدة بحيث تصل إلى الشرق عند انتهاء أجل الهدنة سنة ١٢١٧م ،فعلى الرغم من تأثر البابا بالتقرير المرسل من الملك جان والذي عبر في نهايته عن حاجة المملكة لهذه الحملة إلا أن الظروف لم تكن مواتية لإرسال الحملة حينئذ بسبب الحرب ضد الالبيحنسيين والحروب الصليبية في أسبانيا حتى سنة ١٢١٥م حين انتهت هذه المشكلات[١٨] ،في الوقت الذي كان فيه البابا إنوسنت لازال معنياً بإعادة الدعوة لحملة صليبية جديدة إذ كرر الدعوة لها في سنة ١٢١٣م ،وبعدها بعامين أقر مجمع اللاتيران الرابع (سنة ١٢١٥م) مشروع الحملة الصليبية وصدق عليه وجري تحديد إبحارها إلى الشرق في صيف سنة ١٢١٧م[١٩] .

أرسل الملك جان دي برين رسله إلى روما لهذا الغرض على الرغم من ان الملكة ماري زوجة جان الشابة ما لبثت أن توفيت حزينة آسفة على شبابها الضائع – على حد قول أحد المؤرخين المحدثين –[٢٠] وذلك في أواخر سنة ١٢١٢م ، مما أثار مشكلة جديدة حول عرش المملكة إلا أن الأمر انتهى بالاتفاق على أن يقوم جان دي برين بالوصاية على المملكة، وعلى ابنته الرضيعة التي أنجبها من

(١٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٠٧

(18) King : op. cit. pp. 186 - 7

(19) Stevenson : op. cit. pp. 301 -2

(٢٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٥٢

ماري والتي وضعتها قبيل وفاتها بقليل والتي أسمتها إيزابيلا على اسم جدتها[٢١] ، حتى تبلغ هذه الطفلة سن الرشد، الأمر الذي أدى إلى بقاء جان في موقع السلطة في المملكة وفق النظم الاقطاعية السائدة[٢٢] ، لكنه كان يشعر أنه لم تعد له الصفة الشرعية بعد وفاة زوجته، التي استمد منها السلطة بوصفه زوجا للملكة . ولهذا أخذ جان يمني الصليبيين بمشروعه الكبير في استغلال الحملة المزمع إرسالها إلى الشرق في غزو مصر، والاستيلاء عليها، كما راح من ناحية أخري يعمل لتهيئة المملكة لهذا المشروع الكبير ويحاول تصفية المشاكل الداخلية للصليبيين ويعدهم للقيام بهذه الحملة الكبيرة[٢٣] .

أثمرت جهود جان دي برين في الاستعانة بالغرب الأوربي لإيفاد حملة جديدة تعوض الخسارة التي نجمت عن اتجاه الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية، فتبنى البابا إنوسنت الثالث المشروع – كما سبق وأن أشرنا - وذكر في دعوته ملخص التقرير الذي تسلمه من الملك في عكا عن حالة المملكة، وتهديد المسلمين لها [٢٤] ،وكيف بنى المسلمون حصنا جديدا على جبل الطور، وأصبحوا يهددون منه مركز المملكة في عكا. وذكر جموع المسيحيين في الغرب في هذا البيان، بأن جبل الطور هذا هو الجبل الذي شهد جانبا من تاريخ السيد المسيح وعظمته، وما حققه من أمجاد، ودعا الزعماء إلى نصرة إخوانهم فيما تبقى من مملكة بيت المقدس[٢٥] ،وكانت النية متجهة إلى أن يشترك

---

(٢١) أسمتها والدتها على اسم جدتها، لكنها كانت تسمى يولاند **Yoland** في المصادر المعاصرة الغربية : أنظر : **Runciman : op. cit. III, p. 134**

(22) LaMomte : Feudal Monarchy, p. 55

(23) Stevenson : op. cit. p. 303

(24) King : op. cit. p. 186

(25) Michaud : op. cit. III, p. 380

البابا أنوسنت الثالث نفسه في تلك الحملة، لولا ما حدث من وفاته سنة ١٢١٦م أى قبل إنفاذ الحملة [٢٦] .

وصلت الحملة فعلاً إلى بلاد الشام في خريف سنة ١٢١٧ م ، وتضم جموعاً من الهنغاريين والألمان تحت قيادة ليوبولد دوق النمسا، وأندريه الثاني ملك هنغاريا (المجر) ، ثم لحق بهم هيو الذي صار إليه عرش مملكة قبرس، بعد وفاة والده عموري الثاني لوزجنان [٢٧] ، ولحق بهم بوهيموند أمير طرابلس عند عكا وكان هؤلاء على رأس قواتهم من النمسا وبافاريا والمجر، فضلاً عمن تدفق على مواني إيطاليا من الفرسان الفرنسيين في صيف سنة ١٢١٧م توطئة لنقلهم إلى بلاد الشام [٢٨] ،وقيل أن جموع هذا الجيش فاقت الجموع التي حاصرت عكا سنة ١١٩٢ م ، إذ اجتمع على رأس هذه الجموع أربعة ملوك : الثلاثة المذكورين بالاضافة إلى الملك جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس في عكا [٢٩] ، وقيل أن عددهم كان نحو عشرة آلاف محارب، ألفين من الفرسان وثمانية آلاف من المشاة، ولذلك عانت هذه الجموع من قلة المؤن والزاد، وتعرضت لمتاعب كثيرة في سبيل الحصول عليها، فضلاً عن أن صليبي بلاد الشام عانوا من سوء معاملة هؤلاء الذين جاءوا لحمايتهم [٣٠] .

وبعد أيام من وصول الحملة وفي نهاية شهر أكتوبر سنة ١٢١٧م، اتفق زعماء الحملة الصليبة على مهاجمة القلعة التي بناها الملك العادل على جبل الطور لحماية عكا من ناحية وللتحكم في إقليم

---

(26) King: op. cit. p. 187, Grousset: op. cit. III, p. 196
(27) Camb. Med. Hist. Vol. 5 p. 314
(28) Runciman : op. cit. III, p. 147
(29) King : op. cit. p. 187
(30) Stevenson : op. cit. p. 302

الجليل من ناحية أخرى [٣١]، فاتجهوا نحو مدينة بيسان، وكان الملك العادل قد زحف من مصر – عند سماعه أخبار هذه الحملة – متجهاً إلى فلسطين ووصل إلى الرملة ومنها إلى اللد، ثم إلى نابلس، وفي نيته أن يقطع الطريق على الصليبيين المتجهين جنوباً بشرق تجاه مدينة بيسان إلا لأنه ما لبث أن علم بأن الصليبيين سبقوه إلى تلك المنطقة، وأن أعدادهم كبيرة[٣٢] فآثر الارتداد إلى بيسان ومنها إلى دمشق حتى يجمع الجند ويستعد للقائهم "لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد" وحتى لا يخاطر "باللقاء على حال تفرق العساكر" [٣٣]، وكان يخشي إن لقيهم "ولم يتكامل عنده العساكر الاسلامية أن يكسروه"[٣٤]، ولذلك بقي في مرج الصفر يترقب ،وبعث إلى الامراء يدعوهم لمساعدته .

وخلال ذلك استولى الصليبيون على بيسان في سهولة ويسر ودون مقاومة نظراً لعدم وجود من يدافع عنها، وغنموا فيها غنائم كثيرة[٣٥]، ثم عبروا نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية متجهين في الاتجاه الشمالي الشرقي أي في اتجاه بانياس[٣٦] ثم فرضوا الحصار على بانياس لمدة ثلاثة أيام لكنهم عجزوا عن اقتحامها، فعادوا من جديد إلى عكا محملين بالمغانم والاسلاب إذ "نهبوا البلاد من بيسان إلى نابلس وبثوا السرايا في القرى.. ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها إلى مرج عكا" [٣٧]، ويعلل المؤرخون المحدثون هذا التخبط بأن

---

(31) Brehier : L'Eglise et l'Orient, pp. 191 -2

(32) Runciman : op. cit. III, p. 148

(٣٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٤ (ط التجارية)

(٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٥ – ٢٥٦

(٣٥) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢

(36) Stevenson : op. cit. p. 302

(٣٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٥ . أبن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٥

هذه القوات افتقرت إلي النظام ، ولم تكن لها قيادة عليا موحدة ،فعلى الرغم من أن الملك جان دي برين كان هو القائد الأعلى ، إلا أن القوات النمساوية والهنغارية لم تكن تدين إلا للملك أندرو ، والقوات القبرسية لم تكن تعترف إلا بالملك هيو [٣٨] .

وأثناء مرابطة الملك العادل بقرب دمشق، منتظراً النجدات من الملوك والأمراء ومراقبة تحركات الصليبيين، إذا بهؤلاء يتجهون نحو القلعة التي كان المسلمون قد بنوها على جبل الطور بالقرب من عكا، والتي أحدثت قلقاً شديداً للصليبيين هناك [٣٩]، فجد الصليبيون في حصارها ومهاجمتها طوال الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٢١٧م ،ولم يفلحوا في إسقاطها واضطروا إلى الانسحاب من جديد إلى عكا [٤٠]، بعد أن قتل عندها "بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا"، على حين أدرك الملك العادل صعوبة الاحتفاظ بتلك القلعة لقربها من عكا من ناحية ولحرص الصليبيين على الاستيلاء عليها من ناحية أخري، ولذلك قرر هدم تلك القلعة، ونقل حاميتها إلى دمشق "فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور فخربها إلى أن ألحقها بالأرض" [٤١].

وبعد ذلك وفي أوائل سنة ١٢١٨م قرر ملك هنغاريا العودة إلى أوربا، مصطحباً معه كل سفنه ورجاله ، وكل أدوات الحرب التي كان قد جاء بها ،معللاً عودته بأحوال مملكته المضطربة ولظروفه الصحية الخاصة التي ألزمته العودة [٤٢] ، على حين بدأ جان دي برين يعد عدته للاتجاه بالصليبيين إلى مصر في أوائل عام ١٢١٨م .

---

(38) Runciman : op. cit. III, p. 148

(39) King : op. cit. p. 188

(٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٧. Stevenson : op. cit. p. 302

(٤١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٥

(42) Stevenson : op. cit. p. 303, King : op. cit. p. 188

حملة جان دي برين على مصر :

إذا كان الصليبيون قد أدركوا منذ بداية القرن الثاني عشر، أن مصر هى مركز المقاومة الحقيقية في الشرق، وأنه بعد الوحدة بينها وبين بلاد الشام في جبهة إسلامية واحدة غدا الكيان الصليبى مطوقا في بلاد الشام، وأن مصر أصبحت المورد الأساسى للقوى البشرية والمادية التى مكنت الأيوبيين من اكتساح مملكة بيت المقدس(٤٣) ،فإن دعاة الحركة الصليبية قد توصلوا منذ نهاية القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر، إلى أن مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة، فقد نصح الملك ريتشارد الصليبيين بالهجوم على مصر، كما أن مجمع اللاتيران ذكر مصر كهدف رئيسى للهجوم الصليبى(٤٤) .ولهذا تحتم على الصليبيين البدء أولا بوصفها الطريق الحقيقى الموصل إلى بيت المقدس، وكان ذلك سببا في تغير هام وخطير طرأ على اتجاه الحركة الصليبية، إذ استأثرت مصر منذ بداية القرن الثالث عشر بجهود الصليبيين ووضعت الخطط الخاصة بالحملات الصليبية التالية على أساس الاتجاه إلى مصر لضرب المسلمين في قلبهم النابض(٤٥) .

وكانت جموع الصليبيين تفد على بلاد الشام طوال سنتى ١٢١٧م ، ١٢١٨م تلبية للدعوة التى وجهها البابا إنوسنت الثالث، ثم تعهدها بعده البابا هونريوس الثالث. ففى ربيع سنة ١٢١٨م وصل أسطول يحمل جموعا من الألمان، قادما بصفة أساسية من إقليم كولون بألمانيا(٤٦) ، فأضاف بمن حملهم من الألمان الشماليين إلى قوة

---

(43) Grousset : op. cit. III, p. 171,

روبرت كلاري : فتح القسطنطينية ص ٣٩

(44) Runciman : op. cit. III,p. 150

(٤٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٦١

(46) Stevenson : op. cit. p. 303

الصليبيين المتحفزين للذهاب إلى مصر تحت قيادة كونت هولندا، الذى كان يحارب المسلمين في البرتغال، وبوصول هذه التعزيزات ازدادت قوة الجيش الصليبى، وغدا الاتجاه نحو مصر أمرا واقعا[٤٧] .

مالبث الملك جاى دى برين أن عقد مجلسا لمناقشة كيفية الاستفادة من هذه الجموع، ثم بدأ يعد العدة للقيام بحملته على دلتا مصر[٤٨] ،بعد سفر ملك هنغاريا إلى بلاده، وأيد الملك جاى في ذلك الداوية والاسبتارية وصليبى قبرس، وتحمس قادة الصليبيين في بلاد الشام لإتمام هذا المشروع[٤٩] ، واختيرت دمياط على الفرع الشرقى للنيل لتكون هدفا للهجوم .وبعد أن ترك حامية في عكا للدفاع عنها، أثناء غيابه، خرج جان على رأس ما استطاع إعداده من الرجال والسفن في أواخر مايو سنة ١٢١٨م قاصدا دمياط مفتاح النيل[٥٠] .

ونظرا لافتقار الصليبيين في هذه المرة لقاعدة يمكنهم الارتكاز عليها لغزو مصر بريا كما حدث على عهد عمورى الأول، الذى اتخذ من عسقلان قاعدة وجه منها حملاته المتكررة على مصر، وأثبت من خلالها أن الوصول إلى القاهرة عن طريق الصحراء الشرقية أسهل بكثير من قصدها عن طريق البحر والنيل[٥١] ،فقد لجأ جان دى برين إلى اتخاذ الطريق البحرى، والنزول بدمياط أقرب الموانى المصرية إلى صليبى الشام، ورست السفن الصليبية أمام دمياط فعلا في ٢٩ مايو سنة ١٢١٨م، وعسكر الصليبيون على الضفة الغربية للنيل في مواجهة مدينة دمياط، ونزل إلى الشاطىء كل من الملك جان دى برين ودوق

(47) King : op. cit. p. 190
(48) Runciman : op. cit. III, pp. 149 - 50
(49) King : op. cit. p. 189
(50) Runciman : op. cit. III, p. 150
(51) King : op. cit. p. 190

النمسا، وكبار قادة الجماعات الثلاث الأخرى الداوية والاسبتارية والتيوتون[٥٢] .

وكانت مدينة دمياط محصنة تحصينا قويا، إذ بنى المسلمون وسط مجرى النيل برجا حصينا لحماية المدينة ورد أى عدوان عليها، إذ يتصل هذا البرج بسور المدينة بقنطرة وسلاسل حديدية تمنع سفن الأعداء من الأختراق[٥٣] ، " ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحدا على منعها "[٥٤] ، فقد كانت هذه السلاسل من الحديد القوى وتمتد بعرض النيل وتحول بين سفن الأعداء والعبور إلى ديار مصر على حد قول المؤرخ ابن الأثير، من الضفة الشرقية للنيل حتى البرج المقام على جزيرة أو منطقة ضحلة وسط المجرى قريبة من الضفة الغربية. وخلف هذه السلاسل كانت هناك القنطرة المؤلفة من قوارب وسفن مرصوصة[٥٥] ،ولهذا فقد استنفذ الهجوم على هذا البرج جهود المحاصرين عدة شهور .

وكان الملك الكامل ينوب عن والده العادل في حكم مصر في ذلك الوقت، وحين علم بنزول الصليبيين قبالة دمياط، بادر على رأس جيشه وعسكر جنوبى دمياط على الضفة الشرقية للنيل عند منزلة العادلية بقرب دمياط[٥٦] ،ليكون على صلة بالمدينة من جهة وليتصدى للصليبيين إذا هم حاولوا العبور إليها من جهة أخرى، في الوقت الذى أدرك فيه هؤلاء أنهم أخطأوا برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلا

---

(52) Stevenson : op. cit. p. 303, Runciman : op. cit. III, p. 151

(53) James of Vitry: Hist. of Jerusalem , pp. 118 - 119
Stevenson : op. cit. p. 303

(٥٤) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٥

(55) Runciman : op. cit. III, p. 152

(٥٦) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٥

من الضفة الشرقية القائمة عليها مدينة دمياط فعلا، وبدت أمامهم مشكلة عبور النيل إلى الضفة الشرقية، حيث المدينة[٥٧].

واستبسلت حامية برج السلسلة في الدفاع حتى قضى الصليبيون قرابة ثلاثة أشهر في الهجوم دون فائدة، كان الملك الكامل خلالها ينظم دفاعاته ويجمع الجند، وأتاحت له هذه المدة فرصة الاستعداد الطيب[٥٨]، "وداوم الفرنج قتال البرج وتابعوه، فلم يظفروا منه بشيء"، لذلك لجأ الصليبيون إلى مهاجمة البرج بكل العدد الثقيلة والآلات المتحركة وغيرها، فنجحوا في النهاية في اقتحامه في أواخر أغسطس سنة ١٢١٨م[٥٩]، وترتب على ذلك قطع السلاسل التى كانت تعترض مجرى النهر، وتهديد دمياط والأراضى المصرية تهديدا خطيرا " فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح إلى النيل ويتحكموا في البر" [٦٠]، إذ كان برج السلسلة على درجة بالغة من الأهمية، وبسقوطه أصبح الصليبيون في وضع يمكنهم من تهديد مصر كلها[٦١]،ولهذا يقال أن الملك العادل حينما بلغته أنباء سقوط برج السلسلة لم يحتمل الخبر ومرض لساعته، ثم توفى بعد أيام في نهاية أغسطس سنة ١٢١٨م[٦٢].

ولم يمنع الجسر المقام خلف هذه السلاسل الصليبيين من الاندفاع في النيل، إذ قاتلوا عليه قتالا شديدا حتى قطعوه[٦٣]، فحاول

---

(57) King : op. cit. p. 192

(٥٨) المقريزي : السلوك ج١ ص ١٨٩

(59) Runciman : op. cit. III, p. 152

(٦٠) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٥، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٥ (تحقيق د. ربيع ومراجعة د. عاشور)

(٦١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٩

(٦٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ١٩٥

(٦٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٥

الملك الكامل إعاقتهم بإغراق بعض السفن الكبيرة المحملة لتعوق الملاحة في النهر وتمنعهم من النفاذ عبره، إلا أنهم تغلبوا على هذه العوائق أيضا، ووصلوا إلى موضع يقابل منزلة العادلية[٦٤] ، "ليقاتلوه من هناك...فقاتلوه في الماء وزحفوا إليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل"، ولم تسبب وفاة الملك العادل تغيرا في الأوضاع، فقد خلفه في مصر ابنه الملك الكامل محمد، وفي دمشق ابنه الثاني الملك المعظم عيسى، وكلاهما كان حاكما لإقليم لسنوات طويلة[٦٥] .

وعلى الرغم مما لجأ إليه الملك المعظم بن العادل من الهجوم على أملاك الصليبيين ببلاد الشام، حيث أنزل الهزيمة بفرسان عكا من الداوية في نفس الوقت تقريبا[٦٦] ،فضلا عن دخوله قيسارية وتخريبها، وقيام الابن الآخر للعادل وهو الأشرف موسى بمهاجمة إمارة طرابلس، حيث تعاون الأخوة الثلاثة لمحاربة صليبى الحملة الخامسة[٦٧] ، وعلى الرغم أيضا من تطور الأمور في المعسكر الصليبى في مصر، بعد انسحاب فريق من المحاربين عائدين إلى بلادهم، الأمر الذى أجبر قائد الحملة - الملك جان دى برين - على الانتظار لوصول مدد جديد من أوربا في منتصف سبتمبر سنة ١٢١٨م والذى وصل وفي صحبته مندوبا بابويا هو الكاردينال بلاجيوس **Pelagius** ، صارت له كلمة مطاعة بين الصليبيين، الأمر الذى أدى إلى ازدواج القيادة ووقوع الاضطراب في المعسكر الصليبى[٦٨] ، في الوقت الذى عانى فيه كثير من جند الصليبيين من وطأة الأمراض خاصة الحمى التى حولت جلودهم

---

(٦٤) المقريزي : نفسه ج١ ص ١٩٥

(65) Stevenson : op. cit. p. 303

(٦٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٩

(67) King : op. cit. p. 192

(68) Runciman : op. cit. III, p. 155

إلى اللون الأسود، ومات من جراء ذلك عدد كبير منهم، فضلا عن ارتفاع منسوب ماء النهر الذى يحدث في مثل ذلك الوقت من كل عام[٦٩]، أقول على الرغم من كل ذلك، إلا أن الصليبيين مضوا في هجومهم على دمياط، ولم تجد محاولات الملك الكامل لايقاف زحفهم.

ثم ساءت أحوال الملك الكامل فجأة على إثر قيام مؤامرة ضده تزعمها ابن المشطوب[٧٠]، لعزل الكامل وإحلال أخيه الفائز محله في الحكم، واشترك مع ابن المشطوب في هذه المؤامرة عدد من القادة الأكراد، وأنذر ذلك بشر مستطير خاصة وأن هذا الرجل كان مطاعا بين عدد كبير من قادة الجيش " لأنه أكبر أمير بمصر" [٧١]، فاستبد القلق بالملك الكامل فهجر معسكره ليلا إلى أشموم طناح في ٥ فبراير سنة ١٢١٩م، وفي صباح اليوم التالى حين لم يجد الجند السلطان بينهم، اضطربوا وماجوا وتركوا المعسكر مخلفين وراءهم كل ما كان معهم "[٧٢] ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير، ولحقوا بالكامل "[٧٣] ،وتركوا الطريق خاليا للصليبيين، فانتهز هؤلاء الفرصة وعبروا النيل واستولوا على ما في معسكر المسلمين من الغنائم " وملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة"، ولم يصادفوا أية مقاومة[٧٤] ، وكان عبورهم إلى الضفة الشرقية للنيل

---

(69) Stevenson : op. cit. p. 304

(٧٠) هو الأمير الكردي عماد الدين أحمد بن على . وهو ابن على المشطوب من الأكراد الهكارية والقائد الشهير والمدافع عن مدينة عكا خلال حصار صليبي الحملة الثالثة لها. أنظر : ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٦ .
King : op. cit. p. 193

(٧١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٦. ابن واصل: مفرج الكروب ج٤ ص ١٦–١٧

(72) Runciman : op. cit. III, p. 157

(٧٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٦

(٧٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ١٩٥ – ١٩٧.
ابو المحاسن ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣٠ – ٢٣١

ونجاحهم في ذلك وحصولهم على تلك المغانم والأسلاب بداية مرحلة جديدة في أحداث هذه الحملة إذ أخذت الحرب تتحول في صالحهم منذ ذلك الوقت[٧٥] .

وكان الملك الكامل قد بعث يستنجد بأخيه المعظم عيسى ملك دمشق، وما أن وصل هذا إلى مصر حتى طابت نفس الكامل، وارتفعت معنوياته، وخاصة بعد أن أمر المعظم بالقبض على ابن المشطوب وإرساله ليسجن بحصن الكرك بالشام، بينما أمر بنفى الفائز إلى سنجار، وأرسل الفائز فعلا إليها لكنه ما لبث أن توفى في الطريق قبل وصوله[٧٦] ، وأدى القضاء على تلك المؤامرة إلى إقرار الأمور في المعسكر الاسلامى، الأمر الذى جعل الكامل وأخيه المعظم يتقدمون على رأس فرقهم مرة أخرى نحو الشمال لاحتلال موقع جديد عند فارسكور الحالية، على بعد نحو ستة أميال جنوب دمياط[٧٧] وجنوبى منزلة العادلية ليتسنى للمسلمين الهجوم على الفرنج من الخلف إذا تجرأوا وهاجموا مدينة دمياط في الوقت الذى سنحت فيه الفرصة للملك الصليبى جان دى برين لتطويق المدينة والاقتراب منها[٧٨] .

سقوط دمياط في أيدى الصليبيين:

عادت الروح إذن من جديد للمسلمين داخل دمياط وخارجها، وأخذت حامية المدينة تقاتل باستبسال لمدة تسعة أشهر برغم المحاولات المستميتة التى بذلها الصليبيون لاسقاطها، وفي نفس الوقت بعث الملك الكامل والملك المعظم يستنجدان بكافة القوى الاسلامية

---

(75) King : op. cit. p. 193, Stevenson : op. cit. p. 304

(٧٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٦. ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٨

(77) Runciman : op. cit. III, p. 157

(78) King : op. cit. p. 193

لقتال الفرنج، ويطلبان المساعدة من الخليفة العباسى، ومن أمراء المسلمين في بلاد الشام والعراق وفى المشرق، ويبديان قلقهما من احتمال تغلب الصليبيين على مصر، فإذا اسقطت مصر هدد الغزاة بقية ممالك الاسلام(٧٩) .

ولهذا فقد بدأت النجدات تصل من بعض البلدان الاسلامية، ولكن لم يصل شيء مما وعد به الخليفة العباسى، فقد وصلت فعلا بعض النجدات من حماة ومن حلب، واستمرت مقاومة دمياط على الرغم مما أخذت تعانيه حاميتها حينئذ من الأمراض(٨٠) ،وفي نفس الوقت أيضا وصلت نجدات للصليبيين من الغرب الأوربى من فرنسا ومن جزيرة قبرص، وذلك في أوائل سنة ١٢١٩م(٨١) ،وفي سبتمبر من نفس العام ونظرا لازدياد أحوال حامية دمياط سوءا " إذ تعذرت عليهم الأقوات "(٨٢) ،اضطر الملك الكامل إلى الدخول في مفاوضات مع الصليبيين، فعرض عليهم استعداده لإحياء مملكة بيت المقدس الصليبية بصورتها القديمة باستثناء بعض الحصون القليلة مثل الكرك والشوبك، مقابل جلاء الصليبيين عن مصر(٨٣) .

ويشير المؤرجون إلى أن الملك جان دى برين مال إلى قبول هذا العرض الذى يبعث المملكة الصليبية بحدودها التى كانت لها قبل معركة حطين باستثناء تلك الحصون المشار إليها، ووجده الملك الصليبى عرضا مغريا، إلا أن المندوب البابوى بلاجيوس رفض هذا العرض، كما رفضه جماعة الداوية والاسبتارية وممثلوا المدن التجارية

(٧٩) المقريزي : السلوك ج١ ص ١٩٥

(80) Runciman : op. cit. III, p. 158

(81) King : op. cit. p. 193

(٨٢) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٦

(83) Stevenson : op. cit. p. 304

الإيطالية التى وجدت في احتلال مصر مكاسب اقتصادية أعظم من استرداد بيت المقدس[٨٤] ،بل إنهم ردوا على هذا العرض بمهاجمة المعسكر الاسلامى عند فارسكور، غير أن المسلمين نجحوا في التصدى لهذا الهجوم، بل وأنزلوا بالصليبيين خسائر فادحة[٨٥] ،الأمر الذى أعاد الثقة إلى نفوسهم، ومع هذا قرر الكامل عرضه السابق بل زاد في التوضيح بمنح الصليبيين: بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل ما عدا الكرك والشوبك، ولكن الصليبيين رفضوا للمرة الثانية[٨٦] .

ويعلل المؤرخون الغربيون هذا الرفض بأنه كان بسبب الخلاف الناشب بين الملك جان دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس حول قبول العرض من ناحية وحول مستقبل مدينة دمياط بعد سقوطها وتقسيم الغنائم بين الفاتحين من ناحية أخرى[٨٧] ، بل إن هذا الخلاف ما لبث أن احتدم بين الداوية والاسبتارية من جهة، والايطاليين من جهة أخرى، أجبر خلاله الايطاليون على الخروج من المدينة، ولهذا علق مؤرخ محدث آخر على هذه الخلافات بأنها كانت سببا في فشل الحملة الصليبية الخامسة برمتها[٨٨] .

وفي تلك الأثناء ساءت أحوال مصر كلها، بسبب انخفاض النيل في ذلك العام (١٢١٩ م) إذ قلت المياة وانخفض منسوبها، وترتب على ذلك أن زادت الأسعار وهددت المجاعة البلاد وانعكس ذلك على دمياط وحاميتها " اذ تعذر القوت عندهم "[٨٩] ، وعانوا نتيجة هذا

(84) Grousset : op. cit. III, p. 223

(85) Runciman : op. cit. III, p. 159

(86) Stevenson : op. cit. p. 304

(87) Ibid p. 305

(88) King : op. cit. p. 192

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٧. ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٢

الغلاء، وساء موقف حامية المدينة كثيرا وتعرضت للمجاعة والوباء، وامتلأت طرقات المدينة بالأموات وندرت الأقوات فيها[٩٠] ، على حين وصل للصليبيين في نفس الوقت أى سبتمبر سنة ١٢١٩م، نجدة قوية قوامها محاربون من الإنجليز والفرنسيين، ولهذا جد الصليبيون في مهاجمة دمياط، فأضافوا إلى سوء أحوالها سوءا، وفشل الملك الكامل في تهريب المؤن والزاد والرجال إلى دمياط، إذ وقعت في أيدى الصليبيين، فغنموا الزاد والسلاح وقتلوا الرجال[٩١] .

ووسط هذه الشدة وبعد استبسال في الدفاع امتد قرابة تسعة أشهر كاملة ومرور ثمانية عشر شهرا منذ نزول الصليبيين مصر، سقطت مدينة دمياط في أيدى الصليبيين في ٥ نوفمبر سنة ١٢١٩م، فوضعوا السيف في أهلها وأسروا الكثيرين منهم وانتهكوا الحرمات بالمدينة "وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء "[٩٢] وكذلك " بثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون "[٩٣] .ويذكر أحد المؤرخين الغربيين أن الصليبيين فوجئوا عند دخولهم المدينة أن من بقى من أهلها على قيد الحياة لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف شخص من بين نحو سبعين ألف شخص سكنوا المدينة، وأن معظم الباقين على قيد الحياة كانوا لا يقوون على الوقوف من فرط الجوع والمرض[٩٤] .

وما لبثوا أن أخذوا في عمارة المدينة وتحصينها " وبالغوا في ذلك حتى أنها بقيت لا ترام"[٩٥] وأسكنوا بها جالية كبيرة من الغربيين

(٩٠) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٠١

(٩١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٦، Stevenson : op. cit. p. 305

(٩٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣٨

(٩٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٧. ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٣

(94) King : op. cit. p. 194

(٩٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٧

" فعظم الخطب واشتد البلاء"، وربما أغرى موقع دمياط وأهميتها التجارية الصليبيين باتخاذها مركزا لهم يفرضون منها سيادتهم البحرية والتجارية على شرق البحر المتوسط كله[٩٦]. فضلا عن إزماعهم المسير إلى القاهرة للاستيلاء عليها، فإذا تم لهم ذلك تمكنوا عن طريق دمياط من عزل مصر عن بقية أقطار البحر المتوسط من ناحية وقطع مواصلاتها مع بلدان العالم الاسلامى من ناحية أخرى[٩٧] .

فشل الحملة الصليبية الخامسة وجلاء الصليبيين عن دمياط:

الواقع أن الانقسامات بين الصليبيين، كانت قد أخذت تظهر منذ وصول المندوب البابوى بلاجيوس، الذى ادعى لنفسه السيادة على الصليبيين، وتجاهل رأى الملك جان دى برين فيما كان يعن للحملة من مصاعب[٩٨] ، وقد أدى ذلك إلى إلحاق أكبر الأضرار بالصالح الصليبى، وبرزت تلك الانقسامات منذ تقدم الملك الكامل بعروضه المغرية للسلام، ويبدو أن جان دى برين استاء كثيرا من تصرفات بلاجيوس الأمر الذى دفعه إلى التذرع ببعض الذرائع للعودة إلى عكا في أواخر مارس سنة ١٢٢٠م[٩٩] ، على حين فضل كثير من الصليبيين العودة إلى أوطانهم في الغرب بعد الاستيلاء على دمياط[١٠٠] .

وترتب على ذلك أن أصبح الحل والعقد في يد بلاجيوس في الوقت الذى قلت فيه خبرته ولم يدر ما يفعل ولهذا قبع الصليبيون في دمياط بقية سنة ١٢٢٠م والنصف الأول من سنة ١٢٢١م، وتجمدوا في

---

(96) Runciman : op. cit. III, p. 161

(97) King : op. cit. p. 194

(98) Stevenson : op. cit. p. 305

(99) Runciman : op. cit. III, p. 162

(100) King : op. cit. p. 194

المدينة باستثناء بعض الاغارات على النواحي الغربية والضياع المجاورة[١٠١] ، وأدى هذا الجمود إلى تحرك المسلمين وازدياد نشاط أساطيلهم في البحر بين دمياط وعكا حتى نجحت السفن الاسلامية في إغراق بعض سفن الأسطول الصليبى والاستيلاء على بعضها الآخر، اذ " وصل إليهم مركب كبير من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه ، فوقع عليها شواني المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها " [١٠٢] .

وعلى الرغم من ذلك لم يأل الملك الكامل جهدا في تجديد عروضه السابقة للسلام دون جدوى، ويشير المؤرخون إلى أن السبب في رفض بلاجيوس لهذه العروض السلمية وتأخر زحفه إلى القاهرة طوال هذه المدة يكمن وراءه ما تردد من أنباء عن قرب وصول الامبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وصقلية ، على رأس حملة صليبية ، بعد أن استجاب لمطلب البابا وقرر حمل الصليب ، لذلك تشدد بلاجيوس وتباطأ في نفس الوقت في الزحف إلى القاهرة إلى أن تتأكد هذه الأنباء[١٠٣] .

فلما لم يصل الامبراطور وتطورت الأمور في المعسكر الصليبى بوصول لويس دوق بافاريا على رأس قوة كبيرة إلى دمياط ، تشجع بلاجيوس وقرر التحرك في أواخر يونيو سنة ١٢٢١م. والزحف إلى القاهرة، وأرسل إلى الملك جان دى برين في عكا يستحثه على الوصول لمساعدة الصليبيين[١٠٤] ، وعلى الرغم من عدم رغبة الملك جان في

(101) Rinciman : cit. III, pp. 165 - 7

(١٠٢) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٨

(103) Runciman · op. cit. III, pp. 163 - 4

(104) King . op. cit. p. 195 - 6

العودة نظرا لتحكم بلاجيوس وتسلطه، إلا أنه خشى أن يتعرض للوم الرأى العام المسيحى ويتهم بالتقاعس وبعرقلة الجهود الصليبية، فاستجاب الملك جان دى برين للطلب ووصل إلى دمياط في ٧ يوليو سنة ١٢٢١م، وشرع الصليبيون في التحرك برا بمحاذاة النيل إلى القاهرة(١٠٥) .

ولقد قدر المؤرخون عدد هذا الجيش الزاحف تجاه القاهرة بنحو عشرين ألف جندى من الصليبيين. وأشاروا إلى أنه كان يقارب عدد الجيش الذى حارب في حطين(١٠٦) . ولهذا فقد استبد القلق بالملك الكامل وأخويه خاصة وقد أخذت الأنباء تترى بتحركات التتر أو المغول في المشرق وهجماتهم في خرسان على يد جنكيز خان، وبداية تهديدهم للعراق(١٠٧) ، ولهذا فقد لجأ الأيوبيون في الشام - خلال حصار الصليبيين لدمياط - إلى تخريب تحصينات بعض المدن والقلاع في بلاد الشام خوفا من أن ينجح الصليبيون في مصر فيكررون الهجوم على بلاد الشام وفلسطين في وقت كان العالم الاسلامى كله يترقب ما يمكن أن تسفر عنه الأحداث في المشرق(١٠٨) .

ولذا أصبح الشغل الشاغل للملك الكامل هو كيفية الحيلولة بين الصليبيين وبين الوصول إلى القاهرة. ومحاولة منع تقدمهم إلى القاهرة، لذلك ترك موقعه في فارسكور - بعد سقوط دمياط في أيدى الصليبيين - وانتقل إلى موقع آخر قبالة طلخا على الضفة الشرقية لفرع دمياط(١٠٩) ،

---

(105) Runciman : op. cit. III, p. 167

(106) King : op. cit. p. 196

(107) D'Ohosson,M :Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu' a Timur Bec. lpp.216- 30

(108) Stevenson : op. cit. p. 305

(١٠٩) المقريزي السلوك ج١ ص ٢٠١

وهى البقعة التى شيدت فيها مدينة المنصورة، وعسكر عندها حيث تصبح مقدمة جيشه محمية ببحر أشموم وهو مجرى مائى يصل بين فرع النيل وبحيرة المنزلة والذى اعتقد الصليبيون أنه أحد فروع النيل الذى يتحتم عليهم عبوره اذا أرادوا مهاجمة قوات الكامل[١١٠] .

ثم ما لبث أن وصلت إلى الملك الكامل النجدات من بلاد الشام، ولحق به أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى عند المنصورة بجنودهما، وأخذ الجميع يترقب وصول الصليبيين[١١١] ، وإن رأى الملك الكامل للمرة الأخيرة أن يجدد عروضه للسلام على الصليبيين تجنبا لسفك الدماء فعرض إعادة المملكة إلى سابق حدودها فيما عدا بعض القلاع مقابل انسحاب الصليبيين من دمياط[١١٢] ، وللمرة الأخيرة أيضا امتنع بلاجيوس وحزبه عن إجابة هذا الطلب وغدا الصدام واقعا لامحالة بين الفريقين[١١٣] .

بنى الصليبيون خطتهم للزحف تجاه القاهرة على السير بمحاذاة النيل، على أن تظل الصلة بينهم وبين سفنهم في النيل من ناحية وبينهم وبين قاعدتهم في دمياط من ناحية أخرى[١١٤] ، ولكن الملك الكامل أمر سفنه بالتقدم في النيل لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية،وتحول دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم في دمياط، في الوقت الذى زحف فيه الصليبيون وسط مثلث تحيط به المياة من ثلاثة جهات هى: بحيرة المنزلة شرقا وفرع دمياط غربا وبحر أشموم أو البحر الصغير

---

(110) Stevenson : op. cit. p. 306, ابن واصل: مفرج الكروب ج٤ ص ٣٣

(١١١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٧. أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٨

(112) Michaud : Hist. of the Crusades, Enq, Ed. II, p. 257

(113) King : op. cit. p. 196

(114) Runciman : op. cit. III, p. 167,

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٦

جنوبا[١١٥] ، ثم ما لبث الصليبيون أن وصلوا إلى رأس المثلث الناشىء عن تفرع البحر الصغير من فرع دمياط، وذلك في أغسطس سنة ١٢٢١م، وقت ارتفاع فيضان النيل وقسوة حرارة الجو، حيث قبعوا في مواجهة القوات الاسلامية نحو شهر يفصلهم عنهم بحر أشموم، وبمرور الأيام كان النيل يواصل أرتفاعه[١١٦] .

استغل المسلمون عدم معرفة الصليبيين بأرض مصر ونظم الرى بها " فعبرت طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنج ففجروا النيل "[١١٧] وقطعوا السدود، فاندفعت المياة إلى الأرض التى تقدم بها الصليبيون من كل جانب " فركب الماء أكثر تلك الأرض "[١١٨] ،ووجد الصليبيون أنفسهم وقد أحاطت بهم المياة من كل جهة، وغرقت الأرض المحيطة بهم، ولم يبق لهم سوى ممر ضيق يمكن عن طريقه العودة إلى دمياط[١١٩] ، وكان الملك الكامل قد حسب حساب ذلك وأعد فرقة من جيشه مع آلاف من العربان، وأنزلهم عند شرمساح، أى فيما وراء خطوط الصليبيين، ليحولوا بين الفرنج والعودة إلى دمياط، فقطعوا خط الرجعة عليهم وملكوا الطريق " الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط، فلم يبق لهم خلاص"[١٢٠] .

أدرك الصليبيون عندئذ خطورة موقفهم وعدم استطاعتهم التقدم إلى الأمام أو العودة إلى الوراء إلى دمياط " وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياة حولهم "، على حين أخذت المياة تتزايد بفتح

---

(١١٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣١

(116) King : op. cit. p. 196

(١١٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٨

(١١٨) ابن الأثير : نفسه ج٩ ص ٣١٨

(119) Runciman : op. cit. III, p. 168

(١٢٠) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٨

الترع والسدود، حتى وصلت إلى ركبهم[١٢١]، وعند ذلك سارعوا بطلب الصلح للخروج من هذا المأزق، فأرسلوا إلى السلطان الكامل في أواخر أغسطس سنة ١٢٢١م يعرضون استعدادهم لترك دمياط والاجلاء عن البلاد، مقابل السماح لهم بالخروج والعودة إلى أوطانهم[١٢٢]، وطلبوا "الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض"[١٢٣].

لم يتردد الكامل في قبول ذلك العرض، على الرغم من معارضة أخويه اذ كان من رأيهما استغلال الموقف وانتهاز الفرصة للاجهاز على الصليبيين دفعة واحدة وتخليص البلاد من شرهم[١٢٤]، غير أن الملك الكامل لم يوافقهما على ذلك، بل أبدى مرونة في هذه الظروف ربما لما تواتر من أخبار بقرب وصول الامبراطور فردريك الثانى على رأس جيش كبير وحملة صليبية جديدة، فلم يشأ الملك الكامل أن يوغر صدور الصليبيين ويزيد في عدائهم"[١٢٥]، فتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة "[١٢٦]. وعقد الصلح في ٣٠ أغسطس سنة ١٢٢١م وكان أمده ثمانى سنوات[١٢٧].

غير أن الكامل اشترط على الصليبيين أن يبعثوا برهائن من ملوكهم ليبقوا لديه وفاء لما تعهدوا به من تسليم دمياط. فإذا سلموا دمياط عاد إليهم ملوكهم وقبل الصليبيون ذلك[١٢٨]، وأرسلوا عشرين

---

(121) Stevenson : op. cit. p. 306

(122) King : op. cit. p. 197, ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٧

(١٢٣) ابن الأثير: الكامل ج٩ ص ٣١٨

(١٢٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٩

(125) Runciman : op. cit. III, pp. 163 - 4,

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٧

(١٢٦) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣١٨

(127) Stevenson op. cit. p 307

(128) King op cit. p 197

من مبرزيهم على رأسهم الملك جان دى برين نفسه وبلاجيوس المندوب البابوى وبعض كبار زعمائهم " وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط، ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكندريس وغيرهم "[١٢٩] ، وبعث الكامل من جانبه ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه بعض خواصه إلى الصليبيين[١٣٠] .

لم يضع الصليبيون وقتا طويلا بعد ذلك، بل جلوا عن دمياط في سبتمبر سنة ١٢٢١م وعادت المدينة إلى الملك الكامل[١٣١] ، وأبحرت السفن الصليبية إلى أوربا على حين عاد الملك جان دى برين ورجاله إلى بلاد الشام، وفشلت الحملة الصليبية الخامسة وأضاع الصليبيون فرصة استعادة بيت المقدس وكثير من توابعها مقابل الجلاء عن دمياط، واضطروا للجلاء عن دمياط دون مقابل، وعاد جان دى برين المنسوبة إليه هذه الحملة يجر أذيال الخيبة وانتهت حلقة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية في الشرق

(١٢٩) ابن الأثير نفسه ج١ ص ٣١٨

(١٣٠) المقريزي السلوك ج١ ص ٢١٨

(131) Stevenson op. cit p. 307

الفصل الثالث عشر

الحملة الصليبية السادسة (حملة الإمبراطور فردريك الثاني)

الفصل الثالث عشر

الحملة الصليبية السادسة (حملة الإمبراطور فردريك الثاني)

تعتبر الحملة الصليبية السادسة من أغرب الحملات في عصر الحروب الصليبية، على الرغم من أنها نجحت في تحقيق إنجازات لم تستطع الحملات من قبل تحقيقها، وأدت إلى نتائج بالغة الأهمية، كان الغرب الأوربي يأمل في إنجازها على مدى سنوات طويلة، ربما منذ معركة حطين، أى على مدى نحو نصف قرن من الزمان أو أقل بقليل[١]. ووجه الغرابة في هذه الحملة أنها نجحت في إنجاز ذلك، على الرغم من أنها لم تحظ بعطف البابوية، ولم تتمتع كالحملات الأخرى ببركتها وتأييدها بل إن هذه الحملة كانت تحدياً للكنيسة وخروجاً عن سلطتها، بل لعن زعيمها من البابا وحرم من رحمة الكنيسة[٢]، في الوقت الذي باركت فيه البابوية الحملات السابقة وخصتها برعايتها، بل وجعلت الإشراف على بعضها لممثلين بابويين وموفدين من قبلها[٣].

وإذا كانت الحملات السابقة قد حركتها روح الكراهية والعداء للمسلمين والرغبة في الانتقام والإمعان في إلحاق الضرر بهم، فإن حملة فردريك الثاني، خلت تماماً من هذه الروح وبعدت كثيراً عن الرغبة في الانتقام والتشفي، فبدت على حد قول أحد المؤرخين المحدثين – كما لو كانت نزهة جميلة، خرج فيها إمبراطور من الغرب الأوربي لزيارة صديق له في الشرق زيارة ودية[٤]، إذ لم تعتمد هذه الحملة على قوة

(1) Stevenson : op. cit. pp. 205 - 7

(٢) عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب ص ٧٥

(3) Runciman : op. cit. III, p. 155

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٠٣

حربية كبيرة لمحاربة المسلمين، بل جاء فردريك الثاني على رأس قوة صغيرة قوامها بضع مئات من الفرسان فقط أشبه بقوة الحرس الخاص، لا يبغي بهم حرباً أو نزالاً، وليس في نيته الدخول بهذه القوة الصغيرة في معارك مع المسلمين[٥] ، في الوقت الذي كانت فيه الحملات الصليبية السابقة تفد إلى الشرق طوفاناً من الجند يقدر بعشرات الألوف من الفرسان والرجالة، فضلاً عن الأساطيل الحربية والعدة والعتاد[٦] .

حقيقة كانت بعض فرقه العسكرية قد سبقت فردريك إلى الشرق ضمن قوات هذه الحملة ولكن الإمبراطور، غير رأيه في السفر إلى الشرق أكثر من مرة، فعادت بعض هذه الفرق إلى أوطانها واستخدمت قوات أخرى منها في إعادة تعمير بعض المدن والقلاع في بلاد الشام وتحسين دفاعات الصليبيين هناك قبل وصول فردريك إلى بلاد الشام[٧]، وفي ضوء المقارنة مع الحملات السابقة من حيث الروح والهدف وعدد القوات وحسب ما أسفرت عنه هذه الحملة من نتائج عدها المؤرخون أغرب حملة في عصر الحروب الصليبية .

والإمبراطور فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠ م) ، هو إمبراطور ألمانيا وجنوب إيطاليا وصقلية، وهو ابن هنري السادس، وكانت أمه إيطالية، ونشأ وتعلم في صقلية[٨] ، بقرب المؤثرات الإسلامية إذ دانت صقلية للمسلمين نحو قرنين ونصف من الزمان، حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، شهدت خلال هذه الفترة عظمة الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، وكانت معبراً هاماً من معابر هذه الحضارة إلى أوربا، وكان فردريك يفضل صقلية كثيراً عن بقية أملاكه،

---

(5) Grousset : op. cit. III, p. 281

(6) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 314

(٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٧٦، ص ٣٧٨، King : op[. cit. p. 203

(8) Heer : Medieval World , p. 284

فقد أغرم كثيراً بالحضارة الإسلامية وأجّل المسلمين، وأحاط نفسه بمستشارين منهم، وقرب إليه علماءهم، حتى جري اتهام هذا الإمبراطور في الغرب بأنه عدو المسيحية Anti - Chrest [(٩)]، فقد أحب الفلسفة وأغرم بالجدل وتبحر في الرياضيات ودرس اللغات المختلفة، حتى قيل أنه أجاد عدداً منها كاليونانية والعربية والعبرية فضلاً عن اللاتينية وشجع كثيراً اللغة الإيطالية الناشئة[(١٠)]، وقرض الشعر ونظمه، وأحب الفنون المختلفة، وأغرم بدراسة الحيوان والطير، وشجع العلماء المتخصصين في ذلك[(١١)]، فضلاً عن حبه للعلوم كالفلك والهندسة والطب ووظائف الأعضاء والتاريخ والرياضيات والعلوم العربية بالذات التي عرف قدرها[(١٢)].

وكان فردريك إلى جانب ذلك بارعاً متسامحاً، حتى أن ما ساد بلاطه في صقلية من حرية التفكير في القرن الثالث عشر كان أمراً غريباً بالنسبة لهذه الفترة من العصور الوسطى[(١٣)]، فضلاً عن مهارته في ميادين الحرب والسياسة والقانون، كما كان محباً للتعليم، محدثاً لبقاً وصفه معاصروه " بالرجل العجيب Stupor Mundi " وبأنه رمز اكتمال نهضة القرن الثاني عشر الميلادي[(١٤)].

---

(9) Ibid. p. 323

(١٠) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ق١ ص ٢٥٥ (ترجمة زيادة والعريني والعدوي) وانظر أيضاً : محمد الشيخ النظم والحضارة في أوربا في العصور والوسطي ص ٣٣٤

(11) Rowling : Everyday life in Medieval Time, p. 254

(١٢) انظر محمد الشيخ : النظم والحضارة ص ٢٧٧ وانظر أيضاً مدكور : في أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ص ١٦٣

(13) Seidlmayer : Curents of Medieval thought, p. 100

(١٤) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧٥

وعلى الرغم من كل ذلك فقد وصفه البعض بأنـه كـان أتوقراطيـاً عديم المبالاة ويصعب فهم شخصيته، لا يأبه كثيراً بالقيم الدينيـة والروحية، لأنه أمعن في تسفيه البابوية[١٥] ،ولأنه قام علي رأس حملـة صليبية خاصة قال عنها بعض المؤرخين أنها كانت مـن وحـي تفكـيره متحدياً بها الكنيسة[١٦] .

ولقد أسهمت ملابسـات خاصـة في تميز حملة فردريك الثـاني الصليبية هذه عن بقية الحمـلات ومخالفتهـا للحمـلات الأخـري الـتي سبقتها، فقد دخل النزاع بين البابوية والإمبراطورية دوره الثالث علـى عهد هذا الإمبراطور وعهد البابا هونريوس الثالث (١٢١٦- ١٢٢٧ م)، وكان فردريك الثاني يجمع في قبضته بين عرش ألمانيا والصقليتـين[١٧] ، وبدأ هذا الدور من النزاع على إثر قيام فردريك بتوطيد نفـوذه في شمـال إيطاليا بالإضافة إلى جنوبها وصقلية، الأمر الذي جعل البابوية تتخوف من هذه الجهود التي ربما أسفرت عن حصر أملاكها بين شـقي الرحـا وتجعل لفردريك اليد العليا في إيطاليا، ولهذا فقد تسبب فردريك بهذه الجهود في غضب البابا[١٨] .

وزاد من هذا النزاع ما حدث من قيام فردريك الثـاني بخلـف وعده الـذي سبق أن وعـد بـه البابويـة سـنة ١٢١٥ م بالقيـام بحملـة صليبية إلى الشرق[١٩] .وفصل تاج صقلية عـن تـاج الإمبراطوريـة حتـى تطمئن البابوية على أملاكها في إيطاليا، وحـين أخـذ يمـاطل في تنفيـذ هذه الوعود في البداية، تضايقت البابوية وتشـككت في نوايـا فردريـك،

---

(15) Heer op. cit. p. 326

(١٦) عزيز سوريال عطية نفسه ص ٧٥

(17) Heer op. cit. p. 284

(١٨) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧٥

(19) Stevenson op. cit. p. 307

وزاد من هذا الشك ما لجأ إليه فريدرك سنة ١٢٢٠ م من تتويج ابنه هنري ليخلفه في حكم صقلية والإمبراطورية معاً، الأمر الذي أقنع البابا بأن فردريك غير صادق النية تجاهها[٢٠] .

وحيث أن البابوية كانت تتوق لإرسال حملة صليبية جديدة بعد فشل الحملة الخامسة من ناحية، ولما عرضه الملك جان دي برين على البابا عند وصوله إلى روما في أكتوبر سنة ١٢٢٢ م من أحوال الصليبيين في بلاد الشام وحاجتهم الماسة للمساعدة من ناحية أخري[٢١]، فقد لجأت البابوية إلى ترغيب فردريك في إنجاز ما وعد به، خاصة بعد أن جري تتويجه إمبراطوراً في كنيسة القديس بطرس بروما سنة ١٢٢٠م[٢٢]، فاقترح البابا هونريوس الثالث على الإمبراطور سنة ١٢٢٢م زواجه من إيزابيلا (يولندا) ابنة جان دي برين الوريثة الشرعية لملكة بيت المقدس في عكا، بشرط أن يتم الزواج في بلاد الشام نفسها، غير أن فردريك ما لبث أن تزوج من تلك العروس في جزيرة صقلية سنة ١٢١٥م ، وحمل من ذلك الوقت لقب ملك مملكة بيت المقدس[٢٣] .

وعاد فردريك وأعطى البابا وعدا جديداً بالقيام بحملته على أن تبدأ هذه الحملة في عام ١٢٢٧م ،ولعله جادا هذه المرة في القيام بهذه الحملة إلى الأراضي المقدسة في ذلك العام[٢٤]، لولا أن توفي البابا هونريوس الثالث في نفس العام فأرجأ الإمبراطور مشروعه من جديد، وعاد يماطل مرة ثالثة في الوفاء بوعده لأسباب كثيرة لم تكن قط

---

(20) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 364 - 5

(21) Runciman : op. cit. III, p. 174

(22) Ibid. p. 176

(23) Stevenson : op. cit. p. 307

(٢٤) عزيز سوريال عطية نفسه ص ٧٥

واضحـة بالنسـبة للمعـاصرين فأطـال مـدة انتظـار وصولـه إلى بـلاد الشام(٢٥)، بل أمعن فردريك في نزاعه مع البابوية وأعلن تمسكه بحقوقه الإمبراطورية كاملة لا سيما فيما يتعلق بالسيادة على لمبارديـا، فتسـبب بمماطلته في القيام بالحملة، وإمعانه في نزاعه مع البابوية في لمبارديـا في غضب البابا غضباً شديداً (٢٦).

أما عن الأسباب التي دفعت فردريك الثاني للمماطلة أكـثر مـن مرة في الخروج بحملته إلى الشرق والتي ذهب بعض المؤرخـين إلى أنهـا لم تكـن قـط واضحـة للمعـاصرين، حتـى ذهبـوا إلى القـول بـأن هـذا الإمبراطور يصعب فهم شخصيته(٢٧)، على الرغم من أنه بدا من السهل على كثيرين فهمها، هو أن هذا الإمـبراطور لم يكـن راغبـاً أو متحمسـاً للقيام بهذه الحملة ومحاربة المسلمين، لما سبق وأن أشرنا إليه من أنـه نشأ بالقرب من المؤثـرات العربيـة وشـب علـى حـب المسـلمين واكبـار حضارتهم، وأحس بذلك حتى المؤرخون المسلمون أنفسهم (٢٨)، فضـلاً عن بغضه للبابوية وفكره الحر وتسامحه وعدم مبالاته كثيراً بما كـانت تدعو إليه الكنيسة(٢٩)، وربما دفعه كرهه للبابويـة وإمعانـه في تسـفيه مزاعمها في السيادة والسمو إلى حب المسلمين واحترامهم(٣٠).

وإذا كان المؤرخون المعـاصرون قـد أحسـوا بكـل هـذه المعـاني، وفهموا أبعاد شخصية فردريك فهماً حقيقياً. فقـد أشـاروا أيضـاً إلى أن

---

(25) King : op. cit. p. 305

(26) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 144 - 5

(٢٧) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧٥

(٢٨) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٢

(29) Heer : op. cit. p. 326

(30) Grousset : op. cit. III, p. 280

معاصره الملك الكامل الأيوبي، كان هو الآخر معروفاً بالتسامح وحب العلوم والفلسفة والتاريخ[(٣١)] ، وجاء ذلك توافقاً غريباً في الميول والطباع بين شخصيتين كان عليهما أن يتواجها من خلال أحداث الحملة الصليبية السادسة .

ولم يعد أمام فردريك فرصاً أخري للمماطلة، فقد توفي البابا هونريوس الثالث في مارس سنة ١٢٢٧م ،وخلفه في المنصب البابوي جريجوري التاسع (١٢٢٧ -١٢٤١ م) الذي كانت له قرابة البابا الأسبق إنوسنت الثالث ،وشابهه كثيراً في حزمه وحماسته الصليبية، وما اشتهر به من قوة الإرادة والإصرار، فأعلن رفضه للأعذار التي انتحلها فردريك لتأجيل حملته الصليبية أكثر من مرة ، وأصر على ضرورة رحيل الإمبراطور إلى الشرق[(٣٢)] ، وأمام هذا الإصرار لم يجد الإمبراطور بداً من الخروج فأبحر فعلاً من برنديزي قاصداً بلاد الشام[(٣٣)] ،بعد أن سبقته إلى هناك جموع من الصليبيين الإنجليز والفرنسيين، الذين لم يستطيعوا عمل شئ انتظاراً لوصول الإمبراطور، فضلاً عن الجموع التي حشدها فردريك في أبوليا في صيف عام ١٢٢٧م. وأبحرت فعلاً جموع أخري من الجنود من نفس الميناء في أغسطس سنة ١٢٢٧ م[(٣٤)] .

وعلى هذا فقد درج بعض المؤرخين على القول بأن جيش الحملة الصليبية السادسة كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة فرق، فرقتان رحلتا فعلا إلى الشرق أشار إليهما ابن الأثير بقوله "خرج كثير من

---

(٣١) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(32) Runciman : op. cit. III, p. 178. Camb. Med. Hist. Vol. p. 146, عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٠١

(33) King : op. cit. p. 203

(34) Stevenson : op. cit. p. 308

الفرنج صقلية وما وراءها من البلاد إلى الشام. فكثر جمعهم وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضاً "[٣٥]، وفرقة ثالثة صاحبها فردريك عدة أيام، ثم ما لبث أن عاد إلى إيطاليا في صحبتها أيضاً مدعياً المرض[٣٦]، وعندئذ استبد الغضب بالبابا فأصدر ضده قرار الحرمان في سبتمبر من نفس العام (١٢٢٧ م)، وفتح باب النزاع من جديد بين الطرفين[٣٧].

وأمام هذا الهجوم العنيف اضطر فردريك إلى الخروج إلى الشرق، حتى يفوت على البابا فرصة التشهير به من ناحية، ولكي يخفف حدة هذا النزاع من ناحية ثانية، وحتى لا يقاسي من رواسب الحكم باعتباره وصياً على ابنه كونراد من زوجته الراحلة ايزابيلا (يولندا) والذي أصبح صاحب الحق الشرعي في عرش المملكة الصليبية من ناحية ثالثة[٣٨]، لكنه حين تحرك قاصداً الشرق لم يصحب معه سوى فرقة صغيرة من جيشه، بعد أن انفض عنه رجاله بسبب قرار الحرمان الذي وقع عليه، ولكنه لم يأبه كثيراً لذلك بل خرج قاصداً عكا في ٢٨ يونيو سنة ١٢٢٨م[٣٩].

ويذكر بعض المؤرخين أن القوة التي صحبها فردريك تكونت بصفة أساسية من نحو ستمائة فارس وعشرين سفينة وفي خطته أن يلحق بجموع الفرقتين اللتين سبقتاه إلى عكا[٤٠]، بعد أن ترك دوق إسبوليتو ليواصل الحرب ضد البابا، الذي كان قد عهد إلى جان دي برين الوصي السابق على المملكة الصليبية بقيادة جيوشه ضد جيش

---

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٧٦

(36) Stevenson op. cit. p. 307

(37) Runciman : op. cit. III, p. 178

(٣٨) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧٦

(39) Stevenson op. cit. p. 309

(40) King op. cit. p. 205

الإمبراطور فردريك فوجدها جان دي برين فرصة للانتقام من صهره القديم لما جرى من عداوات وأحداث عقب قيام فردريك بعزل جان دي برين من الوصاية على المملكة[٤١] ، وبعد وفاة إيزابيلا في إبريل سنة ١٢٢٨ م غدا الإمبراطور فردريك الوصي الوحيد على ابنه منها (كونراد) والذي غدت له كل الحقوق الشرعية في عرش المملكة.

وفي طريقه إلى عكا عرّج الإمبراطور على جزيرة قبرس، ليجعل تبعيتها للإمبراطورية أمراً محققاً، فنزل في ميناء ليماسول في ٢١ يوليو سنة ١٢٢٨م [٤٢] ، وبادر بتعين نائب له بالجزيرة كما بث الحاميات في مختلف أنحائها، وعين موظفين لجمع الدخل والضرائب فيها، خاصة وقد وجد نزاعاً على الوصاية على عرش الجزيرة بين بعض رجالها، في الوقت الذي كانت الإمبراطورية تحاول أن تتمسك بما كان لها من حقوق في الجزيرة وتبعيتها لها ولو من الناحية الشكلية، فحرص الإمبراطور على تأكيد هذه التبعية[٤٣] ، وفي سبتمبر من نفس العام أبحر قاصداً عكا، فوصلها بعد نحو أربعة أيام في ٧ سبتمبر سنة ١٢٢٨م [٤٤] .

وكانت الظروف في بلاد الشام قد تبدلت كثيراً منذ فشل الحملة الصليبية الخامسة، فقد توفي الملك المعظم عيسي في دمشق سنة ١٢٢٧م، واقتسم الأخوان : الأشرف موسى والكامل أملاكه فاستولى الكامل على بيت المقدس ونابلس[٤٥] في صيف سنة ١٢٢٨ م ، ثم

---

(41) Ibid . p. 205

(42) Runciman : op. cit. III, p. 181

(43) King : op. cit. p. 205

(44) Stevenson : op. cit. p. 308

(٤٥) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٢٦.

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٠٨. ص ٢٢٦ – ٢٢٧

حاصر الأخوان دمشق ودخلاها، وتركها الكامل لأخيه الأشرف، وأخذ عوضاً عنها حران والرها وغيرهما مما كان بيد الأشرف، واستقرت الأوضاع بين أفراد البت الأيوبي في بلاد الشام قبيل وصول الإمبراطور فردريك[٤٦] ،ولهذا جاءت هذه الأحداث مخيبة لآمال الإمبراطور الذي عول على الوصول إلى بلاد الشام في ظروف التناحر بين أفراد البيت الأيوبي، ومنّى نفسه بمساعدة الملك الكامل، الذي يقال أنه كان قد طلب مساعدة الإمبراطور ضد أخيه الراحل المعظم عيسي[٤٧] ، وأرسل سفراءه إلى أوربا لمقابلة الإمبراطور فردريك من أجل ذلك[٤٨] ، فأمل الإمبراطور تقديم هذه المساعدة للفوز ببيت المقدس مقابل تلك المساعدة ودون إراقة دماء أو الدخول في حرب .

وما أن وصل الإمبراطور إلى بلاد الشام، وعلم بإقرار الأمور في البيت الأيوبي حتى أدرك حرج موقفه، لاسيما وأنه جاء على رأس قوة صغيرة لا تكفي للدخول في حرب مع المسلمين بالإضافة إلى أنه كان مطالباً بتحقيق أى نجاح بعد أن خرج من بلاده محروماً من رحمة الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية[٤٩] ،خاصة وقد أخذت الأنباء تترى إليه بأن دوق سبوليتو الذي تركه ليوجه الحرب نيابة عنه في إيطاليا قد فشل في زحفه على أنكونا، وأن البابا راح يجمع الجند ويستعد للزحف على مملكته ذاتها[٥٠] . كما أدرك فردريك أنه لن يتأتى

---

(٤٦) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٧٧. المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٢٧

(47) Wiet : L'Egypte Arabe , pp. 350 - 1,

المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٢١ – ٢٢٣

(48) Stevenson : op. cit. p. 310,

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٣ – ٢٣٤

(49) King : op. cit. p. 206

(50) Runciman : op. cit. III, p. 183 - 4

إصلاح موقفه في الغرب إلا إذا استعاد بيت المقدس التي فشلت الحملات السابقة في استعادتها بعد أن استردها صلاح الدين من الصليبيين، هذا بالإضافة إلى أنه كان لا يستطيع الاعتماد على مساعدة صليبي بلاد الشام لرفضهم التعاون مع رجل مغضوب عليه من الكنيسة مطرود من رحمتها، وغدت المسالة بالنسبة له تعني مستقبل عرشه في غرب أوربا ومصير النزاع بينه وبين البابا [٥١] .

على أن البابوية من جانبها قد أدركت أن نجاح الإمبراطور في استرداد بيت المقدس سوف يمنحه شرفاً ونصراً في المعركة ضدها، ولهذا حرصت على عرقلة جهوده وعملت على اخفاقه في مهمته، حتى يكون الفشل نهاية ما يهدف إليه وبالتالي يظل في وضعه الذليل، ولا يحظى بشرف يمنحه تفوقاً عليها[٥٢] ، ولذلك أخذت تبعث بالرسل إلى السلطان الكامل الأيوبي تحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور، وتحاول إثناءه عن عزمه في منح بيت المقدس للإمبراطور. ولعل إحساس الإمبراطور بهذه المساعي، هو الذي جعله يلجأ إلى كل السبل في المفاوضات وإلى الاستعطاف لينال شرف الحصول على المدينة، ليتخلص من هذه الورطة، ويحقق تقدماً على البابوية ويفوت عليها الفرصة في نفس الوقت في الكيد له، وربما دفعه هذا إلى محاولة إقناع الملك الكامل بأنه " ماله غرض في القدس ولا غيره، وإنما حفظ ناموسه عند الفرنج " – على حد قول المقريزي – [٥٣] أى حفاظه على عرشه في الغرب الأوربي من كيد البابوية .

وجاء إلحاح البابا على الملك الكامل بعدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور مبعث الغرابة في هذه الحملة ، لأن البابوية ما فتئت تملأ

---

(٥١) سعيد عاشور : الحركة ج٢ ص ١٠٠٨

(52) King : op. cit. p. 206

(٥٣) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٠

الدنيا صياحاً على ضياع بيت المقدس من قبضة الصليبيين[٥٤]، وفشل الحملات الصليبية في استعادتها، بل أنها تبنت مشاريع حملات صليبية لإعادة هذه المدينة لحظيرة اللاتين من جديد، وتحمس بعض البابوات للمسير بأنفسهم إلى الشرق للمشاركة في هذه المشاريع[٥٥]، فإذا بهذه البابوية وقد أشرفت بيت المقدس على العودة إلى قبضة الصليبيين تعمل من جانبها على إفساد ذلك، ما دام الإمبراطور هو الذي سيحظي بهذا الشرف[٥٦] ، فكان هذا مبعث غرابة يضاف على غرائب هذه الحملة وأحداثها .

ولقد دفعت هذه الظروف والملابسات الإمبراطور فردريك إلى الدخول في مفاوضات مع السلطان الكامل، ومحاولة استعطافه، واستخدام كافة الوسائل لتحقيق غرضه بالطرق الدبلوماسية، من ذلك إرسال الرسل إلى الملك الكامل يحملون الهدايا النفيسة ويستجدون منه الإنعام على الإمبراطور بمدينة بيت المقدس[٥٧] ،غير أن الكامل رفض ذلك متذرعاً بأن التفريط في بيت المقدس بالذات سوف يؤذي مشاعر المسلمين في كل مكان ويؤدي إلى معارضة شديدة لسياسته ولهذا تعثرت المفاوضات وساء موقف الإمبراطور خلالها[٥٨] ولهذا شغل الإمبراطور نفسه خلال الفترة التالية بتحصين مدينة يافا في أواخر سنة ١٢٢٨م ، تحسباً للأحداث من ناحية، وإشعاراً لصليبي الشام بحرصه على تقوية دفاعاتهم من ناحية أخري[٥٩] .

---

(٥٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٠٨
(55) Stevenson : op. cit. p. 301 - 2
(56) King : op. cit. p. 206
(57) Runciman : op. cit. III, pp. 184 - 5,
ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤١
(58) Michaud : op. cit. II, p. 277 (Eng. ed.)
(59) King : op. cit. p. 207

وكان تحصين يافا هو العمل العسكري الوحيد الذي قام به الإمبراطور في بلاد الشام واستغرق منه الفترة بين ٢٥ نوفمبر وحتى أوائل مارس في العام التالي (١٢٢٩ م) [٦٠] ، ولما طالت المفاوضات ساءت أحوال الإمبراطور، لاسيما وقد لجأت البابوية إلى تصعيد حملتها الشرسة ضده، فأصدر البابا قرار الحرمان مرة ثانية ضد فردريك، وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته، كما بثت إشاعه في الغرب بأن الإمبراطور لقي حتفه في الشرق وأصبحت الوصاية على الإمبراطورية للبابا[٦١] .

عندئذ لجأ الإمبراطور إلى سياسة الاستعطاف والتذلل للكامل ليمنحه بيت المقدس فيعجل بعودته إلى بلاده بعد أن ساءت أحوالها في غيابه، ووصل الأمر حد البكاء في بعض مراحل المفاوضات، بل إنه أرسل رسالة إلى الكامل يقول فيها : " أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم، وهذا القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ويرتفع رأسي بين ملوك البحر وكان المتردد بينهما في الرسائل " الأمير فخر الدين بن الشيخ" [٦٢]

ونظراً لعدم رغبة الكامل في الدخول في حرب مع الصليبيين، إذا ما اتفق الإمبراطور وصليبي الشام على حربه من ناحية[٦٣]، فضلاً عن

---

(60) Stevenson : op. cit. p. 309

(61) Stevenson : op. cit. p. 311

(٦٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٢ .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠١١

(٦٣) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٠

تحفز ابن أخيه الناصر داود بن المعظم الذي طرد من دمشق ومنحه عماه (الكامل والأشرف) عوضاً عنها بعض الإقطاعات الصغيرة، والذي لجأ إلى الاستنجاد بسلطان الخوارزمية جلال الدين (منكبرتي) ضد أعمامه من ناحية أخري[٦٤] ، فضلاً عن استعطافات الإمبراطور فردريك التي تأثر بها الكامل كثيراً وهو الرجل الذي اشتهر بتسامحه مع الصليبيين وبعقليته التي سبق بها عصره والذي أبدي قبل ذلك مشاعر الصداقة والمودة مع الإمبراطور حتى قبل قدومه إلى بلاد الشام من ناحية ثالثة[٦٥] ، فقد وافق الكامل على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثاني في فبراير سنة ١٢٢٩ م[٦٦].

اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ م :

جرى الاتفاق على أن يكون أمد هذا الصلح عشر سنوات، وإن اختلفت المصادر العربية عن الإسلامية في تحديد المدة فيما يتراوح بين عشر سنوات وخمسة أشهر وعشر سنوات فقط، تبدأ من اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٢٢٩م الموافق ٢٨ من ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ[٦٧] ، دون أن يتضمن هذا الصلح كل من إمارتى أنطاكية وطرابلس[٦٨] ، وتقرر أيضا أن يتنازل المسلمون عن بيت المقدس وبيت لحم والناصرة، فضلا عن تبنين وصيدا بأكملها للصليبيين، وإن اتفق الطرفان على أن تبقى بيت المقدس على حالها من الخراب، ولا يجدد سورها " وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج، أما الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى فيكون بأيدى المسلمين لا يدخله الفرنج، إلا للزيارة فقط ويتولاه قوام من المسلمين ويقيمون فيه

---

(64) Runciman : op. cit. III, p. 185
(65) Stevenson : op. cit. p. 311
(66) King : op. cit. p. 208, ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤١
(67) Stevenson : op. cit. p. 312
(68) King : op. cit. p. 208

شعائر الإسلام من الآذان والصلاة "[٦٩] .

وإن ذكرت المصادر الغربية أن المدينة اشترط أن تصبح مدينة لاتينية مرة أخرى، فضلا عن تأمين الطرق إلى الناصرة وإلى بيت المقدس بتنازل المسلمين عن بعض القرى على الطريق[٧٠] إذ يقول ابن الأثير: " فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقي البلاد مثل: الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين "[٧١] ، بحيث يصبح للفرنج القرى القائمة على جانبى الطريق المباشر من يافا إلى بيت المقدس . وكذلك قريتين بين بيت المقدس وبيت لحم، وما عدا ذلك من القرى القائمة حول بيت المقدس تظل بيد المسلمين[٧٢] .

وهناك بعض الشروط لم يجر إعلانها منها الإفراج عن الأسرى لدى الطرفين، وعن بعض الحصون التى ينبغى إقامتها في فلسطين، وتعهد فردريك بضمان تنفيذ الاتفاقية بكل شروطها وتعهده أيضا بعدم مساعدة صليبي طرابلس وأنطاكية في حروبهم ضد المسلمين[٧٣]. ويعلق بعض المؤرخين المحدثين علي هذه الاتفاقية بأن فردريك نجح بمقتضاها في تحقيق ما عجزت جهود ريتشارد قلب الأسد بامكاناته الضخمة عن تحقيقه، فضلا عما بذله رجال الحملة الخامسة من جهود في سبيل الوصول إلي مثل هذه النتيجة دون جدوى، علما بأن فردريك حصل على بيت المقدس دون حرب ودون أن يخسر أحدا من رجاله أو يسفك في ذلك الدماء[٧٤] .

---

(٦٩) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٠

(70) Stevenson : op. cit. p. 312

(٧١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٧٨

(72) King : op. cit. 208

(73) Stevenson : op. cit. p. 313

(74) Brehier :L'Eglise et l'Orient, p.203, عاشور : نفسه ج٢ ص ١٠١١

ولقد أحدثت هذه الاتفاقية رد فعل عنيف في الأوساط الإسلامية، وخاصة حين نودى في بيت المقدس بخروج المسلمين منها وتسليمها للفرنج، وهى المدينة التى استعادها صلاح الدين بعد جهاد عظيم وبعد ما بذله في سبيل ذلك من الأنفس والمال، ولهذا فقد اشتد السخط على الملك الكامل وعم الأسى العالم الإسلامي " فاستعظم المسلمون ذلك واكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه "[٧٥]، "واشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الآذان "[٧٦]، وأقيم مجلس وعظ في دمشق رثيت فيه بيت المقدس بأشعار شهيرة "واشتدت العظائم واقيمت المآتم استنكارا لما فعله الكامل وتعبيرا عن الاستياء الذى عم الناس لما أقدم عليه[٧٧].

ولم يجد الكامل أمامه سوى أن يهون من الأمر، فذكر أنه لم يسمح للفرنج سوى ببعض الكنائس، ورد إليهم مدينة مخربة، أما المسجد الأقصى فهو على حاله وشعار الإسلام قائم به " ووالى المسلمين متحكم في الأعمال والضياع "[٧٨]، لكن كل ذلك لم يخفف من وقع الصدمة ولا من حجم المأساة التى عاشها العالم الإسلامي كله حينئذ، على إثر تفريط الكامل في بيت المقدس وتنازله عنها للفرنج[٧٩].

والغريب أن هذه الاتفاقية لم ترض الصليبيين أيضا، وقابلوها بفتور شديد واستياء، وذهب بعضهم إلا أن كرامة المسيحية كانت تقضى أن تؤخذ بيت المقدس من المسلمين بحد السيف لا عن طريق

---

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٧٨

(٧٦) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣١، ابن واصل: مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٣

(٧٧) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر أحداث سنة ٦٢٦ هـ

(٧٨) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٠

(79) Runciman : op. cit. III, p. 187

الاستجداء والاستعطاف[٨٠] ، خاصة وقد ترتب على ذلك أن احتفظ المسلمون فيها بكثير من حقوقهم، واستبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وذهب فريق آخر إلى القول بأنه لا قيمة لحصول الصليبيين على بيت المقدس بدون الكرك والأردن، فلا زال المسلمون سادة الأماكن والمواضع الاستراتيجية في المنطقة[٨١] .

وإذا كان الإمبراطور قد نجح بإمكاناته الضعيفة في تحقيق هذا المكسب الذى عجزت الحملات قبله عن تحقيقه ودون أن يريق دماء أو يخسر محاربا واحدا، إلا أنه ألفى نفسه في النهاية وكأنه لم يحقق شيئاً بعد أن تنكرت له بعض طوائف المسيحية وبخسوه حقه في التبجيل والتعظيم، بعد استرداده بيت المقدس[٨٢] ، بل ذهب بعضهم إلى حد التحريض عليه وعدم استقباله في المدينة المقدسة، نظرا لأنه إمبراطور مغضوب عليه من البابا محروم من رحمة الكنيسة، واشترك في ذلك طائفة الداوية والاسبتارية وبارونات المملكة الصليبية المحليين، خاصة وقد نصب الإمبراطور نفسه ملكا لبيت المقدس ولم يقم لهم وزنا أو يعط لهم أهمية في رأى أو مشورة[٨٣] .

ولم يلبث الإمبراطور أن دخل بيت المقدس في ١٧ مارس سنة ١٢٢٩م وتسلمها من نائب السلطان الكامل بها، بعد توقيع الاتفاقية، والذى سلمه مفاتيح المدينة باسم السلطان[٨٤] ، وفي اليوم التالى دخل الإمبراطور كنيسة القيامة، وقام بتتويج نفسه بها، بعد أن رفض رجال الدين القيام بهذه المهمة لرجل محروم من رحمة الكنيسة[٨٥] ، وكان

---

(80) Stevenson : op. cit. p. 313

(81) Runciman : op. cit. III, P. 187

(82) King : op. cit. p. 208, Stevenson : op. cit. pp. 213 - 14

(83) King : op. cit. p. 208

(84) Runciman :op. cit.III, p. 188, ابن واصل: مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٤

(85) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 314

الاحتفال بالتتويج هذا هو الأول في ذلك المكان منذ نحو خمسة وأربعين عاما، كما كان الأخير أيضا(٨٦) . وعلى الرغم من أن فردريك ربما قصد في ذلك إشارة منه إلى أنه لم يأخذ التاج في ذلك المكان المقدس والبالغ الأهمية من يد أحد من رجال الدين مهما علا قدره، ولا بواسطة الكنيسة أو من يد أحد من رجالها، وانما تلقى سلطانه من الله مباشرة، تطابقا مع سياسته تجاه الكنيسة وإيمانه بسمو الإمبراطورية عليها(٨٧) .

ولقد أظهر فردريك في بيت المقدس كثيرا من آيات التسامح ودلل على أنه هو الآخر سبق عصره كثيرا، فقد حدث أن رأى قسيسا يهم بدخول المسجد الأقصى وبيده الإنجيل فزجره وطرده وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن وقال: " إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره "(٨٨) .

ويذكر المؤرخون أنه في صبيحة اليوم التالي لدخول الإمبراطور بيت المقدس ناقش فردريك مسألة تحصين المدينة والدفاع عنها، غير أن اهتمام الإمبراطور بذلك ما لبث أن انتهى بل إنه قرر فجأة الرحيل عنها في اليوم التالى دون إشارة إلى هذا الموضوع أو عمل أية ترتيبات في ذلك(٨٩) ، واتجه الإمبراطور إلى يافا ثم إلى عكا فوصلها يوم ٢٣ مارس من نفس العام حيث انغمس فيما حدث من نزاعات بين طوائف الصليبيين هناك، وحاول الرد على ما أظهرته تلك الطوائف من روح عدائية تجاهه خاصة جماعة الداوية(٩٠) ، حتى استغرقت إقامته في

(86) King : op. cit. p. 208
(87) Heer : op. cit. p. 32
(٨٨) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣١، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٤
(89) King : op. cit. pp. 208 - 9
(90) Grousset : op. cit. III, p. 320

بلاد الشام منذ تتويجه نحو ستة أسابيع، ثم قرر العودة إلى بلاده فأبحر من عكا على عجل في أول مايو سنة ١٢٢٩م[٩١] .

وكانت قد وصلته أخبار سيئة عن اعتداء جيوش البابوية على أملاكه في إيطاليا، وعرج الإمبراطور في طريقه على جزيرة قبرس فنزل في ليماسول حيث بقى هناك نحو عشرة أيام، ومنها إلى إيطاليا فنزل في برنديزى في ١٠ يونيو سنة ١٢٢٩م[٩٢] .

وجاء ذلك ختاما للحملة الصليبية السادسة التى اتصفت بالغرابة من بدايتها إلى نهايتها، والتى حققت ما عجزت عن تحقيقه الحملات قبلها، فاضطرت البابوية إلى الاعتراف في النهاية بما أنجزه هذا الإمبراطور ورفعت عنه قرار الحرمان سنة ١٢٣٠م[٩٣] .

أحوال بلاد الشام عقب عودة فردريك الثاني إلى الغرب الأوربي :

عاد الإمبراطور فردريك الثاني إلى بلاده سنة ١٢٢٩ م ،تاركاً الصليبيين في بلاد الشام دون ملك قوي يحكمهم، أو شخصية قوية يمكن أن ترعي مصالحهم، وتدافع عنهم، تاركاً أيضاً مدينة بيت المقدس غير محصنة، ومهدمة الأسوار خالية من حامية قوية تذود عنها[٩٤] ، حتى ذكر أحد المؤرخين المحدثين أنها بقيت مدينة مفتوحة Open City ، بعد سفر الإمبراطور متعجلاً[٩٥] ،وإن ظلت المملكة على الأقل من الناحية القانونية، تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة حتى سنة ١٢٦٨ م، على الرغم من أن الإمبراطور لم يهتم–قبل

---

(91) King : op. cit. p. 209

(92) Runciman : op. cit. III, p. 192

(93) Stevenson : op. cit. p. 314

(94) King : op. cit. pp. 208 - 9

(95) Runciman : op. cit. III, p. 193

سفره - بإعادة تحصين بيت المقدس، أو ترتيب الدفاع عنها تأكيداً لهذه التبعية وحرصاً على استمرارها[٩٦] .

ولعل ذلك هو الذي جعل المسئولين عن المملكة في عكا يحجمون عن العودة إلى بيت المقدس لاتخاذها عاصمة للمملكة، كما كانت من قبل، وفضلوا الاستمرار في اتخاذ عكا مقراً لهم، لأن بيت المقدس فقدت أهميتها التجارية والسياسية، وهجرها الصليبيون وقل عدد الحجاج الذين كانوا يقصدونها[٩٧] . ولم يحاول الصليبيون تغيير هذا الوضع وانتهاز فرصة تنازع الأيوبيين في مصر والشام وتهديد المغول للعالم الإسلامي كله لإعادة بيت المقدس إلى ما كانت عليه من منعة واتخاذها مقراً للمملكة من جديد[٩٨] ،وحتى المسلمون لم يحاولوا استردادها منتهزين أيضاً فرصة بقائها على تلك الصورة من الضعف وخلوها من جيش يحميها أو حامية تدافع عنها[٩٩] .

والواقع أن الأيوبيين أظهروا في الربع الثاني من القرن الثالث عشر فتوراً شديداً في علاقاتهم بالكيان الصليبي، وجمدوا دون حراك سنوات طويلة، باستثناء قليل من المناوشات التي لم تغير الأوضاع في بلاد الشام أو تؤثر فيها[١٠٠] . ويبدو أن ذلك راجع في أغلبه إلى ثلاثة أمور، الأول منها : تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي بعد أن تطرق هؤلاء إلى العراق بعد أن عصف المغول بدولتهم في بلاد ما وراء النهر، وتقدم المغول بقيادة جنكيز خان نحو الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي متتبعاً فلول الخوارزمية[١٠١] ،وفي اتجاه هؤلاء

---

(96) Stevenson : op. cit. p. 313

(٩٧) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧٦ - ٧٧

(98) Grousset : op. cit. III, p. 351

(99) King : op. cit. p. 209

(١٠٠) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٨١، المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٤٧

(101) Runciman : op. cit. III, p. 163, p. 243

غرباً أخذ الخوارزمية يهددون الخلافة العباسية في بغداد ويهددون أيضاً أملاك الأيوبيين في أطراف العراق ومن ورائها بلاد الشام، وينهجون نهج المغول في اكتساح البلاد التي يمرون بها ويجتاحونها هدماً وتدميراً حتى ولو كانت بلاداً إسلامية[١٠٢]، الأمر الذي أدى إلى اتحاد أفراد البيت الأيوبي في بلاد الشام وأطراف العراق للوقوف في وجه جلال الدين منكبرتي، خاصة بعد أن استولى هذا على مدينة خلاط بالقرب من بحيرة وان[١٠٣]، وارتكب فيها مذبحة بشرية راح ضحيتها عدد كبير من أهلها، بالإضافة إلى ما حدث فيها من سلب ونهب وتخريب[١٠٤]. وما لبث الأيوبيون أن أنزلوا الهزيمة بهذا السلطان وجيوشه سنة ١٢٣٠ م واستردوا خلاط[١٠٥]، ثم قتل السلطان جلال الدين في العام التالي، وتمزقت قواته، وهام الخوارزمية على وجوههم في كثير من البلدان الإسلامية، ولجأ بعضهم إلى التعيش عن طريق الجندية أى العمل كجند مرتزقة[١٠٦].

أما الأمر الثاني الذي أدى إلى جمود الأيوبيين وفتورهم في علاقاتهم مع الصليبيين في الربع الثاني من القرن الثالث عشر، فهو تخوفهم أيضاً من جحافل المغول، الذين ما لبثوا أن فتحوا خرسان وفارس سنة ١٢٣١ م، ومزقوا الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر والمشرق وأصبح الدور على بلاد العراق وأملاك الأيوبيين في بلاد الشام[١٠٧]، ولهذا ظل الأيوبيون يترقبون هذه التحركات بشيء من

---

(١٠٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٨

(103) Runciman : op. cit. III, p. 209

(١٠٤) المقريزي ك نفس المصدر ج١ ص ٢٣٨

(١٠٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٧٣

(106) Stevenson : op. cit. p. 322, المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٤١

(107) D'Ohsson : Hist. of the Mongols, III, p. 62

القلق والتحفز، وربما ألزمهم هذا عدم المخاطرة بحروب كبيرة مع الفرنج تحسباً وخوفاً من أحداث المشرق التي بدأت تقترب من حدودهم[١٠٨] .

أما الأمر الثالث الذي أدى إلى فتور علاقات الأيوبيين بصليبي الشام في تلك الفترة فهو استشراء النزاع بين أفراد البيت الأيوبي ذاته وتنازع الأمراء الأيوبيين في مصر والشام وتنافسهم حول مناطق النفوذ، إذ اختلف الأشرف – أمير دمشق – مع أخيه الأكبر السلطان الكامل مستعيناً بصاحب حمص الأيوبي، وأصبحت الحرب الأهلية بين الأيوبيين واقعة لا محالة[١٠٩]، على الرغم من وفاة الأشرف سنة ١٢٣٧م وقيام أخيه الصالح إسماعيل في حكم دمشق، إذ تكون حلف أيوبي من الأمراء في الشام ضد سلطان مصر الكامل، الذي زحف من مصر في أواخر سنة ١٢٣٧ م ،واستطاع أن يحاصر دمشق ويستولي عليها في أوائل سنة ١٢٣٨ م[١١٠]، لكنه لم يلبث أن جاز إلى ربه هو الآخر في مارس من نفس العام، وجاءت وفاته نذيراً بتفكك البيت الأيوبي وبداية تداعيه[١١١] .

فقد أقيم العادل الثاني ابن الكامل مكان والده في مصر، على حين استولى الصالح نجم الدين أيوب على دمشق، ودخل في نزاع مع أخيه العادل الثاني، وانتهز فرصة هذا النزاع عمهما الصالح إسماعيل، فطرد ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب من دمشق واستولى عليها، وظل بها نحو خمس سنين (١٢٤٠ – ١٢٤٥ م) ،فاضطر الصالح نجم

---

(108) Runciman : op. cit. III, p. 250

(١٠٩) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٥٤ – ٢٥٧، ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٢١ – ١٢٦ (تحقيق د. ربيع ومراجعة د. عاشور)

(110) Stevenson : op. cit. p. 316

(١١١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٦٨

الدين أيوب إلى محاولة انتزاع مصر من أخيه العادل الثاني[١١٢]، وانتهى بدخول الصالح نجم الدين أيوب مصر في صيف سنة ١٢٤٠م، ليصبح سلطاناً علي مصر لمدة تقرب من عشر سنوات[١١٣] وإن لم ينته هذا النزاع بين أفراد البيت الأيوبي في وقت اشتدت فيه الأخطار على منطقة الشرق الأدنى من قبل الخوارزمية والمغول والحملة الصليبية السابعة[١١٤] .

وفي هذه الأثناء لم تكف البابوية عن الدعوة لحملة جديدة، لاقتناعها بأن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ١٢٢٩ م، لم يؤد إلى إحياء المملكة الصليبية كما كانت بل إن بقاء بيت المقدس كمدينة مفتوحة دون تحصينات قوية أو سيطرة صليبية كاملة جعل البابوية تشعر أن الحملة السادسة لم تؤد إلى نتائج حاسمة، وينبغي أن تخرج حملة جديدة لإصلاح الأحوال في بلاد الشام، وتقوية الموقف الصليبي فيها[١١٥] ،هذا فضلاً عن إحساس البابوية والغرب الأوربي، بأن أمور المملكة في عكا وإمارتي أنطاكية وطرابلس لا تسير سيراً طيباً، بل اضطربت الأحوال فيها وخلا الشام من شخصية صليبية قوية تعيد للكيان الصليبي قونه وهيبته[١١٦] .

ولهذا فقد قدمت جموع صليبية من فرنسا سنة ١٢٣٩ م، عقب وفاة السلطان الكامل وقاموا ببعض المناوشات مع الأيوبيين، ولكن ذلك لم يؤد إلى نتائج في صالح الصليبيين على الرغم من الفرقة والانقسام

---

(١١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١٠

(١١٣) المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٧٥. Stevenson : op. cit. p. 316

(114) Grousset : op. cit. III, p. 372,

ابن واصل: مفرج الكروب ج٥ ص ٢٠٦ (تحقيق د.حسنين ربيع مراجعة عاشور)

(115) Runciman : op. cit. III, p. 211

(116) King : op. cit. p. 211

الذي أمسي فيه الأيوبيون في ذلك الوقت، بل نجح الأيوبيون في إنـزال هزيمة قاسية بهذه الجموع على الطريق إلى عسقلان وقتلوا منهم أعـداداً كبيرة(١١٧) ،فـاضطرت بقايـا هـذه الجمـوع إلى الانسـحاب والعـودة إلى الغرب الأيوبي في خريف سنة ١٢٤٠ م(١١٨) . كما وصلت جموع أخري إنجليزية في العام التالي (١٢٤٠ - ١٢٤١ م) لكنها لم تشترك في معارك ضـد المسـلمين واكتفـت بتحصـين عسـقلان في مـارس سـنة ١٢٤١م ، واحترمت ما كان قائماً من صلح عقده الصـالح نجـم الديـن أيـوب مـع الصليبيين وعاد أغلبهم إلى الغرب الأوربي في نفس العام(١١٩) .

على أن الأخطر من ذلك ما حدث مـن انـدلاع نـزاع شـديد بـين الصليبيين أنفسهم في تلك الفترة، لا سيما بـين الداويـة والاسـبتارية، حـول السياسـة الـتي ينبغـي أتباعهـا تجـاه المسـلمين في حـين أيـد الاسبتارية سياسة التحالف مع مصر، رأى الداوية خطأ هـذه السياسـة ونزعوا إلى عرقلتها والهجوم على المسلمين في كل مكان(١٢٠) ، وانضمـت أطـراف أخـري إلى الفريقـين، وهـدد ذلـك بقيـام حـرب أهليـة بـين الصليبيين أنفسهم، واندلعت الحرب فعلاً حتى أنـذرت بشـر مستطير مع خلو إماراتهم من شخصية راشدة تجمع الشمل وتوحد الكلمة(١٢١) .

ومع هذا فقد سلك الصليبيون طريق الخداع والمداهنة، ولجأوا إلى تفريق زعماء البيت الأيوبي من جديد (١٢٤٣-١٢٤٤ م) وتحالفوا هذه المرة مع أميرَ دمشـق الصـالح إسمـاعيل وأمـير الأردن النـاصر داود

(١١٧) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٠

(118) Stevenson : op. cit. p. 317

(119) Grousset : op. cit. III, p. 394,
Runciman : op. cit. III,pp.218-19

(120) Stevenson : op. cit. p. 321

(121) King : op. cit. p. 224

وصاحب حمص المنصور إبراهيم ضد سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب[١٢٢]، فأصبح الصالح إسماعيل - أمير دمشق - مستهجناً من رعاياه ومكروهاً من ابن أخيه، نظراً لتحالفه هذا مع الصليبيين، وبلغ به الجحود استعانته بالأعداء ضد ابن أخيه ووعد الصليبيين بتسليمهم بيت المقدس بحدودها القديمة، بما في ذلك الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهى التى ظلت بأيدي المسلمين منذ سنة ١٢٢٩ م[١٢٣]، وقام فعلا بتسليمهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان فضلاً عن بعض القلاع والحصون الهامة في فلسطين[١٢٤]، ثم وعدهم بإعطائهم جزءاً من مصر إن عاونوه على انتزاعها من ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب، فتجمع الصليبيون وتهيأوا مع حليفهم لغزو مصر واتجهوا فعلاً إلى غزة مع بقية الحلفاء المسلمين[١٢٥]. وأمام هذا الحلف اضطر الصالح نجم الدين أيوب إلى الاستعانة بالخوارزمية الذين كانت جموعهم تهيم في أطراف العراق والجزيرة[١٢٦].

تلقى الخوارزمية دعوة الصالح نجم الدين أيوب بترحاب وفرح، وبادر نحو عشرة آلاف من فرسانهم بالزحف جنوباً تجاه بلاد الشام عن طريق وادي نهر العاصي، فأتلفوا كل ما صادفوه من بلاد حتى دمشق، ثم تحولوا إلى الجليل، فاستولوا على طبرية ثم على نابلس، ومنها اتجهوا إلى بيت المقدس، فأنزلوا الخراب والدمار بكل ما صادفهم[١٢٧]، وأخيرا وصلوا إلى بيت المقدس في ١١ يوليو سنة

---

(١٢٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٢

(123) Runciman : op. cit. III, p. 223

(١٢٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٠٣

(125) Stevenson : op. cit. p. 322

(١٢٦) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣١٥

(١٢٧) الكتاب المنسوب إلى روثلان بعنوان تتمة كتاب وليم الصوري ص ١٢٧ (ترجمة د. أسامة زيد). King : op. cit. p. 232.

١٢٤٤م، فاقتحموا المدينة من الجزء الذي يحرسه الأرمن واستولوا عليها بسهولة بالغة، وقتلوا كل من صادفوه فيها من الصليبيين، وطاردوا كل من خرج منها قاصداً يافا وعدتهم نحو ستة آلاف شخص، فلم ينج منهم إلا بضع مئات(١٢٨). ودمر الخوارزمية معظم أجزاء كنيسة القيامة، وبعض الأماكن الدينية الأخري، فشفوا بذلك غلة انتقام المسلمين، نظراً لأن الصليبيين عبثوا بحرية الأماكن المقدسة الإسلامية في المدينة عند استيلائهم عليها حتى أن المؤرخ ابن واصل ذكر أنه زار المدينة قبل استردادها على أيدي الخوارزمية " فرأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليها قناني الخمر... ودخلت الجامع الأقصي وفيه جرس معلق وأبطل بالحرم الشريف الآذان والإقامة "(١٢٩)، وهكذا باستيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م عادت المدينة إلى المسلمين نهائياً وحتى الحرب العالمية الأولي(١٣٠).

وفي هذه الأثناء كانت قوات الحلف الصليبي الإسلامي، قد اتجهت نحو غزة للهجوم على مصر، فاتجه الخوارزمية نحو غزة أيضاً للاجتماع مع الجيش المصري الذي أنفذه الصالح نجم الدين أيوب للعمل معهم، والذي قدر بنحو خمسة آلاف جندي(١٣١)، وفي غزة نشبت معركة بين قوات الحلف الإسلامي الصليبي، ومثّل الجانب الإسلامي في هذا الحلف: المنصور إبراهيم أمير حمص وفي صحبته

---

(١٢٨) روثلان : نفسه ص ١٢٩ – ١٣٠ ،

Runciman : op. cit. III, pp. 224-5

(١٢٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٣٣ (تحقيق د. ربيع ومراجعة د. عاشور) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٣

(١٣٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٤٥

(131) Stevenson : op. cit. p. 323

جيش دمشق من لدن أميرها الصالح إسماعيل، وجيش الأردن من لـدن الناصر داود، وبين قوات الصالح نجم الدين أيوب بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس البندقـداري وحلفائـه الخوارزميـة وذلـك في أكتوبـر سـنة ١٢٤٤ م[١٣٢]، ويذهب بعض المؤرخـين المحدثـين إلى القـول بـأن ثمـة خلاف في الرأى بدا بين عقـلاء قـادة الصليبيـين وحلفـائهم الذيـن رأوا الانتظار حتى يبادئهم الطرف الآخر بالهجوم - كما حدث في حطين- وبين المسير للهجوم على أعدائهم وعدم انتظارهم، وانتصر الرأى الأخير - كما حدث في معركة حطين أيضا - [١٣٣].

وفي صبيحة يـوم ١٧ أكتوبـر سـنة ١٢٤٤ م جـرت معركـة غـزة الشهيرة التي استمرت يومين، أنزلت فيها جيوش الصالح نجـم الديـن أيوب والخوارزمية هزيمة سـاحقة بـالصليبيين ومـن والاهـم مـن حكـام المسلمين، فقتل من الشاميين نحو ألف وسبعمائة جندي، بينمـا هـرب أمير حمص ومعـه نحـو مـائتين وثمـانين فارسـاً، علـى حـين حـاصر الخوارزمية وبيبرس القسمين الآخرين من الجيـوش الصليبيـة، وأعملـوا فيهم القتل والأسر[١٣٤]، فقتلوا من الصليبيين - على حد قول الروايات العربية - أكثر من ثلاثين ألف رجل، على حـين سـيق مئـات غـيرهم أسـرى إلى مصـر[١٣٥]، حتـى عـدت هـذه الهزيمـة أكـبر كارثـة حلـت بالصليبيين منذ حطين سنة ١١٨٧ م، وأطلق المؤرخون على تلك الموقعة اسم " حطين الثانية " [١٣٦].

---

(132) Runciman : op. cit. III, p. 226

(133) King : op. cit. p. 233

(134) Ibid. p. 234

(١٣٥) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٤. المقريزي : السلوك ج١ ص ٣١٧

(136) Grousset : op. cit. III, p. 415

اتجه الخوارزمية والجيش المصري بعد ذلـك نحـو بـلاد الشام، فأخذ الخوارزمية يهاجمون ممتلكات الصليبيين حتى عكا، على حـين اتجـه الجيـش المصـري إلى دمشـق لتـأديب صاحبهـا المنشـق الصـالح إسماعيل، فاستطاع هذا الجيش أن يستولي على دمشق ويطـرد الصـالح إسماعيل منها ويؤدب صاحب الأردن بانتزاع أغلى ما في حوزتـه مـن مدن وقلاع فلم يبق له سوى القليـل[١٣٧] . وغـدا الصـالح نجـم الديـن أيوب أقوى شخصية في مصـر والشـام، وأعـاد وحـدة دمشـق والقـاهرة وبيت المقدس من جديد .

على أن الخوارزمية ما لبثوا أن أثـاروا مشـكلة مـع حليفهـم، إذ كانوا يأملون أن يقاسمهم البلاد التي تساقطت واحدة تلو الأخرى بعـد تحالفهم معه ولكنه أباح لهم منطقة الساحل على أن يعملوا هناك علـى حساب الصليبيين وحرم عليهم دخول دمشـق أو الاقـتراب منهـا[١٣٨] ، وعندئذ استبد بهم الغضب ولجأوا إلى التحالف مع أعداء الصالح أيـوب طريدي دمشـق والأردن، وحـاولوا استمالة قـائده ركـن الديـن بيـبرس البندقداري، وألقوا الحصار على دمشق مدة تقرب مـن ثلاثـة أشـهر في صيف سنة ١٢٤٦ م[١٣٩] ، حتى ساءت أحوالها كثيراً، ولكن الصـالح نجم الدين أيوب ما لبث أن قبض على قائده بيـبرس واسـتمال بعـض حلفاء الخوارزمية، فتمكن من إنـزال هزيمـة ثقيلـة بهـم في مـايو سـنة ١٢٤٦ م، فتبـدد شملهـم وتفـرق جمعهـم، ولم تقـم لهـم بعـد ذلـك قائمة[١٤٠] .

---

(١٣٧) ابـن واصـل : مفـرج الكـروب ج٥ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ (تحقيـق د. ربيـع ومراجعة د. عاشور) ، المقريزي: السلوك ج١ ص ٣٢١

(138) Runciman : op. cit. III, p. 228

(139) Stevenson : op. cit. p. 324

(١٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٥٩ ، أبو المحاسـن: النجـوم الزاهـرة ج٦ ص ٣٢٥، المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٢٤

ودلل الصالح نجم الدين أيوب بعد ذلك على أنه أقوى رجل في المنطقة، فقد استولى على طبرية في العام التالي، واقتحمت جيوشه وأساطيله من البحر مدينة عسقلان، التي كانت في حوزة الاسبتارية، وذلك في أكتوبر سنة ١٢٤٧ م، وأمر بتخريبها حتى لا يتخذها الصليبيون قاعدة لهم[١٤١]، وقام بزيارة الشام في شتاء سنة ١٢٤٨ - ١٢٤٩ م ودخل بيت المقدس وأمر بتحصينها وتلقي في بلاد الشام فروض الطاعة والولاء من أمراء البيت الأيوبي، وبدا وكأن الوحدة الإسلامية قد عادت ترفرف على ربوع البلاد[١٤٢].

---

(١٤١) روثلان : تتمة كتاب وليم الصوري ص ١٣٤ (ترجمة د. اسامة زيد)،
Runciman : op. cit. III, p. 229

(١٤٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٢٧، ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ (تحقيق د. ربيع ومراجعة د. عاشور)

الفصل الرابع عشر

حملة لويس التاسع على مصر

الفصل الرابع عشر
الحملة الصليبية السابعة حملة لويس التاسع على مصر

كان وقع استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م للمرة الثانية ثقيلاً على الغرب الأوربي ،وأحدث دوياً هائلاً هناك، لا سيما وقد اعتدى الخوارزمية المسلمون على بعض أماكن العبادة والمواضع المقدسة [١] ، ثم اقتحم الصالح نجم الدين أيوب بعد ذلك مدينة عسقلان وسواها بالأرض، ولهذا دعا البابا أنوسنت الرابع إلى حملة صليبية جديدة ،ونوقشت هذه القضية في مجمع ليو ن في صيف سنة ١٢٤٥ م، الذي أوصي بإنفاذ حملة جديدة إلى الشرق [٢] ،واستجاب الغرب الأوربي سريعاً لنجدة صليبي الشام، خاصة الملك الفرنسي لويس التاسع .

ويبدو أن أهداف البابا أنوسنت الرابع بدعايته لهذه الحملة، واستجابة الملك الفرنسي -لويس التاسع- للقيام بها [٣]، لم تقتصر على الرغبة في خدمة الصالح الصليبي المباشر، واسترجاع مدينة بيت المقدس فحسب، بل تعدت ذلك وانطوت أيضاً على فكرة اجتذاب القوة التي هدمت دولة الخوارزمية الاسلامية، أى قوة المغول الوثنيين إلى حلف صليبي مغولي لهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام، وجعل الشرق الأدنى الاسلامي كله بين شقي الرحى، وفتح أبواب آسيا

---

(١) الكتاب المنسوب لروثلان ص ١٣٠ بعنوان: تتمة كتاب وليم الصوري (ترجمة د. أسامة زكي زيد)

(2) Lamb: The Crusades, the flame of Islam, p.285 (London 1930)

(٣) جوانفيل : القديس لويس- حياته وحملاته على مصر والشام ص ٧٥-٧٦ (ترجمة د. حسن حبشي)

للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين المغول والترك بل والمسلمين أيضاً[٤].

أما لماذا استجابت فرنسا بالذات وملكها لويس التاسع للقيام بهذه الحملة، فيشير المؤرخون إلى حدوث حلقة جديدة من النزاع بين الإمبراطورية والبابوية في ذلك الوقت وانغماس كل من ألمانيا مركز الإمبراطورية وإيطاليا مقر البابا في هذا النزاع[٥] ،الأمر الذي حال دون تكاتف ألمانيا وإيطاليا مع فرنسا في هذه الحملة، هذا فضلاً عن انشغال ملك انجلترا هنري الثالث بمشاكله الداخلية فلم تتمكن انجلترا من المشاركة في هذه الحملة[٦] ، فكان مقدراً على فرنسا وملكها لويس التاسع القيام بهذه المهمة ، خاصة وقد اشتهر لويس التاسع بورعه وتقواه حتى لقب بالقديس لويس[٧] .

وترجع حماسة لويس التاسع للخروج على رأس هذه الحملة إلى ما حدث من إصابته بمرض خطير في أواخر سنة ١٢٤٤ م ،فنذر خلال مرضه أنه إذا أبلي من هذا المرض فسوف يقوم بحملة صليبية على الشرق[٨] ،وما أن شفي من مرضه، وتلقي دعوة البابا للقيام بهذه الحملة حتى وجد في ذلك فرصة للوفاء بنذره وتنفيذ ما وعد به، فبدأ يستعد لحملته، واستأجر عدداً من السفن من جنوة ومن مرسليا لهذا الغرض[٩] ، وظل خلال ثلاث سنوات (١٢٤٥ - ١٢٤٨ م) يشرف

---

(٤) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ٨٣ - ٨٤

(٥) انظر محمد الشيخ : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ص ٣٥٠،
Bryce : The Holy Roman Empire, p. 208

(٦) زيادة : حملة لويس التاسع ص ٩٠

(٧) جوانفيل: القديس لويس ص ٣٢، ص٤٧، ص ٥٦، Stevenson: op. cit. 325

(٨) روثلان: تتمة كتاب وليم الصوري ص١٣٨- ١٣٩، Matthieu Paris,II,p.37-8

(9) Heyd : Hist. des Commerce, I, p. 409

على الإستعدادات للحملة بتوفير المؤن والسلاح والذخيرة، ثم انتقل إلى جنوب فرنسا، ومنهـا أبحـر في أواخـر أغسطس سنة ١٢٤٨م قـاصداً الشرق مصطحبـاً معـه زوجتـه وأخويـه روبـرت دي أرتـوا وشـارل دي أنجو، فضلاً عن عدد آخر من كبـار باروناتـه الفرنسـيين وأتبـاعهم[١٠] ولم ينسى الملك قبل رحيله أن يحصل على وعد من ملك إنجلترا بعـدم شن هجوم على فرنسا أثناء غيابه في هذه المهمـة الصليبيـة ،ولم ينـس أيضاً أن يحيط الإمبراطور فردريك الثاني علماً بما هو عازم عليه ونيتـه أيضاً في الذهاب إلى فلسطين باعتبـار الإمـبراطور ملكـاً سـابقاً للمملكـة الصليبية ووالداً لملكها الشرعي كونراد الذي أنجبه من يولندا ابنة جان دي برين[١١] .

ولقد رحب الشرق الصليبي ترحيباً حاراً بالملك الفرنسـي، نظـراً لأن صليبي الشام في القرن الثالث عشر غلب عليهو الطـابع الفرنسـي، كمـا انحـدر كبـار أمرائهـم مـن أصـل فرنسـي، ولهـذا كـانت الحملـة الصليبية السابعة في مجملها -على حد قول أحد المؤرخين المحدثـين- حملة فرنسية[١٢]، وربما يكمن في ذلك التأييد الذي لقيتـه الحملـة مـن الإمارات الصليبية، وكل أمراء الصليبيـين في بـلاد الشـام الذيـن أيـدوا الملـك لويـس التاسـع وسـار بعضهـم تحـت قيادتـه، وأمـدوه بـالجند والمحاربين[١٣] .

ونظراً لأن الإمبراطور فردريك الثاني، لم يكن يسـتطيع معارضـة حملة لويس التاسع الصليبية أو يجرؤ علـى إعـلان رأيـه فيهـا، لأنـه

---

(١٠) جوانفيل: القديس لويس ص٨١-٨٢. روثلان: تتمة كتاب وليم الصوري ص١٣٩
Calmette: Le Monde Feodal, p. 419 (Paris 1937)

(١١) زيادة : المرجع السابق ص ٩٠

(12) Stevenson : op. cit. p. 325

(١٣) جوانفيل : القديس لويس ص ٩٤

الإمبراطور المنادي بحل المسألة الصليبية بالمفاوضة وبالحسنى وبالطرق الدبلوماسية ، لا بالحرب والاعتداء وسفك الدماء[١٤] ، فقد أرسل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب سفارة سراً ، ينقل إليه أخبار حملة لويس التاسع ، ويطلعه على نوايا الملك ووجهته ضد مصر، ويحذره منها ، فقد احتفظ الإمبراطور منذ عودته إلى الغرب سنة ١٢٢٩ م بعلاقات طيبة مع الملك الكامل ، وظل محافظاً على هذه العلاقات مع ابنه الصالح نجم الدين أيوب[١٥] ،كما عارض هذه الحملة أيضاً البنادقة ، ورفضوا تأجير سفنهم للملك ، نظراً لمصالحهم الإقتصادية في مصر وفي بلاد الشام ، ولهذا لم يؤيدوا فكرة الهجوم على مصر خشية أن يؤدي ذلك إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية فيها وبالتالي تهديد مصالحهم هناك[١٦] .

عرج لويس التاسع في طريقه على جزيرة قبرس، فقد وصلت طلائع سفن الملك إلى ميناء ليماسول في ١٧ سبتمبر سنة ١٢٤٨ م ، فقضى بالجزيرة نحو تسعة أشهر (من سبتمبر ١٢٤٨ م إلى مايو ١٢٤٩م) ، حصل فيا على كميات وفيرة من المؤن وعلى مساعدات بشرية عظيمة من المحاربين ، فضلاً عن أنه استقبل في الجزيرة كبار زعماء الصليبيين في بلاد الشام وممثلي طوائف الاسبتارية والداوية وكثير من شخصيات الصليبيين في الشام[١٧] ،وقام بمحاولة التوفيق بينهم وترتيب أمر الدفاع عن الصليبيين بالشام أثناء حملته على مصر[١٨] ،كما أيقن الملك خلال تلك الاتصالات أن الطريق السليم

---

(١٤) زيادة : حملة لويس التاسع ص ٩١

(١٥) المقريزي :السلوك ج١ ص٢١٩ (ط بولاق)، أبو المحاسن:النجوم ج٦ ص٢٨٣

(16) Heyd : op. cit. I, pp. 409 - 12, زيادة : المرجع السابق ص ٩١

(17) King : op. cit. p. 242

(18) Stevenson : op. cit. p. 325

للحصول على بيت المقدس، هو البدء بغزو مصر، وأن مفتاح المدينة المقدسة موجود فعلاً في مصر[١٩]، فلا معنى أن يستولي الصليبيون على بيت المقدس، ثم تخرج الجيوش من مصر لاجهاض كل ما أنجزه الصليبيون ببلاد الشام وفلسطين[٢٠].

فضلاً عن أن الهجوم على دمياط بالذات والاستيلاء عليها فيه محو للعار الذي لحق بالصليبيين في حملة جان دي برين، ويمكن استخدامها للمساومة مع الأيوبيين للمبادلة ببيت المقدس، بالاضافة إلى أن الاستيلاء على دمياط بإمكاناتها البحرية والتجارية، يعطي الصليبيين فرصة مكافأة المدن الإيطالية التي أسهمت معهم بسفنها في نقل الجنود وعتاد الحملة[٢١]. معنى ذلك أن نية الملك كانت متجهة إلى اتخاذ نفس الطريق الذي سلكته حملة جان دي برين مع ما في ذلك من تجاهل لصعوبات هذا الطريق، وهي التي أدت إلى فشل حملة جان دي برين قبل ذلك بنحو ثلاثين عاماً[٢٢].

وأخيراً أبحر لويس التاسع من قبرس في مايو سنة ١٢٤٩ م، ووصل أمام دمياط في ٦ يونيو سنة ١٢٤٩ م[٢٣]، على رأس جيش كبير بالغ المؤرخون كثيراً في عدده، فذهبوا إلى أنه بلغ نحو خمسين ألف محارب، وإن أشارت المصادر الغربية إلى أنه تشكل من نحو ٢٨٠٠ فارس، فضلاً عن المشاة والبحارة وغيرهم من التابعين، مما يصل به إلى نحو ثمانية وعشرين ألفا من الرجال[٢٤].

---

(19) Runciman: op. cit. III, p. 258

(20) Grousset : op. cit. III, p. 434

(٢١) زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ٩٤

(22) Oman : A Hist. of the Art of war in the Med. Ages, p. 340

(٢٣) روثلان: تتمة كتاب وليم الصوري ص١٤٤. جوانفيل: القديس لويس ص٩٢-٩٥

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٥٥.

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٩ (ط القاهرة)

سقوط دمياط في أيدي الصليبيين :

حينما أيقن الملك الصالح نجم الدين أيوب أن وجهة لويس التاسع هى مصر، سارع بالانتقال إليها من دمشق، على الرغم من أنه كان يعاني من آلام مرض الموت، ولذلك حملوه على الاكتاف في محفة، فوصل إليها في أواخر إبريل سنة ١٢٤٩ م[٢٥]، ثم انتقل مباشرة إلى أشموم طناح بالقرب من دكرنس الحالية، حينما تأكد أن دمياط هى هدف الحملة، فاتخذ من أشموم طناح مركزاً لعملياته المتوقعة مع الصليبيين، ونصب فيها معسكره ليكون في مواجهة الصليبيين حينما يصلون إلى دمياط، لا يفصله عنهم سوى بحر أشموم[٢٦].

وفي أشموم طناح انعقد مجلس حول سرير السلطان المريض تقرر فيه أن يسير الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بجزء من الجيش المصري إلى دمياط، ثم يعبر النيل على جسر عائم من السفن إلى الناحية الأخري أو الشاطيء الغربي للنيل قبالة دمياط، لمنع الصليبيين من النزول على البر الغربي[٢٧]. وأتاح تأخر الملك لويس في قبرس شهوراً طويلة فرصة للصالح نجم الدين أيوب لتحصين دمياط وشحنها بالعساكر والأسلحة والأقوات، وحشد السفن في النيل لتكون حاجزاً مانعاً ضد هجمات الصليبيين، على الرغم من أن ذلك استنفد كثيراً من جهد وفكر الصالح نجم الدين أيوب، الذي كان يعاني معاناة شديدة من مرضه العضال، حتى اضطر الأطباء إلى قطع فخذه حين استفحل داؤها، وفسدت تماماً " فقطعوها وهو حي "[٢٨].

---

(25) Stevenson : op. cit. p. 325

(26) King : op. cit. p. 243

(٢٧) المقريزي : السلوك ج١ ص ١٩٨ (نشر زيادة)

(٢٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٢ (ط لبنان)

ووسط هذه الأحداث رست سفن الصليبيين على الشاطيء الغربي للنيل، إلى الغرب قليلاً من مصب النيل في البحر، بعد أن فشل الأمير فخر الدين في منع رسوها، على الرغم من اندلاع معركة شديدة بين الجانبين استمرت من الصباح حتى الظهيرة على قول روثلان: "وعندئذ تقهقر الأتراك للوراء وعبروا إلى دمياط" [٢٩]، بينما يشير جوانفيل إلى أن الصليبيين سارعوا بالنزول إلى الماء قبل رسو سفنهم، حينما أبصروا المسلمين مندفعين نحوهم، حتى أن الملك لويس نفسه نزل إلى الماء متقدماً إليهم غير مستمع لنصح رجاله "فلما صاروا (المسلمين) جد قريبين منا ورأوا الرماح توشك أن تخترق بطونهم ولوا مدبرين" [٣٠].

ويبدوا أن الملك اضطر هو ورجاله إلى شق طريقهم بالقوة إلى البر الغربي للنيل متكبدين بعض الخسائر، ولولا كثرة جندهم بالنسبة للفرقة الاسلامية لم يكن الملك ليحرز هذا التقدم، واضطرت فرقة الأمير فخر الدين إلى إخلاء المكان، وعبرت إلى دمياط، ثم أكملت انسحابها جنوباً إلى أشموم طناح في صبيحة يوم ٢١ يونيو ١٢٤٩ م[٣١]، فسيطر الذعر على أهل دمياط وعلى الحامية فيها واستبد القلق والخوف بهم، فتركوا المدينة هاربين في إثر الأمير فخر الدين بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم، وفي غمرة الفوضي نسي الهاربون أن يقطعوا الجسر الواصل بين المدينة والناحية الغربية للنيل[٣٢] فسهلوا مهمة الصليبيين وأصبح العبور إلى دمياط أمراً ميسوراً أمام الملك لويس الذي لم يتردد في العبور وفي دخول المدينة في ٦ يونيو سنة ١٢٤٩ م دون قتال[٣٣]، واستولي

(٢٩) روثلان : تتمة كتاب وليم الصوري ص ١٥٣

(٣٠) جوانفيل : القديس لويس ص ٩٤ - ٩٥

(٣١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٣ ص ١٨٧

(32) Davis : Invasion of Egypt, p. 26

(33) Stevenson : op. cit. pp. 325 - 6

الصليبيون فيها على كميات هائلة من الأسلحة والذخائر والمؤن والزاد والأموال والأمتعة دون عناء[٣٤]، وما لبثوا أن جدوا في تحويل المدينة إلى مدينة فرنجية، فحولوا جامع دمياط إلى كنيسة باسم نوتردام، وعينوا لها بطريركاً كاثوليكياً كما حولوا المساجد الأخرى إلى كنائس[٣٥]، واستفادوا كثيراً مما وجدوه في المدينة من مؤن وذخائر[٣٦].

وجدير بالذكر أن سقوط دمياط على هذه الصورة قد أثار الأسي في النفوس خاصة وأنها استسلمت سريعاً برغم ما حشد بها من الرجال والسلاح هذه المرة، وكانت قد صمدت نحو ثمانية عشر شهراً إبان حملة جان دي برين قبل ذلك بنحو ثلاثين عاماً أيام الملك الكامل[٣٧]، الأمر الذي أشار إليه المؤرخون معللين ذلك بأنه لو بقي بها فخر الدين يوسف بين شيخ الشيوخ، ولم يتراجع عنها إلى أشموم طناح لصمدت المدينة ولم تسقط بهذه السهولة[٣٨]. وقد أحس بذلك المؤرخ الصليبي المرافق للحملة جوانفيل الذي قال إن الله كان عطوفاً "حين مكننا من الاستيلاء على دمياط، وإلا ما كان لنا أن نستولي عليها إلا بالمجاعة"[٣٩]. وأكد هذه الحقيقة روثلان في الكتاب المنسوب إليه حين قال: "لأن مدينة دمياط كانت محصنة بالأسوار والخنادق وبعدد كبير من الأبراج المتينة والعالية... فضلاً عن الآرت الكثيرة والأسلحة.. ولايمكن الاستيلاء عليها إلا بمجهود شاق وقوة كبيرة"[٤٠].

---

(٣٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٣٦

(٣٥) روثلان : تتمة كتاب وليم الصوري ص ١٥٦

(36) Michaud: op. cit. T, 4, p. 134

(37) King : op. cit. p. 194,Runciman : op. cit. III, p. 161

(٣٨) ابو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٣٠

(٣٩) جوانفيل : القديس لويس ص ٩٦-٩٧

(٤٠) روثلان: المصدر السابق ص ١٥٥

ولقد علل البعض انسحاب الأمير فخر الدين من أمام دمياط سريعاً بسريان إشاعة بوفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، الذي كان يعاني في ذلك الوقت آلام مرض الموت، فبادر بسحب فرقته والعودة تواً إلى أشموم طناح، إذ يبدو أن هذا الأمير كانت له آمال واسعة في السلطة[٤١] فحرص ألا تفوته الفرصة وانسحب سريعاً ليشارك في الأحداث في المعسكر الإسلامي. والغريب أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب لم يشك في إخلاص هذا الأمير، ولم يأمر بعقابه، بل عاقب فرسان بني كنانة ومحاربيهم وهم الذين وكل إليهم الدفاع عن دمياط واشتد كثيراً في التنكيل بهم[٤٢] .

لم يبادر لويس التاسع بالزحف بعد سقوط دمياط، ولكنه أضاع نحو خمسة أشهر في المدينة (يونيو – نوفمبر ١٢٤٩ م)، انتظاراً لانحسار الفيضان من ناحية ووصول الإمدادات التي طلبها وعلى رأسها أخوه ألفونس دي بواتيه من ناحية أخري[٤٣] ، ولكنه أمر أن ينقل معسكر الصليبيين إلى الضفة الغربية للنيل فيمواجهة مدينة دمياط، ولم يبق في دمياط سوى كبار السن وبعض رجال الدين وغير القادرين على الحرب والنساء[٤٤] ،فكانت هذه الشهور الخمسة فرصة طيبة للأيوبيين لتنظيم جيوشهم وجمع شملهم، والاستعداد لصد الصليبيين لو فكروا في الإتجاه جنوباً ناحية القاهرة، وإن لم تخل هذه الفترة من هجمات المسلمين على معسكر الصليبيين وإحداث بعض الخسائر في رجال الملك الفرنسي[٤٥] . وأضرت هذه الفترة الطويلة من التراخي الصليبيين، فقد

---

(٤١) زيادة : حملة لويس التاسع ص ١١٤

(٤٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٧٢– ٧٧٤ (ط حيدر أباد)

أبو شامة : الذيل ص ١٨٣

(٤٣) جوانفيل : نفسه ص ١٠١

(44) Grousset : op. cit. III, p. 447

(٤٥) جوانفيل : القديس لويس ص ٩٩ – ١٠١

اختل النظام في معسكرهم وساد الافراط في الإثم على حد قول مؤرخيهم، فضلاً عن ضيقهم بشدة الحرارة وكثرة الذباب والبعوض[٤٦].

وفي رأى بعض المؤرخين المحدثين كان الانتظار الطويل هذا أحد أخطاء الملك الفرنسي لا سيما وأن جيشه لم يكن بحاجة إلى أية راحة بعد دخول دمياط، لأنه لم يبذل جهداً في دخولها ولم يكن بحاجة إلى إعادة تنظيم الصفوف[٤٧]. على كل حال قضى الملك نحو خمسة أشهر بعد استيلائه على دمياط على الرغم من أن المرض ما لبث أن اشتد على السلطان الصالح نجم الدين أيوب، حتى عجز عن النهوض من الفراش، فحمل إلى قلعة المنصورة في حراقة سارت به الهوينا في بحر أشموم حتى نزل بالمنصورة في ٨ يونيو سنة ١٢٤٩ م (٢٤ صفر سنة ٦٤٧ هـ)، ومنها ظل ينظم شئون الدفاع[٤٨].

واصل المسلمون الاغارة على المعسكر الصليبي وأسر بعض الجند وإرسالهم إلى القاهرة حتى ترتفع الروح المعنوية للناس واضطلع العربان والبدو بدور كبير في هذه الإغارات إذ قال روثلان: "وكان البدو يأتون ليلاً لسرقة الخيول ولقطع رءوس الرجال، ويقال أن سلطان مصر كان يعطي على كل رأس صليبي تجلب له عشرة بيزنط"[٤٩] وبلغت هذه الإغارات حداً أقلق الملك لويس حتى أمر بتشديد الحراسة على المعسكر، ووصل ألفونس دي بواتيه على رأس المدد المنتظر في أواخر أكتوبر، فاستقر الرأى على الزحف إلى القاهرة[٥٠]، لا سيما في الظروف التي بدأت تعيشها الدولة الأيوبية.

---

(46) Grousset : op. cit. III, P. 447

(47) Oman : op. cit. p. 341

(٤٨) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ص ١٨٧

(٤٩) روثلان : المصدر السابق ص ١٥٧

(٥٠) جوانفيل : المصدر السابق ص١٠١-١٠٢، Runciman:op. cit. III,p.264

فقد خرجت الحملة من دمياط في ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٢٩ م (١٢ شعبان سنة ٦٤٧ هـ) ورافقها عدد كبير من السفن في النيل، واتجهت جنوباً في البر والنهر، بينما بقيت في دمياط حامية قوية، وبعد تحرك الحملة بثلاثة أيام (٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة[٥١] ،أو كما يقول أحد كبار المؤرخين المحدثين ربما أعجلت قرارات هذا الزحف وفاة السلطان الصالح أيوب الذي عده المؤرخ أبو المحاسن بن تغري بردي أعظم سلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين[٥٢] ،ولم يكن له سوى ابن واحد يدعي تورانشاه كان مقيماً في حصن كيفا وديار بكر بأطراف العراق نائباً عن والده بها[٥٣] .

وفي هذه الظروف الحرجة ظهرت شجر الدر - زوجة الصالح أيوب - لتنهض بدور بارز في الأحداث، فقد أخفت نبأ وفاة السلطان وجمعت الأمراء وحصلت منهم على مبايعة لولد السلطان " المعظم تورانشاه" ، كما أرسلت كبير المماليك البحرية لاستحضار تورانشاه من حصن كيفا على عجل[٥٤] ،في الوقت الذي عهدت فيه إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بمواصلة تنفيذ خطة الدفاع، بعد أن حصلت له من الأمراء على يمين وإقرار باستمرار ولايته أتابكية العسكر أى قيادة الجيش حتى لا يشعر الصليبيون بأى تغير في المعسكر الاسلامي، وريثما يصل المعظم تورانشاه من حصن كيفا[٥٥] ، وظلت المراسيم والكتب تخرج ممهورة بالعلامة السلطانية أى بتوقيع السلطان المتوفي،

---

(51) Stevenson : op. cit. p. 326

(٥٢) ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٣٧،زيادة :المرجع السابق ص١٢٦

(٥٣) ابن تغري بردي : نفسه ج٦ ص ٣٦٤

(٥٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٣

(٥٥) أبو الفدا:المختصر في أخبار البشر ج٣ص١٨٨ . Stevenson:op. cit. p.326

والتي كان يقوم بتقليدها إما شجر الدر نفسها أو أحـد غلمانهـا، كـأن السلطان حي يرزق[٥٦].

وعلى الرغم من كل ذلك يبدو أن خبر وفاة السلطان تسرب إلى المعسكر الإسلامي فعلم به المحاربون المصريون، ثم تسرب بعد ذلك إلى الصليبيين في أوائل شهر ديسمبر أى وهم في طريقهم إلى المنصورة – كما يرجح أحد المؤرخين المحدثين[٥٧] – فقرر رأى الملك لويس على الإستفادة من هذه الظروف والزحف سريعاً إلى القاهرة[٥٨].

هزيمة لويس التاسع وأسره :

اختار لويس التاسع أن يزحف بجيشه جنوباً على الناحية الشرقية لفرع دمياط، وهو نفس الطريق الذي سلكته حملة جان دي برين من قبل، متتبعاً فرع النيل جنوباً، فتحرك في ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٢٩ م في المنطقة التي أطلق عليها " جزيرة دمياط "[٥٩]، وهى التي يحدها الماء من ثلاثة جهات : بحيرة المنزلة شرقاً، وفرع دمياط غرباً، وبحر أشموم المعروف اليوم باسم البحر الصغير جنوباً، حيث سار الملك ببطء وبحذر شديد[٦٠]، وتوقف أكثر من مرة بسبب العقبات المائية والطينية التي تخلفت عن مياه الفيضان، فضلاً عن مياه الفيضان، فضلاً عن هجمات الخيالة المصريين، بالاضافة إلى ما عانوه بسبب الرياح الشديدة التي واجهتهم. فاستغرق زحف الحملة من دمياط إلى فارسكور الحالية ثلاثة عشر يوماً وهي مسافة لا تزيد عن

---

(٥٦) على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٣٧

(٥٧) زيادة : المرجع السابق ص ١٣١ – ١٣٢

(٥٨) جوانفيل : القديس لويس ص ١٠٣

(٥٩) زيادة : نفسه ص ١٢٨

(60) Runciman : op. cit. III, p. 265

ثمانية وأربعون كيلوتراً[٦١] ،في الوقت الذي أقام فيه الأمير فخر الدين في المنصورة وأخذ ينظم منها الهجمات المضادة ضد الصليبيين مستغلاً وقوع بحر أشموم بينه وبينهم يعوق تقدمهم ويعترض طريقهم[٦٢] .

وفي أوائل ديسمبر نجحت فرقة من الجيش الإسلامي في مهاجمة الصليبيين بين فارسكور وشرمساح، فقتلت بعض الصليبيين وأسرت أعداداً منهم أرسل بعضهم تباعاً إلى القاهرة[٦٣] ،ولكن الصليبيين واصلوا السير جنوباً وسارت بالقرب منهم في النيل سفنهم تحمل لهم المؤن والزاد من دمياط، ووصلوا في ٢١ ديسمبر إلى رأس " جزيرة دمياط" وهي نقطة تفرع بحر أشموم من فرع النيل قبالة المنصورة، ولم يعد يفصلهم عن المسلمين سوى بحر أشموم[٦٤] ، وبذلك يكونون قد قضوا نحو شهر كامل في مسيرهم من دمياط إلى هذه النقطة[٦٥] ،بعد أن استولوا على شرمساح ثم على البرمون، فلما وصلوا إلى قبالة المنصورة اضطرب الناس في كل أنحاء مصر " وزلزلوا زلزالاً شديداً " على وصف المقريزي[٦٦] .

وبوصول الصليبيين إلى تلك النقطة صاروا محميين بالمياه من جهتين وقام لويس من جانبه بحماية الجهة الثالثة لمعسكره بحفر خندق ملأه بالماء لحماية ظهر جيشه خوفاً من هجمات المسلمين فضلاً عن بناء سور آخر يحمي ظهرهم، كما فكر في عمل جسر يعبره إلى

---

(٦١) روثلان: المصدر السابق ص ١٦٥. جوانفيل : نفسه ص ١٠٣.
زيادة : نفسه ص ١٢٨

(62) King : op. cit. p. 244

(٦٣) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٤٧. Stevenson : op. cit. p. 326-7

(64) Runciman : op. cit. III, 265

(٦٥) روثلان : المصدر السابق ص ١٦٥

(٦٦) المقريزي : الخطط ج١ ص ٢٢١ (ط بولاق)

الناحية الأخري لبحر أشموم وذلك بطم الماء وسد المجري، فضلاً عن وقوف سفنه في النيل تحمي جانب جيشه من هذه الناحية[٦٧] ولهذا فقد بقي الملك في تلك البقعة أكثر من شهر ونصف حتى ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م ولما أحس أنه شبه محصور في تلك المنطقة الضيقة التي لا تسمح بالمناورة، فضلاً عن تعثر محاولاته لعبور بحر أشموم إلى المنصورة لمرابطة الجيش الأيوبي هناك وتحفزه للقتال[٦٨] ،وهجماته المتكرره على المعسكر الصليبي ونجاح المسلمين في تعطيل عمل الجسر، فكلما سد الصليبيون جزءاً من مجري بحر أشموم قام المصريون بتوسيع المجري من ناحيتهم بقدر تضييقه من ناحية الصليبيين[٦٩] ، حتى اتضحت في النهاية للملك استحالة إقامة هذا الجسر للعبور إلى معسكر المنصورة والاشتباك مع المسلمين في معركة فاصلة كان يتوق إلى خوضها[٧٠] .

لذلك عول الملك على عبور ذلك العائق المائي بأية وسيلة، ولم يضع في ذلك وقتاً طويلاً، إذ ما لبث أن علم من نفر من سكان بلدة سلمون[٧١] ، عن موضع مخاضة تسمى مخاضة سلمون يستطيع الملك أن يعبر منها بحر أشموم إلى الناحية الأخري دون عناء[٧٢] ، وهكذا

---

(٦٧) روثلان : نفسه ص ١٦٧

(68) King : op. cit. p. 244, Grousset : op. cit. III, p. 453,

المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٤٨، روثلان : نفسه ص ١٦٧ – ١٧٠

(٦٩) روثلان : نفسه ص ١٧٠ – ١٧١

(٧٠) زيادة : حملة لويس التاسع ص ١٣٤

(٧١) اختلف المؤرخون في تحديد الهوية الدينية أو العرقية لهذا الخائن فمن قائل أنه من غير المسلمين ومن قائل أنه بدوي مسلم ومن قائل أنه أحد ضعاف النفوس الذي قدم هذه الخدمة نظير مبلغ من المال أنظر :

زيادة : المرجع السابق ص ١٤٤، Oman : op. cit. I, p. 345 (NI)

(٧٢) العيني : عقد الجمان (حوادث سنة ٦٤٧ هـ)

بدأ الجانب الأعظم من فرسان الصليبيين يعبرون هذا المجرى عبر المخاضة في ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م في سرية تامة وتحت جنح الظلام حتى الخيوط الأولى لفجر ذلك اليوم، وعلى مسافة نحو ستة كيلو مترات من المعسكر الإسلامي[٧٣] ،ولما أُبلغ بذلك الأمير فخر الدين خرج مسرعاً ليجعل جنده يركبون للقتال إلا أن فرسان الداوية الذين كانوا في طليعة الصليبيين عاجلوه فقتلوه وهو أعزل وبدون سلاح فمات شهيداً محتسباً، ومحي باستشهاده ما لصق به من اتهامات منذ انسحابه من دمياط، فأطراه المؤرخون من أجل ذلك وأكبروه[٧٤] وحتى مؤرخو اللاتين أيضاً إذ قال عنه روثلان " وكان رجلاً عظيماً وكانت له هيبة وسطوة تامة على أتباعه "[٧٥] ،وأحدث مقتله أثراً سيئاً في الجيش الأيوبي فتفرق الجند وقتل الكثيرون منهم وهرب البعض الآخر من المعسكر إلى المنصورة وكادت تحدث الكارثة وتقدم روبرت دي أرتوا على رأس فرقته التي قدرها المقريزي بنحو ألف وأربعمائة فارس تقدم بها ناحية المنصورة[٧٦] .

وأغري هذا النصر السريع الصليبيين بمواصلة الهجوم وتتبع القوات المنهزمة ناحية المنصورة فاندفع القائد الصليبي بحماقة وتهور غير منتظر بقية الجيش الصليبي - كما كانت تقضي الخطة - وغير مستمع لأوامر الملك[٧٧] ،أملاً في تحقيق الإنتصار النهائي على الأيوبيين والانفراد بمجد هذا اليوم دون بقية القادة، ولم يستمع لنصح قائد

---

(73) Stevenson : op. cit. p. 327

(٧٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٧٨

(٧٥) روثلان : تتمة كتاب وليم الصوري : ص ١٧٦

(٧٦) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٥٠

(٧٧) جوانفيل : القديس لويس ص ١١٤، روثلان : المصدر السابق ص ١٧٥

الفرسان الانجليز ومقدم الداوية، بل أنحى باللائمة على الداوية بالذات وألصق بهم تهماً كثيرة أوردها متى الباريسي في حولياته منها: أنهم لا يريدون انتصاراً للحملة على المسلمين كي تطول الحرب وتستمر وظائفهم الديرية ومسوحها العسكرية الزائفة[٧٨]، فاضطر هؤلاء جميعاً لمسايرته والاذعان لرأيه، فأوغل بهم داخل المنصورة وتجاه القصر السلطاني في أقصي الناحية الغربية من المدينة لطلب تسليم الأيوبيين واعترافهم بالنصر الصليبي، في الوقت الذي اجتمع فيه المسلمون حول قائد جديد هو بيبرس البندقداري، الذي تزعم المماليك الصالحية في معركة المنصورة ضد الصليبيين[٧٩].

ويعزي انتصار المسلمين في المنصورة إلى فرقة المماليك البحرية التي خرجت من مكامنها المحيطة بالقصر السلطاني، ونجحت في حركة تطويقية للصليبيين متفق عليها، فحصد المماليك بسيوفهم جموع الغزاة حتى بلغ عدد قتلى الصليبيين أكثر من ألف فارس، ومن لاذ منهم بالهرب ويمم وجهه تجاه النيل مات غرقاً حتى قدر المؤرخون المسلمون خسائر الفرنج بأكثر من ألف وخمسمائة فارس، في الوقت الذي كان فيه الجانب الأكبر من الجيش الصليبي لم يعبر بعد بحر أشموم[٨٠]، ولقي روبرت دي أرتوا نفسه مصرعه، فضلاً عن عدد كبير من أفراد الصليبيين ومبرزيهم، وكل فرسان الداوية باستثناء عدد لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة، وأصبحت المنصورة مقبرة لجيش لويس التاسع والمدينة التي أوقفت انتصار الجيش الصليبي وقضت على خيرة فرسانه[٨١]، وغدت معركة المنصورة فاتحة النصر على الصليبيين

---

(78) Matthieu Paris: Chronica Majora, V, p. 149

زيادة : المرجع السابق ص ١٥٢ , Oman : op. cit. I, p. 347 (NI)

(٧٩) العيني : عقد الجمان (سنة ٦٤٧ هـ)

(80) Grousset : op. cit. III, p. 459

(81) Grousset : op. cit. III, p. 465

وبداية النهاية للحملة الصليبية السابعة على مصر أو كما عبر المقريزي " أول ابتداء النصر على الفرنج " (٨٢) ،وعلى حد قول أحد المؤرخين المحدثين كانت معركة المنصورة انتصاراً مصرياً أيوبياً انتزعه الأمير بيبرس البندقداري من أنياب الهزيمة بخطة ماهرة(٨٣) .

وعلى الرغم من الانهيار الذي أصاب الملك لويس عقب سماعه أنباء تلك الكارثة وفقدان الصليبيين أمهر فرسانهم ومقتل روبرت دي أرتوا أخي الملك، إلا أنه تمالك نفسه، وكان قد عبر بحر أشموم وأقام معسكره على الناحية الأخري جنوبي بحر أشموم، فأخذ ينظم الدفاع عن معسكره(٨٤) ،ويتصدي لهجمات المسلمين الذين ملأهم انتصار المنصورة حماسة وقوة فشنوا هجوماً كاسحاً يوم ١١ فبراير " واتجهوا ناحية الملك بكبرياء وشجاعة نادرة وبكره كبير أيضاً" (٨٥) ، ولكن لويس تصدي لهم وأجبرهم على التراجع، فاعتبر أحد المؤرخين المحدثين وقعة يوم ١١ فبراير انتصاراً شخصياً للملك لويس التاسع ودليلاً على بطولته(٨٦) .

لكن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بعد ذلك، بعد أن قلت المؤن لديهم وانتشرت الأمراض والحميات بينهم فلقي حتفه عدد كبير منهم بسبب انتشار الطاعون بين الرجال والخيل فلم يكن " يحل عصر أي يوم إلا وكان يصل ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين صندوقاً تحوي جثث الموتي"(٨٧) وربما جرى ذلك بسبب تعفن جثث القتلى وتسمم

---

(٨٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٥١

(٨٣) زيادة : المرجع السابق ص ١٥٩

(٨٤) ابن تغري بردي : النجوم ج٦ ص ٣٦٤

(٨٥) روثلان : تتمة كتاب وليم الصوري ص ١٧٩

(86) Grousset : op. cit. III, p. 405 - 73

(٨٧) روثلان المصدر السابق ص ١٨٥

المياه إذ يذكر جوانفيل المرافق للحملة أنه لم تكد تنقضي تسعة أيام بعد معركة المنصورة " حتى أخذت جثث قتلانا.. تطفو على سطح الماء، وبلغت الجثث من الكثرة حداً امتلأ معه النهر بها طولاً وعرضاً حتى لم تعد العين قادرة على رؤية الماء" [٨٨] .

في الوقت الذي وصل فيه المعظم توارنشاه إلى المنصورة في نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ م ،بعد أن تم إعلانه سلطاناً وهو في دمشق في طريقه إلى مصر[٨٩] ،فلما وصل إلى المنصورة ارتفعت روح المسلمين المعنوية، وتهيأوا لإنزال الضربة القاصمة بالفرنج، فكان وصول السلطان علامة على بداية نشاط جديد للمصريين[٩٠] . فقد استهل السلطان الجديد عهده بمحاولة الإجهاز على الجيش الصليبي، فما لبث أن أمر ببناء عدة سفن حملت إلى بحر المحلة لتطرح في النيل خلف معسكر الصليبيين بعد شحنها بالمقاتلة للحيلولة بين الصليبيين وقاعدتهم في دمياط[٩١] ،ومنع ورود المؤن والزاد إليهم بطريق النيل، بل وقطع الطريق الذي كانوا يحصلون بواسطته على ما يحتاجون إليه من مؤن وزاد وعتاد[٩٢] ،فانقضت السفن المصرية على سفن الصليبيين فاستولت في مرة واحدة على نحو اثنتين وخمسين سفينة محملة بالمؤن والزاد والعتاد وأسرت كل من فيها من الرجال، وكانوا نحو الف رجل وصار نهر النيل في قبضة المصريين[٩٣] ،وأردفت هذه الهجمة بهجمات أخري فانقطع المدد عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم وصاروا محاصرين

---

(٨٨) جوانفيل : القديس لويس ص ١٤٠

(٨٩) المقريزي : السلوك ج١ ص٣٥١ -٣٥٢.ابن تغري بردي: النجوم ج٦ ص ٣٦٤

(90) Runciman : op. cit. p. 269

(٩١) جوانفيل : القديس لويس ص ١٤١

(٩٢) روثلان : تتمة كتاب وليم الصوري ص ١٨٧

(93) Stevenson : op. cit. p 327

" لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب" [٩٤] .

وعلى أثر ازدياد الأحوال سوءاً في معسكر الصليبيين أدرك الملك لويس استحالة الزحف إلى القاهرة، وأخذ يفكر في العودة إلى دمياط ليحتمي بها هو ورجاله خاصة وأنها مدينة حصينة ويمكن إمدادها بالمؤن والزاد بحراً، كما يمكن أن يستغلها في مساومة المسلمين عليها؛ لكنه مع ذلك ظل متردداً خشية أن يتعرض لكارثة حربية أثناء التراجع، وبقي على ذلك الوضع حتى أوائل شهر أبريل [٩٥] ثم أيقن أن ليس أمامه سوى الانسحاب نحو دمياط، فقرر " نقل مخيمه من موقعه.. إلى البقعة التي يعسكر فيها دوق برجنديا" أى التراجع إلى شمال بحر أشموم [٩٦] ، ولكنه أدرك أن عملية الإنسحاب في ظروف ضعف الجيش الصليبي وقلة أقواته وتعرض رجاله للامراض والحميات ليست عملية سهلة لأنه قطعاً سيتعرض لمطاردة المسلمين، التي ربما أجهزت عليه وعلى جيشه كله [٩٧] .

لذلك عمد الملك قبل التراجع إلى فتح باب المفاوضات مع المسلمين، فأرسل رسله إلى السلطان لعقد هدنة معه، على أساس الانسحاب من دمياط مقابل استرداد بيت المقدس حتى يضمن لنفسه وجيشه انسحاباً آمناً دون التعرض لكارثة جديدة، بناء على نصيحة بارونات فلسطين على أن يكون الجلاء عن دمياط مقابل نزول السلطان عن مدينة بيت المقدس وبعض المدن الساحلية الأخري في فلسطين أى علي قاعدة عروض السلطان الكامل سابقا [٩٨] .ولكن هذا العرض قوبل

---

(٩٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٥٤

(95) King : op. cit. 247

(٩٦) جوانفيل : المصدر السابق ص ١٤٢

(97) Runciman : op. cit. III, p. 269

(٩٨) زيادة : المرجع السابق ص ١٨٤ – ١٨٥

بالرفض من السلطان توارنشاه الذي حتماً أدرك سوء موقف الصليبيين ولجوئهم إلى التفاوض كسباً للوقت وتأميناً لهروبهم ناحية دمياط[٩٩]، وبدأ انسحاب الملك يوم ٢٢ مارس سنة ١٢٥٠ م (١٦ ذي الحجة سنة ٦٤٧ هـ) تحت وابل من قذائف الخيالة المصريين من الحجارة والسهام والنبال والنار الإغريقية وهجمات الفرسان[١٠٠].

ولم يكن الانسحاب سهلاً نظراً لانخفاض الروح المعنوية لدي الصليبيين وما اعتراهم من فتور في الحماس، وضآلة الطاقة الجسمانية عندهم، فضلاً عن طول المسافة من المنصورة إلى دمياط العصور الوسطي التي تبلغ في مجموعها نحو سبعين كيلومتراً كثيرة المعاثر والعراقيل المائية، وكانت الخطة تقضي أن يسير القادرون في البر بينما تحمل السفن الصليبية المرضي والجرحي في النيل يقودهم بحارة ورجال مسلحون حتى دمياط[١٠١].

وكان الصليبيون قد أقاموا على بحر أشموم - في ذروة انتصارهم السابق - جسراً قوياً ليعبره الجند لمهاجمة المنصورة عقب مقتل الأمير فخر الدين، ولكنهم في موجة ارتباكهم وترددهم بين البقاء أو التراجع نسوا ذلك الجسر[١٠٢]، فلما بدأوات يتراجعون نحو دمياط في ٥ ابريل سنة ١٢٥٠ م بحذاء الضفة الشرقية للنيل، عبره المسلمون وأخذوا في مطاردتهم يهاجمونهم من كل ناحية، حتى وصلوا إلى قرب شرمساح عند منتصف المسافة تقريباً بين المنصورة ودمياط[١٠٣]، ولكنهم استمروا

---

(99) Stevenson : op. cit. p. 328

(١٠٠) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٥٤

(١٠١) روثلان: المصدر السابق ص ١٨٨، ص ١٩١

(١٠٢) ابو المحاسن أبن تغري بردي : النجوم ج٦ ص ٣٦٤.

Runciman : op. cit. III, p. 270

(١٠٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٧٣

في التراجع، على الرغم من اشتداد المرض على الملك لويس التاسع وكثير من رجال جيشه، وسط هجمات المسلمين وتحصنهم من كل ناحية[١٠٤].

ثم استقر رأى المسلمين على شن هجوم شامل على الصليبيين جنوبي شرمساح، بعد أن زحفت القوات المصرية الأيوبية خلفهم على شكل قوس ضخم من الفرسان والخيالة والمشاة للاطباق من طرفي هذا القوس الضخم على الصليبيين المنسحبين[١٠٥]، بعد أن ساءت حالتهم كثيراً كما عبر عن ذلك روثلان: " فكان أتباعنا في حالة يرثي لها وقد خارت قواهم وضعفوا حتى اصبح كثير منهم لا يستطيع الوقوف على أقدامه" [١٠٦]، ولاشتداد المرض على الملك نفسه، حتى عجز عن القتال أو الاشراف على الجيش في الوقت الذي حاول فيه الأيوبيون الوصول إليه لأخذه أسيراً لتقرير مصير الحملة كلها، فوقف بعض فرسانه حوله لدفع هذه المحاولات[١٠٧]، فكانوا وكأنهم يدفعون ذباباً هائلاً عن شراب حلو المذاق – على حد تعبير جوانفيل– ونص عبارته " كما يدفع الخادم الأمين الذباب عن كأس شراب مولاه"[١٠٨].

ولما ازداد عجز الملك قاده نفر من رجاله ليستريح في ميت الخولي عبد الله وهي إحدي القرى الحالية قرب شرمساح حيث نزل في بيت ريفي من منازل تلك القرية ينتظر مصيره إما يشفي أو يموت بعد أن أشرف على الهلاك[١٠٩]، في الوقت الذي دارت فيه المعركة الفاصلة

---

(١٠٤) ابو المحاسن : نفس المصدر ج٦ ص ٣٦٤

(١٠٥) زيادة : حملو لويس التاسع ص ١٩٣

(١٠٦) روثلان : تتمة كتاب وليم الصوري ص ١٩٥ – ١٩٦

(107) Runciman : op. cit. III, p. 270

(١٠٨) جوانفيل : القديس لويس ص ١٤٧

(109) King : op. cit. p. 248

بـين المسـلمين والصليبيـين قـرب فارسـكور حلـت الهزيمـــة ســاحقة بالصليبيين، ووقع الجيش الصليبي كله تقريباً بين قتلي وأسـري، ثـم نادي أحد الفرنسيين يدعي مارسيل بأن الملـك أصـدر أوامـره بالتسـليم العام للقوات المصرية[١١٠] ،فبادر الباقون على قيد الحياة من الصليبيين بتسليم أنفسهم وسـلاحهم في غـير مقاومـة أو إبطـاء، ثـم بـارد بعـض الخيالة المصريين بالذهاب إلى القرية التي اختفـي فيهـا الملـك فأسـروه وأخويه وبعض كبار باروناته بعد أن "طلب الأمان فأمناه"[١١١] ،وسـيق الملك أسيراً مكبلاً بـالأغلال إلى سـفينة حملتـه في النيـل إلى المنصـورة، حيـث سـجن في دار ابـن لقمـان وعهـد إلى الطواشـي صبـح المعظمـــي بحراسته[١١٢] ،ولكنـه عومـل معاملـة كريمـة وأمـر السـلطان توارنشـاه بإكرامه وخصص له من يقوم بخدمته ورتب له ما يحتاج إليه في سجنه من مأكل ومشرب وعلاج " فكان مكرماً غاية الكرامـة " ،وإن لم يكـن ممنوناً كثيراً لذلك[١١٣] .

وبعث السلطان تورانشاه بعض الملابس العسكرية الخاصة بـالملك لويس لعرضها بدمشق على الناس من باب البشري بذلك النصر[١١٤] ، وتراءي للمعاصرين والمتأخرين من أهل الشرق الإسلامي أن الملك لويـس استأهل هذا المصير، فهو في نظرهم كان سـبباً في مـوت سـلطان عظيـم كمداً ومقتل قائد عظيم أيضاً وهو أعزل من السـلاح، وسـبباً في تحويـل جامع دمياط الكبير إلى كنيسة كتدرائية، فلما وقع لويس التاسـع علـى

(١١٠) جوانفيل : القديس لويس ص ١٤٨

(١١١) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ص ٨٧٨ – ٨٧٩ (ط حيدر أباد)

(١١٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٥٦، Stevenson : op. cit. p. 328

(١١٣) أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٣٦

(١١٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٤

هذه الصورة " كان يوماً من الأيام العظيمة المشهورة" [١١٥] .

وحاول السلطان تورانشاه أن يضغط على لويس التاسع لاسترداد ما يحتله الفرنج ببلاد الشام خاصة الداوية والاسبتارية، إلا أن الملك تعلل بأنه لا سلطان له على صليبي الشام[١١٦]، وليس بوسعه إجبار بارونات الشام ومقدمي الجماعات العسكرية فيها على تسليم شيء فضلاً عن أن السلطة العليا في المملكة الصليبية في عكا للإمبراطور فردريك الثاني الذي كان لا يزال حياً وابنه كونراد الذي وحده له الحق في التصرف فيها[١١٧]، وعندئذ اشتط السلطان في شروط الصلح وطلب أن يدفع الملك "ألف ألف بيزنط ذهبية"، وهي تعادل خمسمائة الف دينار فداء لنفسه، إلا أن الملك وافق عن دفع هذا المبلغ مقابل فداء أسراه على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك نفسه[١١٨]، فاعتبر الملك تورانشاه هذه المبالغ جزءاً من النفقات التي "تحملها هو وأبوه في الحرب"[١١٩]، ووافق لويس التاسع على ذلك وعقدت اتفاقية بينه وبين تورانشاه بهذا المضمون، على أن يستمر الصلح مدة عشر سنوات، بعد أن تعهد الطرفان بعدم الإخلال بنصوص هذه الاتفاقية[١٢٠] .

غير أن السلطان تورانشاه ما لبث أن قتل قبل تنفيذ الاتفاقية، قتله زعماء المماليك البحرية بعد أن تخوفوا من نواياه وما أحسوه من جانبه من كراهية مستغلين أنه كان " سيء التدبير والسلوك ذا هوج

---

(١١٥) أبو المحاسن : نفسه ج٦ ص ٣٧٠.
المقريزي : الخطط ج١ ص ٢٢٢ – ٢٢٣ (ط بولاق)

(١١٦) جوانفيل : المصدر السابق ص ١٥٧ – ١٥٩

(117) Runciman : op. cit. III, p. 271

(١١٨) جوانفيل : نفسه ص ١٦١

(١١٩) روثلان : المصدر السابق ص ١٩٩ – ٢٠٠

(120) Stevenson : op. cit. p. 329,
جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي ص ٨٣

وخفة" [١٢١] ،وترتب علـى مقتلـه سـقوط الدولـة الأيوبيـة وقيـام دولـة المماليك البحرية ، التي لم يكن لها فضل تخليـص مصـر مـن شـر غـزو الصليبيين ووضع نهاية لحملة لويس التاسع على مصـر فحسـب ، بـل ايضاً تطهير بلاد الشـام مـن كافـة البقايـا الصليبيـة وإعـادة البـلاد إلى أصحابها الشرعيين بعد نحو قرنين مـن الزمـان منـذ أن وطئـت أقـدام الصليبيين أرض تلك البلاد[١٢٢] .

وهكذا لعب المماليك البحريـة دوراً هامـاً منـذ معركـة المنصـورة، وبدأوا يفرضون أنفسهم على الأحداث، بل إنهم قتلوا تورانشـاه عندمـا أحسوا أنه يضمر لهم السوء، وينتظر الخـلاص مـن الصليبيـين ليتفـرغ لهم لتقليم أظافرهم ووضع حد لنفوذهم في الدولة[١٢٣] ،وبعد أن نجحـوا في القضاء عليه تعجلوا إبرام صلح جديد مع الصليبيين، فـارغموا الملـك لويس التاسع على فتح باب المفاوضات مرة ثانية ، ووافقوا على إطـلاق سراحه وأمرائه مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط وإطلاق ما في حوزتهم من أسري المسلمين، واشترطوا عليه أن يتعهد بألا يقصد سواحل البلاد الإسلامية مرة أخري[١٢٤] ،ومن جانبهم تعهد المماليك بالإطـلاق سـراح الأسري الصليبيين منذ عهد الملك العـادل الأيوبـي، أمـا أولئـك الذيـن سيقوا إلى القاهرة من أسرى هذه الحملـة فقد اتفـق علـى عـدم إطـلاق سراحهم إلا مقابل ثمانمائة ألف دينـار يدفـع نصفهـا مقدمـاً والنصـف الآخر بعد وصـول الملـك إلى عكـا ، وجـري تحديـد أمـد الصلح بعشـر

---

(١٢١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٨٨٠ (سنة ٦٤٨ هـ)

المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٥٩

(122) Grousset : o;. cit. III, pp. 758 - 60

(123) King : op. cit. p. 248

(124) Runciman : op. cit. III, p. 273

سنوات[١٢٥] .

وفي ٦ مايو سنة ١٢٥٠ م تسلم المماليك دمياط وأطلق سراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها مع المماليك، وغادر الملك فعلاً دمياط في ٨ مايو ووصل إلى عكا بعد خمسة أيام، وانتهت أحداث الحملة الصليبية السابعة على مصر[١٢٦] .

لويس التاسع في بلاد الشام :

رحب الصليبيون في بلاد الشام كثيراً بالملك لويس التاسع "وخرجوا لاستقباله فرحين أشد الفرح" [١٢٧] على الرغم من الهزيمة التي لقيها في مصر وضياع هيبة الصليبيين وفقد زهرة شبابهم سواء أولئك الذين قدموا في صحبة لويس التاسع أو الذين انضموا إليه من شباب الإمارات اللاتينية في الشام، وتأثر كثيراًمن الناس لما حل بالملك " وأحسوا بالشفقة عليه"[١٢٨] ،ويبدو أن إحساس الصليبيين في بلاد الشام بخطورة الأوضاع عقب أحداث مصر وخلو الإمارات في ذلك الوقت من شخصية يمكنها أن تسير الأمور بنجاح في تلك المرحلة الدقيقة، هو الذي دفعهم إلى استقبال لويس استقبالاً حافلاً والترحيب بإقامته بينهم، ومن ناحيته فضل الملك لويس البقاء حتى يتأكد من تنفيذ مصر لاتفاقيتها معه وإطلاق سراح كل الأسري[١٢٩] ،ورحب الصليبيون ببقائه حتى يجمع شملهم وينهي خلافاتهم، ويضع أسس

---

(125) Matthieu Paris , V. 163, جوانفيل : نفسه ص ١٧٤ - ١٧٥،
روثلان : نفسه ص ٢٠٩

(126) Stevenson : op. cit. p. 329

(١٢٧) جوانفيل : المصدر السابق ص ١٨٥

(١٢٨) روثلان : نفس المصدر السابق ص ٢١٢

(129) Runciman : op. cit. III, p. 274

السياسة في المرحلة القادمة في علاقاتهم فيما بينهم من ناحية وفي علاقاتهم بالمسلمين من ناحية أخري[١٣٠] .

وربما لهذا السبب صمم الملك على البقاء في بلاد الشام وقال إنه " لن يترك الأرض المقدسة على هذا الوضع " وقال أيضاً " إنه لا يرغب في الحياة... فقد كان سبباً في ضياع الأرض ولن يترك الأرض المقدسة وسط هذه الأخطار " [١٣١] ،ورحب لويس التاسع بالبقاء في بلاد الشام متظاهراً برغبته في تأمين وجود الصليبيين في الشام في تلك الآونة الحرجة، ولكنه في حقيقة الأمر كان يحاول القيام بعمل ما في الشرق يمحو به من أذهان معاصريه ذكريات المنصورة وهزائمها[١٣٢] ، ولا يعود إلى بلاده عقب أسره وإطلاق سراحه مباشرة محاولاً أيضاً أن يعوض بعض الخسائر التي جرتها هزيمته في مصر، من كبار اللاتين في الشرق – كما ذهب إلى ذلك أحد المؤرخين المحدثين[١٣٣] .

والواقع أن لويس التاسع قضى نحو أربع سنوات في الشام (من مايو سنة ١٢٥٠ م إلى إبريل سنة ١٢٥٤م) بذل فيها جهوداً مضنية لحفظ وحدة الصليبيين وتصفية الخلافات بين أمرائهم للدفاع عن المملكة وحفظ وحدتها كما قال هو نفسه: " وهي المملكة التي جئت لحمايتها" [١٣٤] وتأمين الوجود الصليبي نفسه في بلاد الشام، وتقوية الدفاعات الصليبية وجمع الفرنج المنقسمين في ممتلكاتهم الهزيلة، والتحالف مع الحشيشية في معاقلهم الشامية[١٣٥] ، مستفيداً مما حدث

---

(130) King : op. cit. p. 249

(١٣١) روثلان : نفسه ص ٢١١ – ٢١٢

(١٣٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٨٦

(١٣٣) عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٧٧

(١٣٤) جوانفيل : القديس لويس ص ١٩٧

(١٣٥) عزيز سوريال عطية : نفس المرجع السلبق ص ٧٨

في ذلك الوقت من خلاف بين دولة المماليك الناشئة في مصر والأيوبيين في بلاد الشام، إذ تلقى الملك أثناء إقامته في عكا " رسلاً أنفذهم سلطان دمشق شاكياً إليه مر الشكوى من امراء مصر الذين قتلوا ابن عمه "[١٣٦]، كما عمل جاهداً على فتح باب المفاوضات مع قوة جديدة بدأت تفرض نفسها على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى، وأعني بهم المغول الذين أمل فيهم الصليبيون كثيراً واعتبروهم عاملاً جديداً يمكن أن يغير الأحداث لصالحهم[١٣٧] ،بعد أن مال الميزان في صالح المسلمين في الفترة الأخيرة .

أما بالنسبة للناحية الأولى وهي تدعيم مركز الصليبيين بالشام، وتأمين وجودهم فيها، فقد وجه اهتمامه إلى تنظيم الدفاع عن الممتلكات الصليبية، فشرع في تحصين عكا غداة وصوله إليها في مايو سنة ١٢٥٠م [١٣٨] ، واهتم بتحصين حيفا وقستارية في العام التالي ثم انتقل إلى يافا، فقام بتحصينها أيضاً في عام ١٢٥٢ م ،وكانت هذه الإجراءات على درجة بالغة من الأهمية لأن معظم هذه المدن، ما لبثت أن تعرضت لهجمات الأيوبيين في بلاد الشام وكان تحصينها أمراً حيوياً دل على بعد نظر لويس التاسع[١٣٩] ،بل إن مدينة صور نفسها تعرضت للاغارة أيضاً فبذل لويس التاسع جهداً كبيراً لتحصينها هى الأخري .

ولعل هذه الهمة والنشاط، وما اتصف به لويس التاسع حينئذ من الحزم في معاملة صليبي الشام وكافة الطوائف والهيئات جعل منه الحاكم الفعلي للمملكة الصليبية، في الفترة التي قضاها بالشام أى بين

---

(١٣٦) جوانفيل : نفس المصدر ص ٢٠٠، Stevenson : op. cit. p. 330

(١٣٧) جوانفيل : القديس لويس ص ٢١٨، زيادة : المرجع السابق ص ٨٣– ٨٤

(138) King : op. cit. p. 249 - 250

(139) Grousset : op. cit. III, p. 503

سنتي ١٢٥٠ و ١٢٥٤ م، فقد مارس الملك سلطاته كاملة على كل الأمراء والهيئات[١٤٠]، وجعل من كبار الأمراء أفصالاً له واهتم كثيراً برفع روح الصليبيين المعنوية وفض ما ينشأ بينهم من منازعات، بعد أن أمست مصالحهم خليطاً من الأغراض الدينية والأطماع السياسية السافرة، مثلما أمست دماؤهم خليطاً من الصليبيين الجدد ودماء المستوطنين[١٤١].

ولقد استفاد لويس التاسع في تأدية كل هذه المهام من النزاع الذي نشب بين الأيوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر أو دولة المماليك الناشئة في مصر، فلقد أبدى الأمراء الأيوبيون استياءهم عقب مقتل تورانشاه، وقيام دولة المماليك، بل تحالفوا فيما بينهم واتفقوا على غزو مصر والقضاء على المماليك فيها وإعادة مصر إلى أصحابها الشرعيين من الأيوبيين، غير أن الهزيمة حلت بهم على يد المماليك واضطروا إلى الانسحاب إلى بلاد الشام[١٤٢]، وفي هذه الأثناء حاول لويس التاسع الاستفادة من هذا الصراع لصالح الصليبيين، لا سيما وقد خطب وده كل طرف من أطراف الصراع، بل بادر المماليك من جانبهم بإطلاق سراح من عندهم من أسري الصليبيين وتنازلوا عن بقية الفدية، حتى يضمنوا حياد لويس في ذلك النزاع، على حين حاول الأيوبيون ضمه إلى جانبهم وإقامة حلف معه ضد المماليك، وراح هو يستفيد من ذلك الوضع إلى أقصي حد[١٤٣] لكن ما لبث الأيوبيون والمماليك أن عقدوا صلحاً فيما بينهم بوساطة الخليفة العباسي الذي كان يستشعر

---

(140) King : op. cit. p. 250

(١٤١) زيادة : نفس المرجع السابق ص ٢٤٣ – ٢٤٤

Grousset : op. cit. III, p. 496

(١٤٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٧٤، Wiet : L'Egypt Arabe, p. 405

(143) Runciman :op. cit. III, p.276,Grousset:op. cit. III, p.500

الخطر الذي بات يهدد دولته من قبل المغول، وكان يعمل على تصفية الخلافات الاسلامية للتضامن للوقوف في وجه الخطر المحدق بالجميع[١٤٤]، وهكذا فوت المسلمون الفرصة على لويس التاسع للاستفادة من تلك الأوضاع المواتية بالنسبة له.

أما بالنسبة لمحاولة لويس التاسع محالفة المغول. فلقد سبق له أن دخل في مفاوضات وهو في طريقه إلى بلاد الشام في بداية حملته سنة ١٢٤٩ م مع المغول بهدف إقامة تحالف معهم موجه ضد المسلمين في منطقة الشرق الأدني، لا سيما لتطويق المسلمين من الغرب ومن الشرق[١٤٥]، وعاود لويس التاسع في سنة ١٢٥٣ م الاتصال بالمغول حينئذ لطلب التحالف ضد المسلمين، غير أن رد هؤلاء لم يأت مناسباً، لأن الخان الأعظم للمغول طلب أن يعترف لويس التاسع بالتبعية له أولاً[١٤٦]، فضلاً عن أن ذلك الرد وصل بعد أن كان لويس التاسع قد غادر بلاد الشام عائداً إلى فرنسا، وهكذا كان لويس التاسع دائب العمل للفوز بمحالفة المغول الانتقام من المسلمين وإن لم يوفق في ذلك توفيقاً كاملاً[١٤٧]، وإن كان قد ظهر للمعاصرين أن ثمة صداقة وتحالف قد ربط بين المغول وبين الصليبيين ما داموا يمثلون الأعداء الألداء للمسلمين.

نهاية الصليبيين في بلاد الشام:

برحيل الملك لويس التاسع إلى بلاده سنة ١٢٥٤ م، تكون الحملة الصليبية السابعة قد أتت إلى نهايتها، ولا شك أنها كانت

---

(١٤٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٨٥

(١٤٥) زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ٨٣ – ٨٤

(146) D' Osson : op. cit. p. 310

(147) Grousset : op. cit. III, p. 525

حملة فاشلة بكل المقاييس، لم تستطع أن تحقق ما كانت تهدف إليه، لأنها على حد قول المؤرخ الفرنسي جروسيه كانت " أول حملة استعمارية قامت بها فرنسا في الشرق "[١٤٨] كما كانت " خاتمة حربية سيئة لزحف سيء التدبير للاستيلاء على مصر" - كما أشار إلى ذلك مؤرخ محدث آخر[١٤٩] ،بل أنها تسببت في إلقاء الضوء على فرقة المماليك البحرية التي كان لها فضل شن الحرب على الفرنج وانزال الضربات القاصمة بهم وتطهير بلاد الشام كلها منهم بعد أن نجحت فرقة المماليك البحرية في القضاء على الدولة الأيوبية في مصر وأقامت دولة جديدة أخري استمرت أكثر من قرنين من الزمان[١٥٠] طردت - خلال عقود قليلة من النصف الثاني للقرن الثالث عشر بقايا الصليبيين وأعادت البلاد إلى أهلها الشرعيين .

فقد أعلن السلطان الظاهر بيبرس حرباً لا هوادة فيها ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام وأخذ ينقص الكيان الصليبي من أطرافه في سلسلة طويلة من الحروب توجها في النهاية بالاستيلاء على أنطاكية قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨ م[١٥١] ، وكانت إمارة أنطاكية ثاني إمارة أقامها الصليبيون في الشرق سنة ١٠٩٧ م ، فجاء سقوطها دليلا جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي[١٥٢] ،ثم ما لبث السلطان المنصور قلاون أن حشد جيشاً كبيراً بلغ على حد قول الروايات نحو أربعين الف

(148) Ibid. p. 428

(149) Oman : op. cit. I, p. 320, 340, زيادة : نفسه ص ٢٦١

(١٥٠) المقريزي : السلوك ج ص ٣٦١

(151) King : op. cit. p. 264, Grousset : op. cit. III, p. 642, المقريزي : نفسه ص ٥٦٨

(152) Runciman : op. cit. III, P. 326

فارس ومائة ألف من المشاة، وألقى الحصار على طرابلس في فبراير سنة ١٢٨٩ م ،ولم يفد الصليبيون ما قاموا به من استعدادات وما أبدوه من مقاومة، إذ ما لبثت المدينة العظيمة أن سقطت في أيدي قلاون في أواخر ابريل سنة ١٢٨٩ م(١٥٣) ، بل إنه خرب طرابلس القديمة ودمر أسوارها، ثم أقام طرابلس الجديدة بجوار النهر الحصين الذي عرف بحصن صنجيل، إلى الداخل قليلاً وبعيداً عن شاطىء البحر خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية لها (١٥٤) .

وتهاوت بعد ذلك مراكز ومدن إمارة طرابلس، فاستولي المماليك على بيروت وجبلة، ولم يبق للصليبيين بعد ذلك سوى مدينة عكا وبعض المدن القليلة(١٥٥) ، ولم يرد السلطان الأشرف خليل بن قلاون أن يترك مدينة عكا، بعد أن أقدم الصليبيون فيها على ارتكاب بعض الجرائم ضد المسلمين، لذلك حشد قواته وذلك عقب وفاة السلطان قلاون سنة سنة ١٢٩٠ م، فألقى الحصار عليها في إبريل سنة ١٢٩١م، وما لبث أن اقتحمها في مايو من نفس العام(١٥٦) ،بعد أن أبدى الصليبيون فيها مقاومة عنيفة. وبع أن جمعوا فيها قواتهم في بلاد الشام، فكان سقوط المدينة إيذانا بانتهاء الوجود الصليبي الفعلي في تلك البلاد(١٥٧) ، بعد نحو قرنين من الزمان اغتصبوا فيها أراض ليست لهم وأقاموا في بلاد ليست بلادهم .

---

(153) Grousset : op. cit. III, p. 742, Stevenson : op. cit. p. 350

المقريزي :السلوك ج١ ص ٧٤٧. ابو المحاسن:النجوم الزاهرة ج٧ ص٣٢١

(154) King : op. cit. p. 289

(155) Runciman : op. cit. III, pp. 407 - 8

(١٥٦) المقريزي : السلوك ج١ ص ٧٦٤ – ٧٦٥

(157) Stevenson : op. cit. p. 354

وهكذا تهاوت بعد عكا بقية المراكز والمدن الصليبية في صور وصيدا وأنطرسوس وعثليت وتكاملت بذلك على حد قول المؤرخ أبي الفدا " جميع البلاد الساحلية للاسلام "(١٥٨) انتهت دولة الصليبيين بالشام إلى غير رجعه .

(١٥٨) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر (سنة ٦٩٠ هـ)

الفصل الخامس عشر

بعض مظاهر العلاقات السلمية بين الصليبيين والمسلمين

الفصل الخامس عشر
بعض مظاهر العلاقات السلمية بين الصليبيين والمسلمين في عصر الحروب الصليبية

قد يخطيء من يعتقد أن عصر الحروب الصليبية، لم يكن سوى عصر الحروب والمعارك المستعرة بين المسلمين والصليبيين، وأنه لم يكن سوى مرحلة من مراحل الصراع العسكري والحربي بين الجانبين، ذلك لأن الحرب لم تكن سوى جانباً من جوانب العلاقات بينهما، ولم يكن القتال سوى واجهة بارزة لتلك العلاقات، بينما تضافرت عوامل مختلفة أدت إلى كثير من التفاهم بين الجانبين في فترات مختلفة إبان هذا الصراع الطويل، وعجلت بحدوث تعاون وتبادل معاملات وظهور علاقات سلمية بين الصليبيين من جهة والمسلمين وغيرهم من العناصر الشرقية من السريان والأرمن والمسيحيين الشرقيين من جهة أخري، وأصبح عصر الحروب الصليبية كتاباً مفتوحاً يسجل في صفحاته أخبار الحروب والمعارك مثلما يسطر في صفحات أخري مظاهر التفاهم والتعاون وتبادل الخبرات والمنافع والعلاقات السلمية بين الجانبين .

ويبدو أن الصليبيين أنفسهم اقتنعوا بأنه لا سبيل إلى الحفاظ على أوضاعهم وكيانهم في البقع التي اقتطعوها من الأراضي الإسلامية، دون اللجوء في كثير من الأحيان إلى التفاهم مع جيرانهم من المسلمين وتبال المنافع معهم، فقد كان الصليبيون برغم ما تمتعوا به من تأييد الغرب الأوربي وما كانوا يستقبلونه في كل عام من الحجاج والوافدين من الغرب الأوربي والمغامرين قلة بالنسبة لأعداد المسلمين حولهم[1] ، كما كانت إماراتهم تمثل نقطاً صغيرة في بحر كبير من ممتلكات

---

(١) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس ص ١١١ -١١٢ ،
سميل : الحروب الصليبية ص ٤٥ (ترجمة سامي هاشم)

المسلمين، كما تمثل أجزاء متناثرة يحيط بها وجود إسلامي متحفز مترقب للقضاء عليها، ولعل ذلك كان له ضلع فيما أبداه الصليبيون دائماً من قلق وعدم إرتياح في البقع التي أقاموها وسط هذا الكيان المعادي[٢]، برغم التدعيم الأوربي والحملات المتتابعة والأموال والمساعدات التي تدفقت عليهم من الغرب والرجال الدين يفدون في كل عام فيمثلون مدداً متواصلاً ودماء جديدة تسري في ذلك الشريان الصليبي في الشرق[٣].

ومن الثابت أن الصليبيين حملوا معهم سمات المجتمع الأوربي في رحيلهم إلى الشرق، ذلك المجتمع الذي وصفه المؤرخون والكتاب الغربيون أنفسهم وأقروا بأنه كان أقل حضارة ومدنية وأفقر تراثاً من المجتمع الشرقي الإسلامي في ذلك الوقت لا سيما في صدر العصور الوسطي[٤]، لذلك لم يكن غريباً أن تتضح الفروق بينهم وبين سكان الشرق في مختلف الجوانب الحضارية وفي المهارات والخبرة ويشعر الغزاة باتساع الهوة بينهم وبين المسلمين أصحاب البلاد الشرعيين، ويحس بذلك الوافدون الجدد من الغرب الأوربي، حينما يلمسون بأنفسهم مدى تقدم الحضارة والمدنية وعلو الخبرة بين سكان المنطقة التي غدوا عنصراً من عناصر سكانها، فليس من شك في أنهم كانوا أقل مهارة وخبرة بالفنون والعمارة والبناء لا سيما بناء الحصون والقلاع، وهى التي كانت تمثل ركناً أساسياً في نظم الدفاع في تلك المنطقة طوال العصور الوسطى[٥].

---

(2) Stevenson : op. cit. pp. 2 - 3

(3) Runciman : op. cit. III, p. 7

(4) Young, T. C : The Cultural Contribution of Islam to Chistendom

(٥) سميل : الحروب الصليبية ص ٢٢٨، ص ٢٣٥ (ترجمة سامي هاشم)

فلقد كانت القلاع والحصون تشكل عاملاً رئيسياً في خطوط الدفاع بين الجانبين بل كثيراً ما دارت الحروب بسبب تلك القلاع والحصون، التي كانت تمثل في كثير من الأحيان: إما عيناً لأى منهما على الآخر أو شوكة في ظهره تقطع عليه مواصلاته وتجزيء ممتلكاته وتضع خطوط إمداداته تحت السيطرة[٦]، ونظراً لافتقار الصليبيين إلى كثير من الخبرة في بناء نماذج معينة من هذه القلاع والحصون، مع حاجاتهم الماسة لبنائها أو ترميم ما تصدع منها أو إعادة بنائه بسبب هجمات المسلمين أو بسبب الزلازل التي كثيراً ما كانت تروع المنطقة وتهدم مدنها وحصونها، فقد لجأ الصليبيون إلى استخدام بعض المسلمين والعناصر الشرقية في بناء تلك الحصون والقلاع وصيانتها وترميم ما تصدع منها، واكتشفوا أنهم بحاجة إلى وقت قبل أن يكتسبوا الخبرة المطلوبة لإنجاز هذه النماذج وإجادة صيانتها وترميم ما تصدع منها[٧]. ولم يكن اضطرار الصليبيين للاستعانة بالمسلمين والشرقيين القاطنين في إماراتهم فحسب بل أيضاً المسلمين المقيمين في المدن والمناطق المجاورة من مواطنى الإمارات الإسلامية في بلاد الشام وأطراف العراق.

ولم يكن الصليبيون في بلاد الشام وحدهم الذين أفادوا من خبرة المسلمين في بناء هذه النماذج من القلاع والحصون، وإنما انتقلت هذه الخبرة إلى الغرب الأوربي فأفاد منها الغربيون وتأثر الفن الحربي عندهم بما نقل إليهم أو شاهدوه من نماذج معمارية زمن الحروب الصليبية خاصة في فن بناء القلاع والحصون والطرق المختلفة لبنائها[٨]، فضلاً عما عرفوه من فنون حربية في طرق الحصار واستخدام

---

(٦) سميل : نفس المرجع ص ٢١٠

(7) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 332

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٢٧٠

المنجنيق والكباش الهادمة واستعمال الدروع للفرسان وخيولهـم وارسـال الرسائل عن طريق الحمام الزاجل[٩] ،كذلك تعلم الصليبيـون في الشرق من المسلمين كثيراً من فنـون التحصين وإقامة الاستحكامات وتزويـد القلاع والحصون بكل ما يضاعف حصانتها سواء بالأسوار المزدوجـة أو المداخل المتعرجة أو غير ذلك من فنون حربية شاهدوها في بـلاد الشـام ومصر[١٠] .

وفي مجـال الصناعـة كـان الصليبيـون مضطريـن إلى الاسـتعانة بالخبرة الإسلامية في كثير من الصناعات الـتي احتـاجوا إليهـا، نظراً لأن سكان بلاد الشام اشتهروا في ذلك العصر بتميزهم وخبرتهم في كثير من الصناعات مثل صناعة الزجاج والفخار وصناعـة الصـابون وصناعـة النسيج وصباغته لا سيما الأقمشة الحريرية بالوانها وزخارفهـا الزاهيـة والأقمشة الكتانية والصوفية وصناعة البسط والستائر والحشايا والأصباغ والعقاقير الشرقية وغيرها مما كان يلقى رواجاً في كل الأسواق في الشرق وفي الغرب عل حد سواء. وكان لابد للصليبيين أن يسايروا الظروف من حولهم ويـأخذوا بأسـباب التقـدم في المجتمـع الـذي غـدوا جـزءاً منـه ويسـتفيدوا مـن مهـارات المسـلمين والعنـاصر الشـرقية في كـل هـذه المجالات[١١] .

وفي ميدان الزراعة كان الصليبيون أكـثر حاجـة لخـبرة المسـلمين والعناصر الشرقية في هذا الميدان، نظرا لأن الزراعة والمنتجات الزراعيـة من مقومات الحياة وعصب الحياة الإقتصادية وركنـاً هامـاً مـن أركـان القوة في الإمارات اللاتينية والمملكة الصليبية فضلاً عن أنها تمثل جانباً هاماً من جوانب النشاط السكاني، وإذا كان الصليبيون قد حملوا معهم

(٩) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ص ٢٢٥

(10) Lawernce : Crusader Castles , p. 34

(١١) عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١١٤

إلى الشرق النظام الإقطاعي بحـدوده وأبعـاده وهـو النظـام الـذي عرفـه الغرب الأوربي في العصور الوسطي[١٢] ، فقد أدركوا أن ذلك ليس كافياً لضمان حياة اقتصادية مرضية. وانما لابد لهم من مواءمـة أنفسـهم مـع الظروف الجديدة في الشـرق والإسـتعانة بالخـبرة الإسـلامية والشـرقية لبناء حياة اقتصادية سليمة وزراعة محاصيل المنطقة التي كـانت حتمـاً تختلف عما عرفوه في بلادهم وتحتاج لقدرات خاصـة وخـبرات معينـة لزراعتها لا سيما فواكه بلاد الشام ومحاصيله التي لم تكن معروفة لهـم مثل الأرز والسمسم والثوم والليمون والبطيخ وقصب السـكر[١٣] ،ولهـذا أظهر الصليبيون كثيراً من المرونة واللين في معاملة المسلمين الخـاضعين لهـم للاسـتمرار في زراعـة هـذه المحـاصيل واكتسـاب الخـبرة منهـم لزراعتها بل ونقلها إلى الغرب الأوربي لزراعتهـا هنـاك بعـد أن كيفـوا أنفسهم مع الأوضـاع الجديـدة والظـروف المحيطـة واسـتعانوا في ذلـك بالمهارات والخبرات الشرقية في ميدان الزراعة والإنتاج الزراعي[١٤] .

وفي مجال الطب أُعجب الصليبيون كثيراً بتقدم الطب الإسلامي، وكانوا يبعثون في طلب الأطباء المسلمين لمعالجة مرضاهم، نظراً لتخلـف الطب عندهم، من ذلك ما حكاه أسامة بن منقذ أيضاً : " إن صـاحب المنيطرة (صليبي) كتب إلى عمي (أميرشيزر) يطلب منـه إنفـاذ طبيـب يداوي مرضى أصحابه، فأرسل إليه طبيباً يقال لـه ثـابت، فمـا غـاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسـرع مـا داويـت المرضـى، قـال: أحضروا عندي فارساً قد طلع في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة، وصلحت وحميت المرأة ورطبت

---

(١٢) وليم الصوري :الحروب الصليبية ج٢ ص١٤٨، باركر:الحروب الصليبية ص٥٤، Stevenson : op. cit. p. 37

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٢٧١

(14) Rey : Les Colonies Franques, pp. 4 - 14

مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء، وقال للفارس: أيهما أحب إليك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة إقطعها. فضربه وأنا أراه ضربه واحدة ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات الرجل من ساعته"[١٥] ،وأبصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، إحلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل فراد بها النشاف فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسي وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت المرأة في وقتها فقلت لهم: بقي لكم إلى حاجة قالوا لا، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه"[١٦] .

وحكى أسامة أيضاً أن صاحب طبرية حدثه فقال " كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا قلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس قال نعم، ومشي معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي. فلما رآه قال أعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل شمع، فعمله مثل عقد الإصبع وعمل كل واحدة في جانب أنفه فمات الفارس، فقلنا له: "قد مات" قال نعم كان يتعذب فسددت أنفه حتى يموت ويستريح"[١٧] .

ولقد أدرك الصليبيون أنهم بحاجة إلى كسب الأهالي والرعايا الشرقيين الخاضعين لهم والقاطنين في إماراتهم أو قريباً منها والداخلين في مناطق نفوذهم، فمنحوا تلك العناصر الشرقية كثيراً من الإمتيازات

---

(١٥) أسامة بن منقذ : نفسه ص ١٣٣

(١٦) أسامة بن منقذ : نفسه ص ١٣٣

(١٧) أسامة بن منقذ : نفسه ص ١٣٧ – ١٣٨

الخاصة وأظهروا لهم مرونة كبيرة في التعامل، وعكست قوانينهم هذا الإهتمام فقد منحوا المسلمين والسريان والأرمن والإغريق كثيراً من الإمتيازات وسمحوا لهم في بعض المناطق بنوع من الحكم الذاتي، كما وافقوا على أن تكون لتلك الأقليات في بعض الأحيان محاكمهم الخاصة يرأسها قضاة من بينهم(١٨) ،وراعى الصليبيون أديان الأهالي فيما يتعلق بحلف اليمين في المحاكم ،فكان المسلمون يقسمون على القرآن واليهود على التوراة والسريان والأرمن والاغريق على الانجيل، وفي القضايا بين أفراد من أجناس مختلفة أو من أديان مختلفة لم يكن يدان الشخص إلا إذا شهد شهود إثبات من نفس جنسه أو دينه، وأخذوا بنظام المحاكم المختلطة والسماح لكل فئة ان تنال حقها وفقاً لقوانينها أو عاداتها أو نظمها، وحرصوا كثيرا على توخي جانب العدل في محاكماتهم تشبهاً بالجانب الإسلامي، وتحقيقاً لمستويات العدالة السائدة في المنطقة(١٩) .

وليس من شك في أن ثمة اتصالات حضارية وثقافية تمت بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية، فانسابت كثير من الكلمات العربية في اللغات الأوربية منذ ذلك العصر، وإن كانت هناك صعوبة في تحقيق نسبة هذه الألفاظ، لأن بلاد الشام لم تكن وحدها المكان الذي اتصل فيه الغرب الأوربي بالشرق الإسلامي(٢٠) ، فضلا عن أننا ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن الصليبيين جاءوا إلى الشرق في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي محاربين وغزاة لا طلاب علم وراغبي ثقافة، وأن ظروف إقامتهم في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين لم تمكنهم

---

(١٨) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١١٧

(١٩) عمر كمال توفيق : نفس المرجع ص ١١٧ - ١١٨

(٢٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٢٧٠

من الالتفات إلى هذه الجوانب الثقافية تماماً وسط محيط واسع من الأعداء يتربصون بهم الدوائر ويتحينون الفرصة للانقضاض عليهم كل ذلك لم يفسح لهم المجال للاستقرار والأمن والأمان الذي هو شرط أساسي للتوافر على طلب العلم وابتغاء الثقافة(٢١) .

هذا فضلاً عن أن الصليبيين حكموا على المسلمين من واقع معرفتهم بهم في ميادين القتال لا في ميادين العلم، وقد ثبت أن الصليبيين أعجبوا أشد الاعجاب بالمحاربين المسلمين منذ البداية وعلو كعب الفرسان منهم في القتال(٢٢) ،بعكس ما كان سائداً في خيال الأوربيين قبل ذلك من أن الترك ليسوا على شيء من الشجاعة وأنهم لايحاربون عن قرب وإنما يكتفون برمي سهامهم المسمومة دون الالتحام والتشابك في القتال، ولكن سرعان ما صححت هذه المعلومات وأقر ونوه الصليبيون وكتّابهم المعاصرون بشجاعة المسلمين في القتال حتى قال أحدهم أن المسلمين لو كانوا مسيحيين " لما وجد الانسان من هو أقوى وأشجع وأمهر منهم في القتال" وأورد مثل هذا ريموند جيل وفوشيه الشارتري ووليم الصوري وغيرهم(٢٣) ، في الوقت الذي أطري فيه المسلمون أيضاً شجاعة الصليبيين والأمثلة على ذلك كثيرة من واقع كتابات المؤرخين والكتاب المعاصرين(٢٤) .

وشيئاً فشيئاً أدي طول المقام في الشرق إلى إفقاد الصليبيين كثيراً من تعصبهم وحماستهم الدينية واندفاعهم الأهوج فيما يتعلق بالدين، وبدأ تعصبهم الديني يفتر بمضي الوقت ويحل محله نوع من

---

(٢١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٤٥٢
الحركة الصليبية ج٢ ص ١٢٦٩ – ١٢٧٢
(٢٢) ريونداجيل : تاريخ الفرنج ص ٨٧
(٢٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٣٠
(٢٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار ص ٦٧ – ٦٨

الاعتدال، والدليل على ذلك ما حدث من قيام تحالفات تضم أميراً صليبياً وآخر مسلماً ضد محور آخر يضم إمارة صليبية وأخرى إسلامية[٢٥] ،إذ لم يجد الصليبيون في ذلك غضاضة بعد أن هدأت الفورة الدينية وقل التعصب الأعمى للدين، فربطت المصالح السياسية والمكاسب الاقتصادية بين بعض الأمراء الصليبيين ونظرائهم المسلمين، فزادت معرفة كل طرف بالطرف الآخر والتقت الاهواء والمشارب وأخذت حياة الصليبيين تنسلخ رويداً رويداً عن الحياة الغربية لتقترب كثيراً من حياة المجتمع في الشرق[٢٦] .

فكثيراً ما وقع بعض الأسري الصليبيين في أيدي المسلمين فعوملوا معاملة طيبة ولقوا كل رعاية في الأسر، ومن هؤلاء بوهيموند النورماني أمير أنطاكية والملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وجوسلين دي كورتناي أمير الرها وريموند أمير طرابلس ورينو دي شاتيون (أرناط) وكثير من قادة الصليبيين وكبار رجالهم[٢٧] ،فأنسوا بالمجتمع الاسلامي وتأثروا كثيراً بما شهدوه في ذلك المجتمع وكثير منهم عرف اللغة العربية وأتقنها وتحدث بها ويؤكد أسامة بن منقذ أن صداقاته تعددت مع الفرسان الصليبيين الذين كانوا يحادثونه ويحادثهم ويعرفون لغته ويفهمون حديثه[٢٨] .

وفي الحياة الاجتماعية أعجب الصليبيون كثيراً ببعض عادات المسلمين في الشرق ونظم حياتهم في بلاد الشام، فأخذوا عنهم

---

(٢٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٢

(26) Stevenson : op. cit. p. 323

(٢٧) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١٩٥.

وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٢ ص ٣٦٤ . ص ١٩٦

ابن القلانسي : ذيل ص ٢٠٩ . ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٠٣ .ص ٣١٣

(٢٨) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٢

فكرة الحمامات العامة، والحرص على النظافة الشخصية واستعمال العطور والمرطبات وغير ذلك مما كان يتميز به المسلمون وسكان المنطقة، فحاكوهم في كثير من أساليب حياتهم[٢٩]، وفي الطبخ والطعام واستخدام التوابل وطرق الطهي وغير ذلك فقد روى أسامة بن منقذ المعاصر والمشارك في أحداث ذلك العصر أن رجلاً من رجاله مسلماً دعي إلى منزل فارس أفرنجي لتناول الطعام قال له الرجل: "فأحضر الفارس مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ورآني متوقفاً عن الأكل فقال: كل طيب النفس فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طبّاخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير"[٣٠].

هذا فضلاً عما نشأ من صداقات ومودة وألفة بين الفرسان المسلمين والصليبيين حتى بلغ الأمر حد إظهار هذه المودة والألفة خلال القتال ونشوب المعارك بين الجانبين وحين تتوقف الحرب ويهدأ القتال ينصرف كل إلى محادثة الآخر والائتناس به، فإذا عادت الاشتباكات قام كل إلى صفه ليحارب صديقه بل ويشتبك معه في القتال، وإن ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك فيه نوع من المبالغة[٣١]. على الرغم من أن أسامة بن منقذ دلل على تلك الألفة والمودة التي ربطت بين الجانبين في كثير من الأحيان خاصة في أوقات السلم بقوله: " كان في عسكر الملك فولك بن فولك فارس محتشم إفرنجي، قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي وصار ملازمي يدعوني " أخي " وبيننا المودة والمعاشرة، فلما عزم على التوجه في

---

(٢٩) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٧ (نشر فيليب متى ١٩٣٠)

(٣٠) أسامة بن منقذ : نفس المصدر ص ١٤٠

(31) LaMonte :Crusade and Jihad in the Arab Heritage, p.166, (Princeton 1944)، وسميل : الحروب الصليبية ص ٤٧

البحر إلى بلاده قال لي " يا أخي أنا سائر إلى بلادي وأريدك تنفذ معي ابنك يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل" [٣٢] ،ومع أن أسامة رفض هذا العرض واستهجنه في سره كما يحدثنا، إلا أنه يوضح إلى أى مدى بلغت الصداقة والمودة بين الرجلين.

ولم تكن الاتصالات الاجتماعية بين الجانبين قاصرة على تأثر الفرنج بالعادات والنظم الشرقية في المأكل والملبس والمشرب، والأخذ ببعض التقاليد والعادات الاسلامية خاصة في الحياة اليومية[٣٣] ،وانما تعدى ذلك إلى التزاوج بين الجانبين، فقد حرص كثير من المسلمين على الزواج من الغربيات لا سيما الأسيرات، على حين أقبلت طبقة العامة الصليبية على الزواج من الشرقيات، وأدى ذلك إلى نتائج بالغة الأهمية في المجتمعات الصليبية في النواحي العرقية والعنصرية في الإمارات والمملكة الصليبية في عصر الحروب الصليبية[٣٤] ،إذ أدت العلاقات الودية إلى اقبال كثير من الصليبيين على الزواج من الشرقيات على المستوى الشعبي، فضلاً عن أن بعض الملوك الصليبيين أنفسهم والأمراء اللاتين حرصوا على الزواج من الأميرات الشرقيات لا سيما الأرمن، كما فعل كل من بلدوين الأول وبلدوين الثاني أو من الأميرات الإغريق كما فعل كل من بلدوين الثالث وعموري الأول[٣٥] ،كما تزوج الامبراطور مانويل كومنين من أميرة فرنجية هي ماري الأنطاكية، لكن الأهم من ذلك الزيجات على المستوى الشعبي التي

---

(٣٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٢

(٣٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٤٠

(34) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 315 - 16

(٣٥) وليم الصوري : الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٢٨ ، ج٤ ص ٩٥ – ٩٦
Albert d'Aix, p. 361, Ostrogorsky : op. cit. p. 343

نتج عنها أطفال مولدون والذين أسهموا في احداث تغييرات في التركيبة السكانية في المجتمع الصليبي إلى نهاية عصر الحروب الصليبية[٣٦] .

فقد أثمرت تلك الزيجات جيلاً غلب عليه الطابع الشرقي وجيلاً أكثر قرباً من العادات الشرقية والتقاليد الشرقية، لا سيما في معاملة الزوجات والغيرة عليهن، وقدر لذلك الجيل من المولدين أن يسهم في تطوير العلاقات بين الجانبين ويعمقها. بل أن كثيراً من أولئك المولدين كانوا حلقة الاتصال بين الطرفين وقربوا المسافة بين المجتمعين الاسلامي والشرقي من ناحية والصليبي الغربي من ناحية أخري[٣٧] .

كما نزع الصليبيون في بلاد الشام وأطراف العراق إلى كثير من العادات الشرقية الاسلامية لا سيما الملبس والمظهر فارتدوا الملابس الشرقية الفضفاضة وأطلقوا لحاهم مقلدين في ذلك المسلمين وحاكوا المسلمين في مأكلهم ومشربهم فمدوا الأسمطة وأقبلوا على الأطعمة الشرقية واستخدموا البهارات والتوابل وعرفوا النبيذ الفارسي والأنواع المصنوعة في الشرق وأخذوا يقتربون رويداً رويداً من العادات الإسلامية[٣٨] ، فامتنعوا كثيراً عن أكل لحم الخنزير وشاركوا المسلمين موائدهم ولم يجد المسلمون في كثير من الأحيان غضاضة في مشاركة الفرنج موائدهم أيضاً لعلمهم أن ثمة مأكولات محرمة سوف لا يكون لها وجود بين الأطعمة الصليبية، بل شاع بين الصليبيين الأطباق الشرقية والأطعمة الشرقية[٣٩] .

كما بنى الصليبيون كنائسهم على النمط الشرقي واستخدموا في

---

(36) Grousset : op. cit. II, pp. 315 - 16

(٣٧) سميل : الحروب الصليبية ص ٥٩ – ٦٠

(38) Runciman : op. cit. II, p. 317,

عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٣٠

(٣٩) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٦ – ١٣٧

زخرفتها فنانون من المسلمين ومن البيزنطيين[٤٠] ،وبنوا منازلهم على النظام الشرقي وحرصوا على تزويدها بالمياه الجارية وإقامة النافورات فيها وعمل زجاج للنوافذ وتلوينه واستخدام الشموع المعطرة في جنباتها ومالوا إلى تقليد المسلمين في الاحتفالات العامة والولائم الكبيرة واستخدموا في ذلك المهرجين والراقصات الشرقيات، وتشبهوا بالشرقيين والمسلمين في عادات الجنائز واستخدام " الندابات" على نحو ما كان يفعله بعض المسلمين[٤١] .

وتغير كثيراً المظهر المعروف للفارس الغربي والنبيل الأوربي المحارب، ولم تعد صورته كما كانت في الغرب الأوربي، بل إن الملكية نفسها نزعت إلى تقاليد شرقية بحتة فجلس الملك متربعاً على السجاجيد مستنداً إلى الطنافس والحشايا والنمارق وعلقت الستور وفرشت البسط وخرج في المواكب الكبيرة والاحتفالات الرسمية في أبهة الملك وعظمته، وهي سمة من سمات الملكية في الشرق بفخامتها وعظمتها وتقاليدها، واتخذ الملك الفرنجي الخدم والحشم والجواري والخصيان، وعاش بين جواريه ومغانيه عيشة أقرب ما تكون إلى حياة الشرق[٤٢] .

وفي نفس الوقت ظل المجتمع الاسلامي بصفة عامة شديد التمسك بقيمه وعاداته وتقاليده كثير الحرص على مقومات حياته على الرغم من تأثره إلى حد ما ببعض المؤثرات الغربية وبعض مظاهر حياة المجتمع الأوربي التي حملها الصليبيون معهم إلى منطقة الشرق الأدنى، لكن من الثابت أن المسلمين نظروا للفرنج نظرة فيها كثير من الازدراء والاحتقار، واعتبروا حضارتهم وثقافتهم وحياتهم أقل منزلة

---

(٤٠) سميل : المرجع السابق ص ٢٢٨

(٤١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ١٣١

(٤٢) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ١٣١

وأقل شأناً من الحضارة الاسلامية[٤٣] ،ويتضح ذلك من كتابات المؤرخين المعاصرين الذين اعتبروا الصليبيين أهل كفر وإلحاد وأصحاب بداوة وتبربر، بل إن اسامة بن منقذ كرر في غير موضع في كتاب الاعتبار احتقاره لكثير من عادات الفرنج وتقاليدهم ودمغهم بالتأخر والجفاء وعاب عليهم قلة نخوتهم وغيرتهم على نسائهم، وضرب على ذلك الأمثلة[٤٤]، واحتقر طبهم وعلومهم وعدم اكتراثهم بالعلم والمعرفة.

وكان النشاط التجاري مدعاة لمزيد من الاتصال بين الجانبين، حتى في أحلك الأوقات وأشدها عداء بينهما، إذ لم تكن البقع الصليبية قادرة على اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي وسط ذلك المحيط المعادي من الإمارات والأراضي الاسلامية، فكان لابد وأن ينزع الطرفان إلى الإتصال بغرض تبادل التجارة والمنافع التجارية[٤٥] ،فعلى حين جد الصليبيون في حصار مدينة أنطاكية في بداية غزوهم لبلاد الشام، وجد التجار الشرقيون لا سيما من الأرمن الفرصة سانحة لبيع الحاصلات والسلع للصليبيين الذين كانوا فعلاً يعانون نقص المؤن والامدادات وقلة الزاد هذا على الرغم من أن التجار الشرقيين غالوا كثيراً فيما كانوا يطلبونه من أثمان، واضطر الملك بلدوين الأول إلى السماح للتجار من مختلف الأجناس بالدخول إلى المملكة لممارسة التجارة لتنشيط التبادل التجاري في المملكة من ناحية، ولتحصيل بعض المكوس على التجار من ناحية أخري[٤٦] ، وكثيراً ما عقدت اتفاقات تجارية بين المسلمين والبيزنطيين وتبودلت السلع ونشطت التجارة بين الجانبين بصرف النظر عن الحروب والمعارك المستعرة بينهما .

---

(٤٣) سميل : الحروب الصليبية ص ٥٤ – ٥٥

(٤٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٥ – ١٣٦

(45) Runciman : op. cit. II, p. 318

(٤٦) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة ص ١١١ – ١١٢

ويبدو أن الصليبيين كانوا مضطرين إلى سلوك مسلك معتدل تجاه التجار المسلمين الذين اتسعت تجارتهم كثيرا وراجت في كل المنطقة واستقبلت الموانى الساحلية سواء كانت إسلامية أو صليبية تجارتهم، في الوقت الذي اتخذ فيه بعض التجار من دمشق مركزاً لتصريف بضائعهم من الإمارات الاسلامية والصليبية على حد سواء ولهذا فقد رحب الأمراء الصليبيون باستقبال تلك المتاجر وتسهيل مرورها من الموانى إلى مختلف البقاع نظير تحصيل المكوس المتفق عليها[٤٧]، وتشير الدلائل إلى أن الصليبيين توخوا حد القصد والاعتدال في فرض الضرائب والمكوس، ولهذا استمر كبار التجار المسلمين في نشاطهم التجاري، وحصلوا على تعهدات وضمانات لمرور تجارتهم بغير أذى، وبدأت المدن والمراكز الصليبية تستقبل القوافل والبضائع الواردة، ونشطت الحركة التجارية وراجت الأحوال الاقتصادية في كثير من الأحيان[٤٨].

والمعروف أن المدن الإيطالية جنوا وبيزا والبندقية وأمالفي شاركت في الحروب الصليبية بغرض تحقيق المصالح التجارية الخاصة بها والفوز بالامتيازات والاتفاقات التجارية والأحياء التجارية في المدن الكبيرة[٤٩]، ولهذا ألقت هذه المدن بثقلها لتضمن مصالحها وتضمن استمرار الاتصال التجاري مع المسلمين، بل إن أساطيل هذه المدن كانت ترتاد الموانى والمدن الساحلية الشامية حاملة البضائع والسلع إلى الأحياء التجارية الايطالية نائية بنفسها بقدر الامكان عن الحرب والقتال إلا في حالات معينة، متبعة سياسة من شأنها الحفاظ على العلاقات مع التجار المسلمين حتى يستمروا في الاتجار معهم تنشيطاً

---

(٤٧) باركر : الحروب الصليبية ص ٦٩ – ٧١

(48) Holt : op. cit. p. 34

(49) Heyd : op. cit. I, pp. 131 - 2

للحركة التجارية في المملكة والإمارات الصليبية من ناحية وحرصاً على المكاسب المالية التي جناها الإيطاليون من التجارة من ناحية أخري[٥٠].

ربما لذلك كله وحرصاً من الصليبيين على استمرار الاتجار مع المسلمين استعمل الصليبيون المقاييس والموازين والمكاييل المستعملة في البلاد التي أقاموا فيها والتي أقرها المسلمون توحيداً لهذه المكاييل والموازين والمقاييس في المنطقة، كما اضطر الصليبيون إلى سك عملات جديدة من الذهب كيما يقبلها التجار المسلمون بدلاً من العملات الأوربية والعملات البيزنطية[٥١]، على الرغم من أن المسلمين عرفوا العملة البيزنطية منذ فترة طويلة، إلا أن الصليبيين كانوا بحاجة إلى نظام جديد يصبح رمزاً لوجودهم في بلاد الشام من ناحية ويقبل المسلمون التعامل به معهم من ناحية أخري[٥٢].

وعلى الرغم من هذه الاتصالات المباشرة بين المسلمين والصليبيين وما أسفرت عنه من تبادل للخبرات والمنافع في كثير من الجوانب وما أدت إليه من تفاهم بين الطرفين في كثير من الأحيان. فإنه لا ينبغي أن يؤخذ ذلك دليلاً على الامتزاج وإحلال روح المودة الخالصة بين الطرفين بدلاً من روح العداء والكراهية التي استحكمت فترة ليست قصيرة في بداية الحروب الصليبية، فمن الثابت أن جماعات الحجاج والوافدين الجدد الذين كانوا يتوافدون في كل سنة تقريباً على بلاد الشام تسببوا كثيراً في تعكير صفو العلاقات الودية بين الطرفين لقرب عهدهم بالبلاد ولحماستهم الصليبية المتقدة وتعصبهم الديني الأعمى[٥٣]، وتسببوا أحياناً في إشعال نار الحرب بين الجانبين

---

(٥٠) باركر : المرجع السابق ص ٦٩

(51) Hobson : op. cit. p. 39 - 40

(٥٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٥٣) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٤ – ١٣٥

باندفاعهم وقلة تبصرهم، وأجبروا الصليبيين أحياناً أخري على طرح أواصر المودة جانباً واشعال نار الحرب الدينية مع المسلمين، ولهذا فينبغي – كما يقول بعض المؤرخين المحدثين –ألا ننساق وراء من ينادي بأن عصر الحروب الصليبية كان عصر سلام ومودة تخلله حروب وقتال، وكان عصر علاقات سلمية بين المسلمين والصليبيين، ذلك لأن ما كان يحدث من سلام وما كان يجري من علاقات طيبة بين الجانبين لم يكن إلا جانباً من جوانب الصورة لهذا العصر بل إنه كان جانباً ضئيل الحجم بالنسبة للجانب الآخر الملئ بالمذابح البشرية وقتل الأبرياء وهدم بيوتهم وتخريب مدنهم وقطع أشجارهم وإحراق مزارعهم وارتكاب كل ما شأنه تعميق الكراهية والبغضاء وإن تسبب الوافدون الجدد طوال ذلك العصر في إشعال كثير من هذه الحروب واندلاع القتال ليقطعوا ما كان يحدث أحياناً من فترات السلام وما كان يجري من هدوء بين الجانبين (٥٤) .

---

(٥٤) سميل : الحروب الصليبية ص ٥٦ ،

Cahen : La Sgrie du Nord, p. 352

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على الجزري) :

– الكامل في التاريخ (ج٨ ط مصر ١٣٤٨ هـ ، ج٩ ط التجارية)

– التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (تحقيق عبد القادر طليمات)

ابن الأزرق الفارقي :

– تاريخ الفارقي (تحقيق بدوي عبد اللطيف– القاهرة ١٩٥٩ م)

ابن شداد (القاضي بهاء الدين) :

– النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق د. جمال الدين شيال)

ابن العبري (غريغوريوس الملطي) :

– تاريخ مختصر الدول (الأب أنطون صالحاني اليسوعي– لبنان ١٩٨٣)

ابن العديم الحلبي (كمال الدين عمر ابن أحمد ابن هبة ا لله بن أبي جرادة العقيلي):

– زبدة الحلب من تاريخ حلب (تحقيق سامي الدهان– بيروت ١٩٠٤م)

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :

– تاريخ ابن الفرات (تحقيق زريق ونجلاء عز الدين– بيروت ١٩٤٢م)

ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة) :

– ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدروز – بيروت ١٩٠٨)

ابن ميسر (أبو عبد ا لله محمد بن علي) :

– أخبار مصر (تحقيق هنري ماسيه– القاهرة ١٩١٩م)

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :

– مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تحقيق د. الشيال، ج٤، ج٥ تحقيق د. ربيع ومراجعة د. عاشور)

ابو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي):

– الروضتين في أخبار الدولتين جزءان (بولاق ١٢٨٨ هـ، ط أوربا)

– الذيل على الروضتين (نشر عزت العطار الحسيني– القاهرة ١٩٤٧م)

أبو صالح الأرمني (النصراني) :
– تاريخه (ط اكسفورد ١٨٩٥)
أبو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل) :
– المختصر في أخبار البشر (ط مصر ، ط أوربا)
أبو المحاسن (ابن تغري بردي) :
– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٣)
أسامة بن منقذ :
– كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتى– برنستون– الولايات المتحدة ١٩٣٠)
البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر) :
– فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١م ونشر المنجد ١٩٥٦م)
البنداري (أبو الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني) :
– مختصر تواريخ آل سلجوق (تحقيق هوتسما– ليون ١٨٨٩)
الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد ا لله) :
– العبر في خبر من غبر (تحقيق فؤاد سيد– القاهرة ١٩٦١)
سبط بن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف) :
– مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حيدر أباد– الهند ١٩٥٢)
الطبري (محمد بن جرير)
– تاريخ الرسل والملوك (ط القاهرة ١٩٠٧، ط دي سلان. ط استانبول)
العماد الكاتب (عماد الدين محمد الأصفهاني) :
– تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٣١٨ هـ)
مجموعة الوثائق الفاطمية (تحقيق ونشر جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٥٨)
المسعودي (أبو المحاسن على بن الحسين بن علي):
– مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط بولاق – و ط بيروت ١٩٦٦)
المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) :
– السلوك لمعرفة دول الملوك (نشر زيادة)
– اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا (نشر الشيال ١٩٤٨)
– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ط بولاق ١٢٩٠ هـ)

يحي بن سعيد الأنطاكي :
– التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (ط بيروت ١٩٠٩)
اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) :
– تاريخ اليعقوبي (تحقيق هوتسما – ليدن ١٨٨٣ جزءان)

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (ترجمة د. حسن حبشي)
جوانفيل (جان دي جوانفيل) :
– القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام (ترجمة د. حسن حبشي)
روبرت كلاري :
– فتح القسطنطينية على يد الصليبيين (ترجمة د. حسن حبشي ١٩٦٤)
روثلان :
– تتمة كتاب وليم الصوري (المنسوب إلى روثلان) ترجمة وتعليق د. أسامة زكي زيد ١٩٨٩
ريموندا جيل :
– تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس (ترجمة د. حسن عطية ١٩٩٠)
فوشيه دي شارتر (فوشيه الشارتري) :
– تاريخ الحملة إلى القدس (ترجمة د. زيادة العسلي)
وليم الصوري :
– الحروب الصليبية ٤ ج (ترجمة د. حسن حبشي ١٩٩١ – ١٩٩٤)

أبراهيم أحمد العدوي (دكتور) :
– الأمويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٥٣)
– الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم (ط ١٩٥٨)
اسحق عبيد (دكتور) :
– روما وبيزنطة من قطيعة فوتيوس حتى الغزو اللاتيني للقسطنطينية.
إسمت محمود غنيم (دكتورة) :
– الحملة الصليبية الرابعة ومسؤلية إنحرافها ضد القسطنطينية (١٩٨٢)
– الامبراطورية البيزنطينية وكريت الإسلامية (الاسكندرية ١٩٨٦)
– تاريخ الحروب الصليبية (الاسكندرية ١٩٩٦)

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):
- دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي(١٩٨٣)
- الاسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطي(١٩٨٦)
- العدوان الصليبي على بلاد الشام وهزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة (١٩٧١)

حسن حبشي (دكتور) :
- الحرب الصليبية الأولى (ط ١٩٥٨)
- نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨)

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
- الحركة الصليبية جزءان (ط ١٩٦٣)
- أوربا العصور الوسطي جزءان (١٩٦٦)
- قبرس والحروب الصليبية (١٩٥٧)

سيد أحمد الناصري (دكتور) :
- الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالشرق العربي (القاهرة ١٩٩٣)

السيد الباز العريني (دكتور):
- الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج١ (القاهرة ١٩٦٣)
- تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٥)
- تاريخ أوربا في العصور الوسطي (بيروت ١٩٦٨)

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (بيروت ١٩٦٢)

عبد المنعم ماجد (دكتور) :
- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي (بيروت ١٩٦٦)

على ابراهيم حسن (دكتور) :
- تاريخ المماليك البحرية

عمر كمال توفيق (دكتور) :
- مقدمات العدوان الصليبي على الشرق (الاسكندرية ١٩٦٦)
- مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية ١٩٥٨)

قاسم عبده قاسم (دكتور) :

- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية

محمد محمد الشيخ (دكتور) :

- تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الطبعة الثانية ١٩٩٦)
- الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الطبعة الثانية ١٩٩٠)
- الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين (الاسكندرية ١٩٨٠)
- النظم والحضارة الاوروبية في العصور الوسطي (الاسكندرية ١٩٩٦)
- تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى نهاية عهد الدولة الفاطمية (الاسكندرية ١٩٩٣)

محمد المطوي :

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب

محمد مصطفي زيادة (دكتور) :

- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة (القاهرة ١٩٦١)

ارنست باركر :

- الحروب الصليبية (ترجمة د. السيد الباز العريني)

أنتوني بردج :

- تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة أحمد غسان ونبيل الجيرودي)

ترتون :

- أهل الذمة في الإسلام (ترجمة وتعليق د. حسن حبشي ١٩٦٧)

ديفيز :

- أوربا في العصور الوسطي (ترجمة د. عبد الحميد حمدي - الاسكندرية ١٩٥٨)

سميل (ر . س) :

- الحروب الصليبية (ترجمة سامي هاشم - بيروت ١٩٨٢)

عزيز سوريال عطية (دكتور) :

- العلاقات بين الشرق والغرب (ترجمة فيليب صابر ومراجعة أحمد خاكي)

فشر :

– تاريخ أوربا في العصور الوسطي (ترجمة زيادة والعريني والعدوي)

كانتور (نومان) :

– التاريخ الوسيط جزءان (ترجمة د. قاسم عبده قاسم)

كوبلاند وقينوجرادوف :

– الاقطاع والعصور الوسطي بغرب أوربا (ترجمة زيادة القاهرة ١٩٥٨)

كولتون (ج..ج) :

– عالم العصور الوسطي في النظم والحضارة (ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف – الاسكندرية ١٩٨٣)

موس (هـ) :

– ميلاد العصور الوسطي (ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة العريني – القاهرة ١٩٦٧)

هلستر :

– أوربا في العصور الوسطي (ترجمة د. محمد فتحي الشاعر)

ثانياً : المصادر والمراجع الأجنبية :

Ambroise :

- The Crusade of Richard Loin- heart, trancl. from the Old Frensh by Hubert (N. Y 1940)

Anna Comnena :

- The Alexiad , transl. by Sewter (England 1969)

Clari (R.) :

- La Conqueste de Constantinpole, Editee par Lauer (Paris 1924)

وترجمة الدكتور/ حسن حبشي بعنوان : فتح القسطنطينية علي يد الصليبيين– القاهرة ١٩٦٤

Gesta Francorum :
- Translated into English by Somerset de Chair (England 1945).

وترجم أيضاً على يد د. حسن حبشي بعنوان: اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس

Guibert de Nogent :
- Histoire de Croisades, 2 Vols. (Paris 1825 - 1826)

Michel le Syrien :
- Chronique (ed.) Chapot (Paris 1905)

Niketas Choniates :
- The City of Byzantium, transl. by Harry J. Magonbas .

Villehardouin :
- La Conquest de Constantinpole par les Baron Francais, transl. by Marzials (London 1965)

Archer (T. A), Kingsford (C.) :
- The Crusades, The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem (London 1919)

Arnold (T. W.) :
- The Crusades Idea and Reality 1095 - 1274

Atiya (A. S.) :
- The Crusades in the Later Middle Ages (London 1938)

Baldwin (M. W.) :
- Medieval Church (N. Y. 1960)

Barker (E.) :
- The Crusades . (London 1925)

Baynes (N. H.) :
- The Byzantine Empire. (London 1926)

Block :
- Feudal Society, transl. from the Frensh by A. Manyon, (London 1961)

Brehier (L.) :
- L'Eglise et L'Orient au Moyen age Les Croisades (Paris 1928)
- Vie et Mort de Byzance (Pris 1947)
- Histoire de le premiere Croisade, 1905

Brook (E.) :
- A History of Europe 911 - 1198 (London 1928)

Browne (E. G.) :
- Account of a rare if not unique manuscript History of the Seljuqs, J. R. A. S. July 1902

Bryce (W. C.) :
- The Holy Roman Empire (London 1904)

Bury (J. B.) :
- A History of the Later Roman Empire 2 Vols. (London 1923)
- A History of the eastern Roman Empire (London 1912)

Burckhardt (J.) :
- The Age of Constantine the Great, transl. by Hadas (London 1964)

Butler (A.) :
- The Arab Conquet of Egypt (Oxford 1902)

Cahen (C.) :
- La Syrie du Nord a l'epoque des Croisades (Paris 1940)

Calmette :
- Le Monde Feodal (Paris 1937)

Cambridge Medieval History 8 Vols.(Cambridge 1924)

Canard (M.) :
- Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie (Paris 1953)

Cantor (N. F.) :
- Medieval History (N. Y. 1964)

Chalandon (F.) :
- Histoire de la premiere Croisade jusqu a l'election de Godefroi de Bouillon (Paris 1925) l'Empire Byzantin au XIe et aux XIIe Siecle 2 vols. (Paris 1900- 12)
Conder (C. R.) :
- The Latin Kingdom of Jeruealem 1099-1291 (London 1897)
Coulton (g.g.) :
- Medieval Village, Manor and Monastery (N. Y. 1960)
- Medieval Panorama (N. Y. 1955)
Crump (C.Y.) , Jacob (E. F.) :
- (ed.) The Legacy of the Middle Ages (oxford 1962)
Davis (E. J.) :
- The Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A. H. 647) by Louis Ix of France, (London 1897)
Diehl :
- L'Egypte Byzantin .
- L'Europe Orientale.
D'Ohosson (C.) :
- Histoire des Mongols, depuis Tchinquiz Khan jusqu, a Timur Bec, 4 Vols. (Amsterdam 1834-53)
Encyc. of Islam (English Vols.)
Eyer (E.) :
- European Cirilization Vol. 3 the Middle ages (London 1935)
Fliche (A.) :
- L'Europe Occidentale du 888 a 1125 (Paris 1930)
Gibb :
- The Rise of Saladin 1169 - 1189 (Pensy 1955)
Grousset (R.) :
- Histoire de Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem , 3 Vols. (Paris 1943-6)
- L' Epopee de Croisades (Paris 1939)

- L' Empire du Levant (Paris 1946)
- Histoire de L'Armenie des Origines a 1071(Paris 1947)

Hageamayer :
- Le Vrai et le faux sur Pirre L'hermite transl. by Fury Raynaud (Paris 1883)

Haskins (C. H.) :
- The Normans in Europran History (N. Y. 1959)

Hearder, Waley :
- A Short Hist of Italy .

Heer (F.) :
- The Medieval world, Europe from 1100 to 1350 (transl. from the German by J. Sondheimer)

Heyd (W.) :
- Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age 2, vols. (Leipzig 1885, Reprint 1923)

Hobson (B.) :
- Coins and Coin Collecting (N. Y. 1965)

Holt :
- The Age of the Crusades

Huizinga (J.) :
- The waning of the Middle Age , (transl. by F. Hopman)

Hussey (J. M.) :
- The Byzantine world (London 1969)

Iorga (N.) :
- Breve Histoire des Croisades et de leurs fondations en Terre Saint (Paris 1924)

James :
- History of Chivalry (London 1830)

Julien (Charles) :
- Histoir de L'Afrique du Nord (Paris 1952)

Keen (M.) :
- A History of Medieval Europe (London 1967)

King (E. J.) :
- The Knights Hospitallers in the Holy Land (London 1931)

Krey :
-The First Crusade, the Account of Eyewitness and Participants reprinted (Gloucester 1958)

LaMoute (S.L.) :
- The world of the middle Ages (N. Y. 1949)
- Feudal monarchy in the Latin kingdom of jerusalem 1100-1291 (Cambridge 1932)
- Crusade and jihad in the Arab Heratage (Princeton 1944)

Lamb (H.) :
- The Crusades, the flame of Islam (London 1930)

Lane- poole : (St.) :
- A History of Egypt in the middle Ages (London 1936)
- Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem (London 1898)

Lemerle (p.) :
- Histoire des Byzace (Paris 1975)

Lewis (B.) :
- The Arabs in History (London 1966)

Lewis (A. R.) :
- Naval Power and trade in the Mediterranean A. D. 500-1100 (Princeton 1954)

Le Strange :
- Palestine under the Muslems (London 1890)
- The lands of the eastern Caliphate (Cambridge 1930)

Longnon :
- Les Francais d'Outremer an Moyen Age (Paris 1929)

Lurent (J.) :
- Byzance et les Turcs Seldjouks jusqu'en 1081 .

Maclagan (M.) :
- The city of Constantinople (N. Y. 1968)
Michaud (J. F.) :
- Histoire des Croisades 5 vols. (Paris 1817-22)
Michel le Syrien :
- Chronique (ed.) Chapot .
Oman (Sir Charles) :
- The Dark Ages 476-918 (London 1962)
Ostrogorsky (g.) :
- History of Byzantine State (Oxford 1956)
Pirenne (H.) :
- Medieval cities transl. Halsey (Princ 1934)
- Economic and Social History of Medieval Eerope (London 1947)
- Mohammed and Charlemane (London 1968)
Raint :
- Inventaire critique des Lettres Historiques des Croisades (Paris 1881)
Rice (C. T.) :
- The Byzantines (London 1962)
Riley- Smith :
- (ed) The Crusades .
Rousset (P.) :
- Les Origines et les Caracteres de la premiere Croisade. (Neuchatel 1945)
Rowling (M.) :
- Everyday life in Medieral times (London 1973)
Runciman (S.) :
- A History of the Crusades (Cambridge 1954)
- Byzantine civilization (London 1948)
Rey (E.) :
- Les Colonies Franques de Syrie aux xlle et xllle siecles (Paris 1883)

Schlumberger (G.) :
- L'Epopee Byzantin a la fin du Dixieme siecle (Paris 1896)
- Un Empereur Byzantin au xeme Siecle Nicephore Phocas (Paris 1890)

Seillmayer (M.) :
- Currents of Medieval Thought, trannsl. by Barker (Oxford 1960)

Setton (K.M.) :
- A History of the Crusades 2 vols. (Pennsy lvania 1958)

Stevenson (W. B.) :
- The Crusades in the East, (Beirat 1968)

Thompson (J.W.) :
- Economic and Social History of the middle Ages 300-1500 (N.Y. 1923).

Tout (T.) :
- The Empire and the papcy , European History 918-1273 (London 1909)

Vasiliev (A.A.) :
- History of the Byzantine Empire 2 Vols. (W. P. 1973)

Wiet (W.) :
- L'Egypte Arabe, Histoire de la Nation Egyptienne iv (Paris 1937)

Williamson :
- From Feudalism to Despotism (London 1925)

الفهرس

الفصل الرابع عشر :

الفصل الخامس عشر :

رقم الإيداع
٩٨ / ١١٧٦٨